المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة



الحياة اليومية في مصر

في عهد الرعامسة

تأليف

بيير مونتيه



ترجمة

عزيز مرقس منصور

مراجعة

عبد الحميد الدواخلي

الحياة اليومية في مصر

في عهد الرعامسة

من القرن الثالث عشر إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد

تأليف

بيير مونتيه

ترجمة

عزيز مرقس منصور

مراجعة

عبد الحميد الدواخلي

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر

الدار المصرية للتأليف والترجمة

هذه ترجمة إلى اللغة العربية لكتاب :

VIE QUOTIDIENNE EN EGYPTE

AU TEMPS DES RAMSES

(X III – X II Siecles

AVANT J. C.)

PAR

PIERRE MONTET

Traduction Par :

AZIZ MORCOS MANSOUR.

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة المترجم

الأستاذ بيير مونتيه مؤلف هذا الكتاب غنى عن التعريف ، فهو بين علماء الآثار المصرية فى مقدمة الصف وعميدهم دون منازع . ألف الكثير من الكتب فى علوم الآثار المصرية تعتبر مراجع هامة لا للقارىء العادى الذى يصبو إلى المعرفة والاطلاع فحسب ولكن للعالم المتخصص الراغب فى الاستزادة من العلم والتعمق فيه ، وكشف — منذ ربع قرن مضى — مقبرة الملك بسوسنس شرق الدلتا وهو عمل يلى فى الأهمية كشف مقبرة الملك توت عنخ آمون .

وفى كتابه هذا قدم لنا المؤلف صوراً واضحة عن دقائق الحياة اليومية فى فترة من تاريخ مصر عندما تولى عرشها ملوك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم « رمسيس » خلال القرنين الثالث عشر والثانى عشر قبل الميلاد .

وقد أبدع المؤلف فى إيراد الحقائق وتصويرها بقلمه فى صدق وأمانة وفى نزاهة العالم الباحث المدقق مستنداً إلى ما دون فى أوراق البردى أو سجل على جدران المعابد والآثار أو ما كشف عنه العلم والحفريات الحديثة .

وعندما اعترضتنى صعوبة اختلاف النطق بالأسماء المصرية القديمة أضفت كتابتها بالحروف اللاتينية لضبط النطق بها ، وكذلك مع أسماء المؤلفين الأجانب .

وقد التزمت النص الفرنسي للكتاب في الترجمة ، ولكن لتوضيح بعض النقاط أضفت بعض التعليقات في الهامش .

ولا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر لكل من كان له فضل المعاونة . وللاستاذ صبري سبيع الذي عهدت إليه بمراجعة الترجمة وقام بها مشكوراً .

وأخيراً أسأل الله التوفيق في خدمة العلم ؟

المعادي في ١٤ يونيه ١٩٦٥

عزيز مرقس منصور
مفتش بمنطقة جنوب القاهرة التعليمية

مقدمة

كان اهتمام قدماء المصريين بالآلهة والموتى يفوق إلى حد بعيد ، اهتمامهم بأنفسهم . فكانوا إذا شرعوا فى تشييد قصر لملايين السنين أو أرادوا بناء مسكن أبدى فى غرب طيبه جلبوا لها الأحجار والمعادن والأخشاب الجيدة ، مهما بعدت أماكنها أو ارتفعت أثمانها ، كيلا تضارعها مبان أخرى فى جمالها ومتانتها .

ومع هذا فإن منازلهم التى يعيشون فيها كانت تبنى باللبن ، وكانوا يقلدون بالرسم الأحجار والمعادن . ولذلك بقيت المعابد والمقابر مددا أطول من المدن حتى أن مجموعات المتاحف تضم من التوابيت واللوحات وتماثيل الملوك والآلهة ، أكثر من الأدوات المخصصة لسد حاجات الأحياء ، ونصوص المراسيم الدينية وكتب الموتى فهى بدورها تفوق المذكرات والقصص من حيث الكم .

هل نستطيع فى هذه الظروف أن نحاول وصف الحياة اليومية لرعايا فرعون دون أن نضطر إلى الاكتفاء بالملاحظات السطحية[1] والأحكام الطائشة التى دونها الرحالة الأغريق والرومان ؟ يميل المحدثون إلى الاعتقاد بأن المصريين القدماء كانوا يولدون فى لفائف جنائزية ، فقد كتب جاستون ماسبرو ، عندما ترجم الأغانى الغرامية الأولى ، أنه لا يمكن تصور أحد المصريين القدماء يقوم بدور عاشق ، جاثيا أمام محبوبته . والواقع أن سعادة الحياة على ضفاف النيل جعلت قلوب المصريين تفيض اعترافا بجميل الآلهة،

سادة كل المخلوقات . وقد دفعهم هذا السبب نفسه إلى الإمعان فى الاستمتاع بأطايب الحياة ، حتى وهم فى القبور .

وقد اعتقدوا أنهم حققوا هذه الغاية عندما غطوا جدران مقابرهم بالنقوش الغائرة والرسوم الملونة التى تمثل الشخص الراقد داخل التابوت يعيش فى أرضه تصحبه زوجته وأولاده وأقاربه وخدمه ولفيف من الصناع والفلاحين . إنه يجوب أرضه سائرا على قدميه أو محمولا على محفة أو جالسا فى قارب ، ويمكنه أن يكتفى بالاستمتاع بالمنظر وهو جالس فى مقعد مريح بينما يتحرك كل شىء أمام عينيه . وقد يساهم فى العمل فيركب زورقا ويصيد بالعصى العصافير وهى فى أعشاشها بين الأغصان الملتفة لنبات البردى أو يصيد بالحراب الأسماك الضخمة التى تبلغ حجم الإنسان أو يتربص للبط البرى ويشير للصائدين ويضرب بسهامه الماعز البرى والغزلان .

ويحرص جميع خلصائه على حضور زينته فيقوم بعضهم بتقليم أظافر يديه ورجليه ، بينما يقدم له أحد النظار تقريرا عن سير الأعمال ويلقى بعض الحراس تحت أقدامه فى كثير من العنف بعض الخدم غير الأمناء . والموسيقيون والراقصات على أهبة الاستعداد دائما لتشنيف أذنيه وإبهاج عينيه . وفى ساعات القيظ خلال النهار يشارك زوجته ألعابا لا تختلف كثيرا عن لعبتى الشطرنج والسيجة المعروفتين لدينا .

ولكى يشبع الفنان رغبات عميله كان عليه ألا ينسى أية حرفة من الحرف ، فالسكان الذين يعيشون على شواطىء البحيرات كانوا يمارسون صيد الطيور والأسماك ويتخذون من نبات البردى المادة الأساسية لا لصناعة الأكواخ وحدها ولكن لعمل القوارب الخفيفة التى تصلح لمطاردة التمساح وفرس النهر خلال الأعشاب المائية ، وأحيانا للوصول إلى الغابات الكثيفة

حيث تتجمع الطيور أو لاكتشاف مواطن تجمع الاسماك . وكان الصيادون قبل قيامهم برحلة الصيد يجربون قواربهم مما كان يتيح لهم اختبار قوتهم ومهارتهم وكانوا يضعون تيجانا من الأزهار فوق رءوسهم ويتسلحون بعصى طويلة ويتدافعون فى الماء ويتبادلون الشتائم . وعند عودتهم متصالحين إلى القرية يتولون عمل شباكهم وآلاتهم وإصلاحها ويقومون بحفظ الأسماك وتربية الدواجن . وكان الفلاح يحرث الأرض ويبذر الحب ويقتلع الكتان ثم يحصد القمح ويربطه حزما ثم تحمله الحمير إلى القرية وهناك يفرش لتطأه الثيران والحمير وحتى الأغنام إذا لزم الأمر ، ليفصل الحب عن القش . وبينما يقوم البعض بجمع القش يكيل الآخرون الحبوب ويحملونها إلى المخازن . وعقب الانتهاء من هذه الأعمال يكون العنب قد نضج وحان الوقت لقطفه وعصره وتعبئته فى زلع محكمة الإغلاق . وعلى مدار السنة يقوم الطحانون بطحن الغلال وتسلم الدقيق إلى صانعى الجعة والخبازين . أما المواد التى يستعملها الصناع عادة فهى الغرين والحجر والخشب والمعادن ، ونظراً لندرة الأخشاب فإن الأدوات التى يحتاجها الزراع والكرامون وصانعو الخمر والخبازون والطهاة ، كانت تصنع من الفخار أما الأوانى الجميلة فكانت من الأحجار وخاصة الجرانيت والشيست والمرمر والحجر السماقى . وكانت الكئوس الصغيرة تصنع من البللور .

وكان المصريون يحبون الحلى فكانت مصانع الصاغة تخرج منها العقود والأساور والخواتم والتيجان وقلائد الصفا والتمائم . وكانت هذه الأشياء الصغيرة الجميلة توضع فى خزائن ولكن فتيات الدار كن يخرجنها من مخابئها لكى يتزين بها لحظات . أما النحاتون فكانوا يقومون بنحت صورة لرب الدار جالسا أو واقفا وحده أو محاطا بأفراد عائلته ، سواء كانت هذه الصورة

منحوتة فى المرمر أو الجرانيت أو خشب الأبنوس أو خشب شجر الطلح . كان النجارون يصنعون الصوانات والخزائن والأسرة والعصى والمقاعد ذات المتكئات .

وأخيراً كان النجارون يقطعون الأشجار ويشذبونها ويبنون المراكب والصنادل والسفن التى كانت تستخدم كوسيلة للنقل بين أرجاء البلاد وتركيز المحاصيل الزراعية أو توصيل الحجاج إلى أبيدوس (العرابة المدفونة) وإلى مدينتى بيه أو دب . وكما قال الرجل الذى نجا من الغرق بعد أن أتى به فى جزيرة الثعبان الطيب بأنه لا يوجد شىء إلا وهو موجود فى هذه الجزيرة . ولا ينقص الصورة إلا كل ما يشير إلى النشاط الخاص بصاحب المقبرة أثناء حياته . وتتكرر المناظر نفسها التى تسجل أعمال صاحب المقبرة سواء كان من رجال الجيش أو من رجال البلاط وسواء كان حلاقاً أو طبيباً أو مهندساً أو وزيراً . والنصوص المدونة الهيروغليفية التى تحيط برسوم الأشخاص أو تشغل فراغ المبانى تتناول وصف المناظر بنفس العبارات والنعوت ولا غرو فقد كان مصدر النصوص والصور واحداً .

وقد كانت هناك أنماط من الرسوم فى متناول أيدى الفنانين المكلفين بزخرفة المقابر . وقد كان كل فنان يقتبس ما يروق له ويضعه كيفما يريد .

ويظهر أنه بدىء بتكوين هذه الأنماط وتنسيقها من أول عهد الأسرة الرابعة ثم ازداد خلال الدولة القديمة بفضل الفنانين الذين كان لا ينقصهم الخيال ولا تفوتهم الدعابة ومثال ذلك صورة عابر سبيل ينتهز فرصة غياب الراعى فيحلب بقرته ، أو صورة قرد خفيف الحركة يقبض على خادم امتدت يده إلى سلة مملوءة بالتين أو صورة أنثى فرس البحر وهى على وشك الولادة ، بينما يترقب تمساح ، المولود الصغير ليلتهمه دفعة واحدة أو صورة

طفل صغير يقدم لأبيه قطعة من الحبل فى طول اليد ليربط بها زورقا . ويمكن أن نضيف الكثير من الأمثلة إلى ما سبق(٢) .

ولم يغب عن بال الرسامين أن هدفهم الأساسى هو تدوين الأعمال اليومية فى المزارع الكبرى ، كذلك لم يهمل الفنانون مطلقا معين هذه الصورة المعبرة فزينوا بها جدران مقابر الدولة الوسطى فى بنى حسن ومير والبرشا وطيبه وأسوان . وقد استمر استعمالها لعدة قرون عندما نقل الفراعنة مقر حكمهم إلى مدينة طيبه . وقد لجأ الفنانون فى أول عهد البطالمة إلى استعمال هذه النماذج فى زخرفة الأثر الرائع الذى بنى على هيئة معبد ودفن فيه پت أوزيريس أحد نبلاء المدينة العتيقة التى كانت معبوداتها الآلهة الثمانية والذى كان رئيسا لكهنة هرموپوليس* وكاهنا للمعبود تحوت والمعبودات الأخرى .

على أننا نحيد عن الصواب إذا اعتقدنا أن هذه المقابر ذات الرسوم المتكررة قد بلغت مدى الاتقان والكمال الذى وصلت إليه فى عهد الأهرام الكبرى . ففى بنى حسن احتلت الألعاب والمصارعات والمعارك والصحراء مكانا أكبر من ذى قبل . كذلك نرى مناظر جنود المقاطعات وهى تتدرب وتحاصر القلاع . لقد خطا الفن خطوته الأولى . فقد أضيف الآن إلى مجموعة المناظر القديمة تمثيل الأحداث التى كان لها أثر فى مهنة الشخص : فهؤلاء بدو جاءوا من بلاد العرب وتقدموا إلى حاكم مقاطعة «الماعز البرى» ليقايضوا مسحوقا أخضر بحبوب ، وليثبتوا حسن نيتهم أهدوا له غزالا ووعلا اصطادوهما فى الصحراء . ونجد هذه الرسوم فى مقبرة خنوم حتب

---

* الاشمونين

بين المناظر التى تمثل الصيد ومرور قطعان الماشية[٣] . أما محافظ مقاطعة « الأرنب » فانه لم يستقبل أحدا قادما من بعيد . ولكنه أوصى النحاتين الذين كانت مقار أعمالهم قريبة من محاجر الرخام فى حاتنوب ، وهو غير بعيد عن مقر إقامته، أن يصنعوا له تمثالا طوله ثلاث عشرة ذراعا . ولما انتهوا من عمل التمثال وأخرجوه من المشغل وضعوه فوق زحافة أخذ يجرها مئات من الرجال من مختلف الأعمار انتظموا فى أربعة صفوف وساروا ببطء إلى المعبد فى طريق ضيق ممتلىء بالأحجار والحصى . وكان المتفرجون المتراصون فى صفين على جانبى الطريق يتصايحون ويصفقون إعجابا كلما تقدم إلى الأمام [٤] . والواقع أننا نشاهد فى مقابر الدولة القديمة رسوما تمثل نقل التماثيل بحجمها الطبيعى وهى تنقل إلى المقابر . ولم يكن هناك ضرورة لتجنيد كل أشداء المقاطعة ، إذ كانت هذه إحدى المراسيم الجنائزية العادية . ولكن جحوتى حتب قد آثر أن يثير دهشة زائرى مقبرته ويبين مدى ثرائه وحظوته فى قصر الملك بعمل يعد شاذا للغاية .

وفى عهد الامبراطورية الحديثة كانت الموضوعات التى تزين مقابر الخاصة تتكون من ثلاث مجموعات كبيرة : فنجد أولا الرسوم المأخوذة من المجموعة القديمة بعد أن نسقت طبقا للذوق الحديث الذى تغير تغيرا ملحوظا خلال ألف عام . ثم تأتى المجموعة الثانية وتمثل المناظر التاريخية مثل رخ مارع الوزير ومن خبر رع النبى الأول لآمون* ومثل هوى الابن الملكى** لكوش ، وقد كان لهم دور فى الأحداث الكبيرة وقد رسموا وهم

---

* معناها رئيس كهنة آمون .

** الابن الملكى تعبير يعنى الحاكم .

يقدمون إلى جلالة الملك شخصيات أجنبية كبيرة من كريت وسوريا وبلاد النوبه أتوا ليكونوا فى « حمى فرعون » أو يلتمسوا منه نسمة الحياة . وقد وردت الرسوم تمثلهم وقد جبوا الضرائب وأقاموا العدالة وراقبوا الأعمال ودربوا المجندين حديثا . وفيما مضى كان تاريخ حياة صاحب المقبرة يقص علينا بحفره على جدران المقبرة أما الآن فقد أصبحت الأحداث ترسم بالصور . وأخيرا فإن التعبد للآلهة الذى لم يكن حتى ذاك الوقت موضوعاً للرسوم أصبح مصدر وحى لكثير من اللوحات . وخصص لرسوم الحفلات الجنائزية مساحة أوسع من ذى قبل ، إذ أصبحنا نرى كل الخطوات من صنع أثاث جنائزى يمكن أن يملأ مخزنا كبيرا وإعداد موكب الجنازة وعبور نهر النيـــل ومواراة الميت القبر وعويل الندابات ثم الوداع الأخير .

إن المعابد ليست سوى كتاب كبير من الحجر استخدم الحفار كل أسطحه أما البواكى والأعمدة وقواعدها وجوانب الأبواب فقد حليت برسوم الأشخاص والكتابات الهيروغليفية وكذلك الجدران الداخلية والخارجية . أما فى المعابد الأكثر كمالا والتى ترجع إلى العهد المتأخر فقد كانت رسومها ونقوشها مقصورة على الطقوس الدينية وحدها . وفى العهود الأقدم زمناً فان كان المعبد بيتا للآلهة فهو أيضا أثر مشيد لتمجيد الملك . وكان فرعون ابن الإله ولذا فقد كان كل ما يفعله يتحقق بإذن الإله وغالبا يتم بمعاونته ، وعلى هذا فالإشادة بالأعمال العظيمة لعهد من العهود تعد وسيلة لتمجيد الآلهة . ولذلك نرى المناظر المقتبسة من حياة الملك قد اختلطت بالمناظر الدينية . وقد اهتموا خاصة بالتذكير بكل ما قام به الملك فى سبيل تجميل الهيكل وإرضاء الآلهة مثل الحملة إلى بلاد البخور ووقائع حروب

سوريا وليبيا وبلاد النوبه والعودة منها محملين بالغنائم يتقدمهم الأسرى الذين يصبحون عبيـــدا المعبد . وتـكمل هذه المجموعة بتلك الرسوم التى تمثل رحلات الصيد الملـكية وخروج الإله* وسط الجمهور المبتهج المبهور ، وتتضاعف أهمية الرسوم بتلك النصوص التى تشرحها وتسجل الأحاديث والأوامر والأغانى .

لذلك فمحاولة وصف الحياة اليومية فى مصر القديمة ليست بالمهمة الشاقة وإن كان قد كتب علينا أن نجهل بعض مظاهرها . إن الآثار لم تحفظ لنـا فحسب تلك النقوش والرسوم الملـونة والتماثيل واللوحات والتوابيت والأدوات التى تستعمل فى الطقوس الدينية مما يعد أكثر من الـكفاية — بل قدمت لنا أيضا أشياء متنوعة ومما لاريب فيه أننا نفضل على الأثاث الجنائزى لتوت عنخ آمون أو ابسوسنيس (٥) أثاث قصر من قصور رمسيس والواقع أن حاجات الميت هى نفس حاجات الأحياء ، وفضلا عن هذا ، فـكثيراً ما كانت بعض الأيادى التقية تضع فى القبر أدوات كان الميت قد استعملها أو ارتداها أو تمثل ذكريات عائلية .

ومن البديهى أنه ينبغى لنا أن نراعى منتهى الحذر حين ننقل هذه الوقائع التى مضى عليها أكثر من ثلاثة آلاف سنة فالأشياء ربما تـكون قد تغيرت ببطء مصر الفرعونية عنها فى آية حضارة أخرى ، ذلك أن النيل الذى يبعث الحياة على شاطئيه ، سيد جبار لم تتغير أوامره . وبالرغم من ذلك فإن الأخلاق والنظم والفنون والعقائد لم تبق دائما ثابتة ومع أن هذه الحقيقة لم ينكرها أحد من علمـاء الآثار المصريين إلا أنهـا ظلت مهملة عمليا .

---

* يعنى الملك .

وفى بعض المؤلفات الحديثة وردت نصوص من جميع العصور مختلطة غير مرتبة . ويحاول العلماء بعض الأحيان تفسير ماورد من غموض فى نص قديم فيستعينون بما كتبه ديودور أو بلوتارك ، إن لم يكن چامبليك ولا يزالون يجرون على تسمية أشهر السنة بأسماء لم يستعملها المصريون إلا فى عصور متأخرة . وبذلك يسود الرأى القائل بأن مصر بقيت كما هى دون أدنى تغيير منذ نشأتها التاريخية السحيقة .

ولتفادى الوقوع فى مثل هذا الخطأ كان علينا أن نختار عصراً من العصور ، بعد أن تجنبنا العهدين الوسيطين ، عهد الإنهيار الطويل الذى تلى حرب الأدناس وكذا النهضة الصاوية شغلت مصر تماما بتحنيط الحيوانات المقدسة ونسخ كتب السحر ، كما تجنبنا عصر البطالمة الذى لا يدخل فى اختصاص علماء الآثار المصرية . .

واهتم المؤلف بعصر الأهرامات الكبرى والعصر الذى بنى فيه قصر اللابرنث * وبذلك العهد المجيد الذى حكم فيه الملوك الذين كانوا يحملون أسماء تحتمس وأمنحتب ، وبالفترة التى سادت فيها عبادة قرص الشمس ذى الأشعة التى تنتهى بأيد** ، وعهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين الذى يعد امتدادا طبيعيا لتلك الفترة من الزمن .

ولكل من هذه العصور ماتتميز به : فعهد الدولة القديمة هو عصر شباب مصر ، إذ ظهرت فيه تقريبا كل ماخلقته مصر من حضارة عظيمة وأصيلة . غير أن اختيارنا قد وقع أخيراً على العصر الذى عاش فيه الملوك سيتى ورمسيس باعتباره أفضل الأزمنة الملائمة لهدفنا . وهذه الفترة قصيرة المدى ،

* فى الفيوم
** عبادة آتن

بدأت حوالى عام ١٣٢٠ قبل الميلاد بتجديد فى النسل — ويقصد المصريون بهذا أن أسرة عديدة الأفراد كثيرة الذرية قد وضعت حداً للمنازعات على تولى العرش ، كما أدخلت الكثير من التعديلات ، فقبل ذلك كان ملوك مصر سادة الاقليمين ، إما من منف أو طيبه أو أن شأنهم قد علا فى أقاليم مصر الوسطى بين قفط والفيوم . ولأول مرة اعتلى عرش هورس رجال من الدلتا قام أجدادهم منذ أكثر من أربعمائة عام بخدمة معبود سيء السمعة لأنه قتل أخاه ألا وهو الإله ست . وانتهى هذا العهد حوالى عام ١١٠٠ (قبل الميلاد) بتولى أسرة جديدة بعد أن تخلصت مصر نهائيا من نسل رمسيس ومن معبوده على السواء[٦] . ويتميز هذا العصر الذى استمر قرنين بأن تولى الحكم خلاله ثلاثة ملوك عظماء هم : سيتى الأول ورمسيس الثانى ورمسيس الثالث . وتركت مصر وراءها تاريخا حافلا بالأحداث . وبعد أن اجتازت أزمة عصبية ، أتاح لها حكامها الجدد السلام الدينى الذى ظل زمنا مستقراً ولم يضطرب إلا حوالى عام ١١٠٠ ، وقد أحرزت جيوش مصر انتصارات رائعة كما تدخلت مصر فى شئون الشعوب الأخرى أكثر من تدخلها فى أية فترة أخرى . وقد عاش كثير من المصريين خارج بلادهم، ولكن الأجانب الذين عاشوا فى مصر كانوا أكثر منهم عدداً . وكان الرعامسة من أعظم الملوك تشييداً ، فالهكسوس قد دمروا كل ما اعترض طريقهم ولم يستطع ملوك طيبه أن يتموا ترميم ما تهدم ولكنهم شيدوا الكثير من المبانى فى طيبه . وبعد ثورة أخناتون الدينية كان من الضرورى إعادة تجديد ما قاموا به ، مثل بهو الأعمدة فى الكرنك وصرح معبد الأقصر ومعبد الرمسيوم ومدينة حابو وعدة مبان أخرى كبيرة كانت أو صغيرة فى

المدينة ذات المائة باب . وكان لرمسيس الأول ومن خلفه من ملوك النصيب الأوفر فى إقامة هذه المبانى ، دون أن يهملوا ركناً من أركان أمبراطوريتهم الشاسعة الممتدة من بلاد النوبه إلى پى‌رمسيس وپيتوم ، فكم من مدن شيدوها ومبان ومنشآت وسعوا مبانيها أو رمموها أو أسسوها !

وتمدنا مبانى تلك الفترة ومقابر الملوك والملكات وخاصة مبانى معاصريهم بمستندات وفيرة يكملها عدد كبير من أوراق البردى ، يرجع تاريخها إلى القرنين الثالث عشر والثانى عشر ، متضمنة القصص والمجادلات ومجموعات الرسائل وقوائم بأنواع المهن وعمالها وعقود ومحاضر التحقيق. وأهم من هذه كلها ، الوصية السياسية التى خلفها لنا رمسيس الثالث .

هذه هى المراجع التى وضعتها بصفة دائمة نصب عينى أثناء تدوين هذا الكتاب ، وهذا لا يعنى أنى لم انتفع بالرجوع إلى مصادر أقدم أو أحدث عهداً من هذه المراجع . وإذا عارضت الآراء التى تحفل بها المراجع وتعد تاريخ مصر فترة متماسكة عمرها ثلاثة آلاف سنة وتطبق على جميع مظاهر الحضارة الفرعونية مالا يصح حدوثه إلا خلال فترة معينة ، فلم نغفل ملاحظة أن الكثير من العادات والنظم والعقائد قد لقيت فى مصر حياة شديدة القسوة . وحينما يسلم المؤلف الكلاسيكى بصحة نص محفور على جدران معبد فى طيبه فمن حقنا على الأقل فى مثل هذا الأمر ، أن نعتقد أن المصريين فى عهد الرعامسة كانوا يتصرفون تماماً مثل أجدادهم وخلفائهم . وقد اغترفت من كل منهل ما استطعت إلى ذلك سبيلا دون أن أتأثر بتلك الألوان الزائفة لأقدم صورة معبرة للحياة اليومية فى مصر فى عهد الرعامسة .

الفصل الأول

المساكن

١ — المدن

تحولت مدن الفراعنة إلى تلال من الأتربة تختلط بها بقايا من الفخار وأطلال ضئيلة ، ولا عجب فى ذلك إذ كانت المدن والقصور تشيد بالطوب اللبن . ومع كل ، فقد كان بعضها أحسن حالا مما هى عليه الآن وقت أن كان العلماء ، الذين أحضرهم بونابرت معه ، يقومون بحصرها وقد هدم الكثير منها فى الزمن الحاضر بالإضافة إلى ما تهدم منها فى الماضى بوساطة الأهالى الذين لم يعودوا يقنعون بأخذ السباخ من الخرائب وانتزاع الأحجار الكبيرة منها بل اعتادوا أيضاً تلك العادة المؤسفة فى البحث عن الآثار . ولا يوجد غير مدينتين يمكن أن نتحدث عنهما بشيء من الاطمئنان فهما مدينتان عمرهما قصير ، يرجع الفضل فى إنشائهما إلى أوامر صادرة من السلطة الملكية ، وقد هجرتا أيضاً بغتة بعد حياة قصيرة .أقدمهما هى مدينة حتب سنوسرت التى أنشأها فى الفيوم الملك سنوسرت الثانى وبقيت عامرة لمدة تقل عن قرن من الزمن ، والمدينة الثانية هى أخيتاتون وقد اتخذها أمنحتب الرابع عاصمة للملك بعد نزاع مع كهنة آمون . وقد بقى خلفاؤه مقيمين بها حتى اليوم الذى نقل فيه توت عنخ آمون بلاطه إلى طيبه وقد يكون من المفيد أن نشير إليهما باختصار قبل أن نتناول بالوصف مدن الرعامسة . كانت المدينة التى أنشأها سنوسرت محاطة بسور طوله أربعمائة متر وعرضه ثلثمائة وخمسون متراً وكانت تكفى لإيواء عدد كبير من الأهالى فى مساحة ضيقة (١).

وكان المعبد مشيداً خارج الأسوار ، وأقيم جدار سميك يقسم المدينة إلى منطقتين خصصت إحداهما للأغنياء والأخرى للفقراء : ويشق المنطقة الأخيرة طريق عرضه تسعة أمتار يتقاطع بزوايا قائمة مع شوارع أقل منه اتساعاً . كانت المنازل متقاربة وظهورها متلاصقة بحيث تطل واجهاتها على الشارع ، أما الغرف والدهاليز فكانت ضيقة إلى حد كبير . أما الحى الذى تعيش فيه طبقة الأغنياء فكانت تخترقه شوارع فسيحة تؤدى إلى القصر وإلى مساكن كبار الموظفين . وكانت مساحتها تعادل نحو خمسين مرة مساحة المساكن المخصصة للطبقة الشعبية . وكانت المساكن والشوارع تشغل كل الميدان . وكان المصريون يحبون دائماً الحدائق . ويروى لنا حور خوف* ـ هذا المكتشف الذى أحضر من النوبه** قزماً راقصاً هدية لمولاه فرعون الصغير ـ أنه بنى منزلا وحفر حوضاً وزرع أشجاراً . . . وقد سجلت سيدة عاشت فى عهد سنوسرت ، على لوحة حجرية ، أنها أحبت الأشجار كثيراً وكذلك غرس رمسيس الثالث الأشجار فى أمكنة متفرقة . ولكن لم يغرس منها شيئاً فى هذه المدينة ، سواء أكانت أشجاراً للزينة أم للنزهة .

أما عاصمة أخناتون فكانت مدينة مترفة[٢] تقع بين النيل والجبل فى مكان نصف دائرى . ويخترق المدينة من أقصاها إلى أدناها طريق يوازى النيل ويتقاطع مع الشوارع الأخرى التى تؤدى إلى شاطىء النهر وإلى جبانة المدينة ومحاجر الرخام .

---

* هكذا ورد فى الأصل وصحة الإسم هو خوف ــ حر.

** ربما يقصد المؤلف المنطقة الاستوائية جنوب السودان حيث يعيش الأقزام .

أما قصر فرعون والمعبد والمبانى الحكومية والمحلات التجارية فتشغل الحى الرئيسى بالمدينة . وتقع فى الشوارع منازل ضيقة ، تجاور منازل عظيمة وزعها رجال الآثار على أعضاء الأسرة الملكية .

وقد خصصت مساحات فسيحة لزراعة الأشجار والحدائق ، سواء داخل المنازل أو فى أراضى المدينة . أما عمال الجبانة والمحاجر فقد عزلت مساكنهم داخل قرية أحيطت بأسوار . وقد هجرت هذه المدينة على حين غرة حتى أنه لم يكن مستطاعا تعديل ما فعله سكانها الأصليون . وبعكس ذلك كانت المدن التى عمرت زمناً طويلا ـ وهى الأكثر عدداً ـ فقد سادتها الفوضى إلى أبعد الحدود . فمثلا « من نفر » ـ ثابت هو الجمال ، جمال الملك أو جمال المعبود ـ وهى التى سماها الإغريق ممفيس ، فكانت تسمى أيضاً « عنخ تاوى » ـ حياة الأرضين « وحات كا پتاح » ـ قصر روح المعبود پتاح « وسخات » ـ « شجرة الجميز » ، وكل اسم من هذه الأسماء يصلح أن يكون مستعملا لكل ما فى هـــذه المدينة أما فى الأصل فكان يراد بها إما القصر الملكى وملحقاته وإما معبد پتاح ، معبود المدينة وإما معبد حاتحور المعروف فى منف باسم « سيدة شجرة الجميز » وكان الحال كذلك أيضاً فى طيبه ، المدينة ذات المائة باب ، كما وصفها هوميروس مكان يطلق عليها اسم أيات مثل الإقليم الرابع فى الصعيد الذى كانت تتبعه ، كما كان يطلق عليها اسم « أوپت » فى عهد الامبراطورية الحديثة . وكان البعض يترجم هذا الاسم بمعنى « حريم » والبعض الآخر « معبد صغير » أو بمعنى « قصر » ، والمكان الذى يشغله الآن الموقع الأثرى الذى يطلق عليـــه قرية الكرنك كان يعرف باسم أوپت آمون (٣) فى عهد أمنحتب الثالث وكان طريق الكباش يربطه بمعبد الأقصر المسمى أوپت الأوسط . ويحيط بكل من المعبدين « أوپت آمون »

« وأوريت الأوسط » سور من الطوب اللبن به أبواب كثيرة بنيت قوائمها بالحجر الجيرى وأبوابها من خشب الصنوبر اللبنانى المصفح بالبرونز والمطعم بالذهب .

وتغلق هذه الأبواب فى وقت الخطر . وقد ذكر پى عنخى أن هذه الأبواب كانت تغلق وهو يقترب من المدينة ولا تشير النصوص التى بين أيدينا إلى إغلاق هذه الأبواب فى أى وقت على مدار السنة زمن السلم ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن حرية المرور كانت مكفولة سواء فى النهار أو فى الليل .

وفى داخل المدينة بين السور وبين المعبد بنيت المساكن والدكاكين والمخازن التى اختفت الآن تماما فوق مساحة شاسعة . وكذلك خططت الحدائق والبساتين التى كانت تسحر البصر ـ وكانت قطعان أغنام آمون ترعى فى الزراب وقد رسمت إحدى هذه الحدائق على جدران بهو حوليات تحتمس الثالث حيث سجل عليها أنواع الأشجار والنباتات التى استوردها من سوريا(٤) وبين السورين على جانبى طريق الكباش وعلى امتداد شاطىء النهر شيدت القصور والمساكن الحكومية . وكانت رغبة كل ملك فى أن يكون له قصره وكادت الملكات والأمراء وكبار الموظفين ألا يكونوا أقل رغبة فى امتلاك مثل هذه القصور ولما كانت هذه المدينة قد ظلت تنمو طوال عهد ثلاث أسرات ملكية متوالية فربما كانت منازل الطبقة الفقيرة والطبقة المتوسطة تبنى بين هذه القصور الفخمة بدلا من أن تبنى فى منطقة منفصلة كما حدث فى عهد الملك « حتب سنوسرت » .

وفى مواجهة الأقصر والكرنك على الشاطىء الغربى للنيل نشأت مدينة ثانية هى چاميه Tjamé والأجدر وصفها بأنها مجموعة مبان ضخمة تراكمت

حولها منازل ودكاكين، وكان يحيط بهذه المبانى جدار من الطوب اللبن بلغ طوله أربعمائة متر أو أكثر (٥) وعرضه ثلثمائة متر، ولا يقل طول الجدار الذى بناه أمنحتب الثالث عن ٥٠٠ متر وبلغ سمك أساس هذه المبانى العظيمة نحو ١٥ متراً وارتفاعه نحو ٢٠ متراً أو أكثر. وكان يخفى ما بداخله من مبان تماما دون أن يظهر منها غير الطرف الهرمى للمسلات أو أعالى الأبراج أو التيجان التى تعلو رءوس التماثيل الضخمة. وقد قاست غالبية هذه المدن مقاساة شديدة من الإنسان ومن الزمن على السواء، فتمثالا ممنون موجودان الآن وسط حقول القمح ولم يقاما هنا ليظلا فى مثل هذه العزلة الفريدة، ولكنهما كانا يزينان مدخل معبد عظيم كانت تحوطه مبان من الطين يسكنها الكثيرون من الأهالى وتوجد بها كميات وافرة من البضائع. وقد قاوم هذان التمثالان تقلبات الزمن، أما ما عداهما فقد أصبح دمنا.. وقد لقى سواهما من التماثيل الضخمة فى غير هذا المكان نفس المصير. وهذه البقايا الأثرية التى قد تكشف عنها أعمال سريعة من الحفائر الأثرية سرعان ما تختفى تحت ثرى الأراضى الزراعية.

أما معبد رمسيس الثالث فى مدينة حابو، ومعبد الرمسيوم فى الشمال، وعلى امتداد شمال معبد سيتى الأول ثم معبد الملكة حتشبسوت المدرج - الدير البحرى - فهى لا تزال حتى الآن، مبانى أثرية رائعة. ويمكننا أن نلم بالحالة التى كانت تبدو بها هذه المدن المسورة، عندما كانت حديثة البناء بمقارنتها بمدينة حابو(٦). فبعد أن يرسو القارب على سفح سلم مزدوج، يجتاز الزائر جداراً غير مرتفع بين رواقين للحراس وهذا السور مزود بتحصينات، ويفصل طريق دائرى بين هذا السور وبين السور الكبير المبنى باللبن. ويخترق هذا السور باب مدرع يماثل المجدل السورى وهو عبارة عن برجين متماثلين تفصل بينهما مسافة قدرها ستة أمتار يحوطها مبنى به فتحة تتسع لمرور عربة. أما النقوش الغائرة التى تغطى الجدران فهى تتغنى

بمدى سلطان فرعون . كما رسم أعداء مصر الألداء من ليبيين وعرب وزنوج ونوبيين وهم يحملون الجزية فوق رءوسهم ويشعر الإنسان بشيء من الرهبة وهو يسير بين هذه الجدران .

أما فى القاعات العليا فكانت موضوعات الرسم أشد بهجة ، فقد رسم الفنان رمسيس وهو يداعب ذقن غادة مصرية ظريفة بينما يقوم ندماؤه على خدمته ومع ذلك فلم يكن هذا البناء إلا ملاذا فى حالة الاضطرابات فالقصر والحريم كانا يوجدان على مسافة أبعد من ذلك إذ كانا يقعان بجوار المعبد ، ولم يكن يقيم هناك عادة غير الحراس .

وبعد اختراق البوابة نجد فناء متسعا ينتهى بجوار سور ثالث يوجد بداخله المعبد وقاعات الحريم والقصر والأفنية والمبانى ، كما توجد مساكن صغيرة شديدة الالتصاق تماما على أحد جوانب السور بينما يحيط ممر رئيسى بالجوانب الأخرى لهذا السور الثالث . وكان كهنة المعبد وعدد وفير من الأهالى هم السكان الدائمون لهذه المدينة الصغيرة ، حيث كان يقيم فرعون عندما يحضر مع نسائه وخدمه العديدين إلى الشاطىء الغربى. وعلى هذا النحو كان قصر رمسيس حاكم أون فى أملاك آمون وكذلك الرمسيوم . وهكذا كان الحال فى العشرين أو الثلاثين مدينة ملكية فى الضفة الغربية من النيل .

وبالرغم من مظهرها الخارجى الخشن فقد حوت من الداخل مزيجاً من روائع الفن الهندسى ومن القصور المموهة بالذهب تقوم بجانبها أكواخ معتمة قاتمة . ولا شك أنه حدث فى وقت ما أن أمراء مصر العظام وأميراتها الفاتنات ممن كانوا موضع فخر مصر وحاشيتهم كانوا يسرعون الخطا بين هذه الطرقات وتلك الأفنية. وكان صدى الضحكات والأغانى ورنين الموسيقى يملأ تلك المساكن الملكية . وعندما ينتهى الحفل كان لا يسمح باجتياز

البوابة المحصنة إلا لقطعان الأغنام وصفوف العبيد الذين يحملون الأمتعة على رءوسهم أو على أكتافهم وللجنود وكتبة الحسابات والبنائين والعمال يمرون جميعا خلال الغبار والضوضاء ثم يتفرقون إلى المصانع والحوانيت والاسطبلات والمذابح بينما يتوجه التلاميذ والصبية لينالوا قسطهم من العلم ونصيبهم من ضربات العصى .(٧)

ولم تكن مدن الدلتا أقل من مدن الصعيد فخامة فى مبانيها وعماراتها أو فى قدمها التاريخى، تلك المدن التى اجتاحها الهكسوس وأهمل شأنها ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، قد رممت ووسعت وازدادت جمالا بفضل الملوك الرعامسه .

وكان رمسيس الثانى معجبا بالجزء الشرقى من الدلتا إذ أنها كانت مهد عائلته وكان يجد فيها الجو الملائم والأراضى ذات العشب الأخضر وساحات المياه الشاسعة وكروم العنب التى تنتج نبيذا أحلى مذاقاً من العسل . وعلى جانب الفرع التانيسى للنيل وسط مراع تذروها الرياح كانت توجد مدينة قديمة عاش فيها الكهنة وكانت مركزاً لعبادة الإله «ست» كما كانت مركزا أيضا لمدرسة فنية ذات طراز أصيل ، ويرجع تاريخها إلى عهد بعيد ، هذه المدينة هى حات واعرت وقد اتخذها الهكسوس عاصمة لملكهم . ومنذ أن طردهم الملك أحموزا أخذت المدينة فى الاضمحلال وقد انتقل إليها رمسيس بعد أن انتهى مباشرة من دفن أبيه وقام بآخر الواجبات الجنائزية.

وعلى الفور بدأ القيام بالأعمال العظيمة التى أعادت إلى المدينة القديمة رونقها فأخذت تنمو حتى أصبحت عاصمة فريدة فى نوعها(٨) وكما كان الحال فى طيبه ، كان المعبد وسائر المبانى داخل سور من الطوب اللبن ، له أربعة أبواب تمتد أمامها الترع والطرق من الجهات الأربع . ولأجل بناء قدس الأقداس فى المعابد وتوفير اللوحات والمسلات ، أحضرت من أسوان كتل من الأحجار ذات أحجام غير مألوفة ، دون أدنى اعتبار لبعد المسافة

أو صعوبة النقل ، بعد أن تم صقلها وتكسيتها حتى بلغت ذروة الإتقان .

ونحتوا كذلك أسودا ذات أوجه آدمية عابسة من صخور الجرانيت الأسود ، كما نحتوا تماثيل أبو الهول من صخور الجرانيت الوردى اللون وقد وضعت بحيث يواجه أحدها الآخر على طول الطريق الضيق المرصوف بأحجار البازلت ، بينما كانت أسود راقدة تسهر على حراسة الأبواب وتماثيل لمجموعة معبودات يحوى كل منها معبودين أو ثلاثة معا ، وتماثيل ضخمة واقفة أو جالسة ، ينافس الكثير منها مثيلاتها الموجودة فى طيبه ويفوق تلك التى على شاكلتها فى منف . وقد كانت متراصة أمام البوابات ذات الأبراج .

كان القصر متلألئا بالذهب واللازورد والفيروز مزدانا بالزهور فى كافة أرجائه والطرق التى أحسن تظليلها تخترق الريف المنزرع بطريقة تدعو إلى الإعجاب . وكانت البضائع الواردة من سوريا ومن الجزر ومن بلاد پونت مكدسة فى الحوانيت . وكانت فرق من المشاة وحملة السهام والأقواس وراكبى العربات الحربية ورجال البحرية لهم معسكراتهم بجوار القصر ووفد الكثيرون من المصريين ليسكنوا بجوار الشمس* . قال الكاتب پاباسا « ما أحلى الإقامة هناك ، فليس للمرء أية أمنية يتساوى فيها الصغير والكبير . . والناس جميعا سواء ، فى الإفضاء بطلباتهم » .

ومثلها مثل سائر المدن الكبرى الأخرى حيث يخالط المصريين الليبيون والزنوج . غير أن الأسيويين كانوا قد تدفقوا بصفة خاصة قبل عصر الخروج وحتى بعده ، وكان من بينهم نسل أبناء يعقوب ، وغيرهم من البدو الرحل ، ممن سمح لهم بالإقامة فى مصر ولم يرغبوا مطلقاً بعد ذلك فى مغادرتها ، كما كان من بينهم الأسرى الذين أتى بهم من بلاد كنعان وعامور

---

* المقصود هو فرعون

ونهارينا* وتحول أبناؤهم بمضى الزمن إلى عمال زراعيين أو إلى عمال مهن حرة . وسرعان ما اتسعت المدينة الملكية بعد أن أضيفت إليها أحياء شاسعة الأرجاء تحوى الكثير من المساكن والحوانيت . وسرعان ما أصبح لهذه الأحياء الجديدة معبدها الخاص وقد أحيط بأسوار من الطوب اللبن مثل أى معبد كبير . وكان من الضرورى تخصيص مكان للجبانة (٩) لأن أهل الدلتا لم يعتادوا مثل أهل الصعيد دفن موتاهم فى الصحراء القريبة منهم ، ولذلك شيدوا مقابرهم ومقابر حيواناتهم المقدسة إما خارج السور وإما داخله على بعد خطوات من المعبد . ونظرا لضيق المكان ، لم يكن فى استطاعتهم بناء عمارات ضخمة على غرار مثيلاتها فى منف .

وكانت المقابر التى فى تانيس أو أتريب صغيرة الحجم إلى أبعد الحدود بغض النظر عن مكانة الشخص الذى يدفن فيها .

لم يترك رمسيس الثانى لمن خلفه مايشغلهم كثيرا فى شئون البناء ، ولذلك ركز رمسيس الثالث اهتمامه برعاية الحدائق والمشاتل والإكثار منها ، قائلا :

« لقد أخصبت الأرض كلها بزراعة الأشجار وغرس النباتات ، بحيث أصبح فى استطاعة الناس الجلوس تحت ظلالها »(١٠) . وقد شيد حدائق كثيرة فى مقر عرش جده العظيم ، تتخللها طرق تؤدى إلى الريف ، زرعت بالكروم وأشجار الزيتون وعلى جانبى الطريق المقدس** انتشرت الزهور اليانعة (١١) وفى أون أمر الملك بتنظيف بحيرات المعبد المقدسة ، برفع القاذورات التى تراكمت منذ وجدت الخليقة ، وجدد غرس الأشجار

* هى أراضى فلسطين وسوريا وشمال الفرات وأرض الجزيرة .
** كانت هذه الطرق خاصة محرمة على العامة .

والنباتات فى كل مكان وزرع البساتين اليانعة بالكروم ليقدم للمعبود توم النبيذ والمشروبات الروحية ، كما زرع أشجار الزيتون التى تنتج «أجود الزيوت المصرية لتبقى شعلة النيران متقدة فى معبدك المقدس» . ومعبد هورس الذى كان فى طى النسيان تماما ، أصبح فى مقدمة المعابد . « لقد أوليت جل اهتمامى لزراعة أشجار الأخشاب المقدسة النامية فى داخل أسواره . كما عنيت بغرس أوراق البردى على نحو ماتزرع فى مستنقعات آخبيت (حيث عاش هورس زمن طفولته) وكان عالم النسيان قد أتى عليه منذ العهد الغابر . لقد عملت على ازدهار أشجار الأخشاب المقدسة فى معبدك وغرستها فى نفس الأماكن التى اقتلعت منها وعينت البستانيين للعناية بهـا حتى يقطر منها الخمر للشراب والقرابين » (١٢) .

وهذا جمع بين النافع والممتع . وقد لاحظ هيرودوت أن معبد بوبسطة المحاط بالأشجار الضخمة كان من أروع ماشاهد فى كافة أنحاء مصر . ولاشك أن المسافر فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد كان يستطيع أن يحس نفس هذا الشعور خلال زيارته لكثير من المدن المصرية ، فمنظر المساحات الخضراء كان يعوض خشونة منظر الأسوار الضخمة المبنية باللبن ، وكان سكان المدن يتمتعون بالنسيم العليل على شواطىء فروع النيل تحت ظلال الأشجار الضخمة ، وفى أفنية المعبد كان الزهور والورود أثرها فى إظهار جمال التماثيل .

كانت المياه الكثيرة لازمة للحيوان والنبات والإنسان على السواء . وكان الانتقال لجلب المياه من الترع ، أمرا مقلقا حقا ، حتى لو كانت مجارى المياه قريبة من أبواب الأسوار ، كما كانت عليه الحال فى مدينة حابو وفى بي رمسيس ، وفى أكثر المدن التى تحوطها أسوار ، شيدت أحواض من الحجر . (١٣) وقد أقيم سلم يؤدى إلى سطح المياه على مدار العام ، ووجود الآبار

أمر مؤكد منذ عهد الأمبراطورية الحديثة ، على الأقل ، وقد اكتشف بعضها فى الأملاك الخاصة وكذلك فى أحياء المدن .(١٤) وقد وجدت أربع آبار على الأقل داخل أسوار مدينة پى رمسيس بنيت بالحجر بعناية تامة(١٥) وأصغرها فى غرب المعبد وقطرها ثلاثة أمتار وعشرة سنتيمترات ، كان النزول إليها بوساطة سلم مستقيم مسقوف تبلغ درجاته ثلاثا وعشرين درجة يؤدى إلى سلم حلزونى داخل البئر عدد درجاته اثنتا عشرة درجة .

أما البئر الكبرى فتوجد جنوبى المعبد وقطرها نحو خمسة أمتار ويؤدى إلى البئر سلم مسقوف أيضا تبلغ درجاته أربعة وأربعين درجة من سطحين ، وتتوسطها بسطة للاستراحة ، ويمكن الوصول إلى مياه هذه البئر مهما قل المنسوب ، بسلم حلزونى على شكل حدوة ، لملء الأباريق بالمياه . أما فى فترة زمنية أخرى فكانت المياه ترفع بطريقة أيسر بوساطة الشادوف وتصب فى حوض وتنقل منه إلى حوض آخر داخل مبنى المعبد بوساطة قناة من الحجر . وفى القسم الشرقى من المدينة ، اكتشف على عمق كبير ، كثير من القنوات المصنوعة من أنابيب من الفخار من مختلف الأشكال وأكثرها مصنوع من أوان خزفية متداخلة فى بعضها قد أحكم وصلها بالأسمنت . ولم يتمكن أحد حتى اليوم ، أن يتتبع امتداد هذه القنوات واكتشاف بدايتها ونهايتها ، كما لا نستطيع تحديد تاريخها ، إذ أننا نجهل ما إذا كانت قد أعدت لنقل المياه الصالحة للشرب أو خصصت لتصريف مياه المجارى . على أنه يجدر بنا أن نشير إلى وجود هذه المنشآت التى تدل على أن الادارة الفرعونية كانت تنشد الخير للأهالى وتحرص على الصحة العامة .

كان للعقارات الملكية أو المقدسة قوة جاذبية عجيبة على منْ يقيمون حولها ، ففى أزمنة الاضطراب كان الأهالى الذين ينتابهم الذعر يغتصبونها

ليقيموا بها ويرفضون تركها ، ويشيدون منازلهم فى الحدائق والبساتين وبذلك يشوهون جمال التصميم الذى أراده لها مشيدوها السابقون . كانوا يتسربون إلى ساحة المعبد المقدسة الخارجية ويقيمون فوق الأسوار ، يعطلون إقامة الشعائر الدينية ويقفون حجر عثرة فى سبيل الحراس .

وقد لاحظ أواج حر ر سنه ، أحد الأطباء الذين عاشوا فى عصر الملك قمبيز ، بعض الأجانب يقيمون فى معبد الإلهة نايت ، معبودة سايس (١٦) فتألم لما رأى ، ولما كان ذا كلمة مسموعة لدى الملك فقد حصل على أمر بطرد جميع أولئك الأجانب ، غير المرغوب فيهم وهدم منازلهم والتخلص من نجاستهم حتى يمكن الاحتفال بالأعياد والمواكب كما كان متبعا من قبل .

وقد لاحظ أحد السحرة أيضا ويدعى جد حر وكان يعيش فى أتريب أن أناسا من عامة الشعب بنوا أكواخهم بالطوب اللبن فوق جبانة الصقور المقدسة . (١٧) ولما لم يكن له مثل نفوذ الطبيب الصاوى فقد حاول معهم طريق الاقناع واستطاع أن يجلى المغتصبين عن المكان الذى احتلوه والانتقال إلى مكان أفضل ارشدهم إليه ، وكان فى الحقيقة موقع مستنقعات ، غير أن علاج ذلك كان فى متناول أيديهم ، إذ كان من المستطاع هدم المنازل الداخلية واستخدامها فى ردم المستنقعات . وهكذا شيدت مساكن الطبقة الطيبة من أهالى أتريب فى مكان حسن الموقع لطيف الجو ، يكاد يكون قليل الرطوبة زمن الفيضان . وفى تانيس لاحظنا بانفسنا زحف الأهالى بمساكنهم على المعبد . ووجدنا الكثير من المساكن فى أفنية المعبد وعلى أسواره ، وشخصية ذات أهمية اسمها پان مريت ، بنى منزله فى الفناء الأول للمعبد ملاصقاً للصرح كى تستطيع تماثيله الاستفادة من الاحتفالات المقدسة. (١٨) وقد عاش پان مريت فى عصر متأخر عن طبيب سايس وساحر أتريب . ولكن مصر هى بلد التقاليد وسنقدم أدلة على ذلك . فالحقائق التى أشرنا

إنها مؤيدة بمستندات تنتمي إلى عصر متأخر ، يغلب على ظني أنها ظاهرة تكررت أكثر من مرة على مر الزمن ، إذ كان الأهالي ينتهزون فرصة عدم يقظة السلطات أو ضعفها ليهجروا الأحياء التي لا تروقهم وينتقلوا إلى داخل الأسوار الكبرى ليحتموا بها وربما ليسطوا على الأموال . وعندما تتيقظ السلطات فإنها كانت تطرد الغاصبين فيستعيد المعبد والعاصمة عظمتهما إلى أن تتكرر هذه المحاولة من جديد .

وفي عهد سيتي الأول وسنوسرت العظيم ورمسيس الثالث لم يجرؤ أحد على الاقتراب من أرض لا يملكها ، ولكن حدث ذلك في الوقت بين حكم مرى إن بتاح وسات ناخت ، بل حدث أسوأ من ذلك في عهد آخر ملوك الرعامسه .

٢ — القصور

كثيرا ما أثار القصر الملكي في مدينة پي رمسيس إعجاب الكثيرين من المعاصرين ، ومن سوء الحظ أن وصفهم له غير محدد وحتى مكانه أيضا غير معروف بالضبط ، ولم تسفر الحفائر عن أية معلومات دقيقة . ونحن نعرف أنه كان في الدلتا قصور ملكية أخرى فقد عثر على بقايا قصر في قنطير وهي قرية تظللها أشجار النخيل البديعة على بعد ٢٥ كيلومترا جنوبي مدينة پي رمسيس (١٩) ، حيث كان فرعون ينتظر خطيبته إبنه ملك الحيثيين ، التي جاءت في فصل الشتاء مخترقة آسيا الصغرى وسوريا لتلقاه ، خطر له خاطر طريف هو تشييد قصر حصين في الصحراء بين مصر وفينيقيا حيث كان ينتظرها . وبالرغم من بعد القصر ووجوده في مكان ناء إلا أنه

كان مكتظا بكل ما كانت تشتهيه الأنفس. وكانت كل جهة من جهات القصر الأربع تحت حماية أحد المعبودات، فكان آمون يحمى الناحية الغربية وسوتخ الناحية الجنوبية ، وعشتروت الناحية الشرقية وأواجيت الناحية الشمالية . ولتمجيد ملك مصر وزوجته الآسيوية وضع معبودان مصريان ومعبودان آسيويان لآن ست. منذ ذلك الوقت اتخذ زينة الشعر والملابس التى يتميز بها المعبود بعل، ولم يعد يشبه معبودات المصريين. وأقيمت أربعة تماثيل ذات أسماء كالأحياء هى: رمسيس ميا آمون، له الحياة والصحة والقوة، ومونتو فى الأرضين سحر مصر، وشمس الأمراء الذى أصبح فى منزلة الإله والوريث والباشا.(٢٠)

كان لرمسيس الثالث قصر أطلق عليه أسم « بيت الهناء » يقع داخل مدينته، غربى طيبه، وقد وجدت بقاياه التى تولى دراستها علماء الآثار المصرية بمعهد الدراسات الشرقية بشيكاغو،(٢١) وكانت واجهة هذا القصر تطل على الفناء الخارجى للمعبد . أما النقوش المحفورة التى كانت تزين هذه الواجهة ، وترى من بين أعمدة البهو ، فقد أحسن اختيارها فى عناية تامة لتظهر مدى سلطان الملك . فقد رسم رمسيس وهو يقتل أعداءه بضربات من دبوسه . كما رسم أيضا الملك يتبعه حرسه فى أحسن زينة وهو يزور حظائر الخيل . وكذلك رسم وهو يمتطى عربته متقلدا أسلحته الحربية فى طريقه ليتولى قيادة الجيش أثناء المعركة . ثم رسم أخيرا وهو جالس مع رجال حاشيته يشاهد خير جنده وهم يتصارعون ويتمرنون . كانت الشرفة المخصصة لظهور الملك فى الحفلات العامة تتوسط هذه الواجهة وقد زينت أفخم زينة ، فى مقدمتها أربعة أعمدة طويلة على هيئة ساق البردى يعلوها أفريز ذو ثلاثة طوابق ، رسم قرص الشمس المجنح على الطابق الأدنى ، ورسمت زينات من خوص النخيل على الطابق الأوسط ، بينما رسم على الطابق الأعلى رءوس الثعابين تتوجها تيجان على هيئة قرص الشمس . وكان الملك يظهر فى هذه الشرفة

عندما كان يسمح للأهالى بالتجمع فى فناء المعبد فى عيد آمون ، ومنها كان يوزع عليهم العطايا . كانت الشرفة متصلة بالمساكن الملكية ، وكان يتوسط هذه المساكن عدة غرف ذات أعمدة ، منها قاعة العرش وغرفة الملك وحمامه الخاص . وتفصل ردهة بين هذا الجزء الرئيسى وبين جناح الملكة الذى كان يحوى الكثير من الغرف والحمامات . وكانت هناك ممرات طويلة مستقيمة تيسر الذهاب والمراقبة أيضا ، لأن رمسيس الثالث وقد علمته التجارب ، كان حذرا .

ويبدو أن النقوش الداخلية لقاعة العرش كانت عابسة ، كما يتضح من اللوحات الصغيرة المموهة بالمينا التى اكتشفت منذ ٥٠ عاما أو من القطع الصغيرة ذات النقوش الغائرة التى اكتشفتها أخيرا البعثة الأمريكية . رسم الملك فى كل مكان على هيئة أبو الهول وقد جثم على مؤخرتيه ، وقد سجل اسمه بالكتابة الهيروغليفية ، ويشاهد أعداء مصر أمامه ، وقد قيدت أقدامهم وهم فى ملابسهم الثمينة المزركشة بزينة البربر وقد بذلت عناية كبيرة فى رسم أشكالهم وزينة شعرهم وحليهم . وقد وسم الليبيون بالوشم بينما حلى الزنوج آذانهم بالأقراط ، أما السوريون فكانوا يتزينون بحلى كبيرة تتدلى من رقابهم . أما قبائل شاسو الرحل فكانوا يضعون أمشاطا وسط شعرهم الطويل المرسل إلى الخلف . (٢٢) وليس من المستبعد أن نعتقد أن الرسوم والزينات التى كانت تحلى القاعات الخاصة بالملك والملكة كانت ذات موضوعات أكثر رقة وطرافة .

كانت المساحة التى يشغلها مسكن الملك غير بالغة الاتساع إذ كانت عبارة عن مربع يقل طول ضلعه عن أربعين مترا وكانت إقامة الملك فيه غير طويلة

المدى ، فقد كان فى استطاعته الإقامة فى الجانب الآخر من النهر . أما فى الدلتا فلم يكن له إلا أن يختار بين منف وأون وبى رمسيس ، وكانت كلها تترقب استقباله . وقد شيد بين أون وبوبسط ، فى المكان الذى أطلق عليه العرب أسم تل اليهودية ، مبنى حديث العهد ، اكتشفت فيه لوحات مموهة بالمينا تماثل تماما تلك التى وجدت فى مدينة حابو . (٢٣) وقد أتى الزمن تماماً على قصور الملك سيتى والملوك الرعامسه حتى أننا إذا أردنا أن نكون فكرة حقيقية عن قصر فرعون فى عصر الامبراطورية الحديثة كان علينا أن نتخيل أنفسنا فى قصر أخناتون الذى تولى الحكم قبلهم بوقت قصير . كان بلاط أرضية القاعات ذات الأعمدة تمثل مستنقعا يزخر بالأسماك ونباتات البردى ، تطير خلال أغصانها الطيور المائية ويحوطها الغاب والبردى ، وعجول تقفز وسط أجمات وبط برى يطير خوفا منها . وفوق رءوس الأعمدة كانت تلتف أغصان الكروم والنباتات العارشة . وزينت تيجان الأعمدة والأفاريز بالنقوش الزاهية وعلى حواجز الجدران رسمت نقوش تمثل مناظر الحياة العائلية ، فالملك والملكة يجلسان وجها لوجه .

كان أخناتون يجلس على مقعد ونفرتيتى على وسادة وعلى ركبتيها طفل رضيع ، وكانت كبرى الأميرات تعانق شقيقتها الصغرى ، وتلعب أميرتان صغيرتان على الأرض . (٢٤) وقد قيل فى مبالغة بأنه لم يرد فى الفن المصرى القديم كله ما يضاهى هذا الرسم رقة . والواقع أن المستنقعات ونباتات البردى والطيور والحيوانات التى تقفز أو تركض كانت ضمن الموضوعات المألوفة . وفى مدينة حابو رأينا الملك محاطا بمحظيات رائعات الجمال . ونحن لا نخشى شيئا حين نؤكد أن قصور فرعون فى عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين كانت مزينة دائما بأفخم النقوش وكذلك الحال فى عهد أخناتون ، إذ كانت الجدران والسقوف والأفاريز والأعمدة والأرضيات بهجة للعين والنفس .

وكانت فخامة الأثاث وروعة الحلى والملابس تكمل هذه المجموعة سموا وروعة .

٣ ـ المنازل

لم تدخر كبار الشخصيات جهدا فى محاكاة المساكن الملكية من حيث الفخامة والرفاهية ، كانت مساحة مساكنهم فى المدينة أو فى الريف تبلغ نحو هكتار* أو تزيد ، كما كانت على نسق المعابد أو القصور الملكية يحوطها سور عريض مرتفع له باب حجرى يؤدى إلى حيث يقيم رب البيت ، بينما توجد أبواب ثانوية وهى عبارة عن فتحات صغيرة فى السور تؤدى إلى الحدائق ويستعملها عامة الناس . هكذا كان منزل المرأة الغادرة تبوبوى التى استقبلت فيه حبيبها فى مدينة بوبسط بينما كان منزل آبوى يماثل معبدا صغيرا . فيه رواق ذو أعمدة على هيئة سيقان البردى يسبق واجهة المبنى . بينما يسند سطح العمود إفريز مزخرف برسوم من سعف النخيل . وكان باب المدخل الرئيسى من الحجر الكبير المنحوت وأسكفة الباب مزخرفة بدورها بسعف النخيل . (٢٥) وكان المنزل الذى قابل فيه الملك آى زوجته نفرحتب وكافأها ، له شرفة ذات أعمدة تسند سطحا خفيفا يغطى جميع جهات المنزل وتقوم أطرافه على أعمدة عالية رفيعة يتكون منها رواق حول المنزل.(٢٦) يمكن أن نكون فكرة عن الشكل الخارجى لهذين المنزلين على ضوء الرسوم التى رسمها كل من أبوى ونفرحتب على جدران مقبرتيهما ، ولمعرفة التنظيم الداخلى لها يحسن أن نزور حفائر تل العمارنة . من باب المدخل يعبر المرء دهليزا قبل أن يصل

* الهكتار يبلغ عشرة آلاف متر مربع أى مايوازى فدانين ونصف الفدان .

إلى قاعات الاستقبال ذات الأعمدة التي يستند إليها السقف . وهذه القاعات العامة تمتد بوساطة خزائن الملابس مبنية بالطوب وتستخدم كأصونة للملابس الداخلية وللثياب ، كما توجد غرف صغيرة تخزن فيها المواد الغذائية والمرطبات . أما الغرف المخصصة لرب البيت وقاعة الحمام ودورة المياه فتشغل باقي المبنى . ونرى جدران الحمام قد كسيت بالأحجار ، وفي أحد الأركان نشاهد كتلة مرتفعة من الحجر ومثبتة في البناء ومحاطة من الخلف بجدار ساتر يصعد عليها أحد الخدم ليصب المياه على المستحم . وبعد أن يفرغ المستحم من الاغتسال يجلس على مقعد قريب للتدليك . وتطلى دورة المياه التي تقع خلف الحمام بالجير ، وبها مقعد من حجر الكلس مثقوب الوسط يوضع فوق صناديق من الطين تملأ بالرمال .(٢٧) وفي كل منزل مهما كان متواضعا ، توجد عدة أفنية ، في أحدها صوامع للغلال على هيئة خلية النحل . وتقع مراقد الكلاب وحظائر الحيوان في الشمال ، وفي الشرق توجد عادة على التوالي ، المطبخ والمخبز وبيوت صغيرة من الطوب يأوى إليها الخدم . وكان على الخدم في هذه الحالة أن يسيروا مسافة طويلة لإحضار أطباق الطعام لسادتهم .

ويوجد مدخل للخدم يؤدى إلى حجرات الاستقبال ، أما المنازل الصغيرة ، المخصصة للخدم ، فتقسم في أغلب الأحيان إلى أربع غرف ، المدخل وحجرة في الوسط يستند سقفها إلى عمود ومطبخ وحجرة نوم في الداخل . ويتجمع كل أفراد الأسرة الواحدة في هذا المكان الضيق الذي يتقاسمونه مع المواشي ، وهناك سلم يؤدى إلى سطح المنزل . وتقع بيوت المديرين في نهاية هذا الحي ، وتكون مبانيها عادة واسعة ومريحة .(٢٨) وتجلب المياه الصالحة للشرب عادة من بئر حجرية .

أما الحدائق فكانت تقسم إلى مربعات ومستطيلات تتقاطع عموديا ومستقيمة تماما ، وتزرع بالأشجار وتظلل بالكروم وتغص بها الزهور التى كان المصريون يعنون بها عناية تامة . وقد جمع أنا Anna فى حديقته كافة الأشجار التى تنمو فى وادى النيل مثل النخيل ونخيل الدوم وشجر جوز الهند التى كانت تسمى نخيل الكوكو وشجرة الجميز وشجرة زيت النخيل* وشجر العناب واللبخ والطلح والرمان والسرو والأثل والصفصاف وأنواع أخرى من الأشجار لا نعرف مدلولها وتبلغ ثمانية عشر نوعا .(٢٩)

وزرع الوزير رخ مارع فى حديقته المحاطة بأسوار قوية كل أنواع الأشجار والنباتات التى كانت معروفة فى عصره .(٣٠) وكثيرا ما كانوا يشيدون تحت الأشجار أكشاكا لا تخلو من جمال وإن بنيت بمواد خفيفة الوزن . وكان السادة يتناولون فيها طعامهم صيفا . وكانت الخصاص الخشبية تجثم فى كل مكان ، حيث كانت المشروبات تثلج فى أزيار كبيرة تخفيها أوراق الأشجار بجوار الموائد والرفوف حيث رص الخدم بعناية فائقة كل مشهيات المطبخ المصرى .

ولا يمكن أن نتخيل وجود حديقة دون بركة ماء ، وهذه تكون عادة إما مربعة أو مستطيلة الشكل ومبنية بالحجر ، وتطفو نباتات النيلوفر فوق سطح المياه ويعوم فيها البط . وتؤدى درجات من سلم إلى هذه البركة حيث أعد قارب لتلبية مسرات أصحاب المنزل (٣١) فى غالب الأحيان .

وتتكون بيوت الطبقة الوسطى عادة من عدة طوابق ، وتوجد أحيانا صوامع الغلال فوق سطوحها ، ولا تزخرف واجهة البيت بأية زخارف .

---

* هذه الشجرة نادرة الآن فى مصر ولكنها منتشرة فى السودان .

ويقع الباب قرب أحد أركان الجدار وهو يتكون من عمودين قائمين وأسكفة وعتبة من الحجر . ولا يتسرب الضوء إلى الطابق الأرضي إلا عن طريق هذا الباب ، أما النوافذ وعددها اثنتان أو أربع أو ثمانية نوافذ فى الطابق الواحد فكانت صغيرة ومربعة ومزودة بستائر لتحمى السكان من الحر والغبار . وقد عثرتُ فى تانيس على نافذة من الحجر لا يزيد طول ضلعها على ذراع واحدة وكانت عبارة عن قطعة من البلاط المثقوب كالدنتله وتقوم مقام الستارة ، كما عثرتُ أيضا فوق نافذة مربعة على إطارين منقوشين باسم الملك مرى إن بتاح . وقد رسمت على بعض النقوش بطيبه ، خطوط أفقية على الجدران كأنها عملت بالبلوط السميك أو زخرفت بالألواح . وفى تانيس ظهر تفسير هذه الخطوط إذ اتضح أن البنائين يضعون الملاط على السطح الأفقى للبناء بينما يكتفون بالطين بين الفواصل الرأسية . وحينما يتم البناء نجد أن الجدار قد أصبح مخططا بخطوط أفقية بيضاء .

وتخصص الغرف فى الطابق الأرضى فى غالب الأحيان للحرف المنزلية ، حدث هذا فى طيبه ، على سبيل المثال ، فى منزل أحد الأهالى المدعو تحوتى نفر حيث كان النساء يغزلن بينما يعمل الرجال بالنسج على الأنوال ، وفى الغرف المجاورة كانوا يطحنون الحبوب ويعدون الخبز . ويعيش أصحاب المنزل فى الطابق الأول فى غرفة أكثر اتساعا ، ينفذ إليها الضوء من خلال نوافذ صغيرة مرتفعة . وتسند سقفها أعمدة على هيئة ساق اللوتس . ويبدو أن الباب كان مزدانا بلوحات طعمت به بالمينا إذ لم يكن الخشب نفسه قد نقش مباشرة . ولم تكن ثمة نقوش على حواجز الجدران وإن كان من المألوف لدى المصريين أن يغطوا بالرسوم كل ما لديهم من

سطوح عالية . وقد عثرت فى تانيس بأحد المنازل ، التى تنتمى إلى العصر المتأخر ، على حواجز جدران داخلية طليت بالملاط وبها لوحات قديمة عليها راقصات ومراكب، ولاريب فى أن هذه الوسيلة كانت قديمة العهد ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن غرف المنازل تماثل غرف المقابر فى طيبه حيث كانت ترسم كرمة على السقف بينما ترسم مناظر الصيد والرحلة إلى مدينة أوزيريس المقدسة * ومناظر أخرى مماثلة كانت ترسم فوق الجدران الداخلية .

وكان سقف الطابق الثانى منخفضا إلى حد لايحتاج الإنسان معه إلى الوقوف على أطراف أصابع قدميه لكى يلمس السقف بأصبعه .

وتخصص فى هذا الطابق غرفة لرب البيت ليتولى فيها زينته. كان يجلس على مقعد مريح ذى مساند جانبية ويحمل إليه الخدم الأبريق والطشت والمروحة والمذبة، وأمامه يجلس الكتبة القرفصاء يقرأون البريد ويسجلون الأوامر .

ولا يتوقف خدم آخرون عن الحركة فوق درجات السلم وفى الممرات ، وهم يحملون صرراً على رءوسهم وجرارا مملوءة بالماء معلقة فى طرفى عصا يحملونها على أكتافهم. (٣٢)

كان نفس هذا النظام سائدا فى منزل أحد الأشخاص المدعو ماحو ، فكانت الجرار مكومة فى الطابق الأرضى . أما الطابق الأول فكانت توجد به حجرة الطعام ، وكان الطابق الثانى مملوءا بالدروع والأسلحة وأدوات أخرى كثيرة ، ولما كان ماحو رئيسا للشرطة ، فاننا نعتقد أنه كان ينام الليل هنا ليستطيع فى حالة استدعائه بغتة أثناء الليل أن يحمل سلاحه ويعدو فورا خلف المجرمين . كانت سطوح المنازل عادة مسطحة ، ويمكن الصعود

---

* أبيدوس

إليها إما بدرجات سلم مبنى أو بوساطة سلم متحرك . أقام البعض عليها ، مثل تحوتى حتب صوامع للغلال ، وأقام آخرون سورا من الخشب * على حافة السطح حماية لأطفالهم أو تجنبا لنظرات متطلعة إليهم وهم ينامون ليلا فى العراء . وأقام كل من نب آمون ونختى على سطحى منزليهما بناء إضافيا على هيئة مثلث هرمى بزاوية قائمة فسر بأنه يثر للتهوية . **

ومع ذلك فان المنازل ذات الأسطح المدببة لم تكن مجهولة فى مصر ،ففى إحدى مقابر أبو رواش ، بالقرب من القاهرة ، التى تعاصر زمن الملك دن *** الذى عاش فى عهد يرجع إلى ألفى عام قبل عصر الرعامسه ، قد وجدت قطعتين من أدوات اللعب المصنوعة من العاج وهى تمثل منازل ذات سطوح مائلة ومكونة من مثلثين ومن شكلى شبه المنحرف . (٢٢)

وبناء السطوح على هذه الصورة العلية فى مثل هذا العهد العتيق ليدعو حقا إلى الدهشة لأن مثل هذه الفكرة لا يمكن تصورها إلا فى بلد تكثر فيها الأمطار أو تتوافر فيها الأخشاب، أما فى مصر فلا توجد أمطار إلا فى المنطقة الساحلية. وحتى فى هذا المكان، وإلى يومنا هذا، فكل المنازل تعلوها سطوح مستوية. ومن المحتمل أن تمثل قطعتا أبو رواش نوعا من المساكن الدخيلة على مصر ،إذ ليس لدينا أى برهان على أن مثل هذه المساكن كانت سائدة فى أى مكان بالإقليم المصرى فى عهد الرعامسه .

وحتى فى طيبه لم تكن المساكن متلاصقة تلاصقا شديدا . ولم تكن

---

* على هيئة الدرابزين .

** هى المعروفة باسم مصيدة الهواء أو ملقف ولاتزال تشاهد فى المبانى القديمة لاسيما فى الصعيد .

*** رابع ملوك الأسرة الاولى وحكم حوالى عام ٢٩٠٠ قبل الميلاد .

الأرض غالية الثمن لتحول دون إمكان زرع أشجار إما فى فناء صغير داخل المسكن أو أمام واجهته . ففى منزل نب آمون تظهر نخلتان وكأنهما ناميتان فوق سطح المنزل ، ومع ذلك فقد كانتا مثقلتين بثمار البلح . كما تظلل باب منزل نخت نخلة وشجرة جميز . وقد رسم على جدار المقبرة رقم ٢٣ فى طيبه منزل مرتفع أكثر مما هو عريض ، بين صفين من الأشجار ، بينما فى مقبرة أخرى معروفة برقم ٢٥٤ نرى أمام منزل ، ثلاثة أشجار رمان زرعت فى أصص من الفخار المزخرف بألوان عديدة كما نشاهد أمامه أيضا شجرتان من الدوم.(٢٤) وقد بذل المصريون كل جهدهم ، حتى الطبقات الفقيرة منهم ، لتكون مساكنهم جميلة ومريحة ، كما عنوا عناية كبيرة بالعمل على وقاية أنفسهم من أعداء الراحة المنزلية وهى عديدة كالحشرات والفيران والأبراص والثعابين والطيور الجارحة . وتحوى بردية ايبرس الطبية بعض الوصفات النافعة.(٢٥) فاذا أردنا التخلص من الحشرات المنزلية فينبغى غسل المنزل بمحلول النطرون أو طلاء جدرانه بمادة تسمى « بيبت » تصحن مع الفحم . وإذا وضعنا ملح النطرون أو سمكة مجففة من البلطى أو حتى بذور البصل فى مدخل جحر الثعبان ، فالثعبان لا يغادر جحره ، أما دهن طيور الصفارى فجد مفيد ضد الذباب ، وبويضات السمك ضد البراغيث ، وإذا وضعنا دهن قط على الزكائب أو على الصرر فالفيران لا تقربها . ولإبعاد الحشرات القارضة عن الغلال يحرق فى المخزن روث الغزلان أو تطلى الجدران أو الأرضية بمحلول من هذا الروث .

وهاك وصفة مؤكدة لمنع الحدأة من الخطف ، يزرع فى الأرض فرع من شجرة اللبخ وتوضع بجانبه كعكة ، ويتلى عليها ما يلى : « كانت حدأة تخطف من المدينة ومن الريف .. طيرى ، اطبخيها ثم كليها » . وترديد هذا

الكلام على فرع شجرة اللبخ ، بعد أن توضع عليه فطيرة هى الوسيلة الكفيلة بمنع الحدأة من الخطف .

ورائحة البخور ناجعة فى تنقية هواء قاعات الثياب . ولم تكن هذه الوسيلة فى متناول جميع الناس ، إذ كان يجب أن يضاف للبخور صمغ التربنتين وبعض المواد الأخرى المصرية والأجنبية . وهذه الوصفة مثل سابقتها دليل على الرغبة فى الإبقاء على المنزل نظيفاً نقيا . كانت هذه الرغبة الطبيعية تحمل السلطات على إصدار أوامر عامة لنزح المياه القذرة ورفع القمامة وفضلات المنازل . ومع ذلك ، فلا نستطيع الجزم بذلك لعدم وجود مستندات تؤيد ما نقول .

٤ — الأثاث

يتألف الأثاث ، فى أغلب الأحيان فى قاعات الاستقبال فى القصور الملكية وفى مساكن الأغنياء من مقاعد مختلفة الأشكال ، صناعتها بسيطة فى معظم الحالات وتماثل صندوقا مربعاً ، له مسند لا يزيد طوله عن طول اليد الواحدة . وزخرفت جوانبها بغرس من قشور نباتية .

كانت جودة المواد الخام التى يصنع منها الأثاث، ودقة الصناعة تعوضان بساطة صنعه . غير أن المقاعد ذات المتكأين المثقوبة من ناحية إلى أخرى ، كانت أكثر منها فخامة ومريحة إلى أبعد الحدود ، لها أربع قوائم على هيئة أرجل الأسد ومسند كبير ومرفقان . أما المقاعد المخصصة للملك والملكة فكانت أكثر روعة ، تحلى مساندها ومتكآتها من الواجهة والخلف بنقوش مستمدة من موضوعات النحت الرفيع سواء أكانت منقوشة على الخشب أم على الجلد ، أم المعدن المطروق كالذهب والفضة والنحاس وترصع

بالأحجار الكريمة ، وقد يمثل الملك على هيئة عقاب أو على هيئة أبو الهول يحميه ثعبان الكوبرا أو الصقر أو العقاب الذى يمزق بمخالبه أسيويا أو زنجياً . وتشاهد كائنات غريبة* مثل أولئك الذين استجلبوا بثمن غال من بلاد بونت أو من أعالى النيل ، وهم يرقصون على دقات الطبول . والملك يتناول من يد الملكة الزهرة التى تجلب الحب . بينما تربط الملكة عقداً حول رقبة زوجها ،وترى رسوم تمثل رءوس أسود أو عقبان أو نساء على حافة المقعد . وفى الناحية الأمامية للمتكآت وبين قـــوائم المقعد تنمو النباتات الرمزية للجنوب والشمال وتكون علامة هيروغليفية كبيرة هى رمز الاتحاد.(٣٦)

وكان هناك نوعان من المقاعد التى لا مساند لها ، وأكثرها بساطة تلك التى كانت أرجلها رأسية ، وأكثر منها فخامة تلك التى كانت أرجلها متقاطعة على هيئة العلامة × وتنتهى برأس بطة ، وكانت القضبان بدورها تنتهى برءوس حيوانات وكانت الأرضية تفرش بالحصر وعليها الكثير من الوسائد (٣٧) وكانت الوسائد توضع أيضاً خلف ظهور الجالسين على المقاعد وتحت أقدامهم . وإذا كان عدد الناس يزيد عن عدد المقاعد ، فيجلس آخر من يأتى أو أصغر الموجودين سناً على الوسائد أو حتى على الحصر .

وإذا كانت قاعة الطعام منفصلة عن قاعة الاستقبال ، فإنها تزود بمقاعد وتجلب لها مناضد مستديرة للضيوف ، وموائد وأرفف توضع عليها سلات الفاكهة وأطباق اللحوم والخضراوات والأوانى والأكواب . وهذا الأثاث كثير العدد ولكنه صغير الحجم . ولم يفكر المصريون إطلاقاً فى

---

* المقصود بهم الاقزام.

عمل مناضد كبيرة يمكن أن يجتمع حولها عدد كبير من الضيوف، فكان من عادة المصرى أن يتناول الطعام وحده أو ضمن مجموعة من اثنين .

ومنذ أقدم الأزمنة ، كان يستعمل نوعان من أوانى المائدة فكانت الآنية العادية من الفخار أما الآنية الفاخرة فكانت من الحجر ، وكانت تصنع غالباً من حجر الشست الأسود أو الأزرق ومن الرخام الأبيض . وكانت فى النادر تصنع من الرخام الأحمر . أما الأوانى الكبيرة الحجم فكانت تصنع من الجرانيت . وكانت الكئوس الصغيرة الحجم تصنع من الحجر الصخرى المتبلور (الكريستال) وكانت تصنع من هذه المواد المختلفة الآنية ذات الشكل الأسطوانى أو البيضاوى والكئوس والأقداح والأكواب والأطباق والبرانى ذات الصنبور والأباريق وسلاطين الحساء والأوانى ذات القاعدة ، وقد رسم بعض الصناع عن وهبوا خيالا واسعاً ، على سطح أبريق الشبكة التى يقدم داخلها هذا الأبريق ، أو يشكلون إناء على هيئة مركب أو حيوان.(٣٨)

ولم تتوقف إطلاقا صناعة الأوانى الجميلة من الأحجار ، ومقابر عهد الامبراطورية الحديثة تقدم لنا منها مجموعة هامة ،ومع ذلك فقد كانت الآنية المفضلة هى التى تصنع من الذهب أو الفضة ، وكانوا يصنعون أباريق لتستخدم فى الطقوس الدينية ، ويصنعون كثيرا غيرها للاستعمال الدنيوى (٣٩)

وكانت تحضر المشروبات الساخنة فى أوان على هيئة غلايات ذات مصفاة داخلية مثبتة داخل الصنبور ، وتشبه أباريق الشاى التى تستعمل فى الوقت الحاضر . كما كان من الممكن صب المشروب الساخن خلال مصفاة يتسرب منها السائل فى قدح يمسكه الشارب ، لو فضل ذلك . وقد هيء الأبريق

المشهور ذو الماعز وهو أحد كنوز بوبسط ليكون إناء لحفظ اللبن. وكانت الأوانى المخصصة للمشروبات ، ذات أشكال مختلفة ، فمنها أقداح ذات قاع مستدير وصنبور ، وآنية مستديرة ذات مقبض وصنبور وأقداح فى نهايتها مقبض طويل تماثل معيار اللبن فى فرنسا . وكانت الفناجيل ذات المقبضين والأوانى المستطيله المزينة ملائمة الزبد والفطائر . وكان يصر رمسيس الثالث ، عند قيامه بحملة حربية على أن يحمل ضابط الإمدادات معه إناء كبيرا من الذهب ذا مقبض ، سعته ثلاثة لترات تقريبا ، كما يحمل قنينة المياه.(٤٠) وكان الذين لا يستطيعون استعمال هذه الأوانى، التى تعد على درجة كبيرة من الفخامة ، يكتفون بأوان من الفخار . وكان صناع الفخار ينتجون منذ زمن قطعا جميلة من الفخار الجيد النوع ويرسمون عليها زخارف هندسية أو صور أزهار أورسوما حية مثل تلك التى نراها محفورة على الأوانى المعدنية وتمثل طائرا يلتهم سمكة وحيوانات تتسابق راكضة .

ومنذ أول عهد الامبراطورية الحديثة استوردت مصر من الخارج ، من الجزر ومن سوريا ومن بلاد النوبه ، أدوات كمالية فاخرة مثل أوانى الخلط وجرار الخمر وقواعد الأوانى المصنوعة من المعادن والأحجار الكريمة والتى لم تكن الحاجة إليها ماسة ولكنها كانت تستخدم كوسيلة لتكوين مجموعات من شتى أنواع النبات والحيوان فى البلاد الأجنبية، الحقيق منها أو الخيالى على السواء . وكان للمعابد نصيب وافر من معظم هذه الأشياء الثمينة ولكن فرعون كان يحتفظ لنفسه ببعض النماذج الجميلة منها . وقد انتشر ذوق هذه القطع الأجنبية الجميلة بين الأهالى. فبدأ الصياغ المصريون فى صناعة مثيلاتها

وكان من ضمن الأعمال المكلف بها الأمير قناءون Qenamon الذى كان يشغل مناصب عليا ، تقديم هدايا رأس السنة إلى الملك ، وقد سجل على جدران مقبرته ، المجموعة الكاملة لتلك الهدايا التى صنعت فى المصانع الملكية.(٤١) ويلاحظ بصفة خاصة قطعة من الأثاث رسمت عليها غابة من نخيل الدوم ونخيلات سورية وقد تشابكت مع نباتات النيلوفر وزهور الأقحوان. وترى قرود تقفز فوق سيقان النباتات لتجنى ثمار النخيل. وهناك قطع أثاث أخرى تتفق والذوق التقليدى . وتماثيل من الأبنوس وأخرى من الأبنوس المطعم بالذهب تمثل الملك والملكة فى أشكال مختلفة ، إما فوق قاعدة أو فى صوان أو على شكل أبو الهول ذى الرأس الآدمى ، أو رأس الباز ، أو ماعز وغزلان مستلقية فوق الموائد والصناديق وأعتقد أن كل هذه القطع كانت مخصصة لتأثيث القصور الملكية وقاعات الاستقبال .

أما فى غرف النوم فكان السرير هو القطعة الأساسية . وكان من الأسرة ما هو بسيط الصنع إلى أبعد الحدود . إطار خشبى تقوم عليه عارضة تحملها أربع قوائم ، تماثل فى أغلب الأحيان أرجل الثور أو الأسد . وقد حفظت لنا مقبرة توت عنخ آمون أسرة فاخرة ، كل ناحية منها على هيئة حيوان كامل ، البقرة والفهد، وفرس البحر . وتحتوى الغرفة أيضا على أصونة من الخشب المشغول بالمرصعات حيث كانت توضع بها الملابس الداخلية والثياب . أما أدوات الزينة كالمرايا والأمشاط ودبابيس الشعر والشعور المستعارة فكانت تحفظ فى صناديق وخزائن مختلفة الأحجام . وأما مستحضرات التجميل كالمراهم والروائح العطرية فكانت توضع فى أوان من الزجاج الطبيعى أو من العاج . أما القاعات المخصصة لأفراد الأسرة كالأطفال والبنات فكانت تترك بها الآلات الموسيقية وصناديق اللعب .

أما قاعات المكاتب فكانت تؤثث بأصونة ذات طابع خاص تزدحم فيها المخطوطات وملفات الرقوق وأوراق البردى وجميع الأدوات التي يحتاج اليها الكاتب . وعندما تكتب ورقة البردى كانت تطوى وتربط ثم تختم وتوضع الملفات فى ربطات ، وتحفظ الربطات فى حقائب من الجلد . وهذه تحفظ بدورها فى الأصونة . (٤٢) ولم يكن الكتاب فى حاجة إلى مناضد ليكتبوا عليها، وكان يكفى الكاتب أن يبسط ورقة البردى على ركبته وهو جالس ، وفى بعض الأحيان كان يكتب وهو واقف قابضا على ورقة البردى باليد اليسرى ، دون أن تطوى الورقة . وعندما يفرغ من الكتابة يضع كل أدوات الكتابة داخل مايشبه حقيبة غير رخصة ، ذات سطح مستو ، مزودة بقفل ينزلق ليسدها ، وفى نهايتها سير تعلق منه .

أما أثاث المطابخ فيتكون من مناضد ذات أربع قوائم وأوعية من الفخار السميك ذات الأشكال والأحجام المختلفة . وكانت الأفران تصنع من الصلصال الذى يتحمل النيران . أما المواقد المعدنية ذات القوائم الطويلة التى كان يشوى عليها الأوز ، فلم تكن تستخدم ، كما أعتقد ، إلا فى المعابد ، ولم يكن يلجأ إلى استعمالها طباخ يهوى مهنته .

أما فى المنازل الصغيرة ، حيث كان يتجمع كل أفراد الأسرة فى غرفة لا تتجاوز مساحتها عشرين مترا مربعا فكانت تقل قطع الأثاث فيها حتى تصبح مجرد حصير ، وبعض أوان من الفخار . وهنا كانت بعض الأرفف والصناديق الخشبية تعد على أنها دليل على الثراء .

الفصل الثاني

الزمن

١ ـ الفصول

لم تكن السنة بالنسبة للمصريين مجرد الوقت الذى تستغرقه دورة الشمس بل المدة اللازمة التى يستغرقها محصول من المحصولات . وكانوا يكتبون كلمة سنة بالهيروغليفية رنپيت وهى عبارة عن رسم يمثل غصنا صغيراً به برعم ، وهذا الرمز الكتابى يوجد فى مجموعة مشتقات مثل : رنپي ومعناها « نضر ـ قوى » ورنپوت ومعناها المحصولات السنوية .

ولكن المحاصيل فى مصر تعتمد على الفيضان . وفى أوائل يونيه من كل عام تعانى البلاد من الجفاف وتنخفض المياه فى مجرى النيل وتهدد الصحراء بابتلاع أرض الوادى ، ويستولى على الناس شعور بالقلق الشديد ويقابل المصريون هبات الطبيعة السخية بعاطفة من الاعتراف بالجميل ممتزجة بالخوف ـ الخوف مثلا من تشويه الإله حين يقطع حجر من المحجر ، أو من خنقه حين تبذر حبة فى الأرض التى شقها المحراث، والخوف من سحقه عندما توطأ الغلال لدرسها أو قطع رأسه عندما تقطع السنابل . وعلى قدر ما كانت تعى ذاكرة الناس، فإن الفيضان لم يتخلف إطلاقا . وكان يأتى أحيانا عاليا جدا وأحيانا أخرى منخفضا ، إلا أنه كان دائما سخيا يروى الأرض العطشى ، وبالرغم من أن التجربة لم تفشل إطلاقا ، فإن سكان شاطىء النهر

لم يكونوا ليطمئنوا اطمئنانا كاملا، «حينما يضرع إليك الناس كل عام لتمنحهم الماء اللازم لهم طوال العام ، يروى القوى والضعيف على السواء . ويخرج كل رجل ومعه معداته ، دون أن يتقاعس أحد اتكالا على جاره ، لقد تجرد الكل من ملابسهم ، أما أبناء الطبقة الراقية فلا يتزينون ولا يصخبون فى الليل بالأغانى ».(١) لقد فرضت التقوى على المصريين أن يضعوا النيل فى صف الآلهة منذ أقدم العصور ، أطلقوا عليه اسم حابى Hāpi وصوروه فى هيئة رجل شديد الامتلاء ، له ثديان متدليان وبطن مكتنز ، يشده حزام ، وفى قدميه نعل . وهذه إحدى علامات الثراء ، ويتوج رأسه إكليل من النباتات المائية ، ويداه تنشران علامات الحياة أو يحمل بين يديه مائدة مثقلة بالقرابين تكاد تختفى تماما تحت أكوام من السمك والبط وباقات الزهور وسنابل القمح . وكانت بلاد كثيرة تحمل اسم حابى ، ويطلق عليه أبو الآلهة، لذا كان من الواجب ألا يكون الشعب أقل إكراما له عن الآلهة الأخرى. ولم يقصر رمسيس الثالث فى ذلك ، فطوال مدة حكمه فى مدينة أون وفى مدينة منف مدى ثلاث سنوات، أنشأ رمسيس أسفار حابى أو جدده احيث سطر فيها أنواع مختلفة كثيرة من الأطعمة والمحصولات ، وكانت تصنع للمعبود حابى آلاف من التماثيل الصغيرة من الذهب والفضة والنحاس أو الرصاص والفيروز واللازورد والقيشانى ومن مواد أخرى، وكذلك كانت تصنع خواتم وتمائم وأقراط وتماثيل صغيرة لزوجة حابى واسمها ربيت (٢) وفى اللحظة التى يجب أن يرتفع فيها منسوب مياه الفيضان كانت تقدم القرابين للمعبود حابى فى كثير من المعابد وتلقى أسفار النيل فى بركة معبد «رع حر أختى» فى مدينة أون ، الذى كان يسمى قبحو Qebehou . وكان ارتفاعه يماثل ارتفاع نهر النيل عند الشلال وربما كانوا يلقون فيها أيضا تماثيل صغيرة (٣) وكانوا يكررون احتفالهم مرة أخرى بعد شهرين،

عندما يصل الفيضان إلى أقصى ارتفاعه ، ونهر النيل الذى يخترق أرض الوادى وينساب فى يسر بين الصحراوين محولا المدن إلى جزر ، والقرى إلى جزر صغيرة ، والجسور إلى سدود ، يبدأ منسوب مياهه فى الانخفاض. وبعد أربعة شهور من ابتداء ظهور الفيضان تعود مياه النيل إلى مجراها العادى . وهذه الفترة التى تستمر أربعة شهور ، كان المصريون يعدونها أول فصول السنة وسموها آخت أى الفيضان .

وبمجرد أن تنحسر المياه عن الأرض كان الفلاحون ينتشرون فى الحقول دون أن يتركوا للأرض الوقت لتجف ، فيحرثوها ويبذروا الحب فيها ، وبعد ذلك لم يكن لديهم لمدة أربعة شهور أو خمسة إلا أن يرووها ، ويأتى بعدئذ موسم الحصاد . وبعد الحصاد يدرسون الحبوب ويخزنونها ، إلى غير ذلك من مختلف الأعمال التى كانوا يقومون بها . وعلى هذا فهناك فصل للفيضان آخت ، يعقبه فصل لانحسار المياه عن الأرض بيريت ثم فصل المحصولات شيمو وعلى هذا فمجموع فصول السنة عند المصريين ثلاثة فصول بدلا من أربعة كما كان الحال عند العبرانيين والإغريق .

ومهما كانت ظاهرة الفيضان منتظمة فإنه كان من العسير تحديد ابتداء السنة اعتمادا على مجرد ملاحظة ارتفاع مياه الفيضان ، ولكن فى الوقت الذى تبدأ فيه مياه النيل فى الارتفاع يحدث فى هذه الآونة حدث يمكن أن يكون مرشدا لمنشئ التقويم ، فإن النجم سيريوس واسمه بالمصرى القديم سوبديت Sôpdit (الأبرق من الشعرى اليمانية) ، والذى لم يكن يظهر منذ مدة طويلة ، يبزغ للحظة بسيطة فى الشرق تماما قبيل شروق الشمس مباشرة .

ولم يفت المصريين أن يربطوا بين هاتين الظاهرتين فإنهم كانوا يعزون الفيضان إلى دموع إيزيس وكانوا يعتبرون ظهور النجم بمثابة احتفال بهذه المعبودة . ولذلك اعتبروا إيزيس شفيعة السنة ، واليوم الذى تظهر فيه النجمة سوبديت اعتبر أول أيام السنة . وقد سجلت هذه المعادلة فى كتاب « بيت الحياة » الذى كان عبارة عن سجل للتقاليد والمعلومات التى ظلت سائدة منذ عهد الدولة القديمة حتى العصر المتأخر.(٤) وتقويم رمسيس الثالث الذى حفر على سور خارجى لمعبده فى مدينة حابو ، نص فيه على أن عيد الآلهة سوبديت الذى يحتفل به عند بزوغ هذه النجمة يتفق مع أول يوم من أيام السنة.(٥) وفى أغنية عاطفية يقارن المحب حبيبته بالنجمة التى تظهر فى بدء السنة الكاملة رنبيث نفرت (٦) لأنه كان ثمة سنة عرجاء مبهمة تسمى رنبيت جاب حيث لا يظهر المعبود شو اطلاقا ويحل الشتاء محل الصيف ولا تنتظم الشهور فى أوقاتها . والأهالى لا يحبون هذه السنة ، فيقول الكاتب « نجنى من هذه السنة العرجاء (٧) فالمزارعون والصيادون وصيادو الأسماك والمكتشفون والأطباء والكهنة كل أولئك كانوا مضطرين إلى إحياء معظم احتفالات الأعياد فى أوقات معينة ، ويشاركهم فى هذا كل من كانت أعماله تتوقف على الظواهر الطبيعية فيستعملون السنة الكاملة حيث بقيت الشهور والفصول دون تغيير ، وحيث كان آخيت يستمر أربعة شهور ، يكون قد امتلأ النيل خلالها بمياه الفيضان ، وبريت يوافق وقت البذر الذى يتفق وموسم الاعتدال ، وشمو يوافق موسم الحصاد والأيام الحارة . ولهذا كانوا يقولون عن فرعون إنه ملطف للحرارة فى فصل شمو ، وركن أدفأته الشمس فى فصل بريت.(٨) وكان عمال المناجم الذين يستخرجون الفيروز من سيناء يعلمون أنه

لا يجب الانتظار إلى شهور فصل شمو لأن الجبال تكون خلال هذا الفصل الردىء ملتهبة مثل الحديد المنصهر ، مما يؤثر فى لون الأحجار الكريمة. (٩)

وكان الاطباء والبيطريون يعلمون أن بعض الأمراض والتوعكات يتفشى موسميا ، فالبعض منها يظهر خلال فصل پريت ، والبعض الآخر فى فصل شمو .

وقد بلغت بهم الدقة فى العلاج بأن وصفوا أن تعطى بعض العقاقير فى الشهر الثالث أو الرابع من فصل پريت ، بينما تعطى عقاقير أخرى فى الشهرين الأولين من هذا الفصل نفسه . وعلى النقيض من ذلك كانت بعض التركيبات الأخرى مفيدة خلال فصل آخت أو پريت أو شمو ، وبمعنى آخر فى أى وقت طوال العام. (١٠) ورغبة فى التيسير وسهولة الاستعمال قسمت فصول السنة الثلاثة إلى اثنى عشر شهراً كل شهر ، يتكون من ثلاثين يوماً . وقد كان هذا لا يزال مستعملا فى عصر رمسيس كما كان مستعملا من قبل فى أقدم العهود السابقة ، حسب ترتيبها فى الفصل، فيقال : الشهر الأول أو الثانى أو الثالث أو الرابع من آخيت أو من پريت أو من شمو .والأسماء التى أخذت من الأعياد الشهرية لم تستعمل إلا فى العصر الصاوى وكانت تضاف خمسة أيام فى آخر الشهر الرابع من فصل شمو لتكملة العدد ٣٦٥ . فكيف استطاعوا إذن التوصل إلى أن يبقى التقويم ثابتاً ويحولوا دون تأخير بدء السنة يوماً كل ٤ سنوات ؟ لا توجد مستندات فرعونية تذكر ذلك . ولكن سترابون ذكر بطريقة غير مألوفة ، أنهم كانوا يضيفون يوماً فى بعض المناسبات عندما تكمل كسور الأيام الزائدة كل سنة يوماً كاملا. (١١) وكان من الأفضل أن يضيفوا يوماً كل ٤ سنوات، وقد تم

هذا عندما أتيح لمصر الحظ السعيد فى أن يتولى عرشها ملوك مثل الملك سيتى أو ابنه . ونستطيع أن ندرك أن هذا اليوم الإضافى قد أهمل أمره تماماً خلال أيام الاضطرابات ، وبذلك اختل التقويم إلى أن لفت علماء «بيت الحياة» نظر أحد الفراعنة المتنورين إلى ذلك ، فنظم التقويم وجعله متمشياً مع الطبيعة وأعاد بدء السنة إلى يوم عيد سوبديت .

٢ ـ الأعياد والأجازات

لم يكن أول يوم فى السنة عيد المعبودة سوبديت فحسب ، ولكنه كان عيداً يحتفل به فى كافة أرجاء البلاد . وفى معبد أوب واوات ، «كان أهل المنزل يقدمون هداياهم لسيدهم »(١٢) ويعنى هذا كما أعتقد ، أن كهنة المعبد كانوا يقدمون للمعبود القرابين التى كان القرويون قد أحضروها فى الأيام السابقة . وقد سجل الأمير قن آمون Qenamoun على مقبرته صور الهدايا الثمينة التى قدمها بمعرفته للملك بمناسبة يوم رأس السنة .(١٣) فهل يكفى هذا للاعتقاد بأن كل المصريين كانوا يتبادلون فى ابتداء السنة التمنيات والهدايا؟

لقد كانت الأعياد ، طوال السنة عديدة جداً ولا حصر لها . وخاصة فى فصل آخيت حين كانت تتوقف الأعمال الزراعية . وكان عيد أوبت الكبير يستمر زهاء شهر خلال هذا الفصل . أنا لا أجزم أن الأهالى كلهم كانوا يحصلون على أجازة لمدة شهر ولكن من المؤكد أن حشوداً عديدة كانت تحتفل بالمركب المقدسة لآمون ويتبعون ركابها من شاطىء النهر عندما تتجه إلى أوبت الجنوبية ، وكان المصريون يتركون بسرور بالغ أعمالهم ليشتركوا فى أعياد بوبسطة ، فيركبون القوارب ومعهم نساؤهم يحملن الصاجات ، والرجال لا يكفون طوال الطريق

عن الغناء والرقص وتبادل الدعابات مع من يصادفونهم فى الطريق . ويقال إنهم خلال العيد كانوا يشربون كميات وفيرة من النبيذ تفوق ما كانوا يتناولونه طول العام . وعيد تيخى وهى كلمة تعنى « السكر » كان يحتفل به فى اليوم الأول من الشهر الثانى — وكان من الأعياد المحبوبة التى لا يتخلى عنها . وكان اليوم الأول من الشهر الأول من فصل البذر يحتفل به كعطلة عامة فى مصر كلها . وكان من الواجب أن يحتفل كل أقليم فى كل مدينة مرة فى السنة على الأقل بالمعبود المحلى الذى كان سيدهم وحاميهم . ولما كانت آلهة المصريين مغرمة بالرحلات وبكرم الضيافة فكان كل معبد ، مهما كانت درجة أهميته يستضيف العدد الوفير من هذه الآلهة .

وكان لبتاح معبود منف أملاك داخل حدود الكرنك وكان لواجيت سيدة إيميت Imit أملاك فى تانيس . فالأهالى الذين لم يكن فى مقدورهم التخلى عن واجب الاحتفال بمعبودهم المحلى كانوا لا يستطيعون أن يهملوا الاحتفال بالآلهة الصديقة ، فكانوا يتعطرون ويتزينون بالملابس الجديدة ثم يتوجهون للمعبد لتقديم القرابين ، وكان يسمح لهم بتناول الشراب والأطعمة والصياح أكثر من المعتاد . وكانت بعض الأعياد متأصلة فى النفوس ومحترمة إلى حد كبير ، حتى أنه إذا لم يكن للمعبود المحتفى به هيكل فى المعبد المجاور كان يحتفى به فى البيوت ذاتها ، وفى هذه الأثناء لا يمارس إنسان أى عمل جديد ، وفى بعض الأحيان لا يمارس أى عمل إطلاقا . وقد كان من حق الفلاح والعامل أن يقولوا ، كما قال الاسكافى فى قصص لافونتين * إن الخورى ، يشيد دائما فى عظته الأسبوعية بسيرة أحد القديسين الجدد ، ويظهر ، من ناحية أخرى

* خرافات لافونتين الكتاب الثامن الجزء الثانى .

أن أول كل عشرة أيام كان بمثابة أيام الآحاد . وقد نقش على لوحة السنة الثامنة التي أقيمت في معبد حاتحور بمدينة أون ، خطاب رمسيس الثاني للعمال الذين قاموا بتجميل معابده وقصوره : « لقد ملأت لكم الصوامع بكافة الأشياء ، فطائر ولحوم وحلوى ونعال وملابس وروائح عطرية تعطرون بها رءوسكم كل عشرة أيام وملابسكم لطول العام ، ونعال لأقدامكم كل يوم.(١٤) ولم يكن من المعقول أن يطلب من هؤلاء الذين يفرطون في زينتهم وتمتلىء بطونهم بالطعام الشهى الدسم أكثر من المعتاد ، أن يؤدوا أعمالهم .

٣ ـ أيام السعد والنحس

بعد أن يتمم المصرى واجباته نحو الآلهة ويراعى العطلة الدينية ، كان لا يستطيع أن يستمتع بالملذات أو يؤدى أعمالا نافعة دون أن يحتاط لأمره ، وكانت الأيام مقسمة إلى ثلاثة أقسام مختلفة :

أيام سعيدة ، وأيام منذرة ، وأيام معاكسة عدائية ، وذلك وفقا للأحداث التي طبعت بها وقت أن كانت الآلهة على الأرض ، ففى نهاية الشهر الثالث من موسم الفيضان توقف المعبودان هورس وست عن النضال المخيف الذى كان ناشبا بينهما . ومنذ تلك اللحظة ساد السلام جميع أرجاء العالم ، وأعطى هورس ملكية القطر المصرى بأكمله ، بينما استولى ست على الصحراء على مدى اتساعها وأصبح الإلهان فى صفاء دائم وونام مستقر أمام الآلهة الذين سادهم السرور ، لأن النزاع كان قد امتد إلى جميع سكان السماء . وتوج هورس رأسه بالتاج الأبيض بينما لبس ست التاج الأحمر . كانت هذه الأيام الثلاثة سعيدة ، وكان أول يوم فى الشهر الثانى من فصل بريت من الأيام السعيدة أيضاً لأن رع رفع السماء بقوة ساعديه فى ذلك اليوم .

وكذلك اليوم الثانى عشر من الشهر الثالث من هذا الفصل ذاته (پريت) لأن تحوت أخذ مكان عظمة توم « فى حوض حقيقتى المعبد » .

ولكن سرعان ماعاد ست إلى القيام بأعماله الشريرة . فى اليوم الثالث من الشهر الثانى من فصل پريت ، اعترض ست وأعوانه طريق ملاحة المعبود شو . فكان هذا يوما منذرا ، مثل اليوم الثالث عشر من نفس الشهر ، الذى أصبح من الأيام المخيفة إذ كانت عين المعبودة سخمت تقذف فيه بالأوبئة . أما يوم ٢٦ من الشهر الأول من فصل آخيت فلم يكن فقط يوما مثيرا للقلق ، ولكنه كان يوم نحس بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، إذ أنه كان يوم الذكرى السنوية لوقوع المعركة الكبرى بين هورس وست . فقد اتخذ المعبودان هيئة البشر وأخذا يتصارعان على الضلوع ثم تغيرا على هيئة عجل البحر وأمضيا ثلاثة أيام وثلاث ليال على هذه الحال . إلى أن قامت إيزيس أم هورس وأخت ست وأجبرتهما على أن يتخليا عن هذه الهيئة المزرية حين طعنتهما برمحها . ويوم ميلاد ست وهو اليوم الثالث من أيام النسىء كان يوما مشئوما . فالملوك كانوا يمضون طيلة هذا اليوم حتى الليل دون أن يتفرغوا لأى عمل بل دون أن يعنوا حتى بإصلاح أنفسهم .

وكان سلوك الأفراد ينظم أيضا وفقا لطبيعة الأيام ، ففى خلال أيام النحس كان من المستحسن عدم مغادرة البيت سواء كان عند غروب الشمس أو فى الليل أو حتى فى أية ساعة من ساعات النهار . وكان من المحرم الاستحمام أو ركوب قارب أو القيام برحلة أو أكل سمك أو أى شىء آخر يخرج من المياه أو ذبح عنزة أو عجل أو بطة . كما كان الاقتراب من النساء محرما فى يوم ١٩ من الشهر الأول من فصل پريت . وفى أيام أخرى

كثيرة ، ومن فعل ذلك وقع فريسة للهلاك بالوباء ، وكانوا لا يجرؤون ، على إشعال النار فى بيوتهم ، وحرم عليهم الاستماع إلى الأغانى المرحة أو النطق باسم ست ، معبود الشجار والقسوة والشقاء ومن كان ينطق بهذا الاسم ، فى غير الليل دبت فى بيته مشاجرات ومنازعات دائمة .

كيف عرف المصرى ما كان يمكن عمله أو ما كان يمكن القيام به بمقدار ثم ما حرم عليه الإتيان به أصلا ؟ لاشك أنهم اعتمدوا فى ذلك على التقاليد الموروثة ، ولكن كانت لديهم تقاويم بأيام السعد وأيام النحس ، تعين ذاكرتهم وتبين لهم الحالات المشكوك فيها ، ولدينا أجزاء كبيرة من أحد هذه التقاويم وبعض أجزاء من تقويمين آخرين.[١٥] ويخيل إلى، لو أن الحظ واتانا فحصلنا على تقويم كامل لوجدنا المرجع الذى استند إليه المصريون فى اعتبار الشيء مسموحا به أو محرما . ولم تكن مصر وقتذاك ينقصها وحى الغيب . ونتائج تقويم أيام السعد وأيام النحس كانت ترد دون شك من المعابد التى كان فيها الوحى الغيبى . وكثيرا ما كانت هذه التقاويم متناقضة دون شك. فكان المصرى الذى يشعر بحاجة ملحة إلى الخروج من بيته أو السفر أو العمل فى يوم من أيام النحس ، يستشير وحيا آخر يعتبر هذه الأيام سعيدة ، وهى التى كان يعتبرها الوحى الأول من أيام الشؤم . وفى مراكز عبادة أوزيريس وهورس وآمون كانت تصرفات ست تذكر بكل مرارة ولكن فى باريميس Papremis [١٦] وفى شرق الدلتا بأجمعه وفى وسط الدلتا وفى الاقليم الحادى عشر فى الوجه القبلى وفى نوبيت Noobit وفى البهنسا Oxyrrhinque وبالاجمال فى كافة الأماكن التى كان يمجد فيها ست ، كانت نفس هذه التصرفات تلق تأييدا كبيرا وتعتبر من الأعمال العظمى ، ويوم الاحتفال السنوى بها كان يعد من الأيام السعيدة، ولنفرض مع ذلك أنه لم

تكن لدى المصرى السبل الميسرة ليستشير وحيا آخر أو كان لا يؤمن إلا بوحى نبوءته ، لقد كان يرشد إلى ذلك وربما كتبت فى نهاية التقويم السبل التى كانت تخرجه من مأزقه وتؤمنه على القيام بعمله كأن يتصل بزوجته دون خطر أو يستحم دون أن يبتلعه تمساح أو أن يلق ثورا دون أن يموت فى الحال . وكان عليه أن يتلو تعاويذ ملائمة للمناسبة التى هو فيها أو أن يلبس تميمة ، والأفضل من كل ذلك أن يتوجه إلى المعبد ليقدم قربانا صغيرا .

٤ — التوقيت

إن المصريين الذين قسموا السنة إلى اثنى عشر شهرا ، قد قسموا النهار أيضا إلى اثنتى عشرة ساعة وجعلوا الليل اثنتى عشرة ساعة كذلك ويظهر أنهم لم يقسموا الساعة بدورها إلى وحدات صغيرة .

فالكلمة « آت » التى نعبر عنها بلحظة ، لا توازى أى مدة من الزمن محددة . وكان للساعات أسماء ، فالساعة الأولى من النهار كانت تسمى البارقة ، والسادسة تسمى القائمة والثانية عشرة « رع يتحد بالحياة » والساعة الأولى فى الليل كانت تسمى « هزيمة أعداء رع » والساعة الثانية عشرة ليلا كانت تسمى « تلك التى تشاهد جمال رع ».(١٧)

وقد يحملنا هذا على الظن بأن تسمية الساعات بهذه الأسماء يجعلها تتغير من يوم إلى آخر ، ولكن ليس هذا بصحيح . ففى زمن الاعتدالين يتساوى الليل والنهار وفى بقية الأزمنة الأخرى كان المصريون يعرفون أن الشمس قد تتأخر أو تتقدم ولم يكن هذا ليقلقهم كما هو الحال بالنسبة لنا

الآن ، فإنه لايضايقنا أن تكون الساعة السادسة صباحا أو الثامنة مساء ، تمثل أوقاتا تختلف فى الشتاء عنها فى الصيف .

ولم يكن يستعمل الأسماء التى سبق أن ذكرناها ، غير الكهنة والعلماء ونجد بيانا بها على المقابر لأن حركة الشمس فى الأقاليم الإثنى عشر من العالم السفلى كانت تدخل النقوش الجنائزية وكان الأميون يكتفون بتحديد الساعات بوساطة الأرقام ، وتؤدى بنا هذه الملاحظة إلى التساؤل عما إذا كان المصريون قد شغفوا بمعرفة الساعة ، وعما إذا كانت لديهم الوسائل التى تمكنهم من ذلك . لقد كانت هناك طبقة من الكهنة تسمى أونويت Ounouyt اشتقت من كلمة أونوت Ounout التى تعنى ساعة ، كما لو كانوا يشتغلون بالتناوب من ساعة إلى أخرى ليمارسوا مراسيم دينية دائمة .

كان أحد كبار الموظفين فى عهد پيپى الأول Pepi* يزعم أنه كان يعد كل ساعات العمل التى تفرضها الدولة ، كما كان يحصى الحبوب والمواشى والمواد التى تحصل كضرائب.(١٨) وفى الخطاب الذى أرسله الملك نفر كارع إلى حر خوف** ، أوصى المكتشف الذى أحضر إلى البلاط قزما راقصاً ، أن يشرف على هذا الشىء الثمين ، رجال يقظون يعدون كل ساعة***.(١٩) وقد يكون من المبالغة أن نعتقد بناء على هذا النص أن أجهزة قياس الزمن كانت واسعة الانتشار ، فلم يكن الملك نفر كارع إلا صبيا حينما كتب لحر خوف . فمن الجائز أنه كان قد تصور فى سذاجة أن الأجهزة التى رآها فى القصر كانت فى متناول الناس جميعاً . وعلى كل حال ، فالأجهزة التى تقيس الزمن كانت موجودة

---

* أحد ملوك الأسرة السادسة .

** خوف حر

*** فى النص حرفياً : عشر مرات كل ليلة .

فى ذلك الوقت ويمكن أن نشاهد فى متاحفنا أمثلة منها ، وهى تنتمى إلى العهد فيما بين الأسرة الثامنة عشرة حتى العصر المتأخر .

وفى الليل كان من المستطاع تعيين الساعة بملاحظة النجوم وبالاستعانة بمسطرة مشقوقة وزاويتين بهما خيط ينتهى بثقل من الرصاص ،وينبغى أن يقوم اثنان بهذه العملية ، فأحدهما راصد والثانى شاهد — ويجب أن يقفا تماما فى اتجاه النجم القطبى ، ويستعين الراصد بلوحة قد أعدت من قبل لهذا الغرض صالحة للاستعمال لمدة خمسة عشر يوماً فقط ، وبواسطتها يمكن قراءة أن نجمة معروفة بالذات يجب أن تكون موجودة فى الساعة الأولى فوق وسط الشاهد، وفى ساعة أخرى يجب أن يكون نجم آخر فوق العين اليسرى أو العين اليمنى للشاهد.(٢٠) وإذا تعذرت رؤية النجوم كانوا يستعملون آنية قمعية الشكل طولها ذراع تقريباً ومثقوبة من أسفل.(٢١) وكانت سعة الإناء وقطر الثقب قد أعدت حساباً بحيث تنسكب المياه من الثقب فى مدة اثنتى عشرة ساعة تماماً وغالباً ما تزين الواجهة الخارجية للإناء بأشكال فلكية. أو بسطور كتابات ونقوش تتعلق بأشكال رسمت أفقيا : ففى أعلى الواجهة توجد معبودات الاثنى عشر شهرا وأسفلها رموز العشيرات الست والثلاثين ، وأسفل هذه عبارة إهداء الأثر ، وأخيرا رسم فى كوة صغيرة قرد وهو الحيوان المقدس لتحوت معبود العلماء والكتاب . وكان بين ساقى القرد ذلك الثقب الذى تنسكب منه المياه — وفى الداخل كان هناك إثنا عشر شريطا رأسيا يفصل بين الواحد والآخر أفاريز ذات عدد مساو رسمت عليها رموز الحياة والزمن والاستقرار . وفيها ثقوب غير عميقة وعلى أبعاد متساوية تقريبا وكان كل شريط يخصص عادة لشهر معين بالذات، ولكن نظرا لأن الثقوب كلها متماثلة فكانت تستخدم عمليا لكل الأوقات . وكان من المستطاع استعمال الساعة

المائية خلال النهار والليل على السواء . ولكن فى إقليم مثل مصر حيث لا تغيب الشمس أبدا كان من المستحسن استعمال المزولة . وكان منها نوعان: النوع الأول كان يقاس به طول الظل ، والنوع الثانى كان يعين به زاوية اتجاه الظل .(٢٢) وقلما كان الجمهور يهتم باستعمال تلك الأجهزة . وكان أمرا غير مألوف أن يحدد توقيت وقوع حادث ما صغيرا كان أو كبيرا . وثمة امرأة شابة ، دونت قصتها على لوحة تذكارية ضمن مقتنيات المتحف البريطانى تخبرنا أن ابنها قد ولد فى الساعة الرابعة من الليل ولكنها كانت زوجة أحد رجال الدين. (٢٣) وكانت الساعة تقترب من السابعة نهارا عندما بلغ تحتمس الثالث مشارف بحيرة قينا (Qina)فى سوريا ونصب الخيام. ولكن لم يذكر لنا المؤرخ أن هذه الدقة فى تحديد الوقت كانت نتيجة استعمال المزولة .(٢٤) وكان مجرد ملاحظة الشمس كافيا للدلالة على أن الوقت قد تجاوز قليلا منتصف النهار . وعندما يصل المؤرخ إلى سرد أحداث الموقعة كان يقول ببساطة إن فى السنة الثالثة والعشرين فى الشهر الأول من الصيف ، فى اليوم الحادى والعشرين وهو يوم عيد رع ، إستيقظ صاحب الجلالة مبكرا . وفى سرد قصة هروب سنوحى اكتفى القصاص بأن استعمل عبارات غير دقيقة مثل « أضيئت الأرض » ، « فى ساعة تناول العشاء » ، « فى ساعة الغسق » ، وكانت هذه الطريقة فى التعبير مناسبة للمقام لأن الهارب المسكين لم يكن فى حاجة مطلقا إلى استعمال أجهزة لمعرفة الوقت تضايقه مهما كانت خفيفة الحمل.(٢٥)وكانت نفس هذه العبارات أو عبارات أخرى تماثلها تماما ، يعثر عليها فى سجل وصف معركة قادش . وفى ورقة البردى المعروفة باسم أبوت Abbott التى تقص علينا تحقيقا قضائيا كما وردت فى محاضر التحقيق . بل إن هذه العبارات المقتضبة فى ذكر التوقيت. لم تستعمل إطلاقا فى اللوحات التى تمثل وزيرا وهو يستقبل محصلى الضرائب أو التى تمثل رؤساء المصالح أو مجالس الملك وهو

يستقبل مندوبى الدول الأجنبية ، وكثيرا ما كان يذكر أن فرعون قد عقد المجلس الملكى ولكنهم كانوا يفضلون وقت الانعقاد ولا يذكرونه ولو على وجه التقريب . ويزعم ديودور أن الملك كان يستيقظ فى ساعة مبكرة من الصباح وأن وقته كان موزعا بطريقة دقيقة بين العمل والعبادة والراحة .(٢٦) وليس من المحقق أن ما ذكره ديودور غير صحيح ، غير أنه قلما يبدو أن مثل هذا النشاط يدب فى رعاياه السعداء . فكانوا يعتمدون قبل كل شىء على شعورهم بالجوع أو على مدى ارتفاع الشمس لتقدير الوقت أثناء النهار ، وفى الليل بينما كان الصالحون من الناس ينامون ، كان الآخرون لا يبالون إطلاقا بمعرفة الوقت . والساعات المائية والمزاول لم تكن أجهزة يستخدمها المدنيون ولا رجال الجيش ولكنها كانت جزءاً من أثاث المعابد يرجع إليها رجال الدين الأتقياء لأداء الشعائر الدينية فى أوقاتها بدقة .

٥ ـ الليل

كان الأزواج ، لاسيما فى الطبقات الموسرة ، يناموں فى غرف مستقلة . ويحكى أن أحد الملوك كان حزينا جدا لأنه لم ينجب ولدا ذكرا ، فتوسل إلى معبودات عصره أن تمنحه إبنا فقررت الاستجابة لمطلبه ، فأمضى الليل مع زوجته فحملت على التو.(٢٧) وليس ثمة شك فى أنه إذا اعتاد الملك أن يقضى لياليه بجانب زوجته لكان مؤلف كتاب « الأمير الموعود » قد عبر عن ذلك بطريقة أخرى.(٢٨) وكثيراً ما تمثل الرسوم المنقوشة على قطع الخزف مناظر غرف الحريم دون أن يظهر فيها الزوج ، والأشخاص الذين يظهرون فيها هم النساء وصغار الأطفال دون غيرهم ، فنرى المرأة ممددة تارة على السرير ترتدى ثوبا شفافا وقد تكون جالسة منهمكة فى

تجميل نفسها بمعاونة خادمتها ، أو قد ترضع طفلها أحيانا . والسرير هو القطعة الأساسية للأثاث وأحيانا تكون قوائم السرير على هيئة المعبود بس Bess ذى الوجه العابس فهو آت من الجنوب . ومن مزاياه أنه يحمى أهل البيت من الحوادث المنزلية ، كالسقوط مثلا . وترى أدوات التجميل وقد صفت تحت السرير بجانب مقعد صغير بدون مسند والسقف مسند بعرق خشب محمول على أعمدة صغيرة على هيئة البردى ، وتحوط هذه الأعمدة أكاليل من أوراق الأشجار الطبيعية أو الصناعية ممتدة حتى السقف.

وأثاث غرفة الزوج ، تحتوى مثل غرفة الزوجة ، على سرير ومقعد بدون مسند وموطىء للقدم وصناديق مليئة بالملابس ، كما توجد بالغرفة أدوات الزينة .

وكان المصريون يقلقون كثيراً بسبب أحلامهم ، وكان فرعون نفسه أشدهم قلقاً ، ذهب الأمير تحتمس ذات يوم للصيد فنام من شدة الإعياء فى ظل أبو الهول ورأى فى الحلم هذا المعبود يأمره بأن يزيح من حوله الرمال التى كانت تخنقه ووعده جزاء هذا العمل أن يمنحه ملكا سعيداً .(٢٩) ولم يتردد الأمير فى إنجاز هذا الأمر . وفى المناسبات العصيبة كان فرعون يعتمد على تفسير الأحلام ، ففى السنة الخامسة من حكم الملك مرى إن بتاح ، اجتمعت شعوب التيرسان Tyrsènes والساردان Sardanes والليسين Lyciens والآكايين Achéens والليبيين لمهاجمة الدلتا مجتمعين ، فأراد الملك أن يرد هجومهم ، إلا أن المعبود بتاح ظهر له فى الحلم وأمره أن يبقى فى مكانه وأن يبعث فرق الجيش إلى الأراضى التى كان يحتلها العدو .(٣٠) وكان فرعون يستعين بمفسرى الأحلام عندما يستعصى عليه تفسير الحلم ، وقد حصل (سيدنا) يوسف على ثروته بفضل تفسير حلم البقرات السمان والبقرات العجاف وحلم السنابل . وكان ملك صغير من ملوك

الحبشة ، حين كانت الحبشة على قدم المساواة مع مصر ، قد رأى ذات ليلة ثعبانين أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره فاستيقظ واختفى الثعبانان . فكان هذا حلما أخبره المفسرون بأن حالم هذا الحلم موعود بمستقبل باهر. ولما كان هذا الملك مسيطراً على الوجه القبلى فإنه سوف يغزو مصر الشمالية ، الوجه البحرى ، ويضع فوق رأسه النسر ، رمز الجنوب ، بجانب الثعبان الكوبرا رمز الشمال.(٣١)

أما أفراد الشعب الذين لم يكن لديهم مفسر قدير ، فلم يسعهم إلا الاطلاع على أحد المؤلفات من النوع الذى كتب على بردية شستربيتى الثالثة Chester Beatty III التى ترجع إلى عصر الرعامسه.(٣٢) وهذا المؤلف مقسم إلى قسمين ، يحتوى القسم الأول على أحلام أتباع هورس ، إذ كان الناس يعتبرونهم الصفوة من المصريين . وفى عهد الرعامسه لم يكن من المستطاع إخفاء أن سلالة أتباع ست كانوا كثيرى العدد جدا وذوى نفوذ كبير لأن الأسرة المالكة كانت تنحدر مباشرة من المعبود ست ، كما أن مؤسسى الأسرة المالكة كانوا من كبار كهنتها . وكان لزاما على الناس أن يتقبلوا سوء الطالع قبولا حسنا . وكان أتباع ست يتبادلون المجاملات مع كهنة وأتباع آمون وهورس . على أن هؤلاء كانوا فى أعماق نفوسهم يبغضون دائما أتباع ست . وكانوا يقولون إن المشاجرات والسباب وسفك الدماء كانت من خصال أتباع ست وأن هؤلاء لم يكونوا يفرقون جنسياً بين المرأة والرجل إذ كانوا يذكرون دون شك ماكان قد فعله ذات ليلة معبودهم الفاجر مع ابن أخيه هورس.(٣٣) ومهما كان مركز أحد الستيين ، حتى وإن كان من معارف الملك حقيقة فإنه يظل يعد فرداً عاديا من عامة الشعب . وإذا توفى فلن يكون من سكان الغرب بل يبقى فى الصحراء فريسة للطيور الجارحة والحيوانات المفترسة . وعلى هذا فقد كان كتاب تفسير الأحلام يتناول تفسير أحلام

أتباع ست على حدة فى القسم الثانى منه . ولو وصلنا هذا المؤلف كاملا فربما وصلنا على أقسام أخرى كثيرة من تفسير الأحلام . وفى زمن هيرودوت كان لدى المصريين سبع طرق غيبية ولكل منها أساليبها الخاصة بالعرافة.(٣٤) ولكن لم يصل إلى أيدينا فى الوقت الحاضر ، إلا بداية القسم الثانى . وعلى هذا لم يكن لدينا من سبل لمعرفة ما كان يحلم به المصريون وكيف كانوا يفسرون أحلامهم إلا بالرجوع إلى ما ذكر عن أحلام أتباع هورس بالرغم مما يعتورها من نقص فى كثير من أجزاء البردية .

وفى معظم الأحوال كان مفسر الأحلام يلجأ إلى طريقة القياس : فالحلم الطيب يبشر بالحصول على كسب ، والحلم الردىء ينبىء بنكبة ، فإذا رأى الحالم بأنه يعطى خبزا أبيض فهذا حسن ، وسوف يسر بما سيحصل عليه . فإذا رأى نفسه يلبس وجه فهد ، فسوف يكون رئيسا أو سيداً . وإذا رأى نفسه أمام من يكبره ، فهذا فأل حسن أيضا . وأن الروح العظيم الحارس له سوف يرفع شأنه . وبعكس ذلك فليس من الفأل الطيب أن يحلم المرء أنه يرتشف جعة ساخنة ، فإنه سيفقد شيئا من أملاكه ، وإذا شك الإنسان نفسه بشوكة فهذا دليل على الكذب ، وإذا انتزعت منه أظافره فهذا معناه أنه سيحرم من ثمرة عمل يديه . وإذا سقطت أسنانه فمعناه أن أحد الذين يتعلق بهم سيلقى حتفه . وإذا أطل داخل بئر فسيزج به فى السجن. وإذا تسلق سارى مركب فإن معبوده سوف يرفع شأنه . وإذا تسلم مواد غذائية من المعبد فالمعبود سيمنحه الحياة ، وإذا غطس فى النيل فمعنى ذلك أنه تطهر من خطاياه .

ولم تكن كل الأحوال سهلة كهذه وإلا أصبح فن تفسير الأحلام فى متناول الجميع ولم تكن هناك حاجة إلى مؤلف يحتوى على طريقة تفسير

الأحلام . وهناك بعض الحالات التى يكون فيها للحلم معان غير متوقعة ، فإذا رأى الحالم أنه يداعب زوجته فى الشمس فهذا ردىء ، إذ أن معناه سوف يراه بائسا . وإذا كان يهشم أحجارا فمعناه أن الآلهة قد غضت عنه البصر . أما إذا كان يطل من شرفة فمعنى ذلك أن الآلهة سوف تستجيب لابتهالاته . وإذا كان الحالم يرى نفسه يقود مركبا فمعنى ذلك أن أموره تسير على مايرام .

وكان الأمير أمنحتب يمارس فى شغف تفسير الأحلام ومع ذلك فإن الحلم بقيادة السفن كان ينبىء أيضا عن خسران قضية . كذلك نرى من العسير أن يفسر كيف يكون الحلم بحب الوالد المتوفى حماية من الأذى لمن رأى آسيويين .

ويتخلص مفسر الأحلام أحيانا عندما يرى نفسه فى مأزق بأن يلجأ إلى التلاعب بمعانى الألفاظ ، فأكل لحم الحمار ينبئ بالعظمة لأن كلمتى حمار وعظيم متشابهتان فى النطق . وإذا كان تسلم قيثارة يعد أمرا سيئا ، فذلك لأن كلمة بوانيه التى تعنى قيثارة تذكر بكلمة بين التى معناها « سىء » ، أما الأحلام الفاحشة ، وهى كثيرة الحدوث ، فعادة لايكون تفسيرها طيبا . والذى يحلم أنه ارتكب فاحشة مع حدأة ، فسر ذلك بأنه سوف يسرق ، ربما لأن الحدأة تخطف ، ولدينا بالفعل تعويذة لمنع هذا الطائر من الخطف والسرقة . ولا يجب أن يكون الإنسان مطمئنا تماما إذا ما رأى فى الحلم أشياء تتعلق بالشعائر الدينية ، فحرق البخور للآلهة فى الحياة العامة عمل مشكور ، أما الذى يعمل ذلك فى الحلم فمعناه أن قوة الإله ستكون موجهة ضده .

أما الذى يرى حلما مفزعا فلا يجوز أن يتطرق اليأس إلى قلبه ، فالبقرات

العجاف وسنابل القمح المحترقة كانت مجرد تنبيه لاتخاذ الحيطة أكثر مما كانت نذيراً بوقوع كارثة مروعة لامفر منها .

وفى مثل هذه الحال ، يحسن أن يبتهل الإنسان إلى إيزيس لتعاونه وتحميه من النتائج الوخيمة التى لا ينى ست بن نوت عن العمل على إنجاحها .

ولأجل إبطال نتائج الأحلام المزعجة ، يؤخذ بعض الخبز مع قليل من الحشائش الخضراء ويبلل بالجعة ويضاف إليها البخور ثم يمسح الوجه بهذا الخليط ، وبهذا تمحى الأحلام السيئة .

الفصل الثالث

الأسرة

١ – الزواج

سواء كانت الدار كبيرة أو صغيرة وسواء كانت مؤثثة بأفخر الرياش أو كانت تحوى حصيرة بسيطة فقد كان لكل رب أسرة منزل خاص به . فإنشاء دار واتخاذ شريكة فى الحياة كان معناهما واحدا أى أنهما مترادفان . ولذلك كان الحكيم بتاح حتب ينصح أتباعه بأن يقوموا بإتمام الأمرين معا فى الوقت المناسب . (١) وفى قصة الأخوين ، كان للأخ الكبير زوجة ومنزل ، أما الصغير فكان لا يملك شيئا ، وكان يعيش مع أخيه تابعا له ، يرعى ما شيته وينام فى الإسطبل . وكان أحموزا قبل أن يشتهر فى حصار أواريس Haouârit قد أمضى شبابه محترفا أعمال الملاحة الشاقة وكان ينام فى شبكة معلقة ، كجندى قديم ،وانتهز فرصة هدوء مؤقت بعد المعركة ليعود إلى بلده نخبيت Nekhabit ليشيد منزلا ويتزوج ، على أنه قد كتب عليه ألا يستمتع طويلا بالسلام العائلى لأن الحرب قامت مرة ثانية ، ولم ينس جنود فرعون المحاربون أن أحموزا كان شجاعا وعرفوا أنهم لا يستطيعون أن يخوضوا حربا لا يشترك فيها.(٢)

تقول لنا شخصية كبيرة من أتباع الملك أنها زوجته من إحدى وصيفاتها ، وعندما ترمل زوجته بوصيفة أخرى ، ولم يضره هذا فى شىء. لأن الملكة لم تكن تبخل على وصيفاتها فتمنحهن الهبات والصداق السخى.(٣) لذلك ينبغى أن نعترف أنه فى كثير من الحالات كان الآباء أو الرؤساء هم الذين يقررون

الزواج. (٤) ومع كل فإن الأغانى الغرامية المدونة على أوراق البردى المحفوظة فى متاحف لندن وتورين تبين أن الشبان كانوا يتمتعون بحرية كبيرة فى اختيار شريكة الحياة . فالأغنية الغرامية التالية يصف فيها شاب فتاة جميلة فيقول : « شعرها أسود ، بل أشد سوادا من الليل ومن حبوب أشجار الخوخ البرى ، وشفاهها حمراء ، بل أشد حمرة من العقيق ، ومن البلح الناضج ، ونهداها بارزان فى تناسق جميل فوق صدرها ».

وهذا وصف رائع لمحب، وليلفت نظرها لجأ إلى حيلة . وهى قوله: «أود أن أرقد فى المنزل وأصطنع المرض ، سوف يحضر جيرانى لزيارتى وستكون أختى معهم، وستسخر من الأطباء ، لأنها تعلم حقيقة مرضى ». (٥) ولم تنجح الحيلة ، لأن الشاب مرض حقيقة، وهذا يماثل ما أورده الشاعر الشهير أندريه شنير André Chenier : « اليوم مضت سبعة أيام دون أن أشاهد خلالها أختى ، ودخلنى السأم وانتابنى الذبول ولم يعد جسمى يتعرف على نفسه ، إذا عادنى كبار الأطباء فدواؤهم لا يشفينى ، ولا يستطيع الكهنة الوصول معى إلى شىء . ولم يعرف أحد تشخيص مرضى . إن ما فعلته هو ما يجعلنى أبقى على قيد الحياة . إن اسمها هو الذى يشتد به عضدى . إن ترددها على هو الذى يبعث فى الحياة . إن أختى أنجع لى من جميع الأدوية أكثر فائدة من كل الكتب . إن زيارتها تشفينى . وإذا ما رأيتها تدب العافية فى جسمى . عندما تفتح عينيها يعود الشباب إلى جسمى . وحينما تكلم أصبح قويا . وعندما أقبلها ، يفر المرض من بدنى . ولكنها غابت عنى منذ سبعة أيام ». (٦)

والفتاة بدورها ليست عديمة الشعور حينما ترى شابا جميلا ، فهى تقول:

« إن نبرات صوت أخي قد اضطرب لها قلبي » (٧) غير أنها تفكر في المستقبل وتعتمد على والدتها : « ومع أنه يسكن بجوار منزل والدتي إلا أني لا أستطيع أن أتوجه إليه ، وتحسن والدتي صنعاً إذا ما اهتمت هي بأمري هذا » (٨) وتأمل أن يفهم الشاب الظريف حالتها ويقوم هو بالخطوات الأولى « آه لو أرسل رسولا لوالدتي . يا أخي لقد جعلتني المعبودة أور* من نصيبك كزوجة ، تعال إلي حتى أرى جمالك . إن والدي ووالدتي في فرح وسرور ، ويهلل لك كل الرجال في صوت واحد ويدعونك لي يا أخي . » (٩)

وفي نفس الوقت فإن الأخ من جانبه ، الملتهف للحب ، يتضرع للمعبودة أور سيدة السرور والموسيقى والأغاني والحفلات والحب : « إني أعبد نوبيت Noubit وأقدم لجلالتها كل تمجيد ، أحيي سيدة السماء ، وأعظم حاتحور وأحيي معبودتي وأبعث إليها بطلبتي فتستجيب وتختار لي سيدة ، لقد أتت إلي بنفسها لتراني ، فما أعظم ماحدث لي ، إني فرح ومغتبط ، لقد كبرت ! » . (١٠)

وقد تقابل المحبان وتفاهما ، ولكن كلمات الارتباط لم ينطقا بها بعد ، فالفتاة موزعة بين الخوف والأمل وتقول : « كنت أمر بالقرب من داره فوجدت بابه مفتوحا ، كان أخي واقفاً بجانب أمه وإخوته وأخواته وأسر حبه قلب كل من مر بالطريق . فهو شاب كامل ليس له مثيل ! وأن أخي شخص ممتاز . نظر إلي عند مروري . أنا وحدي ابتهجت ، كم كان قلبي يهتز طرباً لأن أخي رآني ، إني لأسأل الإله أن يجعل والدتك تعرف خبيئة قلبي ، فتحضر لتسكن بجواري .

---

* المعبودة حاتحور .

ليت المعبودة نوبيت* تضع هذه الأمنية فى قلب أمه، فأتجه مسرعة صوب أخي وأقبله على مرأى من زملائه (١١) . (كان المصريون يقبلون بعضهم بحك الأنف وليس بالشفاه كما كان يفعل الإغريق وقد قلدوهم فى العصر المتأخر) وإلى أن يتم ذلك كله ، كانت الأشجار وعصافير الحديقة تتلقى اعترافات الحبيبة التى كانت تتصور أنها قد أصبحت سيدة الدار تتنزه معه متكأة على ذراع حبيبها.(١٢) وإذا كانت الأمور لا تسير مسرعة كما يتمناها المحبان ، بأن تقوم عقبات فى طريقهما ، فالمسئولية تقع على عاتقهما. كان الوالدان موافقين ولم يثيرا اعتراضاً على ما اختاره أولادهما، أما إذا عارضا فهذه مجرد شكليات . والدليل على ذلك أن فرعون فكر فى أن يزوج ابنته أهورى Ahouri لأحد قواد المشاة وابنه نتوفر كابتاح لابنة قائد مشاة آخر ولكنه لم يتمم هذا الزواج ، وزوجهما لبعضهما عندما لاحظ أنهما يحبان بعضهما حباً عنيفاً .(١٣) وفى قصة الأمير الموعود يصل الأمير إلى مدينة نهارينا Naharina حيث يوجد شبان فى مثل سنه مجتمعين لمحاولة اعتلاء سور . وكان ملك البلاد قد قرر أنه لايوافق على زواج ابنته إلا للشخص الباسل الذى يستطيع الوصول أولا إلى نافذة الجميلة التى تسكن القصر المقام على الجبل . فاشترك الأمير متنكراً فى المباراة مع بقية الشبان متظاهراً أنه ابن ضابط مصرى ترك منزل عائلته لأن والده تزوج بسيدة أخرى كانت تكرهه وجعلت حياته جحيما . إستطاع الأمير الفوز فى المباراة ، غضب الملك وأقسم ألا يزوج ابنته لهارب من مصر ولكن لم يكن هذا رأى الأميرة ، لأن مجرد رؤية هذا المصرى قد هز أعطاف قلبها وذكرت أنها إن لم تتزوجه فسوف تموت لساعتها . أمام هذا التهديد فترت معارضة الوالد فأحسن استقبال هذا الشاب الغريب واهتم بقصته غير أنه كان يجهل أن الذى أمامه هو

---

* معبودة المحبين .

ابن فرعون ولكنه غمره بعطفه وقبله زوجاً لابنته وغمره بالهدايا ، لأنه شعر نحوه بجاذبية إلهية .

وفى الأغانى الغرامية ينادى الشاب محبوبته الغالية « يا أختى » وتنادى الفتاة حبيبها « يا أخى » ، على أنه لوحظ أن المحبين لا يعيشون تحت سقف واحد وأن أهل الشاب هم غير أهل الفتاة .

وبعد الزواج يستمر الرجل ينادى زوجته سونيت Sonit بمعنى أخت وليس هيميت Himit بمعنى زوجة.(١٥)وقد استقر هذا النظام فى نهاية الأسرة الثامنة عشرة تقريباً ولا نعرف متى انتهى ولكنه استمر بالتأكيد طوال عهد الأمبراطورية الحديثة .

وأمام المحاكم كانوا لا يستعملون سوى الألفاظ الدقيقة،لذلك استعملت كلمات سن Son الأخ وهاى Hav الزوج وهيميت Himit الزوجة وقد قرر الإغريق أولا وتبعهم كثيرون من المؤرخين الحديثين ، أن الزواج بين الأخوة كان القاعدة المطردة فى مصر القديمة (١٦) إذ يوجد فراعنة تزوجوا أخواتهم أو بناتهم أيضاً ولكن يمكننا أن نقرر فى هذا الشأن ، ما قرره القضاة الملكيون لقمبيز Cambyse عندما سألهم إذا كان القانون يسمح لمن يشاء بزواج أخته ، فأجابوه بأنه لا يوجد قانون يسمح بذلك ، ولكن يوجد قانون آخر يعطى الملك الحق فى أن يفعل ما يشاء .(١٧)وحتى الآن لا يمكن أن نذكر أن فرداً مصرياً واحداً من طبقة النبلاء أو من الطبقة الوسطى أو من عامة الشعب قد تزوج أخته من أبيه وأمه . ولكن يبدو أن الزواج بين الخال وابنة الأخت كان مسموحا به إذ وجد فى مقبرة أمنمحات Amenembat أن ابنة أخته باكت آمون Baket Amon تجلس بجوار

عالما، كما لو كانت زوجته.(١٨)

والإشارة إلى الزواج نادرة فى النصوص والوثائق المصورة، وحينما أراد فرعون كما ورد فى قصة ستنا خامواس أن يزوج أولاده قال: «فليحضر أهورى إلى منزل نتوفر كابتاح هذه الليلة بالذات. ولتحمل مع الأميرة كل أنواع الهدايا». وقد نفذت أوامر فرعون، وتقول العروس الشابة: «أتوا بى كعروس إلى منزل نتوفر كابتاح. وقد أمر فرعون أن تجلب لى هدية عرس وسوار من الذهب والفضة، قدمها لى كل أفراد البيت المالك» (١٩). وكان انتقال العروس من بيت أبيها إلى بيت خطيبها مع صداقها هى الخطوة الأساسية فى حفلة الزواج. ويخيل إلى أن هذا الموكب كان جميلا ورائعاً ولا يقل بهجة وصخباً عن مواكب حملة القرابين عند تقديمها إلى المعابد أو مواكب الأجانب وهم يلتمسون أن يصبحوا فى حمى الملك، أو مواكب الجنازات التى كان المصريون يعتبرونها حفلات لتغيير مكان الإقامة. ومن المرجح أن الخطيب كان يتقدم موكب عروسه، فنحن نعلم أن رمسيس الثانى ذهب إلى أحد قصوره الكائنة بين مصر وفينقيا لينتظر قدوم ابنة الملك خاتوسيل Khattousil التى عبرت إبان الشتاء جزءا من آسيا الصغرى وسوريا كلها لتصبح الزوجة الأولى للملك.

وكان من عادة المصريين أن يدونوا الحوادث الهامة فى وثائق. ومن الجائز أن يتقدم العروسان إلى موظف حكومى ليقيد أسماءهما مع تفاصيل اتفاقية الزواج وعندما تذهب سيدة متزوجة إلى المحكمة ينادونها باسمها مقروناً باسم زوجها، مثلا موتاموويا Moutemouia زوجة كاتب الكتب المقدسة نسيامون Nesiamon. وتؤكد قطعة من الخزف وجدت فى طيبه أن الزوج يساهم بثلثى الأعباء المالية وتساهم الزوجة بالثلث. وبعد وفاة أحدهما فإن الشخص الذى لا يزال على قيد الحياة ينتفع بالدخل كله

ولكن لا يستطيع أن يتصرف إلا فى الجزء الذى يخصه . (٢٠) فمثلا تنازل حلاق لعبد عن دخل محله وزوّجه ابنة أخته اليتيمة ، فأعطيت مهراً من ثروة الحلاق الشخصية التى كان قبل زواجه ، قد سجل قسمتها بين زوجته وأخته.(٢١)

ومن العسير أن نعتقد أن الدين لم يتناول بالتنظيم موضوعا ذا أهمية عظمى مثل الزواج ، وعندما ينوى رجل متزوج الحج إلى أبيدوس (العرابة المدفونة) كانت تصحبه دائماً زوجته . وغالباً ما يذهب الزوجان معاً إلى المعبد . لقد فعل هذا نفرحتب Neferhotep الحارس الأول لقطعان آمون، فرافقته زوجته سيدة الدار الممدوحة من حاتحور ، سيدة القوصية Cusae ومغنية آمون عندما يعبد رع وقت بزوغه فوق الأفق الشرقى وحر آختى Harakhte عند أفوله فى الأفق الغربى . لذلك يبدو لى، بالرغم من عدم وجود وثائق قاطعة ، أن الأزواج وربما كل أقاربهم كانوا يتوجهون إلى معبد الإله المحلى حيث يقدمون الذبائح والقرابين ويتقبلون البركة .

وبعد أن يتم الكتبة والكهنة طقوسهم الدينية ويذهب العروسان إلى منزلها ، ينصرف المدعوون. وهنا أتجاسر وأفترض، نظراً لما كان يتصف به المصريون من ولع بإقامة المآدب العائلية بأنه قبل أن يترك العروسان وحدهما، كانوا يحتفلون كيوم عيد وكانوا يتناولون الشراب والطعام بقدر ما تسمح به ظروفهم المادية أو غرورهم وحب الظهور .

٢ — الزوجة

يعطينا الرسامون والنحاتون فكرة لطيفة عن الأسرة المصرية . فالوالد والوالدة يتماسكان فى حب بالأيدى أو بالخصر ، ويلتصق الأطفال الصغار

بوالديهم مهما كانت منهم.(٢٢) وأثناء حكم اخناتون Akheraton صورت المشاعر المتدفقة للزوجين الملكيين فرسموا الملكة جالسة على ركبتى الملك. والملك والملكة يغمران أولادهما بالقبلات ، والأطفال بدورهم ، جزاء هذا العطف يلاطفون ذقن والدهم أو والدتهم بأيديهم الصغيرة. وزال هذا الطابع بزوال بدعته لأنه لم يكن إلا مظهرا أو نتيجة لها . ومنذ ابتداء الأسرة التاسعة عشرة يعود الفن المصرى إلى صرامته وأصبحنا نشاهد على جدران المقابر الزوج والزوجة جالسين بصفة دائمة بجانب بعضهما متحدين إلى الأبد ، كما لو كان يراد أن نتصورهما كذلك فى هذه الحياة الدنيا .

لم تتملق النصوص الأدبية المرأة المصرية ، فصورتها مستهترة ، تهتم بزينتها ، هوائية ، ليس فى قدرتها أن تكتم سراً كاذبة ، محبة للانتقام ، غير وفية بطبيعتها ، يرى فيها الرواة وعلماء الأخلاق بذرة كل خطية وجراب كل خبث .(٢٣)

فى أحد الأيام كان الملك سنفرو Snefroui متضايقا ضيقا شديداً ، وللتخفيف عنه فكروا فى تسيير زورق فى غدير بالبساتين الملكية ، وكان بالزورق عشرون فتاة كلهن عرايا إلا من غلالة رقيقة . ففقدت إحدى الفتيات المجدفات حليتها من الفيروز الجديد ، فتوقفت عن التجديف فقال لها الملك : « استمرى فى التجديف وسأعوضك عنها » فردت عليه قائلة : « أفضل حليتى على مثيلتها . » فسكت الملك وأحضر فى الحال الساحر الذى استطاع بطريقته الخاصة الفريدة أن يعثر على الحلية المفقودة حينما وضع نصف الماء فوق النصف الآخر.(٢٤) وفى قصة أخرى لمح الآلهة التسعة بيتاور Bytaou وحيداً فى وادى البلوط فأشفقوا على وحدته ووهبوا له سيدة لا مثيل لها ، لأن كل إله كان قد منحها خير ما يتصف به . وابتدأت بمخالفة أوامره ثم بخيانته فيما

بعد . ولما تقمص بيتاوو هيئة ثور وأصبحت زوجته السابقة محظية لفرعون تمكنت أثناء مداعبة أميرها وسيدها أن تحصل على أمر بذبح الثور.

إلا أن بيتاوو تقمص شجرة لبخ فطلبت أن تقطع الشجرة . وعندما كان بيتاوو خادما بسيطا فى حقل أخيه الأكبر ، اكتسب أول خبرة له فى غدر النساء ، وكان فى وقت نثر البذور ، وكانت الأرض قد انحسرت عنها مياه الفيضان وصالحة للحرث ، وكان الأخوان قد خرجا إلى الحقول لبذرها ، ولكن لم تكن البذور كافية فعاد بيتاوو وحده إلى المنزل لإحضار البذور ، وعندما قفل راجعا من المخزن وهو يحمل بسهولة جوالا ثقيلا، لمحته زوجة أخيه فأعجبت به وفى الحال اشتهته ، وقالت له : « تعال لنضطجع معاً ساعة وسأصنع لك ملابس جميلة » فانقلب بيتاوو كنمر من الجنوب وقال لها : «أنت لى بمثابة أم وزوجك بمثابة أب ، وحذار أن تتفوهى بمثل هذا القول الفاحش مرة أخرى ، ولن أبوح لأحد بما حدث . » وذهب تاركا وراءه الخائنة ذليلة والحقد يملأ قلبها. ولما كان الزوج سريع الانفعال قليل التبصر، لذلك كان ألعوبة لهذه المخلوقة السيئة السلوك التى حملت زوجها أنوپو Anoupou على الاعتقاد بأن أخاه حاول أن يروادها عن نفسها وزعمت أنها صدته ، ولن يهدأ لها بال إلا إذا عوقب بالموت.(٢٥)

فى زمن قديم كانت زوجة تشريفاتى فى البلاط تخون زوجها مع شاب حديث السن وكانت تغمره بالهدايا. وكانت زوجة كاهن من كهنة رع تخونه أيضا وملأت بيته بثلاثة أولاد من الزنى وكان عذرها لزوجها أن الإله رع نفسه هو والدهم وهو الذى أراد أن يعطى لمصر ثلاثة ملوك أتقياء خيرين.(٢٦) وقد حدث ذات يوم أن زوجة روديديت Rouddidit غضبت مع خادمتها وطردتها ، ففكرت الخادمة التى كانت على علم بكل شىء أن تبلغ الأمر

اصاحب الشأن ، ولكن لسوء حظها أطلعت أولا أخاها على هذا السر ، فضربها ضربا مبرحا جزاء الثقة والإخلاص . (٢٧) وهذه قصة تبوبويت Tabobouit وهى سيدة عريقة من أصل كريم إذ كانت من خادمات المعبد وليست من بنات الشوارع . أصرت أن يحرم عشيقها أولاده من ميراثهم وأن يقتلهم بعد ذلك . (٢٨) وسيدة نبيلة أخرى رأت الحقيقة متنكرة على هيئة شاب جميل ، فوهبته نفسها وبعد أن أشبعت نزوتها منه لم تعد تهتم بأمره إلى حد أن جاءها فى أحد الأيام يتسول أمام بابها فانتظر طويلا ، قبل أن تبوح لابنها أن هذا المتسول هو أبوه (٢٩) .

وهكذا نرى أن كل ما جاء عن المرأة فى القصص المصرية ، لم يكن منصفا المرأة ، وبالعكس فالرجل كان هو المخلص الأمين ، المحب العطوف المخدوم المتصف بالمروءة والعقل . وجاء فى نفس هذه القصص أن فرعون كان ذا تفكير محدود يحاول تحقيق رغباته ونزواته بالإلتجاء إلى كتابه وسحرته فى كل مناسبة ، وهذه كانت طبيعة الجنس البشرى وبالرغم من ذلك فالواقع أن الكثيرين من الملوك المصريين كانوا مثال الشجاعة فى الحرب ، ماهرين فى إدارة شئون الدولة كما أن كثيرات من المصريات كن زوجات مثاليات صالحات، وأمهات طيبات ، كذلك كانت السيدة الشابة التى دونت قصتها على اللوحة التذكارية فى المتحف البريطانى والتى جاء فيها: « أيها العلماء والكهنة والأمراء والنبلاء والناس أجمعين وكل من يدخل هذا السرداب*،استمعوا إلى: ولدت فى اليوم التاسع من الشهر الرابع لموسم الفيضان فى السنة التاسعة من حكم بطليموس الثالث عشر. وفى اليوم الأول من الشهر الثالث من صيف عام ٢٣ زوجنى والدى لكاهن كبير اسمه پشر ينبتاح . . Pcherenptah ابن پتوباسطى Petoubasti . وكم حز فى قلبه أن أنجبت له

* المقبرة

ثلاث بنات دون أن أنجب له ولدا ،فصليت مع هذا الكاهن الكبير وشاء المعبود إمحتب Imhotep بن بتاح أن يكون عطوفا فوهبنى ولدا لمن لا نسل له : استجاب إلى تضرعاتنا كما فعل مع كل من تضرع له . وفى نظير الأعمال الطيبة التى قام بها هذا الكاهن الكبير فقد حملت وأنجبت ولدا فى الساعة الأولى من اليوم الخامس فى الشهر الثالث من الصيف فى السنة السادسة من حكم الملكة كليوباترا فى يوم عيد تقديم القرابين حيث كانت توضع الهدايا على مذبح هذا المعبود العظيم امحتب الملقب بتوباسطى . وقد سر جميع الناس لهذا الحادث السعيد ووافانى الأجل فى اليوم السادس من الشهر الثانى من فصل الشتاء فى السنة السادسة ، وقد وضعنى زوجى الكاهن الكبير بشر يفبتاح فى الجبانة ، وقام بكافة المراسيم التى تؤدى للأشخاص الأوفياء الكاملين ، وقام بتكفينى بأعظم طريقة وواراني التراب فى مقبرة خلف راكوتى(٣٠)* ، ماتت خاضعة لإرادة والدها ومطيعة حتى وهى فى قبرها لرغبات زوجها البائس تا امحتب Ta Imhotep ماتت فى زهرة شبابها ، مأسوفاً عليها من زوجها الذى لم يضن عليها بالمال فى سبيل دفنها ، فى جلال ووقار .

وأمام هذه القصة المؤثرة يجدر بنا إتماما للفائدة قراءة الرثاء الذى رثى به رجل زوجته ، ودون على بردية ، فى متحف ليدن :

« لقد كنت شابا عندما تزوجتك ، وأثناء وجودى معك حصلت على أرفع المناصب ،ولم أتركك يوما ، ولم أعذب قلبك إطلاقا . هذا مافعلته عندما كنت شابا وعندما شغلت أكبر وظائف فرعون له الحياة والصحة والقوة ،

---

* موضعها الحالى كوم الشقافة .

لم أهجرك وبالعكس كنت أقول لنفسي لتكن سعادتي معك وكنت أرفض كل وشاية بك وكنت أقول : إني أعمل مستوحيا قلبك ، لكن انظري إلى ما حدث لي عندما كلفت أن أدرب ضباط جيش فرعون وجنوده كنت أكلفهم أن ينبطحوا على بطونهم أمامك ومعهم أشياء طيبة كثيرة لكي يضعوها أمامك ، لم أخف عنك شيئا من أرباحي حتى هذا اليوم من حياتي ، لم يحدث لي أن خدعتك إطلاقا كما يفعل الفلاح الذي يتسلل إلى بيت سواه ، لم أحاول أن أرسل عطورا أو فطائر أو ملابس إلى بيت أخرى ، قائلا : « إن زوجتي هناك » لأني لم أشأ أن أغضبك عندما أصبت بالمرض الذي ابتليت به ، لم أرد أن أسبب لك حزنا فأحضرت لك طبيبا كبيرا قام بعلاجك وعمل كل ما أمرت به . ولما تبعت فرعون عندما ذهب إلى الجنوب ، فإليك ما اتبعته معك : « أمضيت مدة ثمانية أشهر دون أن أتناول طعاما أو شرابا يلائم رجلا في مستواي ، ولما عدت إلى منف طلبت من فرعون منحي اجازة وتوجهت إلى المسكن الذي تستقرين فيه (إلى قبرك) وبكيت كثيرا أمامك أنا وأتباعي وهذا ما فعلته إلى الآن : بقيت ثلاث سنوات وحيدا وسوف لا أدخل بيتا آخر وإن كان هذا عملا لست ملزما به ، وأمامي بيت أخواتي ولكني لم أتردد على واحدة منهن » . (٣١)

هذا الزوج المثالي ، هذا الأرمل الذي يحل مصابه عن العزاء يبين لنا بوضوح أن أشخاصا كثيرين غيره كانوا يستطيعون أن يسلكوا طريقا آخر بمعنى أنه بمجرد أن يتولى منصبا كبيراً فإنه يطلق زوجته غير العريقة الأصل التي سبق أن تزوج بها قبل أن يرتقي إلى منصبه وقد أجاز لنفسه كل الحرية وإذا أصبح أرملا فإنه لا يبقى ثلاث سنوات يقضيها في النحيب والبكاء إلى أن يضمر جسده . إن أعواما حافلة بمثل هذا الوفاء وهذا الصبر لتبرر لنا أن نشيد بصفاته الفاضلة ونعطف عليه .

ورد فى النصوص المصرية أن المرأة الخائنة كانت تعاقب بالموت ، فعندما علم أنوبو Anoupou الأخ الأكبر ، ولو متأخراً ، حقيقة ماحدث لأخيه الأصغر اعتراه الحزن وجلس يندبه ، ولما عاد إلى بيته قتل زجته وألقى بها للكلاب. (٣٢) وفى آخر القصة رفع بيتاوو أمام كبار قضاة جلالة الملك له الحياة والصحة والقوة دعوى ضد زوجته ، وليس لدينا نص المحاكمة ولكن قرر الحاتحورات أنه يجب أن يقضى عليها بالسكين. (٣٣) أما زوجة أوبا إنر Ouba iner التى كانت تخونه وتستولى على أرزاقه ، فقد أحرقت وألقى برمادها فى نهر النيل ، وكذلك عوقب عشيقها. (٣٤) كان هذا هو القانون : ينصح الكاتب أنى Any قائلا : « احذر المرأة التى تتسلل فى الخفاء ، لا تتبعها لا هى ولا مثيلتها . والزوجة التى يكون زوجها بعيدا عنها وترسل إليك قصاصات أو خطابات تدعوك إليها كل يوم عندما لا يكون هناك شهود فإن حاولت ايقاعك فى شراكها فهذه جريمة عقابها الموت إذا ما اكتشف الأمر ، حتى ولو لم تصل فى إجرامها حتى النهاية . (٣٥) وليس لدينا من الوثائق مايثبت ما إذا كان الزوج الزانى يقع تحت طائلة العقاب ، لقد كان من حق الرجل أن يدخل لو شاء محظيات فى بيته .

وفى فصل جنائزى* خصص باب لجمع صلة القرابة بين من رقدوا فى الجبانة ، ونقرأ أن العائلة تتكون من الأب والأم والأصدقاء والشركاء ، والأطفال والزوجات وشخصية تسمى باسم لم يفسر لنا هو : أينت حنت Int-hnt ثم العزيزات والخدم. (٣٦) وكان تعدد الزوجات معروفا ولكنه فى الحقيقة لم يكن واسع الانتشار . ونعلم أن أحد أفراد العصابات الذى اشترك فى نهب المقابر كان له أربع زوجات ، أثنتان كانتا على قيد الحياة حينما كانت قضيته معروضة أمام المحكمة وكانتا على وفاق تام (٣٧) وفى بلد حيث كان

---

* من كتاب الموتى

للعصا دور كبير ، كان للزوج الحق فى تأديب زوجته ، والأخ أخته ، على شرط ألا يسىء الاستعمال . وكان الشاتم يعاقب . كان الفرد يتعهد أمام القضاة بعدم إهانة زوجته وإلا عوقب بمائة ضربة وحرم من الانتفاع بأى عقار مشترك بينهما. وكان والد الزوجة هو الذى يطالب السلطات بحمايتها.(٢٨)

كان هذا عملا سديدا ولكن يجب ألا ننسى أن « معروف » Mârouf كان مصريا وأن أكثر من أمرأة شريرة قد لعبت ، بمعاونة الحكام ، بعض الأدوار الملتوية على زوجها.

٣ — الأولاد

ينصح الكاتب أنى قراءه أن يتزوجوا فى سن مبكرة وأن ينجبوا الكثير من الأولاد ،كانت النصيحة غير مجدية ، فالمصريون كانوا يحبون الأولاد ، قال الثعبان الطيب للبحار الغريق : « سوف تصل بلدك فى خلال شهرين وتضم أطفالك إلى صدرك وستمضى حياة سعيدة مع عائلتك.(٢٩) » والذى يقوم بزيارة مقابر منف وتل العمارنة وطيبه أو يشاهد اللوحات الجنائزية فى العرابة المدفونة أو على المجموعات المنحوتة فسوف يرى فى كل مكان الكثير من رسوم الأطفال . وعندما طاف أحد كبار الملاك مثل تى Ti بأملاكه ووصل إلى حيث يشتغل العمال بالحصاد سرعان ما فرش الحصير واحضرت المقاعد واجتمع أفراد العائلة حول كبيرها وأمسك الأطفال بأيديهم عصا والدهم .

وإذا شاء « تى » أن يتبع الصيادين فى مركب أو يجرب مهارته فى صيد الطيور التى تعيش على قمم الأشجار أو ليشرف. حاتحور المعبودة الجميلة سيدة ايماوو Imaou أو سيدة شجرة الجميز فى الموسم المناسب فى غابة البردى فلا يتم سروره إلا إذا وجدت معه زوجته وأطفاله ، فالصبيان الصغار يتمرنون

على عصا الرماية والرماح ويوفقون جيدا فى ذلك . لما كان أمنحتب الثانى Amenhotep II طفلا مدللا كان يتمرن على ألعاب القوى وكان والده فخوراً بذلك. (٤٠) ويصطحب الراعى أطفاله إلى الحقل وإذا عطش الرجل العجوز يقف الطفل الصغير على أطراف أصابعه ويقدم له القلة حتى شفتيه . وأولاده العمال كانوا يدورون بالمصنع محاولين القيام بتأدية خدمات . كان اخناتون والملكة نفرت إيتى Nefert Ity يصحبهما دائماً الأميرات الصغيرات عندما يخرجان ، وإذا جلس فى القصر تجلس الأميرات بجانبهما ، وليس فى أوقات الراحة فقط ولكن أثناء تأدية الأعمال الرسمية أيضاً فكن يجلسن على مناكب الملك والملكة باطمئنان ويداعبن ذقونهما فى رقة بالغة واطمئنان . وكانت الأميرات الكبيرات يشتركن فى تسليم النياشين والأوسمة . وبدافع من شوق مفاجىء عنيف يضم الوالدان بناتهما الصغيرات بين ذراعيهما ويكادان يلتهمانهن بالقبلات . ولم يكن رمسيس الثانى أقل فخراً بأولاده المائة والستين وأكثر . ويذكر سترابون Strabon بدهشة تقليداً خاصا كان يتمسك به المصريون كثيراً وهو أن يتولوا تربية كل الأولاد الذين كانوا يرزقون بهم. (٤١) وكانت هذه الكثرة فى إنجاب الأطفال فى العائلات المصرية عكس ما اعتاد عليه الإغريق نتيجة لخصوبة الأرض واعتدال المناخ . وكما يقول ديودور Diodore إن الأولاد لا يكلفون الأبوين شيئاً تقريبا، وطالما هم فى سن الطفولة ، فهم يسيرون حفاة الأقدام عراة الأبدان ، ويتحلى الذكور بقلادة والبنات بمشط ووشاح . وكلهم يتغذون بعيدان وسيقان نبات البردى سواء كان نيئا أو مسلوقا . (٤٢)

وبهذا لا يكلفون آباءهم إلا القليل من النفقات .

ومع أن ولادة جميع الأطفال كانت تلقى ترحيباً كبيراً فان الرغبة الشديدة

فى إنجاب الذكور كانت شائعة لدى كافة الناس . فقد علمنا مما سبق ما خطر ببال بشر ينبتاح كبير كهنة المعبود بتاح فى هذا الصدد إذ بدأ قصة « الأمير الموعود » بالعبارة التالية : « حدث ذات مرة أن ملكا لم ينجب ولدا ذكرا فكان شديد الحزن بسبب ذلك . فتضرع للآلهة طالبا أن ينجب ولداً ذكراً . فقررت الآلهة أن تمنحه ولدا . ودور الابن هو أن يحيى إسم أبيه وواجبه كما نصت على ذلك مئات النقوش وأن يتولى دفنه ويعنى بصيانة مقبرته . (٤٣)

لقد كان المصريون جدّ شغوفين بمعرفة المستقبل وكانوا يعتمدون فى هذا على مجموعة من سبع معبودات معروفة باسم «الحاتحورات» لمعرفة ماقد قدر للمولود الجديد فكانت هذه المعبودات تحوم مختفية عن الأنظار حول وسادة الطفل وتخبر بصفة قاطعة نوع الموت الذى سوف يلقاه . « سوف تموت بحد السكين » هذا ما قالته عن البنت التى كانت الآلهة ترغب فى جعلها زوجة لبيتاوو .(٤٤) كما أن الآلهة قررت بأن الولد الذى كان الملك يتمناه منذ زمن طويل بأنه « سوف يقتله التمساح أو الثعبان أو ربما قتله الكلب »(٤٥) وبما أن هذه المعبودات قد أغفلت الأشارة إلى السن التى سوف يحدث فيها هذا الحادث المحتوم ، فقد اتخذت كل التدابير فى بادئ الأمر على أساس ذلك حتى يبلغ الأمير سن الشباب ، وعندئذ أبدى الشاب ملاحظة بأن كل هذه الحيطة لن تجدى نفعا وأنه لايستطيع أن يتفادى ماقد كتب عليه . لذلك طلب أن يترك حرا ليتصرف حسب ما يلهمه قلبه . إننا لانعلم ما إذا كانت الحاتحورات تتنازل للإهتمام بكل الأفراد ولكن كان فى مقدور كل رب أسرة أن يقرأ طالع ابنه ، عن طريق النجوم .

يقول هيرودوت Hérodote : « من بين الاصطلاحات التى اتفق عليها

المصريون أنهم كانو يحددون المعبود الذى ينتمى إليه كل شهر وكل يوم وما سوف يكون المصير المقدر للمولود حسب يوم مولده ، وكيف سيموت وكيف يجب أن يكون[٤٦] ووفقا لما جاء بتقويم أيام السعد وأيام النحس فإن كل من ولد فى اليوم الرابع من الشهر الأول لفصل بريت سيموت أكبر سنا من كل أقاربه وسيبلغ من العمر أكثر من عمر أبيه ، فكان هذا اليوم ، يوماً سعيداً . وكان يعتبر مفيدا جدا أن يولد الإنسان فى اليوم التاسع من الشهر الثانى من آخيت إذ سوف يموت بسبب الشيخوخة ، وأكثر من ذلك من كان يولد فى اليوم التاسع والعشرين إذ سيكون محترما حين يلتى منيته . وعلى العكس من ذلك لم تكن الأيام الرابع والخامس والسادس من هذا الشهر تبشر بما هو حسن أطلاقا ، فإن مواليد هذه الأيام سوف يموتون بالحمى أو بسبب العشق أو بتأثير الخمر .

وينبغى أن يخشى بأس التمساح من ولد فى اليوم الثالث والعشرين . أما يوم ٢٧ فانه لم يكن خيرا من سابقه . فالثعبان هو الذى يخشى بأسه.[٤٧]

والظروف التى تبدو عديمة الأهمية فى ظاهرها قد تكون ذات عواقب خطيرة . وقد سجل فى بردية إيبرس Ebers الطبية بعض هذه الحالات ، فاذا نطق المولود بكلمة هى Hii « عاش ، وإذا قال مبى Mbi فسوف يموت . وإذا نبر صوته مثل أنين شجرة البلوط ، أو أدار وجهه تجاه الأرض فسوف يموت[٤٨] وكان الأشخاص المتضلعون فى دينهم يعلمون بأن أوزيريس حين قذف به إلى شاطىء جبيل Byblos ابتلعته شجرة بلوط كانت تصنع المعجزات . إذا كان صوت الطفل يذكر بأنين شجر البلوط ، المألوف لجميع من سافروا إلى سوريا ، فإن ذلك لايمكن أن يكون فألا حسنا .

وسواء أكان والدا الطفل مطمئنين أو جزعين فإنهما كانا يبادران إلى تسمية المولود ، وكان هذا أمرا ضروريا لأن المصريين لم يكن لديهم ألقاب . فعندما تبنت ابنة فرعون الطفل الذى عثر عليه داخل السلة أعطته فى التو إسما كتب له أن يكون خالدا وتصور كثير من الناس منذ أقدم العصور ، وفى عصرنا الحالى بأن هذا الإسم كان يشير إلى الظروف التى اقترنت بالعثور عليه ، وعملوا جاهدين على أن يوجدوا اشتقاقا لإسمه ،فكلمة موشيه Mosché لا تؤدى معنى « المنقذ من المياه » وهى ليست سوى كتابة الكلمة المصرية القديمة موسيه Mosé التى هى المقطع الأخير من تحتمس Thoutmosé أو احموس Ahmosé أو ما شابهها من الأسماء والأميرة التى أنقذت الطفل ، قد حلت محل أبويه لتعطيه إسما ، لأن المفروض أنه كان يتيما .

وأسماء المصريين قصيرة جدا فى بعض الأحيان مثل تى Ti . آبى Abi ، توى Toui ، تو To . وقد تكون أحيانا جملة كاملة مثل « جد پتاح ايوف عنخ Djed Ptah iouf ānkh « يقول پتاح بأنه سيحيا.» وقد حولت أسماء نكرة وصفات ومفاعيل إلى أسماء أعلام مثل چاوو Djaou ومعناه عصا ، شدو Chedou ومعناه قربه ، نختى Nekhti ومعناه القوى ، وشيرى Chery ومعناه الصغير ، وتا ميت Ta mit ومعناه القطة .

وكان معظم الآباء يؤثرون أن يضعوا أطفالهم تحت رعاية إحدى المعبودات : والأطفال الذين ينتمون إلى المعبود حر Hor يسمون باسم حورى Hori والذين ينتمون إلى المعبود ست Seth يطلق عليهم اسم سيتى Sétoui والذين ينتمون إلى آمون ، يسمون امنى Ameni . وكان المؤرخ مانيتو يعتبر نفسه تحت حماية المعبود مونتو الطيبي Montou .

وقديدل معنى الإسم على رضى المعبود ، ولهذا فقد حظينا بأسماء لاتحصى مثل : آمون حتب Amon hotep وخنوم حتب Khonoum hotep • وبتاح حتب ، الذى يتقدم (على الولد) ، واسم امنمحات Amonemhat يعنى آمون يحميه أو أنه والد (للطفل) . وأسماء سنوسرت Sanousert التى نقلها الإغريق سيزوستريس Sesostris هم أبناء المعبودة أوسرت Ousert ، والملقبون بأسماء سيامون Siamon هم أبناء المعبود آمون . وموت نجم Mout Nedjem معناها أن المعبودة موت Mout لطيفة ، وبذلك يمكننا أن ندرك مدى حظوة المعبودات فى مختلف عصور التاريخ. وصارت سيدة جبيل فى عهد الدولة المتوسطة شفيعة عدد كبير من السيدات المصريات . ونحن نعلم أنه منذ أن تولى رمسيس الأول العرش حتى حرب الفجار ، استعملت اسماء ست ناختى Seth Nekhti وست ام أوياه Seth em ouia ، ست داخل قارب (رع) ، إذ أن الأسرة المالكة كانت فخورة بانحدارها مباشرة من قاتل أوزيريس .

واعتبر ست بعد هذه الحرب ، فى كل مكان . معبودا محتقراً ولم يوجد بعد ذلك ، طفل واحد يحمل اسمه ، ولم تكن رعاية الملك أقل فائدة من رعاية المعبود ، لأن الملك كان بدوره بمثابة معبود . وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة عرفت الأسماء جسركا رع سنب Djeserkarêsenb ومن خبر رع سنب ونى ما رع نخت Nimârênekht وبعد ذلك انتشرت أسماء رمسيس نخت طوال حكم أسرتين ملكيتين .

وكان مجال اختيار الأسماء متسعا كما نرى. وكان يمكن أن يهتدى الوالدان إلى اختيار الاسم بتأثير بعض الأحداث الخارجية مثل حلم من الأحلام، ذلك أن ستناخامواس Setna Khamois لم يكن قد أنجب طفلا ذكرا . فأمضت

زوجته ليلة فى معبد بتاح فظهر لها المعبود فى المنام وطلب منها القيام بعمل ما فبادرت بتنفيذه ، فحملت . وحلم الزوج بدوره أنه ينبغى له أن يطلق على طفله أسم سنوزيريس .(٤٩)

وبعد أن يطلق الوالدان اسماً على مولودهما ، لم يكن عليهما بعد ذلك إلا أن يسجلاه أمام الهيئة المختصة . « قد أنجبت هذا الطفل الصغير الموجود أمامك — هذا ما قالته الأميرة أهورى Abouri زوجة نتوفر كابتاح Nenoferkaptah لقد سميناه ميراب وسجل فى سجلات بيت الحياة ».(٥٠)

وبيت الحياة الذى سوف تتاح لنا فرصة التحدث عنه عدة مرات، كان عبارة من معهد مصرى يحتفظ فيه الفلكيون والمفكرون والمؤرخون بكافة العناصر العلمية التى أهتدى إليها العلماء وكانوا يعملون على تنمية هذا الكنز ،وكانت هذه المناصب السامية لا تتعارض وبعض المهام البسيطة الأخرى التى كانوا يقومون بها . وربما كان بيت الحياة يجمع بجانب العلماء بعض صغار الكتبة الذين كانوا يقومون بتسجيل المواليد وعقود الزواج والوفيات . ونظراً لأنه لا يوجد من الأسانيد ما يؤيد هذا الغرض ، فربما كان من الحكمة قبول رأى ما سبرو Maspero الذى قال بأن الأهالى كانوا يأتون بواليدهم إلى بيت الحياة لقراءة الطالع وبالتالى لمعرفة ما يجب اتخاذه من الإحتياطات المناسبة لتفادى أو تأخير الأحداث المكدرة بقدر المستطاع التى قد تنتاب هذا الطفل ، إذ لم يكن مراب Merab ابن نتوفر كابتاح وأحورى طفلا عادياً ، وعلى كل حال فإن السلطات المدنية كان لديها دون شك سجل للمواليد والزواج والوفيات . وكان المتهمون والشهود يذكرون فى الوثائق القضائية بأسمائهم، يتلوها أسماء آبائهم وأمهاتهم مع ذكر مهنهم ، لأن الأسماء التى تطلق على كل طفل كانت عديدة جداً إلى حد أن التشابه بين

الأسماء كان لا يحصى . فكان امنحتب صنى الملك أمنحتب الثالث ، يلقب أيضا باسم هوى Houy إلا أن اسم امنحتب قد بلغ عدداً كبيراً إلى حد أن أصحاب اسم امنحتب الذين أضيف إلى اسمهم لقب هوى Houy أصبحوا بدورهم عديدين جداً .

فكان صنى أمنحتب الثالث قد اتخذ عادة حسنة جداً بأن أضاف إلى اسمه وإلى لقبه ، إسم والده حابى Hapi . ولم تكن إضافة هذه الألقاب على الأسماء محض مصادفة بل كان لها طابع رسمى . وهذا برهان جديد على مدى عناية السلطات بسجلات الحالة المدنية للأفراد .

كان الطفل الحديث السن يبقى فى حضانة أمه،تحمله على صدرها غالبا فى خرج يعلق فى رقبتها حتى تبقى يداها طليقتين.(٥١) .ويعبر الكاتب أنى Any عن تقديره لتضحية الأمهات المصريات بقوله: « رد إلى والدتك كل مافعلته لك . أعطها الخبز بكثرة واحملها كما حملتك ، لقد كنت عبئا ثقيلا عليها . ولدتك بعد أن أكملت شهور الحمل ، وحملتك على عنقها ، وثديها فى فمك طوال ثلاث سنوات ولم تكن تشعر باشمئزاز بسبب أوساخك »(٥٢) أما الملكات وغيرهن أيضا فربما لم يكن يعانين مثل هذا العناء ، وأم قن آمون كان يطلق عليها لقب المرضعة الكبرى ، إذ كانت هى التى تولت رعاية المعبود .

ولم يكن هذا المعبود سوى فرعون أمنحتب الثانى الذى ظل معترفا بالجميل لمرضعته . فكان يتردد عليها بزياراته ويجلس على ركبتيها كما كان الحال اثناء طفولته (٥٣) وكثيراً ما كان يعهد بالأمراء الصغار إلى الشخصيات الكبرى التى أفنت عمرها فى خدمه الملك . فإن باحيرى Paheri أمير جنى Tjeni ومحافظ اقليم نخبيت Nekhabit الكاب) قد رسم على مقبرته وهو يحمل على

ركبتيه طفلا صغيرا عاريا ، تتدلى خصلة من شعر رأسه على خده الأيمن وهذا هو طفل الملك أوراج موزيه Ouadj mosé . ويضيف هذا الحاكم العظيم إلى ألقابه لقب رائد الطفل الملكى.(٥٤) ويروى أحد جنود حروب التحرير القدماء وهو احموزا بن نخبيت Ahmose de Nekhabit فيقول : « بلغت شيخوخة سعيدة وأنا احد الذين يعيشون فى كنف الملك . . أما الزوجة المقدسة ، الزوجة الملكية الكبرى ماكارع Makara فقد أغدقتنى نعمها ، لأنى توليت تربية ابنتها الكبرى الأميرة نفرورع Nefereure منذ أن كانت طفلة رضيعة.»(٥٥)

هذا المحارب العجوز لم يكن فى استطاعته أن يخصص الكثير من وقته للطفلة لأننا نعرف أن لها مربيا آخر هو كبير المهندسين المعاريين ، « سنموت Senmout » الذى يرجع إليه الفضل فى إقامة أجمل معبد فى مصر وهو الدير البحرى والذى أقام أيضا مسلات الكرنك . وهذا الفنان العظيم كان على تفاهم تام مع الطفلة . وقد مثل الحفارون فى تعبير قوى وبساطة تامة هذا العطف المتبادل بإقامة تمثال لسنموت ، على شكل مكعب مغطى بالنقوش الهيروغليفية ويبرز منه فحسب رأس الرائد وأمامه رأس الأميرة الصغير للغاية .

وحين الوقت الذى لا يمكن للطفل أن يكتفى فيه بمجرد قلادة فى عنقه تكون بمثابة ملابس له ، فكان يعطى للذكر إزار نصفى وحزام وللطفلة رداء وكان يوم تسلم مثل هذه الأشياء يوما خالدا فى حياته . أذ لم ينس رجال البلاط الطاعنون فى السن مثل أونى Ouni وبتاح شبسس Ptah Chepsis أنهما تقلدا الحزام والإزار للمرة الأولى فى عهد الملك الفلانى. وربما يكون هذا

اليوم متفقا فى حقيقة الأمر مع اليوم الذى دخلا فيه المدرسة . وكان من عادة الفلاحين والعمال والصناع أن يبق الولد فى المنزل يتدرب على رعى القطيع واستعمال الأدوات ، حتى يمكنه أن يمارس بدوره الحرفة التى مارسها أبوه من من قبله .

٤ ــ الخدم والعبيد

لم يكن من اليسير دائما أن نميز من بين أولئك الذين يتبعون شخصية بارزة من الذين يعاونونه فى أداء أعماله الرسمية ومن يقوم على خدمته ومن يتولى خدمة أفراد أسرته . على أن المصريين لم يخلطوا بين كل فئة وأخرى ، فحابى جفاى Hapi Djefai حاكم اسيوط ، نراه يتصرف تارة فى إيراد ممتلكات بيت أبيه وبعبارة أخرى فى ثروته الشخصية وتارة يتصرف فى ايراد بيت الأمير أو بمعنى آخر الممتلكات التى يديرها لحساب الدولة .

وكان يدفع من مال أبيه أجور أولئك الذين كانوا يقومون بالطقوس الجنائزية الخاصة به ، ولما كانت الطقوس الجنائزية تعد استمرارا للحياة الدنيا ، فيمكننا أن نعتبر أن أجور الخدم الخصوصيين كانت تدفع من مال من يقومون على خدمته .

تؤدى عدة ألفاظ مصرية قديمة معنى كلمة خادم أو أجير فى لغتنا الحديثة ، فلفظ « المستمعون » يطلق على من يجيبون النداء ، أوباوو Oubaou لمن يقدمون الشراب ويعبر عنه بكتابة برسم إناء . وكذا الشمسو وهذا اللفظ يكتب باستعمال رمز مركب يتكون من عصا طويلة منحنية وحصير أو غطاء ملتف مربوط بسير من الجلد ومكنسة صغيرة . وكان « الشمسو » يصحب سيده كلما خرج ، وعندما يقف ، يبسط له الحصير على الأرض ويقدم له العصا الطويلة ليمسكها بيده وكان يكنس له من حين

إلى آخر الحصير وإذ ذاك كان يستطيع المخدوم أن يقابل زكلاءه ويستمع للتقارير التي يعرضونها عليه ويقوم شمسو آخر بحمل صندل سيده عندما يسير . وحينما يقف يمسح له قدميه (٥٦) ويضع فيهما النعل . أما الأباوو فكانوا مكلفين بخدمة سيدهم في السقاية والطعام . كانوا يقومون بخدمة المائدة مقربين من أسيادهم وكان في استطاعتهم استماع الأسرار وتذكير السيد بأمر هام في الوقت المناسب وعلى ذلك فقد كانت وظيفتهم تضفي عليهم أهمية خاصة ، وإننا لنجد سقاة فرعون يشتركون في جميع لجان التحقيق العليا .

وقد يكون الذين ذكرناهم ، اذا لم يكن قد جانبنا الصواب ، هم خدم أحرار بمعنى أنه كان في مقدورهم ترك خدمة سيدهم إذا ما أرادوا ذلك ، أو يحترفون حرفة أخرى ، أو يشترون أملاكا ويستمتعون بها اذا توفرت لديهم الإمكانيات المادية ويحظون بالخدمة بدورهم .

وبيتاوو* بعد أن أخطأ أخوه الأكبر في حقه خطأ جسيما، أعلنه بأنه لا يريد أن يستمر في خدمته وأن أنوبو Anoupou يجب أن يعني شخصيا بماشيته . وهذه حالة نرى فيها السيد والخادم أشقاء ، ولكن يحق لنا أن نعتقد أنه حتى اذا لم يكن بينهما صلة قرابة، فإن بيتاوو كان سيترك عمله .

ورود ديديت السيدة التي أنجبت ثلاثة ملوك أمرت بضرب خا متها بالسوط بعد نزاع بينهما فتركتها الخادمة في الحال دون أدنى تعقيب . حقا ، لقد كان أخوها أول من عاقبها ثم تلاه التمساح الذي كان أداة الانتقام الإلهي . غير أن سبب عقابها هو أنها أرادت أن تطلع الملك على سر روديديت ، لا بسبب تركها الخدمة . وطبيعي أنه كان في استطاعة المخدوم أن يطرد خادمه بسهولة تامة. وعلى العكس من ذلك ، كان الذين يسمون حمو hemou

* في قصة الأخوين .

أو بكو b-kou يعتبرون عبيدا حقيقيين وبصفة خاصة فى عصر الإمبراطورية الحديثة .

ولم يكونوا يعاملون معاملة شديدة فحسب ، بل كان يقتفى أثرهم إذا ما هربوا . أبلغ كاتب رئيسه قائلا : « هرب عبدان من نفر حتب رئيس الأسطبل لأنه أمر بضربهما ، ومنذ أن هربا لم يقم أحد بحرث الأرض . وأرسل هذا لإخطار سيدى ».(٥٧) وقد هرب عاملان فى يوم ما من قصر رمسيس ، إما لأنهما عوقبا بالضرب وإما لأنهما آثرا الحرية . وقد كلف كاكم أور Ka kem our رئيس رماة السهام من جيكو Tjekcu *للبحث عنهما ، فسافر من پى رمسيس ووصل إلى أسوار جيكو فى اليوم التالى وقيل له إن الهاربين شوهدا فى طريقهما صوب الجنوب فاتجه الضابط إلى القلعة ولكنه علم أن الهاربين أجتازا أسوار المدينة شمال بوابة سيتى مرى إن پتاح فاوقف البحث عنهما وصرف النظر عن هذا الأمر.(٥٨) ولم يكن مثل هذا الحظ يواتى جميع العبيد ففى مقبرة نفر حتب Neferhotep نرى كاتب يقوم بحصر أسماء العبيد أمام سيده، فأحد العبيد مقيد اليدين ومربوط بحبل يجر منه . وعبدان آخران يؤدبهما أحد الشرطة وقد قيدت أرجلهما. هذا المنظر يمكن أن يسمى « عودة الهاربين ».(٥٩)

وفى أغلب الأحيان ، إن لم يكن دائماً ، كان هؤلاء العبيد من أصل أجنبي وقعوا فى الأسر نتيجة حملة انتصر فيها المصريون فى بلاد النوبه أو ليبيا أو الصحراء الشرقية أو سوريا . وكان فرعون أو ممثله الرسمى ، القائد

---

* حصن على الحدود الشمالية الشرقية ، قريبا من تل المسخوطة .

المفوض منه لإعلان الحرب وإصدار الأوامر ، يهبهم إما إلى الشخص الذى أسرهم إذا كان قد تولى ذلك بمجهوده الفردى أو يوزعهم على الرجال المحاربين إذا كان عدد كبير قد أسر فى إحدى المواقع دفعة واحدة ، وبهذه الوسيلة استطاع البطل أحموزا خلال مدة خدمته الطويلة أن يأسر تسعة عشر عبداً ، عشر نساء ، وتسعة رجال ، ومعظم أسمائهم أجنبية مثل : باەچايو Pa Medjaiou وپاعمو pa Amou واستاروى Istaroummi وهديت كوش Hedit kouch .

أما بقية العبيد الذين يحملون أسماء مصرية فيحتمل أن يكونوا قد أعطوا لأحموزا أثناء حملة الدلتا ، ما لم يكن سيدهم قد غير أسماءهم الأجنبية الكنعانية أو النوبيه إلى أسماء مصرية كما كان الحال مع يوسف(٦٠)

كان فى إمكان السيد أن يؤجر عبده أو يبيعه، احتاج رجل إلى ملابس فأجر خدمات جارية سورية لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، ولم يذكر نوع العمل الذى قامت به هذه الجارية ولكن الأجر المطلوب كان باهظاً . وقد تسرب الشك فى أن أحد سكان طيبه قد اشترك فى نهب المقابر إذ لوحظ أن مستوى معيشته ارتفع فجأة وقد استجوب القاضى زوجته قائلا : « بأية وسيلة حصلت على العبيد الذين كانوا معه ؟» فأجابت : « لم أر النقود التى اشتراهم بها . لقد كان مسافراً عندما كان معهم » . (٦٢)

وتشير إحدى أوراق بردى القاهرة وقد نشرت حديثاً ، إلى بعض معلومات عن طريقة شراء العبد ، ، فإن تاجراً اسمه رايا Raia يعرض على أحد عملائه شراء جارية سورية صغيرة السن ويتم الاتفاق على الثمن ولكنه لا يدفع فضة ولا ذهباً ، ولكنه يدفع أصنافاً مختلفة تقدر قيمتها حسب وزنها

فضة ، وتسجل فى المحكمة العهود والإيمان المغلظة التى يحلفها الشهود وتصبح الجارية ملكا لمن يدفع الثمن ويطلق عليها فوراً اسم مصرى.(٦٣)

وعندما قررت الحكومة أن تعاقب بشدة سرقات المقابر اتهم عدد كبير من العبيد ولم تخفف المحكمة العقوبة عليهم بل بالعكس ضاعفت جلدهم بل زادته إلى ثلاثة أضعاف ، وليس ثمة شك فى أن المتهمين الأحرار لم يعاملوا معاملة أفضل من معاملة العبيد . وكان السيد يضرب عبده ، كما كان الرعاة وملتزمو الأموال المماطلون فى الدفع والممتنعون عن التسديد يضربون بدورهم ومن النادر مثـــلا : أن نجد شخصاً مثل نجم أبه Nedjem ab الذى عاش فى الدولة القديمة ، يزعم أنه يستطيع القول بأنه لم يجلد مطلقا أمام الكبراء منذ أن ولد . (٦٤) ومن يدرينا فقد يكون المخلوق السعيد قد ضرب فى الخفاء بالعصا أكثر من مرة ، دون أن يشاهده أحد وهو أمر لا يفخر به . وبالاختصار ، فإذا واجهنا الموانع التى كانت تحول بين أفراد عامة الشعب وبين رفع مستواهم الطبقى . وجدنا الفروق غير كبيرة بين الأفراد الأحرار فى الطبقات الدنيا وبين من يسميهم عبيداً . لقد سبق أن أشرنا إلى مستند جاء فيه أن عبداً سابقاً لحلاق كان قد حصل من سيده على عقد تحرره ، وخلفه فى مهنته وتزوج بابنة أخته. أن العبيد الذين أوتوا بعض المهارة كانوا يعرفون كيف يتخلصون من نير عبوديتهم ويندمجون فى الفئات الشعبية .

٥ ـ الحيوانات الأليفة

أن الكلب رفيق الرجل ومساعده فى الصيد، فكان يسمح له بدخول المنزل واحتلال مكانه بهدوء تحت مقعد سيده ، وينام ، كما تفعل سائر الكلاب ، أعنى بعين مفتوحة .(٦٥) أما كلب الراعى فإنه لا يترك سيده أبداً ويترقب أوامره ، إما بصوته ، أو بإشارة منه ليجمع القطيع أو يقوده فى السير .(٦٦)

وكلاب الراعى أو كلاب الحراسة هى فى الغالب نوع من كلاب الصيد ـ السلوق ، طويلة الأرجل ، مرتفعة ، طويلة الذيل ومستطيلة الفك وآذانها متدلية كبيرة تارة ومدببة وقائمة تارة أخرى . ولم نعد نرى فى الإمبراطورية الحديثة ، كلاب السلوقى القديمة ذات الذيل المستدير الشكل ، ولا كلاب الحراسة ذات الحجم المتوسط التى كانت آذانها مستقيمة ، ولم نعد نرى أيضا الكلاب قصيرة القامة التى كانت شائعة إبان الدولة المتوسطة . وكان هناك نوع آخر صغير الحجم يسمى كتكت Ketket بجانب فصيلة السلوقى ، وقد قدم لولى العهد كلب من نوع كتكت ولكنه طلب كلبا أصيلا ورفض فى امتهان الكلب الصغير الذى قدم إليه .

كانت كلاب الصيد ذات قيد عادة وأن تركت أحيانا طليقة . والقرد نوع آخر من الحيوانات الأليفة وكان يعد نفسه مسئولا عن مراقبة الكلاب ، وقد ورد على مقبرة مونتوحر خبشف Montou bir khopechef ‏(٦٧) . قرد قد أمسك بحبل قيد به كلب ، وأخذ يشد الحبل حتى أصبح قصيراً . ولم يكن الكلب راضياً عن هذه الحركة فالتفت محتجاً على تلك المعاملة . وربما كان لا يكتفى بمجرد النباح .

وكانت تطلق على الكلاب أسماء فأحد الكلاب من عهد الأسرة الأولى كان يسمى نب Neb « السيد » . وقد دفن بالقرب من سيده . وقد عثر على لوحة محفور عليها أسمه وصورته ، وقد أطلق الملك انتف Antef ، أسماء بربرية على كلابه الأربعة وكان فخورا بها حتى أنه رسمها على لوحة يمكن مشاهدتها فى المتحف المصرى بالقاهرة .

وقد أقام أمام مقبرته تمثالا ، غير موجود اليوم ولكن أشار إليه

تقرير المستشارين عن نهب المقابر الملكية والكلب باهيكا Bahika ، وهى كلمة باللغة البربرية تعنى « المها » كان يقف بين ساقى الملك .

وفى العرابة المدفونة كان يوجد مدفن للكلاب بين مدافن النساء ورماة السهام والأقزام . وفى أسيوط كانت توجد مقبرة أخرى للكلاب ، حيث وجد تمثال كلب من الحجر الجيرى الموجود حاليا فى متحف اللوفر وبغض النظر عن الجرس المعلق فى عنقه فإنه لا يبدو كلب حراسة سهل المعاملة .

ولم يحرم المصريون الكلاب من شرف الحفلات الجنائزية أو المقدسة . ولكن يلاحظ أن الفنانين لم يرسموا لوحة يدلل فيها أحد كلبا أو يلعب معه . ويدل هذا على عدم الابتذال .

وقد بلغ القرد مكانة قريبة من قلب الرجل ، فمنذ الدولة القديمة كان له مطلق الحرية فى دخول البيت ، وكان يسلى الجميع بحركات وجهه المضحكة وقفزاته وبالأخص بالاعيبه المفاجئة التى كان يقوم بها بمعاونة الأقزام وحدب الظهور الذين يكونون جزءا من حاشية أى منزل كبير . وكان الأقزام الأشد تقديراً هم الذين جلبوا من بلاد شديدة البعد . فحر خوف قد نال من ملكه حسن التقدير اعترافا بالجميل ومن علماء الآثار الشهرة لأنه خلال إحدى بعثاته فى أقصى الجنوب أتى بقزم كان يرقص رقصة الآلهة . ولم يحدث مثل هذا الأمر منذ عهد أسيسى Asesi قبل ذلك بقرن مضى . ونرى إحدى المقابر الفخمة حول هرم خفرع ، وهى مقبرة القزم سنب ، وقد وجد بجوار مقابر حكام منات خوفو ، مقابر للأقزام ومحدودبى الظهور *، ولكننا لم نعد نشاهد هذه الظاهرة فى عهد الإمبراطورية الحديثة ، ولا حول مقابر الملوك ولا بجوار قبور الأفراد .

---

* يدل هذا على أن الاقزام والمحدودبى الظهور كانوا مقربين لى هؤلاء الحكام .

وعلى العكس من ذلك لم تفقد القرود شيئاً مطلقا من امتيازاتها ، فقد وجد ف . لوريه V.Loret فى مقبرة تحتمس الثالث مومياء قرد ولم يكن وجوده هناك مجرد رمز لآلهة الكتابة والعلوم فحسب ، وإنما لأنه أدخل البهجة فى نفس الملك خلال حياته وكان يأمل أن يستمر أيضا فى إبهاجه فى العالم الآخر فى مملكة أوزيريس ، وهذا يماثل مومياء الكلب التى عثر عليها فى مدخل مقبرة بسوسنس Psousennés . وللقرود شغف شديد بمقاعد سادتهم فإذا لم يكن فى البيت أقزام أو محدودبو الظهور فالأطفال ، وأطفال الزنوج الصغار هم زملاؤهم المقربون فى اللعب . وأحيانا كانوا ضحاياهم(٦٩)وعندما تنضج ، الفاكهة تشاهد القرود وهى تتسلق الأشجار(٧٠) وكانت تلتهم من البلح والتين أكثر مما تجمع ، دون أن يثير هذا ثائرة البستانى فأراضى البلاد المصرية شديدة الخصوبة ويجب أن يعيش الجميع . إنه آمون الذى خلق كل الكائنات وحابى يأتى بالمياه لينتفع بها كل الأحياء ، وكان القرد يتفاهم مع الكلب والقط بسهولة أكثر مما يفعل مع أوزة النيل إذ كان من طباعها حب الشجار غير أنه كان يقوّم طباعها إذا اقتضى الأمر ذلك . (٧١)

ويظهر أن القط لم يكن يسمح له بدخول البيوت حتى عهد الدولة المتوسطة . وكان يعيش بجانب المستنقعات ويغير على الأوكار مثل سنور الزباد* والحيوانات الصغيرة التى تعيش على افتراس الطيور .(٧٢) ولم تكن المنافسة بين الصيادين لتقلقه مطلقا فبينما كان هؤلاء يسيرون فى حذر شديد وفى سكون تام بين أشجار البردى ، وقبل أن يلقوا بعصا الرماية ، كان

* حيوان من أكلة اللحوم له رائحة نفاذة تستخدم فى عمل العطور .

القط يقفز قفزتين فيمسك بين أسنانه بطة برية ، وهاهو ذا يمسك أيضا عصفورين (٧٣) وقد سمح له بأن يصبح ضيف البيت ولكنه لم يفقد استقلال طباعه أوينسى غريزته كصياد ، فكان يقعى تحت مقعد سيده ، ولكنه كان أكثر شجاعة من الكلب فيقفز على ركبة سيده متى شاء ويعمل مخالبه فى ردائه الفاخر المصنوع من الكتان (٧٠) وقد قبل القط أن يوضع طوق فى عنقه وكان لايضيق ذرعا بالطوق إلا إذا ربط فى قائمة المقعد أو إذا وضع إناء اللبن بعيدا عنه فيدرك عندئذ أنهم يريدون السخرية به ، فيقف شعره وتبرز مخالبه ويشد الحبل المربوط به بكل قوته.(٧٥) وفى الأحوال العادية يعيش القط فى وئام مع بقية الحيونات الأليفة والأوزة سمون Smon

وقد رسم على أحد الآثار الصغيرة قطة صغيرة وأمامها أوزة ، ولهدوئها رهبة ، ولكن يجب إلا ننسى أنهما رمزان للإله آمون القدير ولزوجته موت فهما يتصرفان بوقار كما يجب أن تكون عليه الحيوانات المقدسة ، على أن فى مقدورهما استعمال المخالب أو المنقار ، إذا ما أثارهما الغضب ، وليس ثمة أى دليل على أن القط هو الذى سيفوز فى المعركة.(٧٦)

لم يجهل المصريون أن القط مصدر رعب للفيران.(٧٧) ولكى يرغبوه فى البقاء بالبيت دون أى قيد ، كان سيده يقدم اليه سمكة طيبة فيلتهمها القط وهو قابع تحت مقعده .(٧٨) ذهب أبوى Apouy فى أحد الأيام ، إلى فاربه الذى كان على هيئة بطة ليصطاد الطيور المائية وكانت تصحبه زوجته وخادمه وأخذوا معهم القط ، وهو بذاته الذى رأيناه يعمل مخالبه فى رداء سيده ، وطبقا لغزيرة أجداده المتوحشين كان يغير القط على أوكار الطيور ولكن سادته كانوا يعرفون تماما اللحظة المناسبة التى ينادون عليه فيها لإعادته إلى البيت . (٧٩)

ومن الطيور المنزلية ، عرف المصريون منذ زمن طويل أوزة

النيل سمون Smon التى يطلق عليها علماء الأحياء اسم Chenalopex (٨٠) وبدلا من وضعها مع مثيلاتها فى مكان مغلق فقد تركت طليقة تدخل الأفنية والحدائق وتتسرب داخل البيوت . ولهذا نرى خوفو ، عندما أراد اختبار معلومات ساحر كان يفخر بأنه يستطيع إعادة رأس مقطوع إلى مكانها ، قد فكر على التو فى إحضار أوزة سمون . وكانت الأوزة تقتسم مع القط ذلك الفضاء الممتاز الذى يحجبه مقعد رب البيت . وكانت ذات طباع مستقلة ، فلم تستغل تلك الحظوة وكانت ترتاد من وقت إلى آخر شواطىء النيل لتتريض . وأضرار الأوزة عديدة : فكانت تفسد البلح فى الفصل الحار من السنة وثمر الدوم فى فصل الشتاء . أما بقية السنة فكانت تلاحق الفلاحين فلا تمكنهم من نثر الحبوب فى الأرض .

وبالرغم من أن المصريين كانوا ينعتونها بالحيوان البشع ، فإنهم مع ذلك كانوا متسامحين معها : لقد امتنعوا عن صيدها وتقديمها فوق موائد القرابين الإلهية . وكانوا يتسلون بشراهتها وطباعها العدوانية وصراخها المزعج .(٨١) وربما كان فى استطاعتها أن تكون حارسة أمينة يقظة ، مثلها فى هذا مثل الكلب . وإذا ما اقتضى الأمر تقويمها ، فإن القرد يتولى ذلك الأمر فى سرور وإن تحمل فى سبيل ذلك بعض عضات من منقارها .

الفصل الرابع

الأعمال المنزلية

١ ـ العناية بالنظافة

كان قدماء المصريين يعنون عناية كبيرة بالنظافة ، ويهتمون بأبدانهم وملابسهم ومساكنهم.(١) وحين صدر العفو عن سنوحى ، عاد إلى مصر . كان من بين مظاهر الفرح الكثيرة التى طرب لها أنه خلع الملابس الصوفية الملونة التى كان يرتديها أثناء اقامته مع البدو (٢) واستبدلها بملابس من الكتان.(٣) ولكى ينس الماضى فعل ما فعله أوليس Ulysse عند الفيسيين (Pheaciens) إذ أزال شعر جسمه وتمشط وتدلك لابزيوت الأشجار فحسب ولكن بآخر أنواع العطور أيضا التى قد تكون محفوظة فى أناء من الزجاج الطبيعى ومن الذهب ، مثل ذلك الاناء الذى كان يستعمله أبى شمو Abiebemou ملك جبيل والذى كان امنمحات الثالث قد أهداه له .

كان المصريون يغتسلون عدة مرات فى اليوم فى الصباح عند الاستيقاظ من النوم وقبل تناول الوجبات الرئيسية وبعد الفراغ منها . كانت أدوات الاغتسال تتكون من طست وابريق ذى صنبور توضع عادة تحت مائده مستديرة ذات ثلاثة أرجل محملة بألوان الطعام . واسم الطست شاأوتى Chaouty ويظهر أنه مشتق من المقطع châ بمعنى رمل ، والخادمة التى تصب الماء تسمى حسمنيت Hesmeoyt مشتق من كلمة حسمن Hesmen بمعنى النطرون ويعتقد أنه كان يوضع نطرون فى مياه الإبريق ورمال فى الطست. أما مياه مضمضة الفم فكانت تعقم بنوع آخر من الملح يسمى بد Bed وأطلق اسم سوابو Souabou المشتقة من أواب Ouab بمعنى نظيف أو نقى على معجون

جاف يحتوى على مادة للترغية وللتنظيف وإزالة الشحم كالرماد أو الصلصال . (٤) .

وبعد أول اغتسال يتوجه الرجال إلى الحلاقين وإلى مقلمى أظافر الأيدى والأرجل ، كذلك يتجه النساء إلى محلات التزيين . ويعتبر استيقاظ الملك حدثا عظيما فى البلاط ويعتبر كبار الشخصيات الاشتراك فى هذا الحفل فخرا كبيرا لهم وأنهم جديرون بأن يوصفوا بالدقة والمواظبة.(٥) وكذلك كان بالنسبة للوزراء وكبار الحكام والمحافظين فكان لهم مثل هذا الحفل ، كان الأخوة والمعارف والأقارب يلتفون حول رئيسهم ويجلس الكتاب القرفصاء لتسجيل الأوامر بأقلامهم المشرعة أو يفردون ورقة طويلة من البردى تحتوى على أسماء وأرقام وأعمال فرغوا من العمل فيها أو لا يزال العمل جاريا ويتناول عمال تقليم الأظافر الأيدى والأرجل ، ويتولى الحلاق حلاقة الذقن ويقص الشعر مستعملا موسى منحنى السلاح ذا كلابة وهو تحسين للنوع القديم الذى كان على هيئة سكين النجار ، ذلك النوع الذى كان سائدا فى الدولة المتوسطة ، وكانت هذه الأمواس تحفظ فى أجربة من جلد مزودة بحلقات صغيرة وكانت توضع الأجربة بجانب مشابك الشعر والمسنات ومقصات تقليم أظافر الأرجل والأيدى فى صناديق أنيقة من الأبنوس . (٦)

ويخرج الرجل من هناك نظيفا منتعشا . ذقنه قصيرة الشعر مربعة الشكل ورأسه قد نزع شعره تماما أو صار على الأقل قصيرا ، ويأتى بعد ذلك دور الأخصائيين والصيادلة الذين كانوا يحملون الروائح العطرية والطيب فى أوان مختومة من البللور أو المرمر أو الزجاج الطبيعى ، كما يحملون مساحيق خضراء وسوداء لتجميل العيون داخل أكياس صغيرة ربطت من أعلى بأشرطة (٧) .

وكانت العيون الكحيلة المستطيلة تروق المصريين ، كما كانت تلك المساحيق وسيلتهم لحماية العيون شديدة الحساسية من أنواع الرمد التى يسببها انعكاس الضوء والرياح والغبار والحشرات .

ولم تكن تنقصهم مواد التجميل ، ولتفادى الرائحة الكريهة التى تنبعث من الجسم حين تشتد الحرارة . كانوا يدلكون أنفسهم عدة أيام متتالية بعطر أساسه زيت النفط ويسمى سونتى Sonte ومن البخور المسمى أنتى Anti الذى كان يخلط بحبوب غير معروفة وبمادة عطرية أخرى . وكانت بعض تركيبات أخرى تستعمل فى مواضع التقاء عضوين من أعضاء الجسم.

وكان لديهم منتجات للتجميل ولتجديد البشرة ولتقوية الجسم، وأخرى لإزالة البقع وحبوب الوجه . فكانوا يستعملون مثلا لتقوية البشرة مسحوق المرمر أو مسحوق النطرون أو ملح الشمال ممزوجا بالعسل ، كما توجد وصفات أخرى أساس تركيبها لبن الأتان أما جلد الرأس فقد كانوا يعنون به عناية كبيرة دائمة ، تتمثل تارة فى انتزاع الشعر الأشيب أو تسرب الشيب إلى شعر الحواجب. وتارة أخرى فى العمل على تلافى الصلع أو اعادة نمو الشعر . وكانوا يعلمون أن زيت الخروع أحسن علاج لذلك ، كما كانوا يعرفون كيف يصلون إلى إزالة شعر الجسم والعذار . وكان فى متناول النساء تركيب خاص تسقط به شعر ضرتها (٨) إذا ما أرادت الكيد لها .

ولدينا وصفة علمية « دونت فى نهاية بحث خاص بالجراحة ذات عنوان ينطوى على بعض الإدعاء هو « إعادة الشيخ إلى الشباب » يحصل على قرون وتجفف ثم تقصص وتفصل البذور عن القرون ثم تعمل عجينة من هذه البذور وتخلط بكمية مساوية لهامن القرون وتترك حتى تتبخر المياه ثم تغسل وتترك ثانية لتجف ثم يصحن مسحوقا، وإذا عملت عجينة من هذا المسحوق وسخنت

على النار فإننا نرى طبقة خفيفة من الزيت تطفو على السطح . ويصب هذا الزيت بعد تصفيته فى آنية من الحجر الصاب مثل الزجاج الطبيعى . وهذا الزيت الثمين يكسب البشرة لونا لا مثيل له وهو دواء مضمون لعلاج الصلع وبقع النمش وتجاعيد الشيخوخة والبقع الحمراء التى تشوه الجلد . (٩) وهذا الدواء الهام قد استعمل بنجاح ملايين المرات وليس له عيب سوى أن تحضيره يتطلب وقتا طويلا وأن الكمية التى يحصل عليها منه قليلة ولذلك كان باهظ التكاليف . كان أفراد الطبقات الفقيرة يذهبون إلى حلاق يجلس تحت ظلال شجرة فى العراء ، وانتظارا لدورهم كانوا يتحدثون أو يبقون جالسين دون أن يتمددوا ، فيحنون ظهورهم ويضعون رؤوسهم بين أيديهم ويسندون جباههم على ركبهم وقد يحدث أن يجلس اثنان أحيانا على مقعد واحد مستدير دون مسند والعميل الذى يصيبه الدور يجلس على مقعد ذى ثلاث أرجل ويسلم رأسه للحلاق فيجعله أملس كحجر على شاطىء البحر . (١٠)

أما زينة المرأة الغنية فكانت حدثاً هاماً مثل زينة زوجها . ويبين لنا نقش بارز كيف يتم تزيين إحدى محظيات البلاط . (١١) فقد جلست هذه السيدة على مقعد مريح ذى مسند كبير الظهر ، ومتكئات أخرى جانبية ، تمسك بيدها مرآتها التى على هيئة قرص من الفضة اللامعة ولها مقبض من الأبنوس والذهب على شكل عمود يماثل ساق نبات البردى ، ولم تقف عاملة الزينة دون عمل فبأصابعها الرقيقة الماهرة نراها قد فرغت من عمل مجموعة من الضفائر الصغيرة رغم أن شعر المحظية كان قد قص قصيراً إلى حد ما ، وبمشبك من عاج ، حجزت خصلات الشعر المتناثرة التى لم تتناولها بعد ، وكان هذا العمل يتطلب وقتاً طويلا . ولأجل الترفيه عن السيدة كان خادم قد كلف بإحضار كأس وصب فيها من قنينة ، قائلا عندما يمس الكأس شفتى

سيدته : « فى صحة قرينك (الـكا) » . وأما زوجة أنوبو Anopou المتوسطة الحال والتى كان زوجها فلاحاً ومالـكا صغيراً فـكانت تقوم بعمل زينتها بنفسها عندما يـكون زوجها وأخوه فى الحقل . وهى لا تحب أن يضايقها أحد . وكانت إذا قامت لقضاء أمر أفسد زينتها فى الطريق ، اضطرت إلى إعادة الـكرة من جديد(١٢) .

٢ — الزى

حينما كان الرجل يتزين ،كان لا يرتدى إلا ملابس الصباح البسيطة ، وهى الإزار ، ويظل عارى الرأس حافى القدمين لا يتزين بالحلى أو يتزين بالقليل منها ، وبعد أن تتم زينته يمكنه أن يحتفظ بإزار الصباح حتى ولو كان مضطراً إلى مغادرة منزله ، يزين معصمه بزوج أو أكثر من الأساور ، ويضع خاتماً فى أصبعه ، وحول رقبته عقد يتألف من خمسة أو ستة صفوف من حبات الخرز ، قد ضم طرفاه بمشبكين على هيئة رأس الصقر ، وإذا أضاف « دلاية » من حجر اليشب أو من العقيق معلقة فى خيط طويل ، أصبح فى هذه الحالة كامل الزينة واستطاع أن يزور ضياعه ويستقبل رجال الأعمال أو يتردد على بعض المـكاتب وفى وسعه إذا شاء أن يستبدل الإزار برداء كامل ويحتذى نعلا فى رجليه ،(١٣) وكانت النعال معروفة منذ أقدم العصور ولـكنهم كانوا يحرصون على عدم استعمالها إلا فى المناسبات ، فالملك نارمر الطاعن فى السن كـان يسير حافى القدمين يتبعه خدمه ، وكـان أحدهم يحمل نعلى الملك . وأونى Ouni أخذ الإحتياطات الـكفيلة بمنع الجنود من سلب النعال من أيدى المارة ، (١٤) من الأيدى وليس من الأقدام . وعندما يذهب القرويون لإنجاز أعمالهم ، كـانوا يحملون النعال فى أيديهم أو يربطونها فى طرف العصا ، وكـانوا ينتعلونها حينما يصلون إلى المـكان

المقصود . وفى عهد الأمبراطورية الحديثة ، وخاصة خلال حكم الرعامسه استعملت النعال بوفرة ، فكانت تصنع من ورق البردى المضفور أو من الجلد أو من الذهب أيضاً .

وفى مقدمة النعل سير يمر بين أصبعى القدم الأول والثانى ويلتف حول أعلى القدم حيث يتصل بسيور على جانبي النعل ربطت على هيئة عقدة خلف الكعب . وإذا كان النعل من الذهب فتكون السيور بدورها من الذهب . وفى هذه الحال لابد أنها كانت تسبب جروحاً لمن ينتعلها وخاصة لأولئك الذين كانوا لا ينتعلونها إلا قليلا .(١٥)

وقد أشارت بعض أوراق البردى الطبيـة إلى أن المصريين كثيراً ما كانوا يعانون من أقدامهم .(١٦)

وكان بعض المصريين يرتدون ثياباً لا زخرف فيها ، ذات حمالات ، وكانت تمتد بطول الجسم من الصدر إلى أخمص القدم . غير أن أكثر المصريين كانوا يفضلون أن يرتدوا بدلا من تلك الثياب البسيطة ، ملابس ذات ثنيات لها فتحات واسعة عند الرقبة ، تتناسب مع الجزء الأعلى من الجسم وتتسع عند نهاية الثوب ، أما الأكمام فقصيرة نوعا وتنتهى بانسياب . وفوق هذا الثوب حزام عريض مصنوع من شال ذى ثنيات من نفس قماش الثوب ، وتنتهى طرفاه على هيئة منشفة مثلثة الشكل . أما الزى الكامل للاحتفالات فكان يتطلب شعراً مستعاراً يحيط تماماً بالرأس ، ومجموعة كبيرة نفيسة من الحلى والعقود والقلايات وحلى الصدور المزدوجة السلاسل وأساور للرسغ وللذراع ونعال للقدمين .(١٨) وكانت ملابس سيدة المجتمع لا تختلف كثيراً عن ملابس زوجها فكانت تشمل قيصاً

شفافاً جداً ، وفوقه ثوب أبيض شفاف ذو ثنيات مثل ملابس الرجال ، يعقد على النهد الأيسر بينما يكشف النهد الأيمن ويمتد مفتوحاً من تحت حزام الوسط حتى القدمين . أما الأكمام المزركشة بالخمل فإنها تترك السواعد مكشوفة ، وتكشف عن جمال الأيدى الطويلة المتسقة والأرسغ المكتظة بالأساور ذات الأشكال المختلفة : إذ كان منها ما هو على شكل رقيقتين مزخرفتين من الذهب تربطهما مفصلتان ، وأقراط من الذهب المصمت وعقود من اللؤلؤ ، والخيل الملتفة والشرائط من الذهب . وكان الشعر المستعار الجعد ينسدل فوق الأكتاف والظهر ، ويتألق بين الشعر تاج جميل من الفيروز واللازورد والذهب ، قد ثبت خلف الشعر بشريطين تدلى منهما الطرر .

وفوق هذا الزخرف المعقد للشعر ، كن يضعن قمعا يحفظن توازنه بأعجوبة . ولم يعرف بعد مما كان يتركب هذا القمع ، ولكن نعتقد أنه كان نوعا من الدهانات المعطرة . ولم يكن هذا الشكل المخروطى مقصورا على النساء وحدهن فقد كان الرجال بدورهم يضعونه فوق رؤوسهم فى غالب الأحيان.(١٩)

والملابس التى سبق أن وصفناها لا تلائم إلا فئة الأعيان الذين لا عمل معين لهم ، أما طبقة العمال فكان أفرادها يرتدون ملابس أكثر فائدة عملية . وكان الفلاحون والصناع يكتفون ـ كما هو الحال فى العهد السابق ـ بإزار له حزام فى حجم اليد دون حلية أو زركشة يختلف عن إزار الأسيويين الذى كان ينتهى بطرر تزينه .

أما أفراد الطبقات المتوسطة فكانوا لا يقلون عن أفراد الطبقات

الفنية فى الولع بالحلى والجواهر . وكانوا يستعيضون عن الذهب على من الخزف والبرونز . والنساء عترفات الموسيقى كن يرتدين ملابس مثل سيدات المجتمع : رداء طويلا شفافاً ، وكثيراً ما كن لا يرتدين ملابس إطلاقاً ويكتفين ببعض الحلى وحزام وعقد وأساور وأقراط . أما خادمات المنزل الصغيرات ، وكثيراً ما كان من العسير تمييزهن من الأطفال ، فكن يسرن عراة الأجسام لا سيما عندما يستقبل سادتهم الضيوف عارضين على المعجبين فى جرأة عجيبة أجسامهن النحيلة الرشيقة .

٣ ـ الطعام

كان المصريون يقدرون دائماً قيمة أراضيهم الزراعية ولا يضنون عليها بجهودهم ، ومع ذلك كانوا يخشون شر المجاعة . كانوا يعلمون أن فيضاناً ضعيفاً جداً أو جارفاً يستتبعهما محصول ضئيل . وكان واجب الحكومة يفرض عليها أن تتخذ الإحتياطات التموينيه اللازمة على نحو ما أشار به يوسف على فرعون ، بعد أن فسر حلم البقرات والسنابل لمواجهة الموقف وسد العجز . وهذه الإحتياطات الأولية قد أهملت دون ريب فى السنوات الأخيرة التى سبقت سقوط الرعامسه . سئلت امرأة عن مصدر الذهب الذى وجد عندها فأجابت : « لقد حصلنا عليه ثمناً للشعير فى سنة الضباع ، عندما تفشت المجاعة »(٢٠) .

وكانت الحرب على أشدها عندئذ ضد الكفار ، والعصابات منتشرة فى كل مكان ، فى المعابد والقصور والضياع ، يقتلون ويسرقون ويحرقون مواد الطعام . وكان الفلاحون لا يفرطون فى المواد الغذائية إلا بعد تسلم ثمنها وزنا بالذهب . وقد أشعرت مثل هذه الأحوال الشعب بالندم على غزو

الهكسوس . ولكن قدماء المصريين عاشوا فى رغد من العيش طوال أجيال بين هاتين الفترتين العصيبتين ، إذ كانت الخيرات عميمة فى عهد سيتى وعلى الأخص فى عهد الرعامسة العظام ، ونشاهد فى النقوش البارزة فى المعابد أو المرسومة فى مقابر الخاصة كميات كبيرة من القرابين وشبانا يحملون الطعام أو يقودون الماشية . وقد دون فى بردية هاريس Harris الكبرى تفاصيل لسخاء رمسيس الثالث نحو الآلهة وبأنه يفضل تقديم ما كولات كقرابين بدلا من المعادن الثمينة والملابس والعطور . وكل هذا يدل على أن المصريين كانوا يميلون إلى الجيد من الطعام ، حتى لو كانوا على سفر خارج بلادهم : فعندما كان سنوحى فى مقاطعة إيا Iaa بسوريا وجد تينا وعنباً ونبيذاً أوفر من المياه ، وعسلا وزيتا وكل أنواع الفاكهة والشعير والنشا وقطعانا لا حصر لها من الماشية ، وعلى الجملة، كل ما يوجد من الخيرات تقريباً فى أحسن مزارع مصر ويقول أيضاً :«كنت أصنع الفطائر كالعادة ،وأتناول النبيذ مع الطعام كل يوم . وآكل اللحوم والطيور المشوية بجانب الحيوانات البرية التى كانت تصاد من أجلى وتوضع تحت تصرفى ، فضلا عن الصيد الذى كانت تحضره لى كلابى» .(٢١) ولم يكن فى استطاعته وهو فى مصر أن يحصل على أكثر من هذا . ولم يكن البحار الغريق بدوره سىء الحظ فى الجزيرة التى لجأ إليها فى البحر الأحمر ، فقد قال : «وجدت هناك تيناً وعنباً وكافة الخضروات والكراث الكبير والخيار والبطيخ والشمام فى حالته الطبيعية وأسماكا وطيوراً ولم يكن هناك شىء غير موجود بها.(٢٢)

ولنعد إلى مصر لحصر الموارد الغذائية .

ولنبدأ باللحوم ؛ كان المصريون دائماً من أكثر الناس أكلا للحوم . فمناظر القصابين وأفواج الحيوانات المخصصة للذبيح تغطى جدران المقابر .

وكان العجل أكبر مصدر للحوم . وباسم ايووا Ioua كان يعرف الثور الأفريقى ، وهو حيوان كبير الجسم ذو قرنين كبيرين عادة ، سريع الجرى . وبفضل نظام مناسب فى غذائه ضخم حجمه وزاد وزنه ، وحينما يصير غير قادر تقريباً على السير يصبح صالحاً للذبح . ويمكن أن يشاهد هذا المنظر فى مواكب أبيدوس وفى مدينة حابو.(٢٣) فكان السائق يضع حبلا فى أنف الحيوان ويربط به الشفة السفلى أيضاً ليتمكن من السيطرة عليه. والحيوانات التى تفوز فى السبق تزين بوضع ريش النعام وعلمين صغيرين بين قرنيها . وعندما يصل الموكب إلى مدخل المعبد يستقبله كاهن يحمل مبخرة متقدة بيده الممتدة تجاه الحيوان ، وقد وصف هذا المنظر بالكلمات الآتية : « تكريس العجل الطاهر الفم للمجزر النقى لمعبد رمسيس ميامون الذى يجاور تا أور Ta Our » . ولا يقبل الفاحصون سوى الحيوانات السليمة ويعاودون الكشف عليها بعد الذبيح .

وكانوا يطلقون أسم أنجو Ondjou على العجول الصغيرة التى لا قرون لها أو ذات القرون الصغيرة ، ويطلقون أسم نجا Naga على العجول ذات القرون الكبيرة والأجسام الضخمة ولكنها أكثر توحشاً من العجول المسماة أيووا وبالتالى يصعب تسميتها ، ولذلك ترى ضامرة الأجسام دائما فى رسومها . وبعض الصفات التى تطلق على أنواع الحيوانات المعدة للذبح لا يمكن معرفة كنهها الا بصعوبة، فعلى سبيل المثال: «العجول التى فى مقدمة القطيع أو العجول الصغيرة»* . أما العجل المسمى حريسا Herysa فهو على ما أعتقد أجمل ما فى الحظيرة من حيوان . ووردت أحيانا إشارة إلى ثيران العمل التى تنتمى فى الأصل إلى سوريا أو ثيران بلاد كوش.(٢٤)

وفى عهد الدولة القديمة ، كانت الحيوانات الصغيرة التى تقطن الصحراء

ورد فى الأصل بالهيروغليفية : ثيران قيط Qite وقيط هى وحدة قروف صغيرة

ذات قيمة كبرى كصدر غذائى. وقد كان المصريون يتوجهون إلى الصحراء لصيد الماعز البرى Oryx والغزلان والوعول . وكان يسعدهم جدا صيد هذه الحيوانات حية ليربوها فى حدائقهم ، غير أن تربية الحيوانات بهذه الوسيلة فقدت الكثير من أهميتها فى عهد الرعامسه .

فكان رمسيس الثالث يبعث بالصيادين إلى الصحراء لاصطياد الماعز البرى . وقد قدم فى عهده لمعبد أمون الكبير ٥٤ عدداً من الماعز البرى ووعلا واحداً و ٨١ غزالا . وسجل فى كشف تكميلى أنه قدم ٢٠٦٠٢ عجلا و ٣٦٧ من المها والتيوس والغزلان . (٢٥) ويشاهد فى موكب أبيدوس معزة برية جميلة ذات قرون مستقيمة ولها تسمية غريبة : «عجل المها من حظيرة رمسيس» . ونرى بين الفينة والفينة رسم أحد الماعز البرى بدلا من العجل فى المناظر التى تمثل الذبح ، ولكن لم أجد رسم البقر الوحشى مشتركا مع رسم العجول فى مناظر الولائم . وعلى ذلك يمكن الحكم بأن حيوانات الصحراء لم تكن تصاد لغرض الطعام بل كانوا يفضلون تقديمها قربانا للمعبودات مثل المها والغزلان ، وذلك ذكرى للعهد السالف حين كان المصريون يعتمدون على صيد الحيوان لا على تربيتها . ولا يوجد على ما أعلم أى مستند يمكن أن يؤيد أن قدماء المصريين كانوا يأكلون لحم الخنازير أو الماعز أو الخراف ، ولكن لا يوجد أيضا ما ينفى ذلك ، وحتى فى الصعيد كثيرا ما نرى مثل هذه الحيوانات فى المزارع .

وتنتهى مهمة الرعاة حينما يساق العجل إلى المجزر . (٢٦) وعندئذ يبدأ دور الجزارين . وهؤلاء كان يتراوح عددهم بين أربعة أو خمسة رجال يهاجمون الحيوان فى عزم ويجهزون عليه بطريقة لا تختلف عما كان متبعا فى العهود السالفة : فيبدأون أولا بإدخال القدم اليسرى الأمامية للضحية فى عقدة من الحبل ويلقون بالطرف الآخر للحبل فوق ظهر الحيوان فيتلقفه جزار

آخر ويشده مما يضطر الحيوان إلى رفع قدمه المربوطة عن الأرض ، وفى هذه الحالة يفقد الحيوان توازنه فيسقط على الأرض ويهجم عليه جمع من الجزارين ، ويجثم أشدهم جرأة على رقبته ويمسك بقرنى الحيوان ويشد رأسه إلى الخلف . ويتعلق جزار آخر بذيل البهيم . ويحاول ثالث رفع إحدى القدمين الخلفيتين إلى أعلى حتى يسقط الحيوان على ظهره ، وعندئذ تربط رجلاه الخلفيتان مع القدم الأمامية السابق إدخالها فى العقدة ، ويصبح من المتعذر عليه أن ينهض ثانية ، أما القدم الأمامية الأخرى فتبقى دون قيد ، ولا يمكن أن تكون ذات فائدة للحيوان المغلوب على أمره الذى يحاول أن يؤخر ساعة أجله المحتوم فيقوص ظهره ، ويمسك جزار قوى الشكيمة رأس الحيوان ويطوح به إلى الخلف ويظل ممسكا به دون حركة ويسند القرنين على الأرض فيصبح النحر مرتفعاً إلى أعلا . وليس لدى الجزارين من أسلحة سوى سكين حادة ذات مقبض قوى مستديرة الطرف حتى لا يثقب الجلد. وطول هذه السكين يزيد قليلا عن طول اليد الواحدة وقد علق المسن فى جانب من المئزر . ويذبح رئيس الجزارين الضحية ويجمع الدم فى إناء ، وإذا تمت هذه العملية فى مجزر المعبد، تقدم كاهن وسكب فوق الجرح سائلا من إبريق. وقد يكون هذا الكاهن أحيانا أحد موظفى الخدمات الصحية . يضع الجزار يده المخضبة بالدم تحت أنف الكاهن قائلا : « انظر هذا الدم » فيرد عليه وهو ينحنى ليتأكد من سلامة الذبيحة زيادة فى الحرص ، وفى تلك اللحظة يبدأ تقطيع أوصال الحيوان بسرعة فائقة. تقطع أولا الساق اليمنى التى تركت بدون قيد عند إيقاع الحيوان على الأرض . ويمسكها مساعد الجزار رأسيا ويجذبها إليه ثم يحركها أن تطلب الأمر ذلك كى ييسر للجزار عملية تقطيع العراقيب وهو يدخل سكينه فى المفاصل . وبعد أن تفصل الساق تترك للحمالين بكاملها وبعدئذ تفصل الرأس عن الجسم الذى يشرح ثم يسلخ الجلد

ويستخرج القلب . وتحل بعد ذلك أقدام الحيوان الثلاث من قيودها ثم تقطع بدورها . وتقسم الساقان الخلفيتان إلى ثلاثة أجزاء هي الفخذة سوت Sout والركبة أيووا Ioua والرجل انست Inset. ثم تقطع الأضلاع إلى أجزاء كثيرة منها القطعة المسماة «الفيليت» ـ لحم الكتف وهي قطع اللحوم الممتازة وبعدها القطع الجانبية أى الفيليه الكاذبة « بيت الكلاوى » التى تليها فى الجودة ومن أجزاء اللحوم الممتازة الكبد والطحال إذ أن كثيرين كانوا يولعون بأكلها ، ويعنى الجزار عناية كبيرة بالأمعاء ، فيخرجها على مهل ليفرغ ما بها . وهكذا يستمر العمل وفقا للتعليمات والأوامر على النحو التالى : « أسرع أيها الزميل ! استحلفك بحياتك أن تسرع ! خلصنا من هذه الفخذة ! خلصنا من القلب ! » .

وإذا كان العمل جاريا داخل أحد المعابد ، فإن حضور رئيس الإحتفالات أو مجرد ذكر اسمه كفيل بجعلهم يبذلون جهدا مضاعفا . « إنهض أيها الصديق وأسرع، استخرج هذه الضلوع من مكانها قبل أن يحضر الرئيس ويقوم بصف العمل على المائدة . هذا هو لحم الكتف ضعه على هذه المائدة المستديرة » . وينفذ المخاطب الأمر دون أدنى تذمر قائلا : « أنى أفعل ما يسرك . أنى أفعل ما يرضيك » وفى بعض الأحيان يخاطب الجزار نفسه عندما يتركه مساعده بقوله : « من العسير على أن أفعل كل هذا وحدى » .

ولم تكن الديكة والدجاج معروفة فى ذلك الوقت ، ولكن الدواجن واستهلاكها كانا يقومان على نطاق واسع . وفى بردية هاريس الكبرى كانت تعد الدواجن بمئات الألوف . وقدقدمت هبة من الحيوانات ذوات الأربع بلغ مقدارها ٢٠٢٩ وعدد من الطيور مقدارها ٢٥٠ ر ١٢٦

منها ٥٧,٨١٠ حمامة و ٢٥,٠٢٠ من الطيور المائية التى تصاد حية من المستنقعات و ٦,٨٢٠ من الأوز رو Ro* و ١,٥٣٤ من الأوز ترب Terp** و ٤,٠٦٠ من الطيور التى تفرخ، و ١,٤١٠ من طيور البشاروش ذات الأرجل الطويلة و ١٦٠ من طيور الكركى. أما السمان پارت Part فقد بلغ عدداً هائلا هو ٢١,٧٠٠ و ١,٢٤٠ وهذه القائمة تعتبر جزءا ضئيلا إلى حد ما إذا قورنت بالقائمة التى يمكن عملها حينما نرجع إلى مناظر الصيد وتربية الحيوانات التى دونت على جدران مقابر الدولتين القديمة والوسطى.

وتوجد ثلاثة أنواع من طيور الكركى هى المسماة جات وأبوو وجا، ويمكن أن نضيف اليها أفراخها الصغيرة المسماة أوجا (أو أوزة). والأوز والبط والحمام وبط الماء كانت مقسمة إلى خمسة عشر نوعا، وليس ثمة شك فى أنها لم تكن قد انقرضت فى عهد الرعامسه. ولكن هواة تربية الطيور كانوا قد قصروا جهدهم على الأنواع القليلة التى اعتقدوا أنها ذات فائدة أعم من غيرها. (٢٧)

وقد ورد فى لوحة الملك الأثيوبى پيعنخى Piankhi أنه بعد أن استولى على مصر، رفض أن يجلس على مائدته أمراء الصعيد والدلتا، لأنهم كانوا فاسقين ويأكلون الأسماك، وكانت تقاليد القصر الملكى تعد هذا جريمة لاتغتفر، ماعدا نمروت الذى كان لايأكل السمك، وربما كان سبب ذلك راجعا إلى أنه كان يعيش فى مدينة كهنة الأشمونين (٢٨) ولم تكن قائمة طعام الموتى فى الأمبراطورية الحديثة وكذلك فى العهود السابقة تحوى

---

* هو المعروف عند سكان شمال الدلتا بالبط الشهرمان.
** « « « « « « « بالسلطانى

الأسماك ، وكان ممنوعا فى بعض المحافظات وفى بعض المدن وكذا فى بعض الفصول أكل هذا النوع أو ذاك من الأسماك . يدل كل هذا على أنه لم يكن بمنحى مازحا فيما هو طاهر ونجس ، فإن كافة الأهالى ، حتى من هم فى المعابد لم يتورعوا عن أكل الأسماك ولكنهم حسب ما أعتقد يمتنعون عن أكل الأنواع الرديئة القليلة الغذاء مثل السمك المسمى بو Bou أى «الردىء المعاف» والنوع المسمى شب Chep أى «الندامة أو الأشف*» فكان سكان الدلتا وكذلك الذين يعيشون على ضفاف بحيرة الفيوم صيادى أسماك محترفين ، وقد عثر ماريت Mariette بجهة تانيس على مجموعة من أحجار الجرانيت تمثل رجلين ضخمى الجسم غزيرى شعر الرأس والذقن ، يسيران جنبا إلى جنب فى خطوة واحدة ويحملان مائدة يتدلى منها نوع فاخر من السمك (البياض) .

وتسجل بردية هاريس كميات وفيرة من الأسماك من بين ما يوزع من الطعام فى معابد طيبه وأون ومنف : ٤٤١٠٠٠ من الأسماك الكاملة من أنواع مختلفة وخاصة من البورى ، والقرموط والشال . وهى من الأسماك المتوسطة الحجم .

أما سمك البلطى الكبير الحجم وسمك البياض فقد بلغ من ثقله ما يستلزم رجلين لحمل الواحدة منها . (٣٩) ولكى يحملوها كانوا يدخلون عصا طويلة تخترق أذنيها ثم يضعان طرفى العصا فوق أكتافهما ويسيران بخطى نشيطة بينما يتدلى ذيلها على أرض الطريق . وسمكة كبيرة مثل هذه كانت تكفى وحدها لاطعام أسرة بأكملها .

أما أنواع الخضر فقد وردت فى تقويم مدينة حابو تحت الوصف العام للمحاصيل السنوية رينبوت وهى إما معروضة على موائد

---

* هذا النوع من السمك ذو لحم ناعم وسلسلة فقرية وأشواك

أو مربوطة فى حزم . وقد ذكر على حدة البصل والكرات وهما صنفان كانا معروفين منذ أزمنة سحيقة القدم . ومما يحكى أن تاجرا من عهد الدولة القديمة قال لعميله عندما تقدم إليه ومعه رغيف : « ضعه جانبا وسأعطيك بصلا جيدا حجو bedjou » .

أما الكرات ياقت Iaqet فقد ورد ذكره فى بردية ايبرس الطبية Ebers وفى قصة خوفو والسحرة ، كما أن البحار الغريق كان قد عثر عليه فى جزيرته التى وجد فيها كل شىء . وأما الثوم فكانت له مكانة كبيرة عند المصريين .

وقد زعم هيرودوت أن العمال الذين كانوا يعملون فى بناء أهرام خوفو قد أكلوا من الفجل والبصل والثوم ما تقدر قيمته بألف وستمائة وزنة من الفضة . ويجوز أن يكون هذا الزعم صحيحا ولو أن هذه البيانات لم تدون على الآثار كما اعتقد هيرودوت ، ومهما يكن الأمر فقد وجدت فى مقابر طيبه بعض ربطات من الثوم ، والاسم المصرى القديم للثوم هو خزان Khizen وقد حققه فيكتور لوريه V. Lorel فى بردية هاريس الكبرى وفى ترجمة العهد القديم باللغة القبطية.(٣٠) وقد وزع رمسيس الثالث كميات وفيرة منه على المعابد ، وقد أبدى العبرانيون ، وهم فى طريقهم إلى أرض الميعاد أسفهم على الخيار والبطيخ والكرات الكبير والبصل والثوم التى كانت موجودة بكثرة فى مصر (٣١) وكان البطيخ والخيار والشمام يظهر كثيرا على موائد القرابين بجانب حزم البردى التى ظن البعض خطأ أنها حزم من الهليون (والإسبرج) ، وقد زعم المؤرخون الكلاسيك أن الدين كان يمنع أكل الفول والحمص ليعتاد الناس ، كما كان يعتقد ديودور ،

رياضة أنفسهم على الحرمان من بعض الأشياء . (٢٢) على أنه قد وجد فى الواقع ببعض المقابر الفول والبازلة والحمص . ونعلم أن كهنة أون ومنف قد أخذوا الفول فى عهد رمسيس الثالث (٢٣) . والواقع أن الحمص يشبه إلى حد كبير رأس الصقر ، وخاصة رأس الصقر الذى يغطى الإناء الكانوبى الثالث المخصص لحفظ أحشاء الموتى ، المسمى قبح سنوف ، ولكن لم يكن ذلك سببا للامتناع عن تناوله ، غير أنه يحتمل أن يحدث ذلك فى بعض الأيام وفى بعض الأماكن . أما الخس فكان يزرع فى الحدائق على مقربة من البيوت ويغمر بالماء وكان نبات المعبود مين Min الذى أقيم تمثاله فى أغلب الأحيان تجاه مربع من نبات الخس . ولكن هذا المعبود (إله التناسل) لم يكن المعبود الوحيد الذى كان يأكل الخس . ويروى مؤلف قصة النزاع بين هورس وست أن ايزيس توجهت إلى حديقة ست وسألت البستانى عن أنواع الخضر التى كان يأكلها ست فأجابه البستانى : « لم يكن يأكل ست شيئا أمامى سوى نبات الخس » . وفى اليوم التالى ذهب ست إلى الحديقة حسب عادته اليومية وأكل أيضا نبات الخس . وكان ست فاسقا ولكن مين كان يفوقه مجونا . وقد لوحظ أن الخس يجعل الرجال شبقين والنساء خصبيات ، ولذلك كانت تستهلك منه كميات عظيمة . والخس الأخضر الجميل كان يوجد دائما بوفرة على موائد القرابين . ومما لا ريب فيه أنه كان يؤكل كما يفعل العرب اليوم ، نيئا مع الزيت والملح . (٢٤)

ولم يكن لقدماء المصريين حظ الحديثين ، لأنهم لم يعرفوا البرتقال ولا الليمون ولا الموز . أما الكمثرى والخوخ واللوز والكريز فلم تظهر على الموائد إلا فى عهد الرومان . ولكنهم كانوا يأكلون خلال الصيف ، فى

مختلف العصور ، العنب والتين والبلح والجميز الذى كان أصغر حجماً وأقل حلاوة من التين . وفى أقليم مصر لم يكن البلح يجود إلا فى نواحى طيبه ، أما دوم النخيل ، وإن كان صالحاً للأكل ، فقد كان يستخدم فى أغراض طبية ، أما جـــوز الهند فكان فاكهة غريبة مفضلة لدى بعض الخاصة . واستمر المصريون فى زراعة أشجار الرمان والزيتون والتفاح التى أدخلت فى عهد الهكسوس ، وكانت تعطى ثماراً طيباً .وكان زيت الزيتون يستعمل فى الإضاءة كما كان يستعمل فى الطعام . وقبل أن يعرف المصريون شجرة الزيتون ، كانوا يزرعون أشجاراً أخرى تمدهم بالزيت وأهمها شجرة نخيل الزيت باك ويمكن إضافة أشجار البرسيا والنبق والعناب والزيزفون إلىقائمة الأشجار المثمرة .

ولا ينبغى أن ننسى أن عدداً كبيراً من أسماء الأشجار والنباتات لم يتيسر التعرف عليه بعد . ولا يمكن حصر موارد المصريين من الفاكهة والخضر بكل دقة . وكانت الطبقات الفقيرة تكتفى فى بعض الأحيان بمص سيقان نبات البردى كما يمصون الآن عيدان القصب وبعض عصير النباتات المائية التى وجدت أكواب مملوءة منها فى المقابر .(٣٥)

أما اللبن فكان طعاماً لذيذاً ، وكانوا يضعونه فى أوان من الفخار بيضاوية الشكل ، يسدون فوهاتها بأعشاب لحمايتها من الحشرات وحتى لايكون إغلاقها محكما . وللمنتجات الألبان أسماء كثيرة منها : القشدة ، الزبد ، الجبن. ولكن ترجمة هذه الأسماء ليست دائماً مؤكدة . وكانوا يضعون الملح فى بعض الأدوية والأطعمة الخاصة . ولا يوجد ثمة سبب لعدم استعمالهم اللبن على نطاق واسع . وكانوا يستعملون مسحوق الخروب والعسل(٣٦) فى تحلية الأطعمة والمشروبات، وعلامة نجم Nodjem وتعنى « حلو » أو « حلاوة »

تمثل قرن خروب . وكان المصريون يبحثون عن عسل النحل البرى وشمعه في أماكن نائية فى الصحراء ، وهذه الحرفة كانت تتطلب مهارة خاصة . فالباحثون عن العسل يشتركون مع الرجال الذين يجمعون صمغ « التربنتينه » من الوديان الصحراوية . وكان الملك يرسل فى صحبتهم حرسا من حملة السهام لحمايتهم مما يتعرضون له من أخطار عندما يبتعدون عن وادى النيل ، ولم يكن هذا ليحول بينهم وبين تربية النحل فى الحدائق وكانت جرار الفخار تستعمل كخلايا للنحل . ويسير مربى النحل بين خلاياه دون خوف ويبعد بيديه النحل حتى يتمكن من جمع أقراص العسل . ويحفظ العسل فى جرار حجرية كبيرة مختومة .

٤ — المطبخ

كانت أدوات الطهى بدائية إلى حد ما ، والقطعة الأساسية هى موقد متنقل من الفخار ، اسطوانى الشكل يكاد يبلغ إرتفاعه متراً تقريباً ، فى أسفله فتحة يدخل منها الهواء ويخرج منها الرماد ، وفى داخله قضيب أوجملة أسياخ يوضع عليها الوقود . وكان لابد من وجود فتحة يتصاعد منها الدخان ولكن لم يرسم لنا الرسامون إطلاقاً موقداً له مدخنة . كان يوضع فوق الموقد أناء له مقبضان ، يختلف فى الحجم ولكن قطره يزيد قليلا عن أعلى الموقد . وعند الضرورة كان يستغنى الطهاة عن الموقد بأن يضعوا الإناء فوق ثلاثة أحجار ويوقدوا تحته بعض الخشب والفحم . وكانت تستعمل أيضاً أفران من المعدن على هيئة صناديق بدون قاع ، قليلة الارتفاع ويوضع الوقود منثوراً على السطح ذى الثقوب ، وقد عثر فى مقبرة الملك پسوسنس على فرن صغير ، ينطبق عليه الوصف المذكور ، يرجع تاريخه إلى عهد

مسيس الثانى . وكان تسرب الهواء إلى الموقد فى هذه الحالة عسيراً فكان طاهى لا يكف عن تحريك مروحته حتى تستمر النيران متوهجة لا تخبو طيلة قيامه بالطهى.(٢٨)

ولا يوجد الفحم الحجرى لا بمصر ولا بالبلاد المجاورة لها . فالطهاة مثل سائر أصحاب الحرف الذين يستعملون الأفران مثل صانع الفخار والخزف وسباك البرونز ، لم يكن فى متناول أيديهم سوى الفحم الخشبى أو الحطب أو الخشب . وقد ذكر فحم الخشب جابت Djabet فى عقود أسيوط كإحدى المواد ذات القيمة والنفع .

وكميات الفحم التى سجلت ضمن تقويم مدينة حابو وفى بردية هاريس ضئيلة جداً . وكانت تسلم داخل أكياس أو فى سلال .

ولأجل إيقاد النيران كان قدماء المصريين يستعملون ما يعرف باسم «خشب الشراق» ، وكان وقتذاك صنفا نادر الوجود حتى أن معبداً مهما مثل معبد الكرنك كان لا يحصل منه ألا على ستين قطعة فى الشهر فقط أى على قطعتين فى اليوم الواحد .

وكان معروفا منذ زمن سحيق ، إذ أن إحدى العلامات الهيروغليفية التى ترمز إليه وجدت فى فهرست قديم ، وهى عبارة عن قطعتين إحداهما تمثل عوداً رفيعا من أعلا وسميكا عند القاعدة والأخرى تمثل إناء . وكانوا يحضرون «الخشب الشرقى» من جنوب الوادى . وقد وجد البحار الغريق فى جزيرته فى البحر الأحمر هذا الصنف من الخشب فى متناول يده فأوقد النيران بسرعة وقدم ذبيحة للآلهة وأعد لنفسه طعاما . وبعض العائلات

التى لم يكن لها نصيب فى التوزيع الرسمى للخشب الشراق ، كانت تجد مشقة بالغة عندما تحتاج إلى النيران ولم يكن ثمة مخرج لها إلا أن تطلب من أحد الجيران الظرفاء الذين يقدرون ظروف الغير أن يمنحها قطعة من الجمر .

وإلى جانب المواقد والأفران ومواد الوقود والأخشاب النارية ، فإن أدوات المطبخ كانت تضم أيضا آنية الطبخ والدسوت والدلاء والأباريق والزلع الفخارية والحقائب والأكياس والسلال والأسبتة التى كانت تستعمل فى نقل المواد التموينية والموائد ذات القوائم الثلاث أو الأربع لتقطيع وإعداد الأسماك واللحوم أو لفرز الخضر والمناضد المنخفضة التى يشتغلون عليها وهم جثاة ، والخطاطيف الى يعلقون عليها اللحوم والطيور .

ونعلم أنه يستعمل فى اللغة المصرية القديمة فعلان للدلالة على طهى الطعام : الفعل الأول يسمى Psy والثانى أشر Acher ويستعمل الفعل الأول للدلالة على طهى اللبن كما يدل أيضاً على طهى اللحم . ومن ذلك يتضح أنه يمكن ترجمة هذا الفعل بكلمة « غليان » وفى بعض الحالات ترسم حلة كبيرة على النار ، وكانت قطع اللحم تطفو فوق سطح الإناء ، ومن هذا يمكن أن نستنتج أنها كانت تطفو فوق سطح ماء يغلى . ولا يعلم أحد إذا كان اللحم المشار إليه يقدم كما هو أو مفروما مع الخضار والتوابل أو على هيئة شرائح مستديرة أو مبططة . ولم يترك قدماء المصريين كتبا عن الطهى ولكن يمكن أخذ فكرة عن مهارتهم فى هذا الشأن من أوراق البردى الطبية حيث وصفت وصفات ضد الأمراض والنزلات المعوية .

ولم يكونوا يجهلون أن الزبد والقشدة سمى Smy ودسم الأوز ودهن لحوم العجول الصغيرة كانت صالحة جداً فى تحضير الأطعمة .[٢٦١] وفى

مطبخ رخمارع Rekhmaré رسم قدر صغير الحجم يوضع فوق الموقد يدل على أنه لا يمكن استعماله كقدر لطهى اللحم .

وطبقا لما ورد فى القصة ، فنى الوقت الذى يضع الطباخ الدهن داخل القدر ، كان على مساعده أن يحرك ما بداخل القدر بأداة طويلة المقبض لا نعلم تماما ما إذا كانت تنتهى على هيئة شوكة أو على شكل مغرفة . ويحتمل أن تكون محتويات القدر طعاما متبلا .

أما كلمة أشر Acher فتستعمل للطعام المشوى . وكانوا يفضلون الدواجن المشوية . فكان الطباخ بعد أن ينزع الريش وينظف الأوزة أو البطة يقطع رأسها وأطراف أجنحتها وأرجلها ويضعها فى سفود يمسكه بيده مادا ذراعه فوق موقد تنبعث منه نار هادئة . ولم تكن الدواجن وحدها هى التى تجهز بهذه الطريقة فقد وجدت أيضا قطعة من اللحم أطلق عليها اسم أشر أى مشوية . وهذه القطعة لم يستطع التحقق منها جيدا — كما أن لحم الكتف « الفيلتو » ويعنى « اللحم الممتاز » و « الفيليه » الكاذب « بيت الكلاوى » ها hâ ومعناها الحرفى « لحم » كانت تشوى بدورها على السفود .

وإليك ما لاحظه هيرودوت فيما يتعلق بالأسماك والطيور « كانوا يأكلون بعض أنواع الأسماك المجففة فى الشمس أو نيئة ويأكلون أنواعا أخرى مملحة فى الماء والملح . ومن بين الطيور ، كانوا يأكلون السمان والبط وبعض أصناف العصافير الصغيرة نيئة بعد تمليحها . أما باقى الطيور والأسماك فكانت تؤكل مشوية أو مسلوقة . (٤٠)

وتؤكد الوثائق المرسومة والنصوص فى جملتها هذه الشهادة أما أسماك البورى والبلطى فكانت توضع فى قفف وتفرغ فوق الأرض ويجلس رجل على مقعد خشبى وبيده سكين ليشق بطن هذه

الأسماك لتجفيفها ويهنى السيد وزوجته بهذه العملية دون أن يسدوا أنوفهم. أما بويضات السمك البورى فتوضع جانباً ليعمل منها البطارخ.(١١) وكانت ترسل كميات كبيرة من الأسماك المجففة المشقوقة إلى المعابد فى نفس الوقت مع الأسماك المسماة كاملة، وربما كانت فى الواقع أسماكا طازجة. وترسل إلى المعابد أيضا بعض الأوانى المملوءة بالأسماك المحفوظة بالتوابل. وربما كان هذا يشير إلى إحدى طرق حفظ الأسماك غير أننا لا نعرف عنها شيئا أكثر من ذلك.

وتوجد أيضاً فى بعض الأحيان طيور مائية كانت تشق فى نفس المكان الذى تجفف فيه الأسماك، لتمليحها وتجفيفها دون شك. وهذه الطيور المائية التى ترسل إلى المعابد كانت إما حية أو معدة للأكل فى خلال مدة قصيرة أو مشقوقة أو مجففة حتى يمكن حفظها بعض الوقت.(١٢)

٥ - الخبز

يمكن عد خمسة عشر اسماً لأنواع الخبز والفطائر الواردة فى الكتابات الخاصة بالدولة القديمة. فضلا عن ألفاظ أخرى يمكن العثور عليها فى بعض النصوص. ونحن عاجزون تماما عن وصف هذا الخبز على وجه التحديد أو هذه الفطائر التى يمكن أن تختلف فى صنعها طبقا لنوع الدقيق وشكلها ودرجة خبزها وكيفية نضجها فى الفرن وبما تمزج به من عسل ولبن وفاكهة وبيض ودهن أوزبد. ومصدر الدقيق ثلاثة أنواع من الغلة وهى الشعير أيوت Iot والأذرة بوتى Boti والقمح سوت Sout وكان الأغنياء يختزنون مئونتهم من الحبوب بالقرب من منازلهم أو فوق سطوحها. وكانوا يستطيعون طحن الحبوب وصنع الخبز داخل المنازل. ويفعلون ذلك أيضا فى المعابد ولكن من المحتمل

أن يعمل بعض الطحانين والخبازين لحسابهم الخاص لصالح بعض الزبائن من عامة الشعب .

وبعد أن تنقى الحبوب من كافة الشوائب تسلم لجماعة يزيد عدد النساء فيها عن الرجال . (١٣) ويقوم الرجال بالعمل الأول فيضعون قليلا من الحبوب فى مدق من الحجر ويتولى بالتناوب شخصان أو ثلاثة أشخاص أقوياء طحنها بوساطة مدقة ثقيلة يبلغ طولها ذراعين . وتقوم المغربلات بأخذ الطحين وغربلته بفصل النخالة عن الدقيق ويضعن النخالة جانبا لتكون غذاء للحيوانات ويعد الباقى للطحن . ولم تكن الطاحونة ذات الشكل المخروطى قد استعملت بعد ، ويتكون هذا الجهاز من مدق من جزئين وحجر كبير . وتوضع الحبوب فى الجزء الأعلى وعندما تضغط الطاحونة على الحبوب تطرد الدقيق إلى الجزء الأسفل ثم ينخل ويعيدون الكرة حتى يأخذ الدقيق النعومة المطلوبة وهم يغنون : « لتنعم آلهة هذا الاقليم على سيدى بالقوة والصحة » .

وكانوا لا يعدون يومياً إلا كمية الدقيق التى تكفى لعمل الخبز ، وفعلا ورد فى المناظر المرسومة أن الخبازين كانوا يعملون جنباً إلى جنب مع الطحانين ، وفى بعض الأحيان كانوا يتوسطونهم . وتوفيراً للوقت كانت امرأة تقوم بوضع قوالب مخروطية الشكل فوق النار بحيث تصل النار إلى جوانب المخروط الداخلية ، وتمسك بيد مروحة تزيد النيران اشتعالا ، وتحمى بيدها الأخرى عينها ، وعندما تصل الحرارة إلى الدرجة المطلوبة يضعون هذه القوالب على لوحة ذات ثقوب مستديرة يملأونها بالعجين المختمر ، ثم تغلق فتحة القالب العليا وينتظرون حتى ينضج الخبز ثم يسحبونه من الفرن ويرفعونه من القوالب ثم يعدونه ، لأن المصريين يعدون كل شىء ، وتحمل السلال الممتلئة إلى أولئك السعداء الذين يأكلون الخبز .

وهذه الطريقة فى صناعة الخبز كانت متبعة منذ عهد الدولة القديمة . وكانت بطيئة وتتطلب عدداً كبيراً من العمال الذين كان يجب إطعامهم إن لم يدفع لهم أجر . وقد يأتى طفل ومعه طاسته الصغيرة فى الوقت الذى تقوم فيه أمه برص العجين وتبطيطه بكلتا يديها ويلتمس منها أن تعطيه قطعة من الفطير لأنه يشعر بالجوع ، ويعيرونه بأنه مثل عجل البحر ، ويوبخونه بأنه يأكل أكثر من عبد من عبيد الملك(١٤) .

وفى عصر الامبراطورية الحديثة ، كانت تستعمل نفس هذه الطريقة ولكن كانت توجد أفران يمكن خبز عدد وفير من الأرغفة فيها فى آن واحد. (١٥) وكانوا يعرفون أيضاً كيف يخبزون فطائر رقيقة بوضعها وسط رمال ملتهبة كما يفعل البدو الآن .

٦ — المشروبات

كانت الجعة هى المشروب الوطنى لقدماء المصريين(١٦) . كانوا يشربونها فى كل مكان ، فى المنزل والحقول ، فى المركب والحانات . ولما صدر العفو عن سنوحى أبحر من « طريق هورس » إلى إيتى تاوى Ity Taoui ، عاد من جديد إلى الحياة المصرية وأخذ يشرب الجعة التى كان قد حرم منها منذ مدة طويلة . والجعة المصرية كانت تصنع من الشعير والحنطة والبلح ، وكانت أدوات صناعتها تتكون من قوالب كالتى يستخدمها الخباز ولكن بشكل أكبر ، وسلة ومجموعة كبيرة من الجرار وصحاف من الفخار . وكانوا يبدأون بصنع الخبز وكما كانوا يفعلون فى المخابز ، كانوا يضعون قوالب كثيرة حول الموقد . وفى نفس الوقت كانوا يجهزون عجينة تسمى واجيت Ouadjit أى (الطازجة) ويسكبونها فى قوالب شديدة الحرارة جداً ، ولكنها لا تلبث فى القوالب إلا وقتاً

قصيراً ، تلفح فيه الحرارة جانبي الرغيف ويظل لبابه نيئا . وهذا الخبز غير الناضج تماماً يقطع إلى فتات ويوضع فى طست كبير ويخلط بالسائل السكرى الناتج من نقيع البلح ثم يقلب ويصفى . وبعد قليل يختمر السائل ولا يبقى بعد ذلك إلا تفريغه فى الجرار وسدها بطبق صغير وكمية من الجبس .

وبعد تجهيزها على هذه الصورة ، يمكن نقل الجرار إلى أية جهة . أما الاستهلاك فقد كانت الجعة توضع فى جرار صغيرة تسع الواحدة منها لتراً أو لترين . والذين يتعاطون الجعة كانوا يضعونها فى أقداح حجرية أو خزفية أو معدنية . أما الجعة المرة التى كان النوبيون يصنعونها بنفس الطريقة تقريباً فلا يمكن الاحتفاظ بها إلا زمنا قصيراً . وكانوا يعدون الملك المتوفى بأن يقدموا له خبزاً لا يتفتت وجعة لا تحمض . ومعنى هذا أن الجعة التى كان يتعاطاها الأحياء يمكن أن يتغير طعمها إلى الحموضة .

ومنذ أن سعدت مصر بحكم أسرة من الدلتا فإن هواة عصير العنب ، الذى يعد هبة أوزوريس ، قد زاد عددهم أكثر من أى وقت مضى ، وعلى هذا ، فقد راجت تجارة النبيذ . وكان أحد موظفى القصر الملكى قد عهدت إليه شئون التموين فكان يموّن مدينة پي رمسيس بثلاث سفن محملة بالنبيذ منها سفينة يمتلكها هو ، وسفينتان مقدمتان من قصر ملايين السنين إلى أوزيرمارع Ousirmare . وهذه السفن كانت تحمل واحداً وعشرين شخصا وألف وخمسمائة جرة مسدودة من النبيذ وخمسين جرة من شراب يسمى شده Chedeh وخمسين من شراب آخر يسمى پا أور Pa our كما كانت محملة بسلال من العنب والرمان وأخرى لا تعرف محتوياتها.[٤٢] ويمكن أن نفترض أن أحد هذين المشروبين هو شراب الرمان والآخر

شراب من منتجات النبيذ . ومهما يكن الأمر فكثيرا ما كان الشراب المسمى شده يقترن اسمه بالنبيذ ، وكان الشبان من الطلاب يسكرون من هذا الشراب أو من ذاك بالرغم من غضب معلميهم الشيوخ من الكتبة .

وقد وجد فى الرمسيوم كمية كبيرة من جرار النبيذ المكسورة دون ريب . وقد كتب عليها بالمداد بالرسم الهيراطيقى بيانات هامة تتعلق خاصة بمكان ورودها (١٨) . وكانت كل الكروم تقريبا موجودة فى الدلتا ولا سيما فى المنطقة الشرقية . وكان يقرأ أيضاً : « نبيذ جيد من ثامن تصفية » أو نبيذ من ثالث تصفية أو « نبيذ حلو » . وإنى أفترض أن النبيذ الحلو هو النبيذ الطازج وأن الثالث والثامن هو ثالث وثامن تصفية وأن تصفية النبيذ تعتبر فى الحقيقة إحدى الطرق التى تحول دون فساده ، كما يعد غليه طريقة أخرى للإبقاء عليه صالحا . ولدينا نقش فى بنى حسن يبدو لى أنه يتعلق بهذه العملية ، وإن كان قد أصابه التلف (١٩) ولا أعرف ما إذا كان المصريون القدماء يدهنون الجرار من الداخل بالقطران كما كان الإغريق يفعلون . وهو أمر مشكوك فيه لأن المزية القيمة التى كانوا يقدرونها فى النبيذ هى حلاوته التى تفوق حلاوة العسل .

٧ ـ الوجبات

انتهينا من سرد قائمة أهم المصادر التى تمتلكها الأسر المصرية وتستخدمها فى وجبات الطعام خلال السنة . ولا توجد وثائق تساعدنا على وصف تفاصيل دقائق وجبات الطعام التى تقدم فى المنازل على أنه يوجد شىء واحد لا شك فيه وهو أن المصريين كانوا يأكلون وهم قاعدون إما فرادى أو اثنين سويا على مائدة صغيرة يضعون عليها مختلف أنواع الأطعمة من لحوم وطيور وخضر

وفاكهة وشرائح خبز صفت بشكل قمعى على الطريقة الألزاسية Kougelhopf ويجلس الأطفال على وسائد أو على الحصر .

ولا يجتمع أفراد العائلة صباحاً عند تناول طعام الأفطار، وكان الطعام يقدم لرب الأسرة حينما يفرغ من الاغتسال وارتداء ملابسه . كان يقدم له قطعة من الخبز وكوب من الجعة وشريحة من لحم الفخذ وقطعة من الفطائر شنس Chens . أما الأم فكانت تتناول وجبة الأفطار وقت زينتها أو بعد ذلك مباشرة . وعلى إحدى الرسوم فى طيبه.(٥٠) نرى خادمة تحمل كأسا تقدمها لسيدتها التى لا تزال يدها مشغولة بالمرآة ، وتوجد بالقرب منها مائدة عليها قفة وإناءان .

أما قائمة طعام الوجبتين الأساسيتين ، فكانت على ما نعتقد تحتوى على لحوم وطيور وخضر وفاكهة الموسم وخبز وفطائر والجعة التى تلازمها دائما . وليس من المؤكد إطلاقا أن المصريين ، حتى الأغنياء منهم ، كانوا يتناولون اللحوم فى كل الوجبات . ولا يجب أن ننسى أن القطر المصرى من البلاد الحارة وأن تجارة التجزئة لا تكاد توجد بها .

فالأشخاص الذين يقدرون على أن يذبحوا ثورا هم أولئك الذين يكونون على ثقة من أكله خلال ثلاثة أيام أو أربعة ، وهم كبار الملاك ممن يشتغل لديهم عدد كبير من العمال ، ورجال الدين بالمعابد ، وأولئك الذين يقيمون حفلات للطبقات الشعبية خلال الأعياد ومواسم الحج فحسب .

ولا أعرف إلا رسما بارزا واحدا فحسب يبين لنا أشخاصا يتناولون الطعام سويا ، وأنه يوجد فى أحد مقابر العمارنة ، والآكلون هم اخناتون وأسرته. (٥١) ونرى الملك يقضم بأسنانه كتفا مشويا، بينما تأكل الملكة

أحد الدواجن ، أما الملكة الأم فتضع شيئا فى فمها بينما تناول باليد الأخرى قطعة من الطعام لإحدى الأميرات الصغيرات الجالسة على وسادة بالقرب منها . وبجوار الآكلين ، توجد موائد محملة بالطعام ولكن لا نرى أطباقا ولا أكوابا ولا أقداحا . وهذه الظاهرة تدعو إلى كثير من الدهشة لأن مجموعاتنا الأثرية تحتوى على أطقم من الأدوات المنزلية بها أطباق مختلفة الأشكال ومتعددة الأنواع ، منها ماهو خاص بتناول الحساء والطعام المدهوك والأطباق المملوءة بالصلصة والخشاف ومشهيات الطعام والقشدة . ولذلك فإنى أعتقد أنهم كانوا يوزعون على الآكلين لا الأطباق وحدها بل السكاكين لتقطيع المأكولات والملاعق والشوك ، وهذه الأدوات ، وإن لم تكن واسعة الانتشار ، إلا أنها موجودة فى المتاحف . ويضم متحف اللوفر مجموعة رائعة من الملاعق المصنوعة من الخشب وقد زينت مقابضها بأشكال جميلة لطيفة للغاية وفى الغالب لم تستعمل أبدا . وقد عثرت فوق مقبرة أوسركون الثانى Osorkon II على ملعقة كان تجويفها ممسوكا بيد يمتد منها مقبض على شكل ماسورة من المعدن . ويلاحظ أيضا أن طاقما من أدوات الاغتسال مكون من إبريق وطست يوجد غالبا تحت المائدة الجانبية المملوءة بالطعام . ويثبت هذا أن المصريين كثيرا ما كانوا يتناولون الطعام بأصابعهم .

أما فترة بعد الظهر فكانت تتخللها وجبة خفيفة من الطعام بين الرابعة والخامسة مساء تليها فترة من العمل أو التسلية .

٨ — السهر

لا يعود الفلاح من الحقل فى الخريف والشتاء إلا حينما يرخى الليل سدوله.

وكان ينتظر أن يكون بيته مضاء . وكان أنوبو عندما يدخل منزله الغارق في الظلمات ينتابه في الحال شعور بوقوع كارثة . وحتى الفلاحين كانت تضاء منازلهم خلال السهرات . كما كان تلاميذ المدارس والصناع يتممون أعمالهم على ضوء المصابيح وقت تبلج الصبح.(٥٣) وكانوا يستخدمون زيت الخروع وزيت الزيتون في إضاءة المصابيح ، على أن متاحفنا لا تحوى الكثير من أدوات الإنارة . وقد عثرت في إحدى مقابر الأسرة الأولى على مصباح جميل من الحجر على هيئة زورق من ورق البردى به حلقة أفقية لإدخال الفتيل (٥٤) وتوجد مصابيح أخرى على شكل زهرة الزنبق. وتوجد في متحف اللوفر أقداح صغيرة مستديرة ومسطحة ، مصنوعة من الطين لا يزال عالقا بها بقايا فتائل أطرافها سوداء ، حتى الآن ، وكانت مشبعة بالمواد الدهنية دون شك ، وهذه هي المصابيح الشائعة التي كان يستعملها عمال الجبانات ، عندما كانوا يبنون المقابر. وكانت تصنع شموع أيضا لإضاءة المعابد في ليلة رأس السنة ومساء ليلة رأس السنة وفي ليلة عيد واجا Ouaga . وكانت هذه الأشياء ذات قيمة كبرى حتى أن موظف المعبد الذي كان يقوم بحراستها كان يتناول أجراً عالياً لأجل تسليمها بعد الاستعمال إلى كاهن قرين* حابي جفاي Hapi Djefai الذي كان يضيئها أمام تمثاله . (٥٥) وكانوا يدعون للمتوفى بأن يبقى مصباحه منارا حتى شروق الشمس . وكانوا يقدمون له بمناسبة أيام النسيء الخمسة الخطرة ،** خمسة أوان ذات شكل مخروطي ولها أيد تجعلها تبدو كالشجرة ، ويزود الجزء الأعلى منها بمادة الشمع ، ويمكن

---

* كاهن القرين أو كاهن الروح هو المسئول عن إقامة الطقوس الدينية للميت .

** تقع في نهاية العام .

إشعاله ، وتضاء هذه المسارج للميت أثناء وحدته ، ولا يوجد ثمة دليل على أن هذه المسارج كانت تنار للأحياء. (٥٦)

ولا تعطينا هذه المعلومات القليلة فكرة كافية واضحة عن كيفية إنارة المساكن وما كان السهر يستمر طويلا. اذ أن من عادة المصريين أن يستيقظوا عند بزوغ الفجر ويناموا مبكرين فيما عدا الكهنة والحراس الذين يتولون العمل ليلا . وكان الملك امنمحات الأول عندما كان يقص علينا حادث قلب نظام الحكم الذى تعلم منه مدى جحود الإنسان ونكرانه للجميل ذكر أنه بعد أن تناول وجبة العشاء مسيت Mesyt كان الليل قد أقبل فتراخى نحو ساعة ثم استلقى على سريره بعد أن أنهكه التعب فنام لتوه. (٥٧) وهكذا كان المصريون ، بعد تناول العشاء يقضون ساعة أو ساعتين حول مسراج مدخن ثم لا يلبث أن يسود السكون أرجاء المنزل .

٩ - الولائم

كانت الأعمال التى يقوم بها الثرى المصرى تترك له الكثير من أوقات الفراغ ، ولم تكن تنقصه الوسائل لملئها . فالصيد فى الصحراء والتنزه والزيارات المقدسة للمعابد وصيد السمك والطيور فى المستنقعات وارتياد الحانات كان ضمن ما يغريه من حين لآخر . ولكن وجدت فى متناول يده وسائل أخرى للترفيه لا يمكن تجاهلها . وهذه الوسائل هى التى نريد الاهتمام بها أولاً.

لقد كان من أكبر دواعى سرور المصريين أن يجمعوا عددا كبيراً من الأقارب والأصدقاء حول الموائد لتناول طعام الغداء أو العشاء . وقد وجدت مناظر كثيرة على جدران المقابر تمثل مآدب فى المنازل الأبدية (المقابر) وفى القصور الدائمة (المعابد). كان المدعوون أشباحا ولكن هذه المآدب تماثل من كافة النواحى ، تلك التى كان يقيمها صاحب المقبرة عندما كان

يعيش فى الحياة الدنيا . فمن هذه النقوش ومن بعض القطع الأدبية ومن القصص يمكننا أن نكون صورة عن مأدبة أقيمت لأصدقاء فى بيت كريم .

كان يسبق هذه الوليمة - دون ريب - حركة كبيرة فى المخازن والمطبخ وفى كافة أرجاء البيت . ويذبح ثور طبقا للطرق المألوفة ، ثم يسلخ ويقطع إلى أجزاء وفق أصنافها المختلفة ، ثم تجهز قطع الشى والتوابل والصلصة وتشوى الأوز على السفود وتعد جرار الجعة والنبيذ والمشروبات الروحية . وتوضع الفاكهة على شكل هرمى فى الأطباق والسلال . وتحفظ جميع هذه الأطعمة بعيدا عن الذباب والتراب . وتستخرج من الصوانات الكؤوس الذهبية والفضية والأطباق المصنوعة من المرمر والفخار المطلى . ويبرد الماء فى الأزيار . وتغسل أرجاء المنزل وتدعك جيداً ثم تلمع ، كما تكنس ممرات الحديقة وتنتشل منها كل الأوراق المتساقطة من الأشجار . ويستدعى الموسيقيون والمغنون والراقصون من الجنسين . ويستعد البوابون بدورهم . ولا يبقى بعد ذلك سوى حضور المدعوين ليتناولوا الطعام .

وإذا كان من المتوقع حضور شخصيات عظيمة ، وقف رب البيت على مقربة من المدخل ، مخترقا الحديقة مع ضيوفه . وهكذا كان يفعل رجال الدين عندما يأتى الملك إلى المعبد . وحينما يعود رب البيت من القصر الملكى حاملا الهدايا الملكية ، كان يجد أقاربه مجتمعين أمام الباب الرئيسى للبيت . وكان من المحتمل أن يظل رب البيت جالسا فى حجرة الاستقبال كما كان يفعل فرعون وهو ينتظر فى قاعة الاجتماعات . وكان الأولاد والخدم هم الذين يستقبلون القادمين .

وكان المصريون لا ينضب معينهم حين يتبـــادلون التحيات ، فإذا استطاعوا استنفاد كل عبارات المديح عندما يتحدثون عن فضائلهم وكل ما ورد من ألفاظ - كما جاء فى اللوحات التذكارية التى دونوها للأجيال

القادمة — كان على المدعوين أن يردوا على من يحييهم من مضيفيهم بنفس العبارات التي قرأناها في البردية التي ترجع إلى عهد الرعامسه : « فلتحل نعمة آمون في قلبك ! ولتمنحك شيخوخة سعيدة ! وتقضي كل أيام حياتك في سعادة وسرور ، وأن تصل إلى أعلا مراتب الشرف والتمجيد ، ولتكن شفتاك طاهرتين وأعضاء جسمك قوية ، وعيناك حادتي البصر ، إنك المكسو بالكتان ، تركب عربتك وبيدك سوط ذهبي المقبض ، وتمسك يداك أعنة جديدة ، وخيولك مطهمة من سوريا ، ويجرى الزنوج أمامك ليفسحوا لك الطريق ، وتركب قاربك المصنوع من خشب الصنوبر المزين كله من مقدمته إلى مؤخرته . وتصل إلى قصرك الجميل المحصن الذي شيدته بنفسك ، وفيه ملىء بالنبيذ والجعة والخبز واللحوم والحلوى . ولحوم الثيران قطعت إلى أجزاء ، وجرار النبيذ قد نزعت عنها أغطيتها . وغناء شجي تتردد أنغامه على مقربة منك ، وينشر حامل الروائح العطرية عبيرها حولك . ويقف أمامك رئيس البساتين ومعه أكاليل الزهور ، ورئيس الواحات يقدم لك السمانى ، كما يقدم رئيس الصيادين الأسماك . وتصل مركبك من سوريا محملة بجميع الأشياء الطيبة وحظيرتك ملأى بالعجول ، وتوفق الغزالات في خدمتك ، وتبقى ويتهاوى أعداؤك . وليس فيك ما ترمى به من شر . وتدخل أمام مجمع الآلهة التسعة وتخرج منه منتصراً ».(٥٨)

وكان للداعين حق اختيار أي تعبير من التعبيرات المختلفة . فكانوا يستطيعون في لهجة شفيعة ، أن يتمتموا قائلين : « مرحبا مرحبا » أو « خبز وجعة » أو يستنزلوا بركة الآلهة على القادمين : « حياة وصحة وقوة بحق آمون رع سونتير . أطلب إلى پراحراختي وست ونفتيس وإلى جميع الآلهة والآلهات في البلاد الطيبة أن تمنحك

الصحة والحياة وأن أتمكن من أن أراك فى عنفوان العافية وأن أضمك بين ذراعى». (٥٩) وإليك ما يقدم من تمنيات لأحد رجال البلاط الملكى :
« أطلب من پراحرآختى من وقت شروقها إلى غروبها وإلى جميع آلهة پى رمسيس وإلى روح پراحرآختى الكبيرة ، أن تمنحك الحياة والصحة والقوة فى رعاية سيدك الملك الطيب أمون رع سونتير بأن رع ميامون له الحياة والصحة والقوة كل يوم » (٦٠) .

وبعد أن تستنفد التمنيات والتحيات ، وبعد أن يتم العناق الطويل ، لم يبق لهم إلا أن يتوجهوا إلى أماكنهم ، فيجلس أصحاب المنزل على مقاعد ذات ظهور عالية وكلها زخارف موهت بالذهب والفضة والفيروز والعقيق واللازورد . وتخصص بعض المقاعد الفاخرة لكبار المدعوين ، أما الباقون فيجلسون على مقاعد على شكل × أو على مقاعد ذات قوائم رأسية . أما الطبقات المتواضعة فتجلس على الحصر فى بساطة تامة . وتفضل الفتيات الجلوس على وسائد من الجلد جيدة الصنع ، ويصطف الرجال فى ناحية والنساء فى الناحية الأخرى . (٦١) وينصح الحكيم پتاح حتب ، الذى حنكته التجارب، ألا يطيل المدعوون من الشباب بل ومن الرجال المتقدمين فى السن أيضا ، النظر إلى ناحية السيدات مادامت الدعوة موجهة من منزل صديق .(٦٢) ولم تكن هذه القاعدة مطردة دائما . فعندما يسمح باختلاط الرجال والنساء كانت الأسر يجلس أفرادها دائما بجوار بعضهم دون تفرقة . وكان فى استطاعة الرجل أن يجلس بجوار زوجته لو أراد ذلك . أما الخدم والخادمات فكانوا يطوفون بالمدعوين يوزعون عليهم الزهور والروائح العطرية ، والخادمات دائما صغيرات وجميلات . وكن

غالبا يرتدين ملابس جد شفافة لا تستر شيئا من مفاتنهن . بل كن لا يضعن على أجسامهن فى غالب الأحيان سوى عقد وحزام ، ولا يطول الوقت حتى تكون زهور اللوتس قد وزعت على الرجال والنساء على السواء ، يمسك بها كل فرد فى يده ، ولا نلبث أن نجد كلا منهم يضع فوق رأسه قمعا أبيض اللون . وتضع الخادمات هذا القمع من دهان معطر قد أعد فى إناء كبير . وكان يضع هذا الدهان أيضا فوق رأسه كل من أصحاب المنزل والفتيات الصغيرات والخادمات إذ أنه كان من مستلزمات حفلات الاستقبال . والعبارة التى ذكرناها من قبل : « إن حامل العطر يعبق المكان بروائح البخور » ما هى إلا تنويه يقصد به ذكر هذه العادة الضرورية . ولا يعد اليوم سعيداً دون روائح عطرية . ولم يكن هذا الأمر عديم الجدوى إذ الغرض منه إخفاء روائح الجعة والنبيذ واللحوم المشوية . والخادمات اللاتى يضعن هذا القمع فوق رؤوسهن لم يظهرن ضيقا به إطلاقا أثناء قيامهن بخدمة المدعوين . والرسامون الذين لم يحرموا أنفسهم من تصوير رسوم مضحكة أو مسلية على جدران المقابر ، لم يظهروا أبدا هذا القمع المعطر متدليا من فوق الرؤوس . وبينما كانت الخادمات يضعن هذا القمع بمهارة فوق رأس المدعو ، كن أيضا يصلحن وضع عقده إن رأين أنه بدأ يهتز ليسقط .

وقد حان الوقت لتقديم كل ما أعده الطباخون وصانعو الحلوى لهذه الحفلة . ويوجد منه ما يرضى كل الرغبات فإن بتاح حتب الحكيم إذ كان ينصح المدعوين بأن يغضوا من أبصارهم ويتعففوا فى أقوالهم ، فإنه ينصح ، من ناحية أخرى ، بإشباع رغبات المدعوين بقدر المستطاع ، وذلك حتى ينال الداعى عطف الآلهة وحسن الذكرى بين الناس . ولذلك ينبغى أن تستمتع الأذن

تماما كما تستمتع حاسة الذوق، ففى الوقت الذى يجلس فيه المدعوون فى أماكنهم لتناول الطعام ، كان الموسيقيون يدخلون ومعهم آلاتهم ، فالمصريون كانوا فى كافة العهود مولعين بالموسيقى حتى قبل اختراع أية آلة موسيقية ، إذ كانوا وقتذاك يصفقون بالأيدى لدعم الغناء . فالمزمار والقيثار والقانون كانت معروفة فى عهد الأهرامات . وكانت تشترك آلتان فى العزف معا وأحيانا ثلاث آلات أو يمكن إضافة القيثار أو أية آلة أخرى إلى إحداها ، أو استعمال الآلات الثلاث معاً لمصاحبة الغناء والتصفيق بالأيدى . ومنذ عصر الأمبراطورية الحديثة كانت مجموعات الآلات الموسيقية فى تقدم مستمر بفضل ما أمكن اقتباسه من الشعوب المجاورة ، فأصبحت القيثار كبيرة الحجم وتضاعف حجم صندوق الرنين مع زيادة فى عدد الأوتار . وصنعت قيثارات يمكن حملها باليد وأخرى فى أحجام متوسطة ذات قوائم ، وقيثارات ضخمة كانت فى الواقع قطعا فنية رائعة الصنع ، وقد زينت بأشكال على هيئة زهور أو بأشكال هندسية وزودت برأس من الخشب المذهب ركب فى الطرف الأعلى منها أو لبس فى القاعدة . أما القانون فهو من أصل أسيوى ، فقبائل عامو Amou من الرعاة الرحل ـ عندما قدموا إلى منات خوفو فى مقاطعة الماعز البرى ـ كانوا يستخدمون هذه الآلة ، وثمة موسيقيون من أصل أجنبى يستخدمون أحيانا أنواعا من القانون ذات قائمة واحدة وصندوق رنان كبير على هيئة نصف عود . والقانون الصغير الحجم يمكن حمله ويكون فى الغالب جميل الشكل إلى أبعد حد ، وليس له سوى خمسة أوتار . أما المزمار المزدوج فلم يكن مثلما كان عليه من قبل ، مكونا من قصبتين ضمت إحداهما إلى الأخرى فحسب ، ولكنه أصبح مكونا من قصبتين تكونان زاوية حادة . أما العود فهو عبارة عن صندوق مستطيل به ستة ثقوب أو ثمانية ومسطح من الناحيتين وله يد طويلة مزينة بحملات

مرتفعة شدت عليها أربعة أوتار . أما الطبلة فكانت مستديرة أو مربعة وتستعمل خاصة فى الحفلات الشعبية والدينية . وكانت هناك آلات أخرى لإحداث الصوت مثل الصاجات والصلاصل ولو أنها كانت الرمز المقدس المعبودة حاتحور الا أن هذه المعبودة كانت راعية حفلات المأدب والموسيقى أيضا . والصناجات كانت تسمى بالمصرية القديمة منات Menat وكانت تصنع من قطعتين متشابهتين من العاج أو من الخشب وكانت تعلق فى العقود وتتدلى منها ، أما الصلصالة فكانت عبارة عن رأس حاتحور مركبة فوق مقبض ، وقد استبدلت القرون بزائدتين طويلتين من المعدن وبينهما خيوط معدنية مشدودة تخترق صنوج صغيرة من المعدن أيضا . وعندما تحرك أو تهز هذه الصلاصل يصدر عنها صوت يدعم الغناء ويضبط الإيقاع . وتشبه هذه الصناجات ، المصفقات الخشبية الأسبانية المعروفة اليوم ، والذين شاهدوا راقصا أو راقصة اسبانية يرقصان على أنغام الصاجات وصفقوا لها يمكنهم أن يتصوروا بسهولة الدور الرائع الذى كانت تؤديه الصلاصل والصاجات فى عهد قدماء المصريين . وكان للمغنيات من الوسائل ما يمكنهن من مساعدة أنفسهن بالتصفيق بأيديهن أثناء الغناء . وكان الرقص يكمل الاستعراض . ويشترك أحيانا مع الرقص إحدى البهلوانات التى كانت تميل إلى الخلف فيتدلى شعر رأسها حتى يلامس الأرض . (٦٣)

وبعد أن ينتهى الجميع من إشباع بطونهم بالطعام ، يطول الاجتماع وتستمر الأغانى والموسيقى والرقص ، ويتناولون الحلوى مرة أخرى فى لذة وبهجة ، لأن غرضهم الأوحد كان إرضاء نهمهم وكان المغنون ينشدون الأشعار ويتغنون فيها بكرم الداعى أو بنعم الآلهة : « أن كاله (الداعى) مكنون فى كل القلوب . . عمل المعبود بتاح كل هذا بيديه ، لتملأ البركة

قلبه ".. ملئت القنوات بالمياه المتدفقة الجديدة وغمرت الأرض بحبه ». وقال آخر : « إنه ليوم سعيد هذا الذى نشيد فيه بجمال آمون ، ما أحلى التهليل بأصوات عالية تصل إلى عنان السماء . » وكان من الأوفق تقديم الشكر للمعبودات ولكن لا يجهل أحد أن المدة التى يقضيها الإنسان على الأرض ليستمتع فيها بخيرات المعبودات ، قصيرة الأمد . فلننتفع إذن بهذا اليوم السعيد الذى تتحد فيه رحمة الآلهة بكرم الداعى ويكمل بعضها بعضا . وقد ردد عازف القيثارة نفرحتب Neferhotep هذه الحقائق فى إحدى المآدب :

« منذ بدأ العالم وأجساد البشر تفنى وتعود إلى التراب وتحل محلها أجيال شابة جديدة ، وطالما يشرق رع (الشمس) فى الصبح ويغرب توم Toum ليستريح فى مانو Manou . فان الرجال يتناسلون والنساء يلدن ، ومن خلال أنوفهم يتنسمون عبير الحياة ، ولكن لابد لهم من يوم ينتقل فيه كل مولود إلى مكانه الموعود . أيها الكاهن اصنع يوما سعيدا . ولتوزع عليك العطور من أفخر الأنواع ولتقرب الروائح الزكية إلى أنفك لتقرعينا ، ولتحوط القلائد والزنابق أكتافك ، ولتحلى رقبة أختك الحبيبة الجالسة بقربك ، وليشنف آذانك الغناء وموسيقى القيثارة . تخلى عن كافة الآلام والأمراض ولا تفكر إلا فى المسرات ، حتى يجىء اليوم الذى يجب فيه الرحيل إلى أرض السكون . اجعل هذا اليوم سعيدا يانفرحتب يا صاحب الصوت الحق والأب الآلهى الممتاز ، إنك صاحب الأيدى الطاهرة وقد أدركت كل ما انتاب الأجداد : انهدمت جدران منازلهم وأزيلت أماكنهم ، وأصبحوا هم أنفسهم وكأنهم لم يخلقوا أبدا ، منذ الأزل ، أما جدرانك فمتينة وقد زرعت أشجار الجميز على حافة بركة حديقتك ، وروحك باقية تحتها ، تشرب من مياهها ، اتبع قلبك بإرادة قوية طالما أنك حى ترزق على هذه الأرض .

اعط خبزا لمن ليس له مأوى حتى تكتسب طيب السمعة إلى الأبد . ليكن يوما سعيدا . تخيل اليوم الذى يقودونك فيه إلى حيث يختلط الرجال من كافة الأجناس ، ولا يوجد قط إنسان أخذ أمواله معه ولن يستطيع العودة إلى الحياة (٦٤)

ويذكرنا عازف قيثارة آخر بعدم جدوى مجهودات الإنسان للتغلب على الموت ، فمصر فى عهد الرعامسه ، كانت بلدا قديما وكان من اليسير على الإنسان أن يقدر ما حل بالأهرام . « فالآلهة الذين كانوا يعيشون فى الماضى والذين يرقدون فى أهرامهم ، والمومياءات والأرواح التى تحويها الأهرام التى بنوها قصورا مشيدة . قد زالت أماكنهم من الوجود ، فماذا أصابهم ؟ لقد سمعت أقوال إمحتب Imhotep وحرد ديف Hardidif فى أغنيات كثيرة جدا . لقد تهدمت أسوار مبانيهم وزالت أماكنها ، كما لو أنهم لم يوجدوا من قبل أبدا ولم يعد أحد يزورهم ليذكر شيئا عن فضائلهم أو يتغنى بأملاكهم » .

« اتبع قلبك طالما أنت على قيد الحياة . ضع البخور فوق رأسك ، إلبس الكتان ، تطيب بأفخر أنواع عطور الآلهة . . اتبع قلبك وهيء لنفسك السعادة أطول وقت مستطاع ، تقضيه على سطح الأرض . لا تستهلك قلبك إلى أن يوافيك اليوم الذى لا ينفع فيه التوسل فالآلهة الذين توقفت دقات قلوبهم ، لا يمكنهم أن يستمعوا إلى أولئك الذين يتوسلون إليهم » . (٦٥)

وفى العصر المتأخر لم يكتفوا بالمقابلة شفويا بين أحزان مملكة الأموات وبهجة الحياة وإلى حض المدعوين على انتهاز الفرص للاستمتاع بسعادة الحياة وبهجتها ، فكانوا يعرضون فى مآدب الأغنياء طبقا لما أورده

الكتاب الإغريق الذين كانت معلوماتهم صحيحة هذه المرة على ما يظهر - أنه بعد الانتهاء من تناول الطعام ، كان يعرض تمثال صغير من الخشب يرقد داخل تابوت ، قد دهن وزين ويطابق تماما جثة ميت حقيق ، محنط بطبيعة الحال ، وليس هيكلا عظميا كما يعتقد بعض المتأخرين . وقد عثرت فى منزل خاص فى تانيس على تماثيل مومياءات محنطة سليمة تماما لم تمسها من قبل أية يد ، طولها ذراع . وربما كانت تستخدم فى نفس هذا الغرض . فكان المضيف يقدم إلى كل مدعو هذا التمثال ويقول له : « انظر هذا ، ثم اشرب وابتهج واستمتع بالحياة لأنك متى مت ستصبح مثله تماما. » هذا ماكانوا يفعلونه عندما كانوا يجتمعون فى حفلات الشراب . وهذا ما يؤكده على الأقل هيرودوت وبلوتارك . وكان لوسيان Lucien يزعم ، وهو يتكلم كشاهد عيان ، أن الأموات كانوا يحضرون فعلا المآدب بأنفسهم . وذكر أكثر من هذا مما لا يمكن إثباته - أن نفرحتب قد دعى الأموات للجلوس بين الأحياء أو أنه مرر بينهم مومياء صغيرة أو أنه أراهم هيكلا متحركا من الفضة مثل تمثال تريما لسيون Trimalcion الضخم الجسم. (٦٦)

وفى كثير من الأحيان كان المدعوون يتبعون نصيحة عازف القيثار الشجى ، وبحجة إحياء يوم سعيد ، يحدث أن ينقلب الاجتماع العائلى إلى مجلس شراب. وهاك مثلا حفلة استقبال لدى پاحيرى Paheri (٦٧) وزوجته لقد جلس ربا البيت أحدهما بجانب الآخر ، وقد ربط فى أحد قوائم المقعد الذى يجلس عليه پاحيرى ، قرد ، يتناول التين من أحد السلال ويلتهمه . بينما اجتمع الخدم وقوفا فى الخلف. وكان والدا پاحيرى يجلسان على مقاعد جميلة فى مواجهته ، أما أعمامه وأبناء عمومته والأصدقاء فقد كانوا يجلسون على الحصر ، وعلى أية حال فلم يقصر أحد فى خدمتهم : إذ كان الخدم يمرون بينهم حاملين كئوسا ذات زخارف ، بينما اهتم خدم آخرون بالسيدات

المدعوات . وكان يقول أحدهم وهو يقدم كأسا من الخمر : « فى صحتك ، فى صحة روحك ـ اشرب حتى تفقد الوعى ، وعش يوما سعيداً ، واصغ إلى ماتقوله شريكتك » وتقول هذه السيدة للساقى : « أعطنى ١٨ معيارا من النبيذ أنظر فانى أحبه حتى أفقد الوعى من السكر » ويقول خادم آخر لا يقل تحريضاً عن سابقه : « لا عليك ، فإنى لن أترك إبريق النبيذ » أما جارتها التى كانت تنتظر دورها فتتدخل وتقول « اشربى ولا تتظاهرى بأنك سئمت الشراب » هل تسمحين بأن يقدم لى كأس من النبيذ ؟ .. إنه سيد المشروبات » . وعلى بعد ، نرى اثنتين من المدعوات ، ممن أهملهم السقاة تأتيان بحركة تعبر عن أنهما ترفضان عرضاً وهمياً . وقد أقيمت هذه الحفلة فى منزل پاحيرى الذى كان يعيش فى مدينة نخيت عقب انتهاء حرب التحرير . وكان سرور هؤلاء الريفيين ينطوى على شىء من الخشونة ومع ذلك فى طيبه كانوا يفضلون الاعتدال . وهى الكلمة التى أوردها پلوتارك ، ويقصد بها أن يراعى الاعتدال فى كل شىء . ولكن ليس من النادر أن نجد ضمن مناظر المآدب أحد المدعوين وقد أفرط فى الشراب أو الطعام حتى لعبت الخمر برأسه وغثت نفسه (٨٠) فيلفظ شيئاً كريها من فمه ، وجيرانه الذين لا يدهشهم كثيراً ما يحدث ، يسندون رأس المريض أو المريضة ويمددونه على السرير إذا احتاج الأمر ذلك . وفى سرعة خاطفة ترفع البقايا الكريهة ويستمر الحفل .

١٠ ــ الألعاب :

لم تكن حفلات المآدب تقام كل يوم . فعندما يكون رب البيت وزوجته منفردين ، فإنهما يفضلان الجلوس فى الحديقة تحت كشك صغير يشربان ويستنشقان عبير ريح الشمال المنعش ، أو يقومان بجولة فى قارب

يجوسان خلال بحيرتهم ، ويتسليان بصيد السمك بالشص . على أن الزوجين كانا يفضلان التسلية بلعبة « الضامة » وكانوا يلعبونها على لوحة مستطيلة الشكل مقسمة إلى ثلاثين مربعاً أو إلى ثلاثة وثلاثين مربعاً صغيراً . فالأقشاط السوداء والبيضاء التي كانت تستعمل تماثل قطع الشطرنج التي نستعملها اليوم . وكان اللاعبون يجلسون فوق مقاعد قصيرة لا مساند لها وأرجلهم ممتدة فوق وسائد صغيرة ، ويلعب الزوجان غالبا الواحد منهما ضد الآخر ، وكانت الابنة تساعد أباها فى اللعب وهى تلف ذراعها حول رقبته . وكان بت أوزيريس Petosiris يلعب مع أصدقائه بعد تناول طعام الغداء إلى أن يحين وقت تناول الجعة فى قاعة الشراب . وكان من عادة أهالى طيبه ألا ينتظروا حلول الوقت المناسب لتناول الجعة بل كانوا يفضلون أن يتناولوها وهم يلعبون. (٦٩)

على أننا لا نعرف شيئا عن خطوات سير هذه اللعبة ، ويظهر أنهم كانوا يلعبونها معتمدين على « الزهر » ، وليس كما نلعبها نحن الآن ، وهى طريقة نقل قطع الضامة فى حرية.

وكانت الألعاب كثيرة ومتنوعة فى العصور القديمة . واللعبة التى كانت مفضلة هى لعبة الثعبان محن Mehen التى كانت تلعب فوق منضدة مستديرة ، رسم على سطحها ثعبان ملتف حول نفسه أو نقش بالحفر ورأسه فى الوسط وأجزاء جسمه قد قطعت بخطوط كأنها مربعات . وكان اللاعبون يستعملون فيها ثلاث قطع على شكل أسود ، وثلاث قطع على شكل لبؤات وكرات بيضاء وحمراء . وحينما ينتهى اللعب كانت هذه القطع تجمع وترتب فى صندوق من الأبنوس ، وليس ثمة دليل على أن هذه اللعبة كانت تمارس أو لا تمارس

بعد الدولة القديمة (٧٠) ولكن لا يمكن التأكيد بأنها قد أهملت ، فقد عثر داخل مقبرتين من عهد الأسرة الأولى على مجموعة رائعة من الأسود واللبؤات من العاج وعلى قطع عجيبة من اللعب مصنوعة من العاج ، ويمثل بعض هذه القطع منزلا مكونا من ثلاثة أجزاء له سطح مدبب الشكل وبعض قطع أخرى تشبه الملك ، والطابية ، فى لعبة الشطرنج التى نمارسها الآن . والبيادق عبارة عن قطع اسطوانية ، الجزء الأعلى منها مستدير الشكل ينتهى بزرار . ومن العسير التفكير فى أن الألعاب المتنوعة التى اخترعها هؤلاء الأجداد الحاذقون قد أهملت أو تركت لتبقى منها لعبة واحدة أو لعبتان فحسب . فقدماء المصريين كانوا مولعين باللعب ، وكان الأزواج والأصدقاء يلعبون تسلية لقتل الوقت وكذلك كان المتخاصمون يلعبون سوياً لحل بعض ما قد يكون بينهم من منازعات (٧١)

وكان الأطفال يلعبون أيضاً ألعاباً لا تحتاج إلى كثير من المال ، فإذا كان عددهم كبيراً انقسموا إلى فريقين ، وفى كل فريق كان كل لاعب يحوط بذراعيه خصر اللاعب الذى يتقدمه ، وكان اللاعبان الأولان فى مقدمة الفريقين يقفان متواجهين وقدم كل منهما أمام قدم خصمه ويثنى ذراعيه فوق صدره ويحاول كل منهما إسقاط الآخر ، ويشجع بقية الفريق اللاعب الذى فى المقدمة قائلين له : « ذراعك أقوى منه بكثير فلا تتخاذل » ويردد الباقون « فريقنا أقوى انتصر عليه أيها الرفيق » .

أما لعبة « الجرى على الأرض » فهى عبارة عن سباق القفز على الحواجز (٧٢) إذ يجلس ولدان على الأرض متقابلين وأيديهم وسيقانهم ممدودة وأصابع الأيدى ممتدة فى انفراج وكعب القدم اليسرى فوق أصابع

القدم اليمنى المستندة على الأرض ، بهذا يتم تكوين الحاجز الذى يتحتم على اللاعبين الآخرين القفز عليه دون أن يمسكوا . واللاعبون الذين يكونون هذا الحاجز يحاولون بطبيعة الحال أن يمسكوا قدم اللاعب الذى يقفز . فإذا أمسك بها انقلب على الأرض وأصبح «الجدى على الأرض» . ولا يجوز لمن يقفز أن يأتى بحركات مخادعة بل عليه أن يقفز ويعلن بأعلى صوته قائلا : «إثبت جيداً فأنا آت إليك أيها الرفيق» .

ويتبارى بعض الأولاد الآخرين فى سرعة الجرى ونظراً لأنه من اليسير الجرى على الأقدام ، لذلك كانوا يتبارون بالجرى على ركبهم ويقبضون بأيديهم على أقدامهم من الخلف . وإذا وجد من بين المجموعة ولد كبير فانه يسير على أربع ويركب فوق ظهره ولدان صغيران ، يتماسكان بالأيدى والأرجل ويتأرجحان على ظهره وهو يسير . ويلعبون أيضاً لعبة رمى الحراب على هدف معين مرسوم على الأرض ، ويحمل هذا الهدف اسم سخمو أو سشمو Sechemou ولا ندرى سبب هذه التسمية ، وسخم هو معبود «المحاصر» وله مكانة كبرى ، وكان من المتوقع أن يسمى الهدف باسم قاتل أوزيريس . وللصراع هواة فاذا توافر عدد كبير من اللاعبين فإن بعضهم يقف على هيئة برج ويضع كل لاعب ذراعيه على أكتاف جيرانه ، وعلى الباقين أن يبقوا فوق البرج ، عاملين على ألا يمسك بهم الحارس .

وفى بعض الأحيان ينقلب اللعب إلى عراك فالولد الأخرق أو المخادع كان يعاقب باللكم بالأيدى وبالركل بالأرجل . وقد كان فى بعض الأحيان يوثق بحبل كمجرم حقيقى ويضربه جلادوه بعصى ينتهى طرفها فى شكل يد .

أما الفتيات فكن يفضلن الألعاب التى تحتاج إلى مهارة فكن يلعبن لعبة رمى الكور فى الهواء بسرعة ولقفها تباعا ، وكانت تركب صغارهن ظهور الكبيرات ويتقاذفن الكور ، وكن يتماسكن من الخصور ويتصارعن ، ولكن لعبتهن المفضلة كانت الرقص ، فكل فتاة شابة كان عليها أن تتعلم الرقص ، ولم يكن الأمر مقصوراً فحسب على الفتيات اللاتى كن يردن أن يصبحن راقصات محترفات .

كن يربطن كرة فى نهاية ظفائرهن ويمددن أذرعهن إما بالإمساك بمرآة أو بإحدى العصى المنقوشة التى يستعرنها من جيرانهم من الصبيان . وبعد أن تتم زينتهن بهذه الكيفية كن يدرن حول أنفسهن ويقفزن ويتمايلين وأقرانهن ملتفات حولهن على هيئة دائرة يغنين ويصفقن بالأيدى — وغناؤهن الذى لا نعرفه جيداً - كان عبارة عن توسل إلى حاتحور ربة كل الملذات . وهناك لعبة لا تخلو من عامل المفاجأة والإثارة : تقف فتاتان كبيرتان ظهر كل منهما ملتصق بظهر الأخرى ، ويفردن أذرعتهن يميناً وشمالا ثم تقف أربع فتيات صغيرات إلى جانبهن وأرجلهن متجاورة - ويمسكن بأذرع الفتاتين الممتدة ويصلبن أجسامهن تماما ويرتمين فى الهواء ، كأنما هن معلقات ثم يدرن بعد سماع إشارة البدء ثلاث مرات على الأقل ، إلا إذا سقطت إحداهن على الأرض ، فتتوقف حينئذ اللعبة .

وكثيراً ما توجد فى غرف الحريم جميع الآلات الموسيقية مثل القانون والقيثارة والعود والطبلة .

ولم تكن هذه الآلات موجودة عبثا ، وإنى أعتقد أنه بعد تناول العشاء

كانت تقام حفلات الغناء والموسيقى والرقص فى جو عائلى ، وكذا سرد القصص . فبردية وستكار Westcar المحفوظة فى متحف برلين تظهر لنا خوفو ساهيا ، ثم مهتما اهتماما شديداً بقصص السحرة التى كان يرويها له أولاده كل بدوره

ونحن على حق تماما حين نعتقد أن هذا اللون من التسلية الملكية كان فى متناول أيدى أولئك الذين يرغبون فيها .

الفصل الخامس

الحياة فى الريف

١ — الفلاحون

كان الكاتب المصرى القديم يعد كافة المهن اليدوية حقيرة، وأحقرها جميعاً مهنة الزراعة، فسرعان ما يفنى فيها عمال الزراعة كما تستهلك الأدوات، وطالما يتعرضون لأذى سادتهم، ويستغلهم هؤلاء السادة ومحصلو الضرائب على السواء كما يسرقهم جيرانهم ويسطو عليهم اللصوص وتصيبهم تقلبات الجو بالحسرة الشديدة ويأتى على محصولاتهم الجراد والقوارض وغيرها من أعداء الإنسان، هذه هى حال رجل الحقول: تسجن زوجته ويؤخذ أولاده رهائن.

ولذلك فالرسم الكامل يضفى عليه صورة قاتمة للبؤس.(١)

ولكن الأمر يختلف فى نظر الإغريق، الذين أتوا من بلاد قاحلة حيث لا يمكن الحصول على محصول ضئيل إلا بعد مجهود شاق. يقول المؤرخ هيرودوت: «عندما تبذر الحبوب فما على المزارع إلا أن ينتظر فى هدوء موعد الحصاد». ويذهب المؤرخ ديودور إلى أبعد من ذلك إذ يقرر: «بينما تتطلب الزراعة جهداً شاقاً فى بلاد كثيرة، بصفة عامة ونفقات باهظة وعناية فائقة فإنها فى مصر لا تتطلب إلا مالاً قليلاً ومجهوداً محدوداً».(٢)ومن بين الشبان المصريين الذين تلقوا العلم فى مدارس المدن نجد فئة فضلت العودة إلى الحقول وكان هؤلاء هم المعتوهون الذين رسم لهم الكاتب

هذه الصورة القاتمة . أما فلاح واحة الملح* فلم يصور لنا فى صورة رجل بائس فقير ، بل ما أطول قائمة المنتجات الطيبة التى تخرجها أرضه ، تلك المحصولات التى حملتها حميره وذهب لبيعها فى نن نسوت Nen Nisout على أمل أن يعود ثانية إلى بيته ومعه أطايب الفطائر لزوجته وأولاده. ولا شك أن رجلا شريراً رأى هذه القافلة الصغيرة وهى تسير فى الطريق فاستولى على الدواب وعلى ما تحمله من بضائع . غير أن السلطات العليا قد اهتمت بأمره . ولو أننا عرفنا تفاصيل نهاية القصة لتأكدنا أن عدالة الملك وقفت فى جانبه فأنصفته . والأخ الأكبر فى قصة الأخوين ، وهى قصة مشهورة أيضاً لم يكن موضعاً للشفقة إطلاقاً ، فقد كان يملك بيتاً ملكا خالصاً له كما يملك أرضاً زراعية ومواشى وآلات زراعية وغلالا . وعاشت زوجته فى البيت كسيدة تقوم بزينتها بينما يعمل زوجها وأخوه فى الحقل وتقضى طول اليوم فى إدارة شئون بيتها وإعداد طعام العشاء وإضاءة المصباح قبل ان يعود زوجها . وعندما يحضر تقدم له طستا وإبريقا ليغتسل .

٢ — رى الحدائق

عندما وصفنا المساكن لاحظنا مدى شغف المصريين بالحدائق ، لقد كانت رغبة كل مالك سواء كان يعيش فى المدينة ام فى الريف ، أن ينشىء له حديقة ليزرع فيها الفاكهة والخضر وكان رى الحديقة هو ما يشغل باله. وهذا العمل هو الشىء الوحيد من بين أعمال الحدائق التى لدينا عنها بعض المعلومات . كانت الحديقة المثمرة تقسم إلى مربعات صغيرة بوساطة قنوات تتقاطع فى زوايا قائمة . كانت طريقة الرى التقليدية القديمة والتى كان لا يزال يجرى العمل بها خلال الدولة الوسطى هى استخدام جرار فخارية مستديرة الشكل يعلق كل أثنين منها فى طرفى نير ، وتفرغ محتوياتهما فى

* وادى النطرون .

أحد الأحواض ، وبهذا يمكن رى الحديقة كلها . وكانت هذه العملية تتطلب وقتا طويلا شاقاً.(٣)

ولا شك أن اختراع الشادوف قد لاقى ترحيباً إذ كان اختراعا مفيدا .(٤)

والشادوف يتكون من عمود قوى رأسى ، يبلغ طوله ضعف طول الرجل يثبت فى الأرض على حافة المياه . واذا وجدت شجرة تصلح لذلك فى المكان المناسب نزعت فروعها ، ثم يثبت عمود طويل أفقيا فوق العمود الرأسى وبذلك يمكن أن تتحرك فى مختلف الاتجاهات ، ويثبت حجر ثقيل فى نهاية العمود الأفقى أما فى الطرف الآخر فيثبت وعاء من الفخار أو من القماش بحبل يبلغ طوله نحو خمس أذرع أوست . ثم يشد الحبل فيمتلىء الوعاء بالماء ثم يترك الحبل فيرفع الثقل المقابل الوعاء ، وعندما يصل إلى حافة الحوض تصب فيه المياه ثم تكرر العملية . وقد استخدمت أربعة شواديف فى وقت واحد لرى حديقة أبوى Apouy ، ويتبع كاب البستانى بنظره وعاء الماء وهو يتحرك . وكان الرى بهذه الآلة ، مع كونها بدائية مرضيا وفيه الكفاية . والدليل على ذلك الاستمرار فى استخدامها دائما . ويظهر أنها لم تستعمل فى عصر الأمبراطورية الحديثة إلا فى رى الحدائق ، ولم ترد رسومها فى المناظر التى تمثل الأعمال الزراعية فى الأراضى الواسعة . أما الساقية التى يلازم صريرها الريف المصرى حاليا ، فلم تظهر ضمن مستندات العهد الفرعونى ولا نعرف الوقت الذى استعملت فيه بوادى النيل ، على أنه قد اكتشفت آبار جميلة ذات قطر كبير فى جبانة كهنة تحوت فى

هرموبوليس بالقرب من مقبرة بت أوزيريس * وأخرى فى مدينة أنطونى ** وفى معبد تانيس أيضا . وقد صممت الأولى دون ريب ، لتكون بئرا لساقية ولكن تاريخ هذه البئر لا يمكن أن يكون أقدم من مقبرة بت أوزيريس التى يرجع تاريخها ، كما هو معتقد إلى عهد بطليموس سوتر .

٣ — جنى العنب

كان بكل حديقة عدد من كروم العنب تمتد على الجدار أو تظلل جانبى الرواق الرئيسى . وكانت فروعها العليا المشتبكة فوق اخشاب التكعيبة ذات الشكل المستدير ، تتدلى منها فى أشد أوقات القيظ عناقيد العنب الجميلة ذات الحبات الزرقاء الحلوة المذاق ، التى كان يستسيغها أهالى المدينة . وكانت زراعة الكروم فى الدلتا متقدمة عن أية جهة أخرى ، ولو أن أكثره كان يعد لعمل النبيذ أكثر مما يؤكل فاكهة . وقد عرف نبيذ الكروم المزروعة فى حقول (ح) ايميت الواقعة فى شمالى فاقوس فى كل العصور ، وكذلك نبيذ مصايد (حام Ham) فى سين باقليم القلزم Piluse ونبيذ آبش Abesh الذى كان يحفظ فى نوع خاص من الجرار تحميها سلال من البوص ، وقد ورد ذكرها فى قائمة الأنواع الفاخرة . وحتى قبل عمل هذه القائمة كان نبيذ كروم سباحرختى بت Saba hor Khenti pet يرسل فى جرار مختومة إلى مقر الفراعنة فى طيبة *** أما أسرة الرعامسه التى نشأت أصلا فى أواريس الواقعة بين ايميت وسين Sin فكانوا خبراء فى أنواع النبيذ

---

* فى تونا الجبل غرب ملوى (هرموبوليس ماجنا) .

** شرق النيل قرب ملوى .

*** فى الأسرة الأولى منذ حوالى ٣٠٠٠ سنة ق . م .

وبذلوا الكثير لتحسين زراعة الكروم وتجارة النبيذ. ومعظم شقفات أوانى النبيذ التى عثر عليها فى الرمسيوم وقنطير وفى مقابر طيبه، ترجع إلى عهد رمسيس الثانى، حتى أنه كان فى الإمكان عمل خريطة مؤقتة لمواقع الكروم المصرية لو لم تكن معلوماتنا عن جغرافية مملكة الفراعنة لم تزل فى طور الطفولة. (٥) أما رمسيس الثالث فإنه يقول: «لقد زرعت لك كروما فى واحات الجنوب والشمال بجانب كثير غيرها فى الإقليم الجنوبى، أما فى الدلتا فقد زاد عددها مئات الألوف. وعينت لها بستانيين من بين الأسرى الأجانب لملاحظتها وحفرت لها أحواضا مائية ملئت بنبات النيلوفر. لقد سال الخمر والنبيذ مثل المياه الجارية لتقدم لك فى طيبه المنتصرة» (٦).

إن الحلقة الوحيدة التى نعرفها عن زراعة الكروم وحياة منتجى النبيذ هى عملية جنى العنب. (٧) فنحن نشاهد القاطفين منتشرين تحت مكعبات الكروم، يقطفون العناقيد الطيبة ذات الحبات الزرقاء بأصابعهم لا بالمدى ويملأون مقاطفهم فى حذر شديد حتى لا يفسد العنب، إذ لم تكن المقاطف من النوع الذى تتسرب منه المياه. ثم ينصرفون وهم يغنون، حاملين مقاطفهم فوق رؤوسهم، ليلقوا بما فيها فى الدنان الكبيرة، ثم يعودون بعد ذلك إلى الكروم. ولا علم لى مطلقا أنهم كانوا يستخدمون الحيوان فى نقل محصول العنب فى أية ناحية من النواحى. على أنه فى البلاد التى كانت تزرع فيها الكروم على نطاق واسع، كان من الأفضل نقل العنب من الكروم إلى مكان التقطير فى قوارب لتلافى الإضرار به وضياع هذا العصير الثمين.

كانت الدنان مستديرة وعميقة، ولا نعرف نوع المادة التى كانت تصنع

منها . على أنها لم تكن من الخشب ، فالمصريون الذين لم يعرفوا صناعة البراميل الخشبية لم يكن فى استطاعتهم صناعة دنان من الخشب ، مع أن صناعة قارب من القوارب كانت عسيرة بدورها . وأعتقد أنها كانت تصنع من الحجر ، لأن الجص أو الفخار أو الخزف تترك أثرا للنشع ، ولكن الحجر الصلب مثل الجرانيت أو الشيست كان من الممكن عمل دنان منها ناعمــــة ملساء لا يتسرب منها العصير كما يسهل صيانتها . كانت هذه الدنان توضع أحيانا فوق قواعد يبلغ ارتفاعها نحـو ذراعين أو ثلاث أذرع ، وتزين بالنقوش البارزة ، ويقام عمودان صغيران متقابلان ، أما إذا لم يشأ المالك التمسك بالرفاهية فإنه كان يضع خشبتين متفرعتين تحملان عرقا من الخشب تتدلى منه خمسة أو ستة حبال . وعندما يملأ الدن بالقدر الكافى من العنب فإن قاطفى العنب يعتلونه ويمسكون الحبال بأيديهم ، وذلك لأن قاع الدن ربما كان غير مسطح ويطأون العنب بأقدامهم فى قوة ونشاط . وفى منزل ميرا Mera وزير الملك ببى الأول Pepi I نشاهد موسيقيين جالسين على حصيرة يغنيـــان ويدقان الصنجات الخشبية لتشجيع الرجال على العمل فى حماس ووطء العنب فى دقات رتيبة .(٨) وليس هناك سبب لترك مثل هذه العادة النافعة ، ومع ذلك فقد اختفى الموسيقيون فى عهد الامبراطورية الحديثة ، على أن الرجال الذين يقومون بعصر العنب بأقدامهم فوق الدنان ، كان فى استطاعتهم أن يغنوا ويرقصوا داخل الدن . وينساب العصير من الدن خلال ثقب واحد أو ثقبين أو ثلاثة ثقوب ليتسرب إلى حوض كبير . وعندما يتم عصر العنب تماما ينقل تفل العنب المدهوك ويوضع فى جوال متين ويثبت قضيب فى كل طرف منه ، ويحاوله أربعة رجال برمه فى اتجاهين مختلفين حتى يتم عصر العنب المدهوك فوق وعاء كبير أعد لهذا الغرض ، على أن هذه الطريقة لم تكن سليمة . فكان

على هؤلاء الرجال الأربعة أن يتحملوا ثقل الجوال كما كان عليهم أيضاً أن يقاوموا برم القضبان، وإذا ما انحرف الجوال قليلا عن مكانه فإن العصير كان ينسكب على الأرض، ولذلك كان لابد من الاستعانة برجل خامس يتوسطهم ليحافظ على إبقاء الجوال متزنا فى وضعه ويحرك الوعاء حتى يسقط فيه العصير .

وفى عهد الامبراطورية الحديثة ، استخدم عاصرو العنب جهازا مكونا من عمودين رأسيين مثبتين فى الأرض له ثقبان متماثلان فى نفس الارتفاع وقد أولج فيهما طرفى الجوال الممتلىء بالعنب ، وفى إحدى نهايتى الجوال عروة أعدت ليوضع فيها قضيب ، ثم يبرم القضيب بكل ما أوتى العاصرون من قوة ، وبهذا لا تفقد نقطة واحدة من النبيذ .(١) ثم يجمع العصير فى أوان ذات فتحات واسعة وينقل إلى أوعية ذات قاع مسطح للتخمير . وعندما تتم هذه العملية يوضع فى أوان أعدت خصيصاً لنقله فى الأسفار ، وهى طويلة مدببة ولها أذنان وعنق ضيق ، وكانت تختم بالجص فى إحكام شديد . وكانت هذه الأوانى تحمل عادة على الكتف ولكنها إذا كانت كبيرة الحجم، ثقيلة الوزن فأنها تعلق فى عصا غليظة متينة يحملها رجلان . وكما هى العادة ، كان الكاتب يؤدى عمله فى جميع هذه الأعمال ، فقد قام أولا بأول بحصر المقاطف التى أتى بها العاصرون وقد سجل على كل آنية كافة التفاصيل مثل تاريخ العام الذى صنعت فيه والنوع واسم المنتج ، وقد سجل هذه البيانات فى سجلاته الخاصة . وفى بعض الأحيان كان يصر المالك على أن يشرف بنفسه على جمع العنب وعصره ، فيكون حضوره تشريفا للعمال الذين يرتجلون أغانى لتمجيده . فقد جاء فى مقبرة بت أوزيريس Petosiris : « تعال أيها السيد وانظر كرومك التى تفرح قلبك بينما يقوم العمال بدهك العنب فى حضرتك . إن الكروم مثقلة بالعنب ولم يسبق أن كان عصيرها غزيرا فى أى عام سبق كما هو عليه هذا العام . اشرب وانتعش وافعل ما تحب ، فكل شىء

يسير على ما يرام ووفق ماتشتهى . إن سيدة ايبت شاءت أن تنمى كرومك بوفرة لأنها تتمنى لك السعادة » .

« إن القاطفين يجمعون العنب ويعاونهم أولادهم فى حمله . أنها الآن الساعة الثامنة من النهار ، الساعة التى تطوى ذراعيها ، أتى الليل ويسقط ندى السماء كثيفا على العنب — فلنسرع لنطأه بالأقدام ولنحضره إلى بيت سيدنا » .

« كل شىء يأتينا من عند الله — سيشرب به سيدنا عذبا شاكرا الله لروحك (كا) ولنقدم سكيبة خمر إلى شا Cha (معبودة الكروم) حتى يمنحك محصولا وفيرا من العنب فى عام آخر » (١٠) .

لم يكن المصريون ناكرين للجميل ، ولكنهم كانوا يتصفون ببعد النظر ، فيتهزون حسن استعداد الآلهة جزاء تقواهم ليطلبوا منهم مزيدا من العطايا . وكثيراً ما نجد إلى جانب الدن ثعبانا ذا رقبة مشرعة قد تحفز للهجوم . وقد يكون بين قرنيه أحيانا قرص مثل حاتحور أو ايزيس ، وقد يستوى على عرش أنيق ، أو يرقد بجوار كومة من البردى . وقد وضع بعض المتدينين من أتباعه بجانبه مائدة صغيرة عليها خبز وحزمة من الخس وباقة من اللوتس ، كما وضع عليها كأسان : وهذا الثعبان ما هو إلا المعبودة رنوتت Renoutet آلهة الحصاد وهى التى يعهد إليها أيضاً المحافظة على الشون والملابس والعنب وأقبية الخمر . وكان يحتفل بعيدها فى أول فصل شمو (الصيف) الذى يتفق وافتتاح موسم الحصاد . كما كان يحتفل عمال الكروم بعيدها ، تمجيدا لها بعد أن يفرغوا من عصر العنب .

٤ — الحرث والبذر

ظلت زراعة الحبوب فى عهد الرعامسه الزراعة الأساسية (١١) فكانت

حقول القمح والشعير تمتد دون انقطاع من مستنقعات الدلتا حتى الشلال . وكان الفلاحون المصريون يعدون قبل كل شيء حراثا للأرض . وطالما كانت مياه الفيضان تغطى الأراضى خلال شهور فصل آخيت* الأربعة ، لم يكن لديهم الكثير ليعملوه ، ولكن لا تكاد المياه تعود إلى مجرى النهر حتى كان عليهم أن ينتهزوا فرصة الأيام التى لا تزال الأرض خلالها لينة من أثر الفيضان فيسهل العمل فيها .

وفى بعض الرسوم التى تمثل حرث الأرض تشاهد فى بعض الأماكن برك المياه مما يدل على أن العمل قد بدأ قبل أن تعود المياه تماما إلى مجرى النيل. وفى مثل هذه الحالة فقط ، يمكن الاستغناء عن حرث الأرض حرثاً تمهيديا على نحو ما يجرى فى الممالك الأوروبية .

كانت هذه هى اللحظة التى اختارها مؤلف قصة الأخوين ليبدأ فيها قصته، فالأخ الأكبر يقول لأخيه الأصغر : « هيا بنا لنعد الثيران لحرث الأرض فالمياه قد انحسرت وأصبحت الأرض معدة للحرث ، إذن فاذهب أنت إلى الحقل ومعك الحبوب لتبدأ العمل غداً صباحاً » ، ولا يكاد الأخ الأصغر يسمع هذا القول حتى يقوم بإعداد كل ما أشار به أخوه الأكبر . ففى صبيحة اليوم التالى حينما انحسرت المياه عن الأرض ، توجها إلى الحقل ومعهما الحبوب ، وأخذا يحرثان الأرض .(١٢)

وتبين لنا الرسوم أن بذر الحبوب وحرث الأرض يسيران جنبا إلى جنب إذ تبذر الحبوب أولا ثم تحرث الأرض لتغطى تربتها الحبوب التى بذرت ، وذلك بعكس النظام المتبع فى الأراضى الأوروبية حيث تخطط الأرض بالمحراث أولا ثم تبذر الحبوب . (١٣)

---

* فصل الفيضان

كان الذى يبذر الحب يملأ سلة ذات مقبضين بالحبوب يبلغ ارتفاع السلة نحو ذراع وطولها ذراع أخرى ، وقد حملها على كتفه فى طريقه من القرية إلى الحقل ، وحينما يصل يعلقها حول رقبته بحبل طويل ، بحيث يسهل عليه تناول الحب منها بيده وبذره على سطح الأرض. وكان المحراث، لا يزال حتى عهد الرعامسه ، الآلة البدائية التى اخترعها الحراث الأوائل فى العهود العتيقة. وحتى فى العصر المتأخر ظلت كما هى ولم تستبدل بغيرها . والواقع أنها تكاد تصلح لحسب لخدش الأرض الخفيفة التى تخلو من الأحجار والأعشاب الملتفة . ويتكون المحراث من مقودين رأسيين قد ثبتا بأخشاب متقاطعة وتنحنى بزاوية ينتهى طرفها بسلاح الحرث وهو من المعدن أو ربما كان من الخشب . وبين المقودين دعامة تنتهى عند سلاح الحرث وتثبت بربطها بحبال، ويثبت نير فى نهاية عمود طويل متصل بالمحراث ويوضع هذا النير فوق رقبتى الدابتين ويربط إلى قرونهما .

وكانت الأبقار ، وليست الثيران، هى التى تستخدم فى جر المحراث ويوحى صغر حجمها بأن العمل لم يكن شاقا أى أنه لم يكن يتطلب مجهودا كبيرا . وأنها لحقيقة معروفة أن الأبقار التى تعمل لا تدر إلا قليلا من اللبن، وهذا يبين أنه كان هناك عدد وفير من الأبقار بعضها ليدر اللبن الكافى لسد حاجة المستهلكين والبعض الآخر لمواجهة طلبات الحراث . أما الثيران فقد خصصت لجر توابيت الموتى فى الجنازات وفى جر الكتل الثقيلة من الأحجار . واستخدام الأبقار فى الحرث يدل على أنها كانت قادرة على القيام بهذا العمل الذى لم يكن شاقا عليها ، على أن نقص كمية اللبن . نتيجة عملها فلم يكن إلا شيئا مؤقتا لا يترتب عليه العدول عن استخدامها فى أعمال الحرث .

وكان يقوم بالحرث رجلان عادة . وأشد العمل إرهاقا هو ما كان يقوم به الرجل الذى يقبض على يد المحراث ، فعندما يتحرك المحراث ، يكون هذا الرجل منتصبا تماما وواضعا إحدى يديه على المحراث ، رافعا سوطه بيده الأخرى ليحدث صوتا فى الهواء فتتحرك الماشيتان ، وعندئذ ينثنى الرجل ويمسك المحراث بكلتا يديه ويضغط عليه بكل قواه . أما زميله فعمله هو أن يقود الدواب ولكن بدلا من أن يتقدمها ووجهه إلى الخلف فإنه يسير إلى جانبها متجها إلى الأمام . وفى بعض الأحيان لا يكون هذا الزميل سوى طفل عار وخصلة شعره تغطى خده الأيمن ، وهو يحمل مقطفا صغيرا جدا ، وهو أصغر من أن يحمل سوطا أو عصا ، وعلى هذا فكانت وسيلته فى السيطرة على المواشى هو أن يصرخ فيها . وكانت زوجة المزارع فى بعض الأحيان هى التى تقوم ببذر البذور على الأرض .

وهذه الأيام الطويلة التى كانت تنقضى فى العمل ، لم تكن تخلو من أحداث . فالأخوان فى القصة كانا قد استنفدا كمية البذور التى كانت معهما وأحدهما بيتاوو كان عليه أن يعود مسرعا إلى المنزل . وقد وقعت إحدى الأحداث المؤلمة التى تنبأ بها الكاتب الذى لا يحب الزراعة . لقد اصطدمت أحدى البقرات بعائق فسقطت على الأرض . واضطروا إلى كسر عمود المحراث الطويل وسحب البقرة الثانية . وهنا يسرع الرجل الذى يقود المحراث ويفك رباط الدابة التعسة التى سقطت ويعاونها على النهوض . وبعد قليل يعود المحراث إلى عمله خيراً مما كان .(١٤)

وبالرغم من أن الريف المصرى كان ينطوى على شىء من الملل ، فإنه ـ كما هى الحال اليوم ـ لم يكن خالياً من الأشجار . فأشجار الجميز الكبيرة واللبخ والطرفاء والعناب وأشجار كانت تضفى الخضرة الجميلة على الأرض

السوداء المحروثة . وكانت هذه الأشجار تمد الفلاح بالأخشاب اللازمة لعمل الأدوات الزراعية . وكان ظلها حبيبا للفلاح ، إذ لا يكاد يصل إلى الحقل حتى يعلق بين أفرع شجرة الجميز الزق الذى كان يذهب إليه بين الفينة والفينة ليرتشف منه، كما كان يعلق على جزع الشجرة مقطف الطعام ، ويضع على مقربة منه زيراً كبيراً مملوءاً بالماء البارد . والآن يجب أن تستريح البهائم ويتجاذب الفلاحون أطراف الحديث قائلين : « هذا يوم جميل فالجو صحو معتدل ، والبهائم تجر المحراث على خير ما يرام والسماء تمنحنا ما نطلب فلنواصل العمل لحساب الأمير » لقد حضر الأمير پاحيرى Pahiri الآن ليشرف على العمل وينزل من عربته بينما يقبض السائس على أعنة الجياد ويهدىء من روع الخيل . ويراه أحد الفلاحين فيخطر زملاءه قائلا : « هلم أسرع أيها الزميل فى المقدمة ، وأمسك مقود البقر ، وادع الأمير ليرى ما نعمل » ولما لم يكن لدى الأمير پاحيرى العدد الكافى من البقر لتشغيل كافة محاريثه ، وكانوا يخشون أن تجف الأرض تماما لو أنهم انتظروا يوماً أو أكثر ، لذلك كان أربعة رجال يحلون محل البهائم ويشدون أنفسهم إلى النير ويتسلون فى عملهم الشاق بالغناء قائلين : « انظر إلينا هانحن أولاء نعمل . لانخشى أن تجف الأرض فهى أرض طيبة حقا» أما سائق المحراث وواضح أنه من الساميين ، وربما كان مثل سائر زملائه من أسرى الحرب، فكان راضيا عن حاله يجيب ساخرا : « ما أحسن قولك يا بنى . إن السنة تكون طيبة إذا خلت من الكوارث . إن الأعشاب لتنمو كثيفة تحت أقدام العجول . إنها أحسن من أى شىء آخر » (١٥) وعندما يأتى المساء تفك كل البهائم من النير ويقدم لها الطعام وتشجع ببعض الكلمات الطيبة : « هو hou (البلاغة) مما تتصف به الثيران وسيا Sia (الحكمة) مما تتصف به البقر . فلتعط الطعام فوراً» (١٦) وحينما يتجمع القطيع يتجه إلى القرية ، ويحمل الفلاحون المحاريث ،

لأنها لو تركت فى الحقل لكان أمر العثور عليها مشكوكا فيه . وكما يقول الكاتب : « إنه لن يجد محراثه حيث تركه ، وسوف يستغرق البحث عنه ثلاثة أيام حتى يعثر عليه مدفونا فى التراب ، غير أنه لن يجد الجلد الذى كان به لأن الذئاب تكون قد مزقته قطعاً صغيرة » . (١٧)

لم يكن المحراث هو الوسيلة الوحيدة التى تستعمل لتغطية البذور فى الأرض ، فطبقا لطبيعة الأرض كان من المستطاع أن يستعمل المدقة والمعول أيضاً وكان المعول بدائيا مثل المحراث فهو يتكون من قطعة طويلة من الخشب فهى تماثل الحرف الكبير A وإحدى ضلعيه طويلة وكثيرا ما يتعرض المعول للاستهلاك أكثر من المحراث ، ولذلك كان الفلاح يضطر إلى أن يقضى فى إصلاحه طول الليل ، ولكن هذه العملية كانت لا تفقده مرحه ، فيقول أحد العمال : « سوف أعمل أكثر مما يعمله مالك الأرض ، فاسكت إذن ! » ويرد عليه عامل آخر قائلا : « أسرع ياصديقى إلى العمل لأنك سوف تطلق سبيلنا فى وقت مناسب » . (١٨)

أما الأراضى التى غمرتها المياه مدة طويلة فكان من المستطاع توفير كل هذه الجهود الشاقة بإحضار قطيع إليها بعد بذر البذور لتطأها أقدام الدواب . كانت الثيران والحمير شديدة الثقل أكثر من المطلوب لهذه الأرض . وفى الأزمنة السالفة ، كانوا يستعينون بقطيع من الأغنام ، فكان الراعى يحمل كمية صغيرة من الطعام فى يده ليقدمها تباعا للنعجة التى فى المقدمة التى كانت تتبعه مطيعة له ثم يتبعها بقية القطيع . ولأسباب غير معروفة لنا ، استعانوا فى عصر الامبراطورية الحديثة بقطيع من الخنازير .

وقد شاهد هيرودوت قطيعاً من الخنازير يعمل فى الحقول . (١٩)

وقد أوحى طمر الحبوب فى الأرض إلى المصريين بأفكار هامة أو بعبارة أصح بأفكار مقبضة حزينة . فقد لاحظ الإغريق أنهم يقومون فى تلك الفترة بمراسيم حفلات تماثل تلك التى تقام عادة فى الجنازات وفى أيام الحداد . وقد رأى البعض فى هذه العادات أنها غير معقولة وجنونية ، بينما يقرها البعض الآخر (٢٠) أما المستندات الفرعونية التى فى متناول أيدينا والتى استندت إليها فى وصف الأعمال التى تجرى فى فصل پريت فلم تشمل إلا القلة النادرة من هذه الطقوس . كان الرعاة الذين يتوجهون إلى الأرض ومعهم أغنامهم يتغنون بأغانى حزينة ويرددونها ثانية عندما كانت الأغنام تطأ سنابل القمح ، قائلين :

« إن الراعى فى الماء وسط الأسماك . »

« يتحادث مع سمك القرموط »

« ويتبادل التحيات مع أسماك القنومة »

أيها الغرب . أين الراعى . راعى الغرب ؟ » (٢١)

كان الكسندر موريه Alex.Moret أول من قال بأن هذه الأغنية ليست مجرد دعابة تصدر عن قرويين يأسفون لحال الرعاة الذين كانوا يغوصون فى الوحل ، إن الوحل ليس مكانا للأسماك ، ومن باب أولى لم يكن مكانا للأجران الجافة حيث تنشر السنابل . ولم يكن راعى الغرب سوى الغريق الأول ، أوزيريس الذى قطع ست أوصاله إلى قطع صغيرة ألقاها فى النيل حيث ابتلعت الأسماك الشلبة والبنى والقنومة أعضاءه التناسلية . وكانوا وقت بذر الحبوب ودرس الغلال يمجدون ذكرى المعبود الذى جلب النباتات النافعة للانسان ، والذى كانت حياته تتحد إلى حد كبير مع حياة

النبات حتى أنه كان يمثل أحياناً نبتة غلال أو أشجار قد نبتت فوق جسده المسجى .

وكان هيرودوت يعتقد بسذاجة أن الفلاح لا يعمل شيئا اطلاقا بمجرد أن يفرغ من حرث الأرض وبذر الحب ، حتى يحين وقت الحصاد . ولو فعل هذ لقضى على محصوله إذ أن الأمطار ، حتى فى الدلتا ليست كافية فتغنى عن رى الحقول . وفى الصعيد بصفة خاصة ، سرعان ما تجف الأرض وتتلف الحبوب مثل الشعير الذى تلف فى حدائق أوزيريس عندما تركت دون أن تروى . فرى الأرض إذن كان أمرا ضروريا وهذا ما كان يذكره موسى لشعبه عندما كان يستعرض الخيرات المغرية التى كانت تنتظرهم فى أرض كنعان إذ قال لهم : « لأن البلاد التى تذهبون إليها لتضعوا أيديكم عليها ليست مثل أرض مصر التى خرجتم منها والتى كنتم تلقون البذور فى حقولها وتروونها بأقدامكم كأنها حقول للخضروات ، ولكن الأرض التى تذهبون إليها لتضعوا أيديكم عليها هى جبال وأودية تسقيها مياه أمطار السماء . » (٢٢) .

وقد فسر هذا الكلام على أن المياه كانت ترفع إلى الحقول بواسطة آلات تدار بالأقدام ، ولكن النصوص المعروفة والوثائق المرسومة لا تسمح بتأييد وجود مثل هذه الآلات . والتفسير المحتمل أن المهندسين الذين تولوا ضبط سدود بحيرة موريس كانوا يفتحونها عندما يحتاج الزراع إلى المياه ، فكانت القنوات تمتلىء بالمياه . وبواسطة الشادوف ، أو بوسيلة أشق وهى الأوانى كانت المياه توزع فى المساقى الصغيرة ، وكانوا يفتحون القنوات أو يقفلونها وكانوا ينشئون قنوات جديدة ، ويبنون سدودا ، كل

هذا بالأقدام ، إذ أننا نشاهد فى رسم من رسوم طيبه أنهم يطأون بأرجلهم الغرين الذى كانوا يصنعون منه الأوانى الفخارية .

٥ ـ الحصاد

عندما تبدأ سنابل القمح فى الاصفرار يرى الفلاح فى حذر حقوله يغزوها أعداؤه الطبيعيون وهم سادته ـ ملاك الأراضى ـ أو ممثلوهم ومعهم عدد كبير من الكتبة والمساحين والموظفين ورجال الشرطة الذين يبدأون عملهم أولا بمسح حقله . (٢٣) وبعد ذلك يقدرون كمية الحبوب بالكيل فيكونون فكرة دقيقة عما يستطيع الفلاح أن يقدم إلى مندوبى الخزينة أو كبار موظفى دوائر الآلهة مثل آمون الذى كان يملك أجود أراضى البلاد .

يترك المالك أو مندوبه المنزل مبكرا ويقود عربته قابضا بيده فى شدة على عنان الجياد . ويتبعه الخدم سيرا على الأقدام حاملين المقاعد والحصر والأجولة والصناديق المزخرفة وكل مايحتاجه المساحون لغرض التفتيش ولأكثر من ذلك . وتقف العربات فى ظلال أكمة من الأشجار .

ويفد رجال من حيث لا ندرى ، يحلون الخيل من العربات ويربطونها فى جذع شجرة ويأتونها بالماء والعلف . ثم يقيمون قواعد لثلاثة أزيار ويفتحون الصناديق ويخرجون منها الخبز والمأكولات المتنوعة ويضعونها فى أطباق وسلال ويعدون حتى أدوات الاغتسال . وتحت ظلال إحدى الأشجار ينام السائس واثقا من أنه يستطيع أن يرقد عدة ساعات . وها هو ذا السيد يتوسط المساحين مرتديا زى الحفلات واضعا الشعر المستعار فوق رأسه ، لابسا قيصا بأكمام قصيرة يتوسطه حزام وإزار وخوذة وعصا وصولجان .

وينتعل فى قدميه صندلا ويحمى سيقانه ضد الأعشاب الشوكية (بقلشين) من قماش ذى أربطة . أما مساعدوه فيكتفون بارتداء الأزار وينتعل بعضهم الصنادل بينما البعض الآخر يسيرون حفاة الأقدام . وفى رسوم مقبره منا Menna يرتدى المساحون فوق المئزر قمصانا بأكمام قصيرة وصديرية قصيرة ذات ثنيات ، ويتقاسمون أدوات العمل وهى من البردى ولوحات للكتابة وأكياس صغيرة داخلها المحابر والأقلام ، ولفات من الحبال وأوتاد يبلغ طول الوتد الواحد منها ثلاثة أذرع ، وعندما يقومون بالعمل فى ممتلكات آمون ، أغنى الآلهة المصرية وأشدهم جشعاً ، فإن الحبل يلف على قطعة من الخشب لها يد على هيئة رأس كبش ، إذ أن الكبش هو الرمز الدينى للمعبود : وعندما يكتشف رئيس المساحين أحد حدود الحقل ويتبين له أن بقية الحدود فى مكانها الصحيح ، يدعو قائلا : « الإله العظيم الموجود فى السماء » ، وعندئذ يدق الصولجان الذى يشبه علامة مقاطعة طيبه . وتمد الحبال فى الوقت الذى تفلت فيها ، ويأتى الأولاد بحركات كثيرة لإبعاد السمان الذى يحوم حول السنابل الممتلئة ويخطىء من يظن أن هذه العملية لا تجمع إلا من يهمهم الأمر ، فبجانب هؤلاء يجتمع الفضوليون والناصحون . ويرهق العمال القائمون بالعمل بسرعة مالم تحضر خادمة بعض الأطعمة الخفيفة حتى يتم إعداد الغذاء الدسم الذى يجهز تحت شجرة الجميز .

ويشتغل العمال الزراعيون مدة أسابيع عديدة فى الحصد والدرس ولما لم يكن عدد السكان العادى كافيا للقيام بالعمل ، فإن دوائر أملاك الدولة وأملاك الآلهة تحتاج دواماً إلى عمال تراحيل يبدأون العمل فى مقاطعات الجنوب وبعد الانتهاء منها يتجهون إلى الشمال ليجدوا الحقول معدة للحصاد ، وحينما ينتهى حصاد الحبوب فى الصعيد وفى مصر الوسطى ، يبدأ موسم الحصاد فى الدلتا ، ووجود هؤلاء العمال الذين يرحلون من مكان إلى آخر

وراء الحصاد ، يؤيده مرسوم لسيتى الأول إذ كان يستثنى عمال معبده المسمى ملايين السنين فى أبيدوس من هذا الإلزام .

وكان عمال الحصاد يقطعون سنابل القمح بالمنجل ، ذى اليد القصيرة التى كانوا يتمكنون بها من الأمساك به .

والسلاح العريض نوعا يبدأ من ناحية المقبض وينتهى بطرف مدبب . وكانوا لا يحصدون السنابل قريبا من الأرض بل كان العامل ينحنى قليلا ويمسك بيده اليسرى قبضة طيبة من السنابل ثم يقطعها من أسفل السنابل ثم يضعها على الأرض تاركا أعواد النبات دون رؤوس . ويأتى النساء خلف الحاصدين ويجمعن السنابل فى مقاطف وينقلنها إلى نهاية الحقل ، ويحمل بعض هؤلاء النسوة أوانى يجمعن فيها الحبوب التى سقطت على الأرض ولا يمكن أن نؤكد أنهن كن يتركن القش جانبا ، إذ أننا لا نملك دليلا على ذلك .

وقد وردت رسوم تبين أن الملاك يتولون الحصاد بأنفسهم أحيانا ويجمعون السنابل ، حتى أن بعضهم لم ينزع عنه الثوب الأبيض الجميل ذا الثنيات الذى كان يرتديه . ونميل إلى الاعتقاد بأنهم كانوا يفتتحون العمل فى الحصاد ثم يبادرون بتركه إلى عمال الحصاد الحقيقيين . وفى الواقع كان الرسامون يمثلون فى رسومهم حلقة من الحياة المقبلة فى حقول يالو Ialou حيث لا ينقصها شىء . وحيث كان على كل واحد أن يقوم بزراعة حديقته .(٢٠) وعلى الجملة فقد كان الملاك يكتفون بالحضور أثناء الحصاد . وهكذا فعل منا Menna وهو جالس على مقعد على هيئة X فى ظل شجرة جميز وطعامه أمامه فى متناول يده .

وكان العمل يبدأ فى الفجر ولا ينتهى إلا فى المساء . ويتوقف عمال الحصاد من وقت لآخر وقت الظهيرة واضعين المنجل تحت أبطهم ، يفرغون فى جوفهم إناء الماء قائلين : « اعط الفلاح كثيرا وأعطنى ماء لأطفىء ظمأى . »(٢٦)

وفيما مضى كان للناس مطالب صعبة . فيقول أحدهم : « اعط الجعة لمن يحصد الشعير » (وشعير بيشا Becha كانت تصنع منه الجعة) .(٢٧) والذين كانوا يتوقفون كثيرا عن أعمالهم كان الملاحظ لا يتوانى فى أن يوجه إليهم اللوم قائلا : « إن الشمس ساطعة وهذا واضح ! وللآن لم نتسلم شيئا من عمل يديك . هل جمعت ربطة ؟ لا تتوقف عن العمل ثانية لتشرب فى هذا اليوم قبل أن تعمل شيئا » .

وبينما كان عمال الحصاد يكدون بقسوة فى العمل ، كان بعض الرجال قاعدين فى ظل الأشجار ورؤوسهم فوق ركبهم - فمن هم هؤلاء ؟ هل هم من العمال الذين خدعوا الملاحظين أو هم من الفضوليين أو من خدم الملاك الخصوصيين الذين ينتظرون حتى ينتهى التفتيش ؟ ثم يكتشف أيضا رجل موسيقى قد جلس فوق جوال ينفخ فى مزماره المزدوج . إنها معرفة قديمة فقد وجد مرسوما على جدران مقبرة تى الذى عاش فى عهد الدولة القديمة موسيقى ينفخ فى مزمار طوله ذراعان ليطرب عمال الحصاد متتبعا سيرهم ، وقد لازمه عامل يصفق بيديه دون أن يترك منجل الحصاد ، ويغنى أغنية للثيران ويتبعها بأغنية أخرى مطلعها : « إنى أسير فى طريقى » . ويبدو من هذا أن انفعال الملاحظ كان صوريا أكثر منه حقيقيا . وفى رسوم مقبرة باحيرى لا يوجد زمارون ولكن يرتجل عمال الحصاد نقاشا غنائيا : « ما أجمل هذا اليوم ، هيا اخرج من الأرض ، إن رياح الشمال تهب ، وتعمل السماء على إسعادنا . إن عملنا هو الذى نحبه » .

ولا ينتظر الذين يلتقطون السنابل التى وقعت على الأرض حتى يتم حصاد الحقل كله بل يتولون المزيد عما التقطوه . وهؤلاء عادة من النساء والأولاد . فتمد امرأة يدها وتقرن حركتها بقولها : « اعطنى حفنة واحدة فقط لقد حضرت مساء فلا تسيء معاملتى اليوم كما فعلت معى نهار الأمس » .

وكانت إجابة أحد عمال الحصاد على سؤال من هذا القبيل خشنة إلى حد ما : « اخرج ومعك مابيديك ـ اعلم أن بعضهم قد طرد لنفس هذا السبب » . وفى الأزمان الغابرة جرت العادة على أن يترك للعمال مقدار الشعير أو الغلة التى يمكن حصدها فى يوم واحد . وقد استمرت هذه العادة متبعة طوال عهد الفراعنة .

وعند بت أوزيريس Petosiris يقول عمال الحصاد الذين كانوا يعملون فى خدمته : « أنا المزارع الطيب الذى يجلب الحبوب ويملأ لسيده بمجهود ساعديه الشونتين فى السنين العجاف ، ويأتى بكل ما تجود به الحقول إلى أن يجيء فصل آخيت ، والآن يأتى دورهم ، فيقولون « ليسعد سعادة مضاعفة من يحسن العمل فى الحقل فى هذا اليوم ، وإن الفلاحين يتركون ما عملوه » ويصرح فوج آخر من العمال بأن الأجور ضئيلة ولكنها مع ذلك جديرة بأن يحصل عليها ولو اقتصر الأمر على حزمة صغيرة فإنى أشتغل لأحصل عليها ، وإذا ما بذلت أى مجهود فى الحصاد من أجل ربطة فإن أشعة الشمس ستسطع علينا لتغمر عملنا »(٢٨)

وخوفا من اللصوص ومن أن تلتهم الطيور جزءا كبيرا من المحصول ، فإنهم يجمعونه أولا بأول بمجرد أن يفرغ العمال من حصد جزء من الحقل . وفى إقليم منف كان يتم النقل على ظهور الحمير . ويقود الحمارة الحمير الكثيرة

العدد التى تجرى مثيرة سحبا من الغبار . وتوضع الربطات داخل أخراج مصنوعة من الحبال وعند ما يمتلى جانبا الخرج ، أضافوا حزما أخرى تربط بالحبال وتسير الحمير محملة وتمرح أمامها جحاش صغيرة تجرى فى جميع الاتجاهات دون أن يهتم أحد بأمرها . ويتبع الحمارة حميرهم وهم يمزحون أو يتعاتبون وهم يلعبون بالعصى : « لقد أحضرت أربعة أوان من الجعة ، أما أنا فقد نقلت بحميرى اثنين ومائتى جوال بينما كنت أنت قاعداً لا تعمل شيئا . »(٢٩) وفى الصعيد كان من الممكن الانتفاع بالحمير فى نقل المحاصيل.(٣٠) ولكن فى أغلب الأحيان كان الرجال يقومون بنقلها ، وربما كان هذا لأجل وضع حد لمد أجل العمل فى جمع المحصول إذ اعتاد عمال الحصاد ، جنى السنابل من أعلى تاركين عيدان القش فى الأرض ويستعمل الحمالون أكياسا من الشباك ذات إطار خشبى ومزودة بحلقتين تعلق منهما .

وعند ما يمتلىء الكيس إلى حد لا يمكن معه إضافة أى حفنة أخرى من السنابل إليه فانهم كانوا يدخلون فى الحلقة عمودا من الخشب يتراوح طوله بين أربع وخمس أذرع . ويربط الكيس بأنشوطة ، ثم يحمله رجلان يضعان طرفى عمود الخشب فوق أكتافهما ويتجهان إلى مكان درس الحبوب وهما يغنيان كما لو كانا يريدان أن يظهرا للكاتب أن حظهما لا يقل عن حظه ، قائلين : « إن الشمس تحرقنا من الخلف وسوف يعطى شو سمكا ثمنا للشعير » ويتظاهر أحد المسئولين بأنه يعتقد أن مياه سوف تلحق الحمالين إذا لم يسرعوا فى سيرهم أكثر مما يفعلون . اسرعوا هيا سيروا حثيثا فالمياه آتية . وقد بلغت موضع حزم القمح .

وهذا المسئول يبالغ لأن بشائر مياه الفيضان لا يمكن أن تصل إلا بعد

شهرين (٣١) وبمجرد انصراف الرجلين اللذين يحملان عرق الخشب على أكتافهما فإن اثنين آخرين يحلان محلهما . ويرفع أحد الحمالين الجوال بينما يغنى الآخر بأمر عرق الخشب ، ويظهر أنه كان يتهاون فى العمل إذ أنه يقول : « إن عرق الخشب لا يكاد يستمر على كتفى فما أقساه ، آه يا قلبى » .

ثم تنشر السنابل فوق أرض قد دكت فى عناية كبيرة . وعند ما تتكاثف طبقة السنابل يقتحم الرجال ومعهم الثيران المكان ويحمل بعضهم سياطا ويحمل آخرون مذارى. وبعد أن تطأ الثيران سنابل القمح لا يكف الرجال عن تقليبها بالمذارى ، وتصبح هذه العملية شاقة بسبب حرارة الجو وكثرة الأتربة . ومع ذلك فإن الراعى يحرض الثيران على العمل قائلا : « إدرسى إن هذا لك ، ادرسى ، فهذا لك — إن التبن هو غذاؤك أما الحبوب فهى لسادتك . لا تتوقفى عن العمل فإن الطقس جميل » ومن وقت لآخر كان أحد الثيران ينكس رأسه الضخم ويملأ فمه بما يجده على الأرض من قش وحبوب دون أن يردعه أحد فيما يفعل.(٣٢)

وحينما يبعدون الثيران عن مكان الدراس يفصل العمال الحبوب عن القش بمذاريهم . وتتراكم القشور والتبن فوق الحبوب ، وبواسطة مكنسة صغيرة يمكن إزالة الجزء الأكبر من هذه القاذورات . ولأجل تنقية الحبوب يستعمل الغربال وهو أداة تشبه المصفاة ، فيمسك العامل بالغربال المملوء بالحبوب من جانبيه ، ويقف منتصبا على أطراف أصابع قدميه . ويرفع ذراعيه بالغربال إلى أعلى بالقدر الذى يستطيعه ويحرك الغربال فتسقط الحبوب على الأرض أما القش والأتربة فتذروها الرياح.(٣٣) وبذلك تصبح الحبوب نظيفة . وهنا يأتى دور الكتبة فيحضرون ومعهم ما يلزمهم

ومعهم ما يلزمهم من أدوات الكتابة والكيالون ومعهم أدوات الكيل ، وويل للفلاح الذى يخفى جزءا من محصوله أو الذى لا يستطيع تسليم رجال السلطة الرسميين كمية المحصول التى أظهرت عملية المساحة قدرة حقله على تقديمها، حتى ولو كان الفلاح أمينا ، حسن النية . عندئذ يلقى أرضا ويضرب ضربات متوالية بالعصا وقد تنتظره مصائب أشد وأنكى .

ويترك عمال السخرة الجرن حاملين معهم مكاييلهم ملأى بالحبوب ويمرون أمام الكتبة ويدخلون فناء محاطا بأسوار عالية حيث توجد صوامع حفظ الحبوب ذات ارتفاع يبلغ عنان السماء ، وهى عبارة عن بناء على شكل أقماع السكر مدهونة بعناية من الداخل وباللون الأبيض من الخارج . وتوجد درجات تؤدى إلى فتحة حيث يقوم كل رجل من الذين يحملون المكاييل المليئة بالحبوب بتفريغها فى الفتحات ، وإذا أريد سحب حبوب فيما بعد فيكون ذلك عن طريق باب صغير فى مستوى الأرض .

وجملة القول فإن هذه الأعمال الشاقة كانت تتم فى مرح . فسرعان ما تنسى بعض ضربات العصى ، والفلاح قد اعتاد عليها ويعزى نفسه اعتقاده أن العصا لم تستثن أحدا فى بلده وأنها كثيراً ما وقعت على أكتاف أقل تحملا من أكتافه ، وينطبق على المصريين ما قاله مرنم المزامير * : « الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالابتهاج . الذاهب ذهابا بالبكاء حاملا مبذر الزرع مجيئا يجىء بالترنم حاملا حزمه . » (٣٤) لقد انتحبوا على الراعى المقدس عندما كانوا يضعون البذر فى الأرض والآن قد آن لهم أن يفرحوا ولكن ينبغى لهم أن يقدموا للآلهة نصيبهم . فعندما يذرون الحبوب يضعون أنفسهم تحت رعاية صنم غريب الشكل على هيئة هلال

---

* سفر المزامير — ١٢٦ : ٥ ، ٦

غليظ الوسط .(٣٥) وفى أيامنا هذه لا يزال فلاحو الفيوم يزخرفون ذروة بيوتهم أو يعلقون على أبوابها وقت الدراس تمثالا مصنوعا من سنابل القمح يطلقون عليه « عروس القمح » ويقدمون لها كوبا من الشراب وبيضا وخبزا .

وكانوا يعتقدون ، وهم على حق فى اعتقادهم ، أن الصنم الذى كان على هيئة هلال منتفخ كان هو أيضاً عروسا ، ولكن كان هذا لا يحول دون أن يقدم ملاك الأراضى ، للمعبودة الثعبان رنوتت التى سبق أن رأيناها موضع إجلال من زراع الكروم ، مجموعة أشد روعة . وهى عبارة عن حزم من القمح ودواجن وخيار وبطيخ وخبز وأنواع أخرى من الفاكهة . وفى أسيوط يقدم كل شريك فى الزراعة للمعبود المحلى أوب واوات بشائر محصوله . ومما لا ريب فيه ، أن المعبود المحلى فى كل جهة كان يتلقى مثل هذا القربان وكان الملك نفسه يقدم حزمة من القمح للمعبود مين Min إله الخصوبة أمام حشد كبير من الأهالى فى حفل يقام فى الشهر الأول من موسم شمو .(٣٦) وكان الجميع كبيراً وصغيراً يقدم شكره للمعبودات سادة كل الأشياء ، وينتظرون فى ثقة الفيضان الجديد الذى تبدأ به دورة الأعمال الزراعية .

٦ — الكتان

ينبت الكتان عاليا وكثيفا ، وكان يقتلع عادة وهو لا يزال مزهرا . وقد ورد ضمن الرسوم الملونة على جدران مقبرة إبوى Apouy وبت أوزيريس أن السيقان تنتهى بلطع صغيرة زرقاء ، كما تنمو زهور زرقاء على نبات الكتان .(٣٧)

ولقلع الكتان تعزل من نباته مقدار قبضة يد ثم تمسك باليدين من أعلا وتبذل العناية الضرورية حتى لا تكسر الألياف ثم تحرك من أعلا إلى أسفل لإزالة ما علق بها من طين، ثم تسوى سيقان النبات من أسفل وتوضع على الأرض فى ربطات متعارضة وبذلك تنتهى الربطات من جانبيها بالزهور، وبربط وسطها بحبل يصنع فى التو من بعض سيقان نبات يضحى بها لهذا الغرض. ومن المعلوم أن ألياف النبات تكون أجمل وأشد احتمالا إذا تم خلع الكتان قبل إتمام نضجه وقد ورد فى أحد النصوص ما يؤيد هذه الحقيقة، ولكن كان ينبغى الإبقاء على جزء من النبات ليتم نضجه للحصول على بذور تستخدم لا فى التقاوى فحسب ولكن لأجل الصيادلة أيضا.

وكان الرجال يحملون ربطات الكتان فوق أكتافهم، أما الاولاد فيحملونها على رؤوسهم. والسعداء هم أولئك الذين يملكون حميرا يملأون الأكياس (الأشناف) ويوصون الحمار فى حزم، أن يرعى الحمولة حتى لا يسقط منها شيء فى الطريق. وفى نهاية المطاف كان الحمالون يجدون رجلا يجلس فى الظل ويضرب تلك القبضات من الكتان على قطعة مائلة من الخشب، فيصرخون فى وجهه قائلين: «اسرع أيها العجوز، ولا تتكلم كثيرا فإن الرجال قادمون سريعا من الحقل». فيرد العجوز عليهم: «إن أحضرت لى ١١٠٩ ربطة فأنا كفيل بتمشيطها».

وكانت خادمة روديديت ـ ومن الجلى أن أحد الخبثاء كان قد حرضها على ذلك ـ قد أتت إلى أخيها فى الوقت الذى كان منهمكا فيه بهذا العمل لتطلعه على أسرار سيدتها فأدبها الشاب بقسوة إذ كان بين يديه وقتذاك ما يلزم لردع من لا يكتم السر. (٣٨)

٧ - أعداء الزراعة

علمنا مما سبق أن المحصولات الزراعية كانت مهددة بأعداء كثيرين . فما كاد يتم نضج الشعير فى سنابله ويزدهر الكتان حتى يزمجر الرعد وتمطر السماء ثلجا فى كل جهات مصر وتصيب جميع من فى الحقول من بشر ودواب .

كانت هذه هى الضربة السابعة . ولما ظل قلب فرعون غليظا لأن الحنطة والقطانى لم تصب بسبب تأخرها فى النضوج ، فقد حملت ريح الشرق معها غيوما من الجراد أتت على ما أبقى عليه الرعد والبرد وجردت الأشجار وأعشاب الحقل من كل خضرة . وإزاء هذا كله ، لم يسع الفلاح إلا أن يتوسل إلى آلهته ، وخاصة إله الجراد لحمايته من مثل أولئك الأعداء ولكنه كان يستطيع أن يحمى نفسه تماما من اثنين من الضيوف غير المرغوب فيهم كانا يزوران الحدائق فى الربيع والخريف وهما عصفور الصفارية جنو Genou والعصفور الدورى سوروت Sourout(٢٩) وهذان العصفوران النافعان كانا يلتهمان الكثير من الحشرات إلا أنه كان يخشاهما أيضا لأنهما كانا يلتهمان الفاكهة بشراهة . وقد رسمهما الفنانون وهما يحومان حول أشجار الفاكهة . وكان الصيادون يصطادون الكثير منها بنشر شبكة كبيرة فوق قمم الأشجار تثبت أطرافها بأوتاد ، ولم تمنع هذه الشباك العصافير من الهبوط على الأشجار ، وكان كلما تجمع عدد كبير منها ، كان الأولاد يتقدمون متسللين ويسقطون الأوتاد ، فتتهاوى الشبكة على الشجرة والعصافير . وكان الصيادون يتسللون داخل هذا السجن الخفيف ويقبضون على العصافير كما لو كانوا يقطفون فاكهة ثم يضعونها فى أقفاص . غير أن

هذه الطريقة لم تكن تحول دون استعمال المصايد ذات الزنبرك التى كانت معروفة منذ العصور العتيقة ويفضلون استعمالها دائما . (٤٠)

ويأتى السمان فى موسم هجرته إلى مصر فى أفواج كثيفة وتكون قد أنهكت تعبا حتى أنها لتسقط على الأرض إعياء . وكان من المستحسن ، دون شك ، إمساكها وهى على قيد الحياة . وفى متحف برلين لوحة رسم عليها ستة من الصيادين يستعملون شبكة ذات ثقوب ضيقة تستند على إطار مستطيل الشكل ، ويسترعى زى الصيادين انتباهنا : إذ كانوا يحتذون النعال حتى لا تؤذى أقدامهم جذور سيقان القمح ، وقد التفت أجسادهم بأوشحة بيضاء . وعندما يطير السمان فى جماعات كبيرة فوق الحقل الذى تم حصاده يظهر الصيادون فجأة ويلوحون بأحزمتهم فينتاب الطيور الرعب وتتوقف عن الطيران وتسقط فى الشباك ، وتنعقد أرجل السمان فى ثقوب الشباك . ولازدحام جموعها لا تستطيع الإفلات منها فى الوقت المناسب ، فيرفع أربعة من الصيادين الشباك ويمسك الاثنان الآخران من السمان بقدر ما يريدون . (٤١) وكانت أسرة الفلاح تقدر بكل تأكيد أهمية السمان، ولم تأنف الآلهة من السمان ، فقد كان من نصيب آمون ، فى عهد رمسيس الثالث ٢١,٧٠٠ سمانة (٤٢) ، وهذا الرقم يعادل تقريبا سدس عدد الطيور المختلفة التى قدمت فى نفس الوقت لهذا المعبود .

٨ — تربية الماشية

حاول المصريون القدماء ، منذ عهد سحيق ، محاولات طويلة قبل أن يكتشفوا أنواع الحيوانات التى كان من مصلحتهم استئناسها . وقد زامل الكلب الإنسان فى الصيد ، كما عرفت فائدة الثور والحمار كوسيلة النقل ،

وكان البدو يقدرون قيمة صوف الأغنام ، بينما كان يخشى المصريون استعمالها لموتاهم وللأحياء على السواء . وكانوا يفضلون الماعز على الخراف . وبجانب هذه الحيوانات التى تمكنوا من استئناسها بسرعة ومن بينها الخنزير أيضا . فقد كان المصريون يصطادون الغزال والأيائل والماعز البرى والتيس والوعل وكذلك الضبع المتوحش ، ويربونها جميعا فى حظائر . (٤٣)

ومنذ عهد الدولة الوسطى ، كان محافظ مقاطعة « الماعز البرى » يربى فى حظائره بعض أنواع تلك الحيوانات التى اشتق من اسمها اسم مقاطعته . وفى عهد الأمبراطورية الحديثة توقفوا عن هذه المحاولات . وورد على لسان أحد التلاميذ : « أنت أردأ من وعل الصحراء الذى يعيش دون أن يستقر له قرار ، لا يعرف كيف يحرث الأرض ولا كيف يطأ أرض الأجران بانتظام ويكتفى بأن يعيش على مخلفات الثيران ولو أنه ليس من فصيلتهم » . (٤٤)

ويتمسك مربى الحيوانات العادى بأصدقاء الإنسان الحقيقيين مثل الحصان والثور والحمار والماعز والخراف والخنزير والأوز والبط . (٤٥) أما الجمل فقد عرفه أهل الدلتا الشرقية فحسب ، ولم يظهر الديك إلا بعد ذلك ، وتوجد حيوانات أخرى كانت موضع عناية خاصة بل عناية فائقة فى المقابر بسبب عوامل دينية . ونحن لا نتناول الحديث هنا إلا عن تربية المواشى للزراعة . ولم يعرف الحصان فى مصر إلا قبيل عصر الرعامسه . وبالرغم من الغرامات الحربية التى فرضت على الشعوب الأسيوية فلم يكن الحصان وقتذاك كثير الانتشار . (٤٦)

وكان هوى يمتلك حظيرة للخيل منفصلة عن حظيرة الثيران ومكان

الحمير ، غير أن هوى كان ابنا ملكيا لكوش ، وكانت له مكانته فى الدولة (٤٧) . ولأنه أحد أفراد الطبقة الممتازة كان يركب العربة إذا دعى إلى القصر أو ذهب للتريض أو لزيارة أملاكه .

وكان أصحاب الخيول لا يخاطرون بركوبها ، وقد رسم الفنان المصرى رجلا راكبا حصانا حسب ما نعلم مرتين أو ثلاث مرات فقط . (٤٨) أما البدو فكانوا أكثر جرأة ، ففى أثناء الحرب عندما تتوقف العربات عن السير كانوا يفكون الخيل ويعتلون ظهورها وينطلقون بها مسرعين . وفى المراعى كانت الخيول ترعى منفصلة عن بقية الحيوانات .

أما حظيرة الثيران فكانت تقع داخل الأسوار غير بعيدة عن منزل السيد وعن مخازن الغلال . وكان الخدم يعيشون داخل الأسوار لحماية المواشى ضد اللصوص وليكونوا فى الصباح على أهبة الاستعداد . وفى مثل هذه البيوت المتواضعة المصنوعة من الطين ، والقاتمة اللون من الداخل ومن الخارج ، يتخذون ركنا لإعداد طعام العشاء وحفظ مئونتهم . وكانوا يسيرون وهم ينوءون تحت أثقل الأحمال إما على رأس القطيع أو خلفه . ولتيسير حركاتهم كانوا يقسمون هذا الحمل الثقيل إلى قسمين متساويين توضع إما فى جرار أو فى مقاطف أو فى زنابيل تعلق على طرفى عصا ويحملونها على الأكتاف . وإذا كان الحمل واحداً فإنهم يحملونه على ظهورهم مربوطاً إلى عصا . وهذا ما كان يفعله بيتاوو أثناء حياته ، ولكن بيتاوو هذا كان قويا صلب البنية ، موضع الرضا من النساء . ولكن أغلب الرعاة كانوا من الفقراء البائسين الذين أثقلتهم متاعب الحياة ، فتراهم صلع الرؤس ، ذوى ذقون كثيفة الشعر وأحيانا ذوى بطون منتفخة ، وأحيانا أخرى كانوا على درجة كبيرة من

النحافة كأنهم من ذوى العاهات. وفى إحدى مقابر مير Meir رسمهم رسام غير رحيم على حقيقتهم. (٤٩)

ولم تكن هذه الحياة تسير على وتيرة واحدة، فعندما كان الراعى يحب مواشيه، كان لا يكف عن التحدث إليها، كما كان يعرف الأماكن التى تنبت فيها الحشائش التى تحبها هذه المواشى فيقودها إليها. كانت هذه بدورها نظير هذا العطف تطيعه. تكبر وتسمن وتعطيه عجولا كثيرة، وفى بعض المناسبات كانت تعرف كيف تقدم له الخدمات الصغيرة.

وكان عبور المستنقعات دائما أمرا شاقا. فحيث يستطيع الإنسان أو الحيوانات الكبيرة أن تعبرها فإن العجل الصغير كان من المحتمل أن يغرق، وكان على الراعى أن يحمله على ظهره قابضا بيديه على أرجل العجل ويعبر به الماء فى شجاعة، أما البقرة فتسير خلفه، وهى تخور وقد جحظت عيناها من القلق على ولدها، وتلازمها بقية الأبقار، أما الثيران الهادئة فإنها تتقدم فى انتظام محوطة برعاة آخرين. وإذا كان الماء عميقا على مقربة من النباتات المائية وأشجار البردى فقد كان يخشى دائما من التمساح. ويعرف الرعاة منذ أقدم العصور مايقولونه لأجل تحويل هذا العدو الرهيب إلى نبات لاضرر منه، أو ليطمسوا عنهم بصره. (٥٠) وأعتقد أن هذا العلم لم يفقد، ولكن الوثائق الحديثة لم تذكر عنه شيئا، واحتفظت لنا إحدى مقابر البرشا بأغنية لراع اجتاز أقطارا كثيرة، قال: «لقد سقتم الثيران فى جميع الطرق وتجولتم فوق الرمال والآن تطأون الأعشاب فتأكلون النباتات الكثيفة، وها أنتم أولاء قد شبعتم، إن فيه خيرا لأجسامكم» (٥١)

وفى مقبرة بت أوزيريس يطلق الراعى أسماء شاعرية على أبقاره مثل:

الذهبية ، البراقة ، الجميلة - كما لو كانت روح المعبودة حاتحور قد تقمصتها - لأن روح حاتحور هي التي تطلق عليها هذه الصفات . (٥٢)

فالخدمة الصباحية وولادة العجل وعراك الثيران ، بالإضافة إلى الانتقالات هي المناسبات الهامة التي يظهر فيها الراعي مدى معرفته وإخلاصه، وإذا فشل في مهمته فهو الجاني على نفسه . وإذا اختطف تمساح عجلا ، أو سرق لص ثورا ، أو اجتاح الوباء قطيعا ، فإن أي عذر يعد مرفوضا . وعندئذ يطرح المذنب أرضا ويضرب بالعصا . (٥٣)

وتوجد طريقة مثلى تتقى بها السرقة، وهي وضع علامات على الحيوانات وكان معمولا بها بصفة خاصة في أملاك آمون وكبار الآلهة وفي أملاك فرعون فتجمع الأبقار والعجول في ركن من المرعى ويمسك كل حيوان بحبل ثم يقيد من أرجله ويقلب على ظهره كما لو كان يعد للذبح ، ثم يأتي العمال ويحمون قطعة من الحديد على النار ويكوون بها كتفه الأيمن . ويكون الكتاب حاضرين بطبيعة الحال ومعهم أدواتهم ويقبل الرعاة الأرض في احترام بين يدي هؤلاء الذين يمثلون السلطان . (٥٤) وتأتي الماعز لتغزو الغياض التي تكون الأشجار فيها معدة للإزالة ، وفي أقل من لمح البصر تزول عن تلك الأشجار خضرتها .(٥٥) وحسنا تفعل لأن الحطاب قد وصل قبلها وحين يضرب بفأسه أول ضربة لم تفكر الماعز في ترك الميدان ، أما العنز الصغيرة فتقفز هنا وهناك .أما التيوس فلا تضيع وقتها . ولكن راعي الماعز الذي يقبض في تيه على عصاه التي تماثل صولجان طيبه فكأن يجمع قطيعه . وقد علق كيسا كبيرا على طرف عود من الخشب ، ولكي يحفظ توازنه كان يعلق في الطرف الثاني عنزة صغيرة ، ويحمل معه أيضا مزمارا ولكن لم

يتغن ثيوكريت Theocrite ولا فرجيل Vergile على ضفاف النيل الأغانى الغرامية لرعاة الأبقار ورعاة الماعز .

أما تربية الدواجن فكانت تتم فى أماكن خاصة ، لم يتغير شكلها منذ الدولة القديمة حتى الأمبراطورية الحديثة . فالإنسان يدخل فناء مزينا بعمود على شكل مسلة وبتماثيل لرنوتيت . ويوجد فى ناحية مخزن ملىء بالجرار والحزم وميزان لوزن الحبوب ، وفى الناحية الأخرى أرض مسورة توجد فى وسطها بركة ماء ، ويسبح الأوز والبط فيها أو يمرح على ضفافها حين يأتى الخادم لها بنصيبها من الحبوب . (٥٦)

٩ ـ طيور المستنقعات

تشمل المستنقعات جزءا كبيرا من وادى النيل . وعندما تعود مياه النيل إلى مجراها بعد الفيضان تترك كل عام ، على حدود الأراضى الزراعية مساحات واسعة تحتفظ بالمياه إلى أن ينتهى موسم شمو (الفيضان) . وتنبت فى مياه هذه المستنقعات زهور مائية عريضة الأوراق ، وعلى أطراف المستنقعات تنمو الورود وأشجار البردى وبعض النباتات المائية الأخرى . وقد تكون نباتات البردى كثيفة إلى درجة لا تمكن أشعة الشمس من أن تخترقها فأغصانها عالية إلى حد أن العصافير التى كانت تتخذ أعشاشها بين الأزهار تعتقد أنها فى أمان . وتقوم العصافير ذات الصوت الموسيقى بتمرينات بهلوانية فى الهواء ، بينما تضع أنثاها البيض ، وتترقب بومة ، تظل رابضة دون حراك ، سقوط الليل . بينما تعتلى أعداء العصافير مثل قط الزباد والقط الوحشى ، سيقان النبات حتى تصل إلى أعشاش العصافير . عندئذ نجد أن العصفور الذكر وانثاه يقاتلان بشجاعة ضد المعتدى بينما تستنجد

صغار العصافير فى يأس محركة أجنحتها التى لا تزال خالية من الزغب. وتقوم أسماك شيقه بين جذور النباتات المائية، ونلاحظ من بين هذه الأسماك بصفة خاصــــة البورى والشال والبنى وقشر البياض والبلطى الأقل ضخامة والفهاقة التى خلقتها الطبيعة وهى مرحة «على حد تعبير ماسپرو» . أما سمك البطن السوداء ، فيعوم على ظهره ، وهو طالما اتخذ هذا الوضع ، حتى ابيض ظهره بينما اسود بطنه . واتخذت أنثى عجل البحر ركنا هادئا لتضع فيه مولودها، بينما تربص تمساح خبيث، ليزدرد فى الوقت المناسب المولود إلا إذا أتى عجل البحر الذكر قبل ذلك . فحينئذ تقوم حرب لا رحمة فيها ولا يكون للتمساح حظ التفوق فى مثل تلك المعركة ، فيمسكه عجل البحر بأنيابه القوية ويحاول التمساح عضه فى ساقه عبثاً . فيفقد توازنه ويشطر عجل البحر جسم التمساح شطرين (٥٢) .

وكلما اتجهنا شمالا اتسعت رقعة المستنقعات واشتدت كثافة نباتات البردى . واسم الدلتا بالمصرية القديمة محيت Mehit يعنى به أيضا مستنقع تنبت على حافته نباتات البردى . وهذه اللغة الغنية بالمرادفات لتعنى كل ما يوجد فى الطبيعة ، كان لها مرادفات أخرى تعنى مستنقعات مكسوة بالزهور العريضة المائية شا Cha ، وتلك التى تنبت فيها الورود سخت Sekbet ، والتى ترتادها الطيور تسمى ايون Ioun ومساحات المياه عقب انتهاء الفيضان بيهو Pehou .

كانت هذه المستنقعات بمثابة فردوس صيادى الطيور وصائدى الأسماك وكان كل المصريين ينتهزون الفرصة لصيد الأسماك والطيور فى المستنقعات كذلك كتاب المستقبل ، وكانت السيدات والفتيات يصفقن للضربات الصائبة ، سعيدات عندما يعدن إلى المنزل وهن يحملن عصفورا جميلا حياً .

أما الأولاد فكانوا ماهرين جداً فى الصيد بعصا الرماية والحراب ، وكان يعد هذا مسلاة للهواة . ولكن الأهالى فى الشمال كانوا يعتمدون فى معيشتهم على المستنقعات . فكانوا يستمدون منها ما يلزمهم لمساكنهم ولبعض الصناعات ، وكانوا يقتلعون الكثير من نبات البردى ويربطونها حزما ويحمل كل منهم بعضها ويعود إلى القرية متقلا يخطى بطيئة وهو يكاد يسقط إعياء من فرط ثقل الحمل ، وكانوا يعرضون حزم البردى وينتقون منها ما يصلح لإقامة الأكواخ . ويستبدلون هنا البيوت المبنية بالآجر بأكواخ مقامة من سيقان البردى تغطى بطبقة من الطمى وجدرانها رقيقة ، وفى أغلب الأحيان كان الطمى يتساقط ، ولكن كان من اليسير سد مثل تلك الشقوق .

وتصنع من ألياف النبات حبال من كافة الأحجام وحصر وكراسى وأقفاص كانوا يبيعونها لملاك الأراضى . وبوساطة هذه الحبال وسيقان البردى كانوا يصنعون المراكب الجميلة السهلة الاستعمال والتى بغيرها لا يمكن صيد الطيور أو الأسماك . ولكن قبل الانطلاق وراء الفريسة ، كان ينبغى لهم اختبار الأدوات الجديدة . ويركب كل الناس مراكبهم ورؤوسهم متوجة بالزهور وتتدلى من أعناقهم الزهور المائية الزرقاء . ولتسيير المركب كانوا يستعينون بمدار طويلة مدببة على هيئة الأشواك . ويبدأ القتال بشتائم تكون فى أغلب الأحيان نابية وتتوالى التهديدات والشتائم كالمطر ويخيل للسامع أن هذه الاشتباكات سوف تنتهى إلى نتيجة سيئة ، ولكن كان اهتمام كل منهم منحصراً فى الإيقاع بخصمه فى الماء وإعادة المركب إلى الشاطئ . وتنتهى الحفلة عندما يبقى واحد فقط فى مركبه . ويعود المنتصرون والمنهزمون إلى القرية ويتسلمون أعمالهم بعد أن يتصالحوا عائدين إلى حرفهم التى قال الساخر المصرى عنها إنها من أشق الحرف . (٥٨)

أما صيادو الأسماك الذين يرغبون الانتقال إلى مسافات بعيدة فإنهم

كانوا يتخذون قاربا من الخشب له صار . وتمتد الحبال بين أسلاك الصارى ، لأجل تجفيف الأسماك المشقوقة ، وأحيانا يرتكز أحد الطيور الجارحة فوق الصارى(٤٩) .

وكانت هناك عدة طرق لصيد الأسماك :

فالصياد إذا كان وحده أخذ قاربه الصغير بعد أن يتزود بالمئونة الكافية ، وعندما يعثر على مكان هادىء يلقى غابته فى الماء ، وعندما تأتى سمكة القرموط الجميلة وتعض السنارة ، يقوم الصياد برفع الغابة فى هدوء تام ويضربها ضربة مميتة بقطعة من الخشب .

أما فى المستنقعات الضحلة فيضعون فى الماء مصائد من أقفاص على هيئة الزجاجة أو مصائد من أقفاص مزدوجة ، وعندما يأتى سمك البورى وقد جذبه الطعم الموضوع فى مدخل المصيدة فإنه يدخل بسهولة ولكن يصعب عليه الخروج . وتبقى هذه الأقفاص الحياة للأسماك التى بداخلها . وصياد السمك الذى لا يشك فى نجاحه فى الصيد كان كل ما يخشاه أن يراقبه جاره ويسبقه إلى المكان ، فيخلى مصائده من الأسماك . أما الصيد بواسطة شبكة اليد وهى عبارة عن بوصة طويلة وبها شبكة على هيئة سلة فإنها تحتاج إلى صبر وأناة ويد قوية متمرنة . فالصياد يقف فى مكان تتوافر فيه الأسماك ويدلى بشبكته تحت الماء وينتظر متذرعا بالصبر . وحينما تدخل الأسماك بحثا عن مأوى ، كان عليه أن يرفع الشبكة بسرعة فى غير عنف وإلا فستصبح الشبكة خالية . أما الصيد بطريقة الشباك المقوصة فإنه يحتاج إلى عشرة رجال وقاربين على الأقل وبشباك كبيرة مربعة ، مزودة بعوامات من الفلين من ناحية وبثقل من الأحجار من الناحية المقابلة ، ويلقون بهذه الشباك فى البحيرة حيث تتجمع الأسماك ، وبعد ذلك يجرون إلى الشاطىء فى هدوء الشباك

والأسماك ، وإخراج الأسماك من الشباك إلى البر أمر دقيق ، فسمك الشيلان، وهى نوع قوى كثير الحركة ، يحاول أن يقفز خارج الشباك إلى الماء، ولذلك كان على الصياد أن يمسكه وهو يقفز فى الهواء .(٦٠)

أما السمك البياض الكبير الحجم ـ الذى يكنس ذيله الأرض لضخامة حجمه ، إذا ما حمله اثنان من الصيادين على مجداف ـ فأفضل طريقة لاصطياده هى الحراب (٦١) . وكانت الحربة تستعمل أيضا لاصطياد عجل البحر . ولكن حراب الصياد العادية تتكسر كعيدان الكبريت فوق جلد هذا الوحش ، فيجب أن يستعمل إذن سلاح أقوى يتكون من كلابة من الحديد مثبتة فى يد من الخشب ربط إليها حبل به عوامات ، وعندما تصيب الحربة مرماها وتغرز الكلابة الحديد فى جسم الوحش الذى يحاول الهرب ، يشد الصيادون حبال العوامات لتقصير المسافة ، فيتجه عجل البحر الذى أصيب بالحربة صوب الصيادين ويكشف عن أسنانه الكفيلة بشطر أى قارب ولكنهم يجهزون عليه بالحراب . (٦٢)

أما الصيد بعصا الرماية فكان رياضة الأثرياء ، ولم يكن من أعمال البحارة . ويحكى أن أموى كان له قارب فاخر على هيئة بطة عظيمة ، على أن أكثر الصيادين كانوا يقنعون بقارب مصنوع من نباتات البردى من النوع المألوف . ومن الأفضل أن يكون على ظهر القارب أوزة نيلية دربت على المناداة ، ويرمى الصياد عصا الرماية التى تنتهى بهيئة رأس ثعبان. فتسقط كل من العصا والضحية فى نقطة الابتداء ، فيسرع رفقاء الصياد وهم زوجه وأولاده إلى الإمساك بالصيد . ويقول طفل فرح لوالده « أيها الأمير لقد أمسكت عصفورا ولكن قطا ربما أمسك وحده ثلاثة منها » (٦٣)

أما الصيد بالشباك فيمكن اصطياد عدد كبير من العصافير الحية فى المرة

الواحدة وكانت هذه رياضة جماعية ، لا يأنف الأمراء والأشخاص من ذوى المكانة من الاشتراك فى مثل هذه الحفلات كرؤساء أو كراقبين . وكانوا يختارون بركة مربعة أو بيضاوية فى أرض منبسطة ، لا يزيد طولها عن بضعة أمتار وينشرون شبكتين مربعتين من جانبي البركة المتقابلين حتى إذا ضمتا بعضهما كانتا تكفيان لتغطية البركة كلها . وكان ينبغى إلقاء هاتين الشبكتين بطريقة مفاجئة فوق سطح البركة حتى يمكن أسر كل العصافير التى بها . لذلك كانت تثبت على الأرض أربعة أوتاد ، اثنان على يمين البركة ، واثنان على يسارها وتربط أطراف الشبكة بحيث تكون الزاويتان الخارجيتان مضمومتين ، يربط اثنان منهما إلى وتد كبير ثبت على بعد قليل من محور البركة ويربط الاثنان الآخران بحبل مناورة يبلغ طوله ٢٠ متراً أو أكثر . وكان هذا الجهاز معدا للعمل — ويختبىء أحد المراقبين بين الأشجار على مسافة قريبة وأقدامه فى الماء أو يجلس وراء حجاب ذى ثقوب ، ثم يأتون بعصافير مدربة للتنزه على شاطىء البركة ، وبعد ذلك يأتى عدد وفير من البط ويحط فى البركة . ويمسك الصيادون وعددهم ثلاثة أو أربعة بحبل المناورة على أهبة الاستعداد . ويختفون على بعد كاف من البركة حتى لا تفزع العصافير التى تطير عند سماع أقل صوت .

ويرفع الصياد المراقب ذراعه أو يفرد شاله ، وبهذه الإشارة تشد الحبال ويتجه الصيادون سراعا لتشغيل الفخ ، فترتفع الشبكتان وتهبطان على العصافير والطيور فيأسرونها جميعا . وعبثا تحاول العصافير القوية الضرب بأجنحتها للتخلص من الشبكة والهروب .

والصيادون الذين سقطوا على الأرض نتيجة لمجهودهم المفاجىء يقومون ويجرون ومعهم الأقفاص فى اتجاه العصافير دون أن يمهلوها الوقت الكافى

فتنجح فى الفرار . وبعد أن تمتلىء الأقفاص فإن ما يبقى من عصافير داخل الشباك تلوى أجنحتها ويتداخل الريش بعضه فى بعض ، ويكفى هذا للاحتفاظ بها لحين العودة إلى القرية . (٦٤)

ويتطلب كل هذا مزيدا من الانتباه والصبر ، والجرأة فى بعض الأحيان . ولكن هذه الصفات لا يمكن أن يتسم بها الصيادون إلا إذا كانوا فى رعاية معبودة تسمى سخت Sekhet أى البرية . وكانت هذه المعبودة على هيئة فلاحة ترتدى ثوبا (على شكل غمد) شعرها طويل يتدلى على كتفيها . وكانت الشبكة ذاتها هبة من معبود خاص اسمه المعبود الشبكة وهو ابن المعبودة البرارى .

والأعمال التى قمنا بوصفها الآن هى من أعمال المعبودة البرارى . والأسماك والطيور هما خيراتها ، غير أن هذه المعبودة لم تكن بخيلة ، فقد كانت توزعها عن طيب خاطر على صيادى الطيور وصائدى الأسماك وهم شركاؤها وأصدقاؤها . (٦٥)

١٠ — الصيد فى الصحراء

كان الصيد فى الصحراء مجرد تسلية للنبلاء والأمراء ، كما كان حرفة أيضا ، ولا توجد مقبرة ذات نقوش لم يرسم فيها صياد وهو يطلق سهامه التى لا تخطىء ، على الغزلان والأيائل المجتمعة كما لو كانت فى حديقة نباتات فى أرض مسورة ، كما أن حامل الحربة الذى يؤدى مهمة شرطة الصحراء المنوط بهم حراسة جبل ذهب فقط كان يلازمهم خبير الصيد ، عندما كانوا يذهبون إلى كبير كهنـــة آمون : من خبر رع سنب

تقديم تقرير عن مأموريتهم وتتضمن غنيمة ضخمة تتكون من : بيض وريش نعام ونعام وغزلان أحياء، وحيوانات مذبوحة .(٦٦)

وقد كون رمسيس الثالث فرق شرطة من حملة الحراب وفرق صيادين محترفين يكلفون فى نفس الوقت بمرافقة جامعى العسل البرى والشمع ويعودون بالماعز البرى لتقديمها إلى روح المعبود رع فى جميع حفلاته ، لأن تقديم حيوانات الصحارى كذبيحة كان فى جميع العصور التاريخية ، وفى العصور التى كان يعيش الأنسان فيها على الصيد ، كان أمرا محببا لدى الآلهة .(٦٧)

وكان الصيادون الهواة والمحترفون يتحاشون الاستمرار فى مطاردة الفريسة إلى أبعد مدى ، لأن الفريسة قد سلحتها الطبيعة بأرجل قوية ، وإذا استمر الصيادون فى مطاردتها ضلوا الطريق فى الصحراء وأصبحوا بدورهم فريسة للحيوانات المتوحشة كالضباع والطيور الكاسرة .

ولما كانوا على علم بطبائع الحيوانات والأماكن التى ترتادها للشرب فهم يعملون على جذب عدد كبير منها إلى أرض قد أعدت من قبل حتى يمكنهم صيد أكبر عدد منها على قيد الحياة أو قتلى وفقا لرغبتهم . وكانوا يختارون سفح واد حيث توجد رطوبة فى الأرض تسمح بإنبات بعض الأعشاب على أن تكون جوانبه منحدرة انحدارا كبيرا فيصعب على الحيوان الهروب سواء من ناحية اليمين أو من ناحية اليسار . وكانوا يثبتون على أوتاد شبكتين منفصلتين بينهما مسافة بعيدة وفقا لما لديهم من خبرة ، ولا يمكننا تقدير بعد المسافة استنادا على الرسوم التى وردت فيها . فالشبكة البعيدة محبوكة تماما وتمتد مسافة طويلة ، وبذلك تحول دون هروب أى حيوان . وفى الشبكة المقابلة ، أعدت فجوة لمرور الحيوانات والصيادين ، ويوضع

فى داخلها ماء وطعام . (٦٨) وفى زمن وجيز يمتلئ هذا الممر المسور بالحيوانات فيعمها الطعام المهيأ لها ، كما لو كانت لحظات حياتها غير معدودة. ويرى الجاموس البرى يقفز متجولا فى جميع الجهات والنعام ترقص تحية للشمس المشرقة وغزال ترضع صغيرها ، ويمد حمار وحشى رقبته استعداداً للنوم ، ويربض أرنب برى فوق تل صغير ليستنشق الهواء .(٦٩)

وكان الصيادون فيما مضى يذهبون إلى الصيد سيرا على الأقدام ، ويسير السيد خالى اليدين ، بينما يتقاسم الحرس حمل الطعام والأقواس والسهام والأقفاص والحبال وزنابيل الصيد .

ويجر خادم مقاود ربط فيها كلاب الصيد والضباع التى أطعمت طعاماً كثيراً من قبل ودربت على الصيد .

ومنذ عرف استعمال العربة كان السيد يذهب للصيد ممتطيا العربة كأنه ذاهب إلى ميدان القتال ومعه القوس والسهام ، أما الأتباع فيسيرون خلفه على الأقدام يحملون بوساطة عصى غليظة جرارا وقربا ملئت بالمياه ، ومقاطف وأكياسا وحبالا . وعندما تصل هذه القافلة الصغيرة إلى الجهة المقصودة يترك السيد عربته ومعه أسلحته ويمسك أحد الخدم مقاود كلاب الصيد . (٧٠) ومنذ عهد بعيد استغنى عن الضباع التى تمكن صيادو الدولة القديمة من تدريبها على الصيد .

وتفاجأ الطريدة حين تؤخذ على غرة بسيل من السهام تسلط عليها وبهجوم مفاجىء من جانب كلاب الصيد المفترسة . وعبثا تبحث هذه الحيوانات التعسة عن مخرج لها ، فالصخور المنحدرة انحدارا شديداً أو العوائق تحجزها فى مكان المذبحة. وتصاب وعول وثيران وحشية. وتدافع نعامة عن

فقسها بمنقارها ضد كلب صيد يهاجمها وأنثى حيوان تلد وهى تقفز وأرنب برى ويخنق كلب صيد صغيرها الذى ولد حديثا وغزال يقفز فى يأس ولكنه سرعان ما يقع تماما فى فم عدوه ، وكلب صيد قد طرح غزالة على الأرض ثم افترسها . ويتضح من رسوم وجدت على مقبرة شخص يدعى أوزير أنهم كانوا يضعون فخاخا داخل السور ولكن الرسوم غير واضحة تماما حتى أنه يصعب علينا وصف طريقة عمل هذه الفخاخ .

ولكن وجود هذه المصائد أمر مؤكد ، وإلا فكيف يستطيع الصياد الذى لا يملك سوى السهام والكلاب أن يعود بعدد كبير من الحيوانات الحية كما كان يفعل أوزير امنمحات . (٧١) كان الصيادون يعودون ومعهم تيس وغزال وماعز برى ونعامة ربط كل منها بحبل فى رجله وكلها سليمة قادرة على السير ويحمل أحد الأتباع غزالا صغيرا فوق أكتافه ، ويمسك آخرون أرانب برية من آذانها تبدو أنها مذبوحة . وقد علق ضبع من أرجله على لوح من الخشب وقد تدلى رأسه مما يقطع بأنه ميت . ولم يضع هؤلاء الصيادون وقتهم سدى ، ولكن طائفة أخرى من الصيادين لم تقنع بهذه الغنيمة ، أو أنهم من الباحثين عن المتاعب فكانوا لا يألون جهداً فى مطاردة الغزلان بعرباتهم السريعة مثل البرق . هكذا كان دأب الأمير امنحتب الذى لا يكل . وكان اوزيرحات يتوغل فى الصحراء الشاسعة وهو يقود عربته بنفسه مصوبا السهام بيديه وسائقا أمامه قطيعا من الغزلان تجر وراءها أرانب برية وضبعا وذئبا ، ثم يعود مزودا بالغنائم . (٧٢)

الفصل السادس

الحرف والفنون

لم تقتصر الأمة المصرية على أن تضم فى أرضها مزارعين وكتبة فحسب، ولو كان الأمر كذلك ما وجدت الأهرام ولا المعابد والمدافن ، وما كان للأميرة خنوميت Khnoumit (حتشبسوت) أن تزين شعرها الأسود بتاج فى منتهى الروعة ودقة الصنع ، وما كانوا قد انتزعوا من المحاجر عموداً من الجرانيت يبلغ طوله أكثر من ثلاثين متراً ونقلوه من أسوان إلى طيبه وشكلوه على هيئة مسلة نقشوها بالكتابة الهيروغليفية الدقيقة ، ثم أقاموها على قاعدتها . ولم يستغرق كل هذا العمل سوى سبعة شهور ، مما يدل على ما يتسم به المصريون من صفات استثنائية ، وخاصة أن هذه العملية قد تكررت عدة مرات خلال كل حكم فى عهد الدولة الحديثة . ولم يقدر الكتاب هؤلاء الصناع المهرة حق قدرهم وعدوهم أقل منهم مرتبة ، ولنحاول أن نكون فكرة عن أعمالهم ونوع الحياة التى كانوا يحيونها .

١ ـ عمال المحاجر

يوجد فى مصر فى الصحراوين الشرقية والغربية على حافتى الوادى ، صخور كبيرة القيمة وكانت خامات يستغلها المعماريون والمثالون والصياغ فى أعمالهم الكبرى ودقائق الفن على السواء .

فالحجر الجيرى يوجـــد على طول الوادى بين منف وارمنت جنوبى طيبه .

وأجمل هذه الأحجار وأنصعها بياضاً كانت تستخرج من محاجر طره روايو Roiaou ـ بالقرب من عين حلوان ، والحجر الجيرى الذى يوجد فى تلال طيبه هو بدوره من النوع الجيد .

أما حجر الصوان الأحمر الذى يشبه خشب الأرز « Mery » فـكان يجلب من الجبل الأحمر أحد ممتلكات حاتحور الخاصة شمال شرقى أون (عين شمس) وكان هذا المحجر يستغل على نطاق واسع خلال الأسرة الثانية عشرة . وقد استطاع سنوحى الهرب من مصر باختفائه وسط العمال القادمين من قرام ليعملوا فى المحجر .

وقد بلغ استغلال هذا المحجر أوجه فى عهد رمسيس الثانى ، وقد اكتشفت فى أحد الأيام كتلة ضخمة أكبر من أية مسلة من الجرانيت ، ولم يكن لها نظير منذ عهد الآلهة (فجر التاريخ) .وكان اكتشافها فى محرله أون بحضور جلالته الذى ذهب بنفسه إلى الصحراء فى دائرة أملاك رع .

وقد اعتقد الجميع أن جلالة الملك هو الذى أوجدها بنفسه بطلعته البهية . وقد أمر جلالته أن يتولى العمل فيها نخبة من أمهر العمال . وتم تشكيل هذه الكتلة فى عام واحد على هيئة تمثال ضخم أطلق عليه اسم « رمسيس المعبود » .

وقد كوفىء رئيس الأعمال بمنح من الذهب والفضة ـ كما نال كل من ساهم من العمال فيه نصيبا من هبات الملك .

وكان جلالته يشرف على العمال يومياً وهذا ما حثهم على مضاعفة الجهد والعمل بنشاط عظيم.

وقد عثر على محجر آخر يجاور المحجر الاول، وقد استخرجت منه أحجار ضخمة لمعبد پتاح فى منف ومعابد پتاح وآمون التى أقامها رمسيس (١).

وتوجد بكثرة أحجار رملية أقل جودة من أحجار الجبل الأحمر على جانبي الأقاليم الجنوبية الثلاثة، ولكنها أحجار لها قيمتها بدورها.

وأسوان هى إقليم محاجر الجرانيت .. ومن أطرافها المجاورة يمكن الحصول على أنواع الجرانيت الثلاثة الوردى والأشهب والأسود، وكذلك من محاجر جزر أبو Abou (الفنتين) وساتيت Satit وسنموت Seamout.

ولا تزال توجد مسلة وتابوت وتمثال ضخم لأوزيريس فى الأمكنة التى كانت تستغل فيها المحاجر القديمة تثبت نشاط الحجارين الأوائل، كما ترى فى كل مكان الأعمال التمهيدية لقطع الأحجار، وتمتد محاجر الجرانيت صوب الجنوب لمسافة طويلة.

وتقع محاجر الصخور الطافية : البيضاء والخضراء فى المكان المسمى ايداحيت Idahet، التى تبعد نحو الغرب بمقدار مسيرة ثلاثة أيام. وقد تركت هذه المحاجر منذ أيام الدولة الوسطى.

ولم يكن العمل فى هذا المحجر ممكنا لبعده ولما يتطلبه من جهود وتضحيات كبيرة. ومع أن ملوك الرعامسه لم يكونوا يترفقون بأسرى الحرب إلا أنهم لم يحاولوا استئناف العمل فى محاجر هذا الأقليم (٢).

أما فى مصر الوسطى فتوجد محاجر من النوع الجيد ويمكن استغلالها بتكاليف أقل وهى محاجر المرمر فى حات نوب Hatnoub التى تبعد ساعات قليلة عن عاصمة أخناتون (اخيتاتون) المهجورة ، كما توجد جنوباً ، محاجر وادى الحامات Rohanou على بعد ثلاثة أيام من قفط (Coptos) وكذلك محاجر الشست الأسود المحبب ذى اللمعان الجميل فى بخن (Bekhen) ومحاجر الرخام الأخضر والرخام السماقى .

وفى الواقع توجد نقوش كثيرة فى مواقع المحاجر القديمة كلها تقريباً . ولكن تمتاز النقوش المدونة فى محاجر وادى الحامات بوفرة الوقائع الطريفة المدونة بالتفصيل (٢) بدلا من تلك الأسماء الكثيرة والألقاب الواردة فى المحاجر الأخرى .

لم تكن المحاجر تستغل بصفة دائمة أو منتظمة ، فاذا احتاج فرعون إلى أحجار بخن أرسل حملة تتكون من عدة آلاف من العمال ويعتبر هذا حدثاً هاماً فى عهده .

وقد تفوق رمسيس الرابع على كل من سبقه بإرساله حملة مكونة من ٩٣٦٨ عاملا . وقبل إرسالها أعدها الملك فى تأن شديد إذ قام بالرجوع إلى كتب بيت الحياة وبعث حملة استطلاعية .

أما القيادة العامة فكانت تحتوى على ١٣ شخصية كبرى منها الرئيس الأعلى لكهنة أمون ومعه ثقاته . ثم عشرون خبيراً من هيئة الجيش . وهؤلاء الخبراء كانوا يعاونون فى حل المشاكل التى تعترض المهندسين مثل إقامة مسلة أو تشكيل تمثال ضخم يبلغ طوله ثلاثين ذراعا أو تشييد عمود مائل من اللبن أو القيام بالأعمال الإدارية مثل إعداد حملة حربية إلى سوريا .

وكانت تحتوى الحملة على ٩١ من رؤساء الاسطبلات ومن الفرسان والسياس وخمسين من رجال الشرطة بمختلف رتبهم وخمسين موظفاً من مختلف الدرجات . ومما يثير الدهشة وجود مائتين من رؤساء فرق صيد الأسماك ضمن الحملة ، وهذا يبين دون شك أن موسم الفيضان (شمو) فى الوقت الذى قامت فيه الحملة لم يكن ملائماً للصيد .

وكان عماد الحملة مكوناً من ٥٠٠٠ جنديا و ٢٠٠٠ من خدم المعابد و ٨٠٠ من الأجانب المرتزقة (Aperou) ، ٩٠٠ من موظفى الحكومة المركزية يذكرون ضمن هذه الحملة ولكنهم كانوا لا يصحبونها عن قرب . وكان مع الحملة عربات تجرها ثيران كثيرة العدد كما لو كانت جيشاً حقيقياً .

أما الخبراء العاملون فهم :

رئيس هيئة الفنانين ، ثلاثة رؤساء لعمال المحاجر و ١٣٠ من الحجارين والنحاتين ورسامان وأربعة حفارين ، وهو عدد ضئيل بالنسبة لمن فى الحملة من عمال .

أما القسم الأكبر من العمال فكان يعمل إما فى جر الأحجار على زحافات أو فى إحضار الطعام لهم .

وكانت المشكلة الكبرى التى تواجه الرؤساء هى إطعام آلاف الرجال فى وسط الصحراء وتوزيع القليل من المياه على كل منهم - والقليل من الجعة والكسرة من الخبز — أما الرؤساء والخبراء فكانت تقدم إليهم كميات أوفر وأخيراً القيام بواجب الشكر لمعبودات جبل بخن (وادى الحمامات) وفى مقدمتهم مين وحورس وإيزيس الذين لولا

رعايتهم لباءت الحملة بالفشل . لهذا فقد اعتبر المصريون هذه الأعمال بمثابة تعمير الصحراء وتحويل الطريق إلى قناة . وكان موضع فخرهم أن يسجلوا على لوحة مكتوبة أنه لم ينفق حمار على جانب الطريق ولم يشعر أى إنسان بالظمأ . ولم يفقد أى امرىء عزمه ساعة واحدة . كذلك لم يتذمر الرجال الذين كلفوا بنقل الخبز والجعة وما كان لهم أن يتذمروا بل كانوا يؤدون عملهم وهم مغتبطون كأنهم فى أيام الأعياد .

وكانت وسائل العمل فى المحاجر بدائية إلى أبعد الحدود . ولم يحاولوا استخلاص الأحجار من صميم المحجر وكسرها إلى أحجار ذات أحجام متماثلة بل كانوا يختارون الشقوق التى قد توجد فى المحجر والتى يسهل كسر أحجارها التى تصلح لتشكيل التوابيت أو أغطيتها أو لمجموعة تماثيل أو لمجرد تمثال .

وكان العمال الذين يصلون قبل زملائهم ، يرفعون الأحجار الموجودة فوق الطريق، ومن يأتون بعدهم كان عليهم أن يتسلقوا المنحدرات ليدحرجوا الكتل الضخمة من أعلى إلى أسفل . وكثيراً ما كانت تلك الكتل تتهشم إلى قطع صغيرة . ولهذا فإن مرى Mery الذى كان رئيساً للعمل ، فكر فى تنفيذ فكرة صائبة حقاً وهى عمل طريق منحدر على حافة الجبل تنزلق منه الكتل الحجرية إلى حافة الطريق . وقد نجح هذا الاختراع نجاحا باهراً ، وكان من نصيب هذا المهندس الموهوب عشرة تماثيل يبلغ طول كل منها خمس اذرع ولم تكن تلك الطريقة قد استعملت من قبل . وهذا ما لم يستطع أحد عمله قبل ذلك بألف عام.(*)

وكان المصريون — على مهارتهم ومخاطرتهم فى ارتياد الصحراء —

يترصدون كل ظاهرة ، مهما كانت تافهة ، فينسبونها إلى عناية الآلهة ويبالغون فى أهميتها حتى تصبح فى مصاف المعجزات . فبينما كـان عمال محاجر بخن يبحثون عن غطاء جاهز لتابوت الملك نب تاوى رع منتوحتب ظهرت غزالة ، لا شك أن المعبود ساقها ، لترشدهم إلى الطريق الصحيح . وكانت الغزالة تحمل جنيناً بين أحشائها . قابلتهم وجها لوجه ، ثم حملقت فى وجوههم ، واتجهت صوب قمة الجبل المقدس حيث وجدوا غطاء التابوت فرقدت عليه ووضعت جنينها . لقد ذبحها جنود الملك الذين شاهدوا هذه الظاهرة وقدموها قرباناً للمعبود وعادوا من الجبل بسلام .

ولا شك أن هذا الإله الكبير ، سيد الصحراء ، وهو الذى منح ابنه نب تاوى رع الحياة إلى الأبد — ليدخل السرور إلى قلبه ، ويعتلى العرش دائما ويحتفل بأعياد تذكارية لا حصر لها ، (٩) وعندما يكسرون قطعة ضخمة من الحجر ، وتحمل إلى الطريق وتوضع على زحافة تمهيداً لنقلها لا تعطى الرؤساء إشارة بالتحرك إلا بعد أن يقيموا تذكارا جديرا بمعبودات بخن وأشهرها مين معبود قفط وإيبو (Ipou) .

وأهم ما فى هذا الشأن أن معجزة الغزالة سرعان ماتلتها معجزة ثانية ، فقد اكتشفت بئر مربعة يبلغ طول ضلعها عشر أقدام فى وسط الوادى مملوءة بالماء حتى حافتها .

وقد اتخذت الاحتياطات لمنع الوعول من تلويث مياهها وإخفائها عن البدو الرحل .

ومنذ العهود السالفة كان جنود الملك السابقين يمرون بجوارها دائما ومع ذلك لم ترها عين إنسان ولم يلمحها أحد ، ولكنها لم تكشف عن نفسها

إلا لجلالته ، وحين يعلم بذلك شعب رخيت الذى يعيش فى توميرى Tomery فى أرض مصر ، فى الشمال والجنوب على السواء فإنهم سيسجدون على الأرض ويشهدون دائما بكمال جلالته » . (٢)

وبناء على أمر جلالته « أقيمت هذه اللوحة لوالده مين ، سيد الصحارى فوق هذا الجبل المقدس الأزلى ، وكانت موضوعة قبل ذلك فوق أرض الشمس المشرقة فى القصر المقدس الذى كرس لحياة هورس ، الوكر المقدس الذى يسعد فيه هذا المعبود ، مقره الذى يشع بهجة فى فيافى الأرض المقدسة حتى ترضى روحه (الكا) ويسر قلبه وهو يدوس الأمور معتليا العرش العظيم الذى يفوق كل العروش ، وحتى تقام النصب للإله الكامل ، معبود البهجة ، الذى يخشاه الجميع ، ويحبه الجميع ، ووريث هورس فى الأرضين ، الذى ربى إيزيس ، أم مين المقدسة ، الساحرة الكبرى بتربيته ليعتلى عرش هورس الممتد بين شاطئى النهر ملك الجنوب والشمال نب تاوى رع له الحياة الأبدية مثل رع » ثم يقول : « أرسلت جلالتى أمنمحات Amenemhat الأمير والوزير ومدير الأعمال الذى اصطفاه قلب الملك ومعه جيش قوامه ١٠٫٠٠٠ رجل من أبناء الأقاليم الجنوبية ابتداء من وابوت Oubout (البهنسا) لأجل إحضار كتلة عظيمة من الحجر ، أفضل ما فى هذا الجبل وأشدها متانة بفضل مين ، ليصنع منها تابوت ، رمز للأبدية وأفضل النصب فى معابد مصر العليا — فى حملة ملكية نظمها فرعون سيد الأرضين لتجلب من صحارى والده (مين) ما يتمناه قلبه » . (٨)

وأخيرا بعد أن بقيت الحملة اثنين وعشرين يوما منذ وصولها عادت إلى مصر ومعها هذه الكتلة الحجرية الرائعة التى يبلغ طولها ثمانى أذرع

وعرضها أربع أذرع وسمكها ذراعان بعد أن قدمت للإله الرحيم ذبائح من العجول والغزلان وأحرقت البخور والزيوت العطرية .

ولم يكره المصريون العمل الهين إذا كان ذلك مستطاعا ، فإذا أمكن إحضار كتل من الأحجار بهذه الطريقة اليسيرة قاموا بها . وكان لهم بعض العذر ، إذا ما وجدوا كتلة من الحجر الرملى أطول من المسافة فى محاجر الجبل الأحمر واعتقدوا أنها كانت هبة من حاتحور ، ولكنهم على أهبة الاستعداد ، إذا ما استدعاهم الأمر ، عمل ممرات فى الصخور أو قطع أحجار كبيرة منه . (٩)

وتتضمن عملية كسر الاحجار فى جبال طيبه غرضين — الأول عمل مقابر منحوتة داخل الصخر لتكون (منازل أبدية) للموتى وأحجار من كافة الأشكال والاحجام لينتفع بها الأحياء .

كان الكثير من عمال المحاجر من أسرى الحرب أو من المحكوم عليهم ولكن كان الكثيرون من المصريين يمارسون أيضا هذا العمل .

على أنه فى عهد حكم آخر الرعامسه ، عندما انقسمت البلاد إلى فريقين واندلعت بينهما الحروب الأهلية ، كسروا القيود وانضموا إلى أعداء آمون وانتشروا فى أنحاء البلاد وارتكبوا الكثير من الجرائم الوحشية ودنسوا المقدسات ، وهذا يدل على أنهم كانوا ساخطين على الحال التى كانوا عليها من قبل .

٢ — عمال المناجم :

كان معدن الذهب موجودا بكثرة كبيرة فى أماكن متعددة فى الصحراء

بين النيل والبحر الأحمر ، على أن هناك ثلاث نقط يجب ملاحظتها: فكثيرا ما تشير النصوص وبردية هاريس Harris إلى ذهب قفط(١٠) الذى يوجد فى جبل بخن Bekhen وكان من حسن المصادفة وجود مناجم الذهب والمحاجر التى تستخرج منها الأحجار التى لها قيمتها لدى المثالين ، فى ملتقى الكثير من الطرق الصحراوية عند بئر فى منتصف المسافة بين شاطىء النيل وساحل البحر الأحمر .

وكانت هذه المنطقة كثيرا ما يرتادها العاملون فى مناجم ذهب قفط ، وكبار الصيادين الذين يتعقبون النعام والأرانب والغزلان ، ورجال الشرطة بقفط المشرفين على تأمين حياة عابرى هذا الطريق ، وسلامتهم ممن يحملون هذا المعدن الثمين .

وقد كانت ثمة مناجم أخرى للذهب ولكن لم تكن غنية بالذهب مثل مناجم جبال بخن . وذات يوم أراد الملك سيتى الأول أن يزور المناجم النائية التى يستخرج منها معدن الذهب(١١) إذ كان مهتما بمشكلة توغلها داخل الصحراء ، فبعد أن غادر مدينة إدفو وشاهد قنوات المياه التى تخترق المنطقة ، توقف جلالته وعبر عن مشاعره فى الكلمات الآتية : « ما أشق الطريق الذى يخلو من الماء ! كيف يستطيع الإنسان السير وحلقه جاف ؟ كيف يطفىء ظمأه ؟ إن أرض الوادى بعيدة وفيافى الصحراء شاسعة . إن الرجل الظمآن وسط الصحراء يندب حظه ـ كيف أنظم شئونهم كما ينبغى ؟ سوف أدبر لهم الوسيلة ليعيشوا ويشكروا الله باسمى خلال السنوات الطويلة المقبلة .

إن الأجيال القادمة ستنال مجدا مستمدا منى بسبب نشاطى ، لأنى فى بعد نظرى أحنو على المسافر . »

وحينما اقتنع جلالته بما يعتمل فى نفسه من هذه المعانى ، اتجه إلى الصحراء باحثا عن مكان يحفر فيه بئرا . فسدد الله خطواته وقاده إلى تحقيق مايريده . وتلقى الحجارون الأمر بحفر بئر فى الجبل ، تخفف متاعب المجهدين وإعياء أولئك الذين أحرقتهم حرارة الصيف . وقد نجحت تلك المحاولة نجاحا باهرا ، إلى حد أن كتب الملك يقول : « لقد حقق الله رجائى وأجرى لى الماء فى الجبل . وأصبح ذلك الطريق ، الذى كان وعرا وعنيفا منذ أقدم العصور ، سهلا ممتعا فى عهدى . »

ومع ذلك فلم يكن هذا إلا بداية : لقد اعتزم الملك أن يشيد مدينة حقيقية باسم « مين معات رع » تنساب منها المياه بوفرة كما تنساب من فرعى مغارة أبو * ، وبما أنه لا توجد مدينة دون معبد ، فقد كلف مدير الأعمال الملكية بتشييده .

وقد تدفق عمال محاجر الجبانات وسرعان ما أقبلوا على العمل فشيدوا معبدا فى سفح الجبل ، ومع أنه كان صغير الحجم إلا أنه كان ينافس أى معبد آخر يرجع إلى ذلك العصر فى دقة نقوشه ورسومه الجيلة . وقد زينت جدرانه برسوم الكثير من المعبودات مثل أمون ورع وأوزيريس وحورس والمعبودات القسمة فى هذا المعبد ومن بينهم الملك نفسه - وكلها كانت تعبد فى هذا المعبد .

وقد افتتحه سيتى الأول بنفسه وخاطب آباءه الآلهة قائلا : « لك التمجيد

---

* اعتقد المصريون القدماء أن النيل ينبع من صخور بجزيرة الفنتين أبو وقد رسموا إله النيل حابى يصب المياه من آنيتين وهو داخل مغارة .

أيتها الآلهة العظيمة التى تكونت السموات والأرض بناء على مشورتك وأكرمتنى على مدى الدهور وخلدت اسمى إلى الأبد، ذلك لأنى رهين اشارتك أفعل كل ما فيه مرضاتك . إنه لسعيد هذا الذى يطيع أوامر الآلهة فكل طلباته تجاب . . فليستجب كل انسان لرغباتك لأنكم انتم السادة الذين تطاع أوامرهم . لقد أمضيت حياتى وخصصت قوتى لأجلكم لأستمد سعادتى منكم . لتكن مشيئتكم أن تظل تماثيلى باقية ويبقى اسمى خالدا عليها . »

ولم يكف العمال المعترفون بالجميل من ناحيتهم عن تقديم الصلوات للآلهة لأجل شكر الملك الذى شيد لهم خزانا للمياه وأقام معبدا يمجدونه فيه ، لقد حقق عملا ليس له نظير . . وكان كل منهم يقول للآخر : « فليمنحه آمون حياة أبدية . . ويبقى حتى الأزل ايتها الآلهة التى تحيا فى الينبوع امنحيه الحياة الأبدية مثلك ، فإنه فتح لنا طريقا معبدا وكان من قبل موصدا فى وجوهنا حتى نستطيع الآن أن نرتاده ونحن آمنون . وبعد أن نصل إليه نجد فيه الحياة .

أصبح الطريق الذى كان غير عهد ،طريقا مستقيما وبفضل الملك أصبح الطريق المؤدى إلى الذهب قريب المنال مثل طير العقاب » .

وكانت المناجم من ضمن أملاك المعبد .وكان الذهب المستغل من الجبل ينقل إليه قبل أن يزيد رصيد المخصصات الملكية . وقد كلف قائد وفرقة من حملة السهام بحراسة المعبد والعمال الذين يعملون فيه . ولم يكن ليجرؤ أحد من عمال مناجم الذهب الذين كانوا يخترقون الصحراء أو حملة السهام أو الحراس أن يغيروا شيئا من الترتيبات التى أمر الملك بوضعها . ولم يكن يسمح لأى إنسان أن يكلف بأى شىء العمال الذين يستخلصون الذهب لحساب المعبد أو أخذ أى شىء من الذهب ، الذى يعتبر جسد الآلهة » .

والملوك الذين سوف يعتلون العرش ويلبون رغبات سيتى سيشد أزرهم آمون وحر آختى وبتاح تاتنن ، وسوف يوفقون فى حكمهم ويسيطرون على الصحارى وعلى أرض القوس ـ وسوف تخلد أرواحهم ويعم الرخاء أولئك الذين يحكمونهم على الأرض ، ولكن الويل لأولئك الذين يصمون آذانهم عن سماع كلماتى ، سواء أ كانو ملوكا أم أفرادا سوف يتعقبهم أوزيريس ، وتزعج أيزيس زوجاتهم وهورس أبناءهم بمعاونة كل امراء تودجوسر Todjouser » *

وكان حال عمال المناجم الذين بعث بهم الملك إلى بلاد النوبه أسوأ من ذلك(١٢)فقد ذكر «أن الذهب يوجد بكميات وفيرة فى بلاد ايكايتا Ikaita — شرقى الشلال الثانى — ولكن الطريق كان شاقا للغاية بسبب عدم وفرة الماء. فعندما توجه رؤساء العمال الذين يستخرجون الذهب ، لم يصل إلا نصفهم فحسب ، بينما مات النصف الآخر من الظمأ على قارعة الطريق كما نفقت الحمير التى كانوا يسوقونها أمامهم ، لأنهم لم يجدوا كفايتهم من ماء القرب لإطفاء ظمأهم سواء فى الذهاب أو فى العودة . ولذلك لم يتيسر لهم نقل الذهب من هذه البلاد بسبب نقص الماء » .

وقد جاء فى تقرير أحد حكام كوش أن الملوك الأقدمين حاولوا حفر آبار ولكنهم لم يوفقوا . . ولم يكن والد رمسيس الملك من مآت رع (الملك سيتى) الذى وفق فى حفر بئر شرقى ادفو ، بأسعد منهم حظا — فقد أراد أن يحفر بئرا وتعمق إلى مائة وعشرين ذراعا ولكنه ترك العمل قبل أن تنبثق المياه . ولم يثن هذا الفشل عزيمة المهندسين الذين أعادوا المحاولة فى

* تود جوسر هى الجبانة والمعنى أن أمراء الجبانة هم الذين يتولون تنفيذ العقوبة

عهد رمسيس الثانى معتمدين على معاونة حابى ، والد الآلهة ، التى أسبغها على ابنه المحبوب. فكان التوفيق حليفهم فى تلك المرة .

إذ استجابت للملك المياه التى كانت فى دوات Douat (العالم السفلى). وملأت الآبار .

ولم يعد عمال المناجم يموتون على قارعة الطريق ولكن العمل ظل شاقا فى المناجم ذاتها .

ولعدم وجود نصوص أقدم من التى قدمها ديودور (١٣) فإنا مضطرون إلى أن نشير إلى ما ذكره (ديودور) فى هذا الصدد إذ يقول : « ولتكسير الصخور كان يحمى بالنار ثم يطرقونه بالمطارق المعدنية فى اتجاه عروق المعدن . وتنقل القطع المكسورة إلى خارج المنجم حيث تصحن وتغسل إلى أن تصبح ذرات المعدن نقية ولامعة ، ثم يعالج الخام كيماويا حتى يصبح الذهب نقيا جدا .

والواقع أن ذهب الحلى المصرية تختلط به فى أغلب الأحيان الفضة أو النحاس أو شوائب أخرى (١٤)

وجد المصريون، فى شبه جزيرة سيناء ، حجر الفيروز الكريم «مافاكت» Mafaket (١٥) الذى كثيراً ما يستعمله الصياغ وكذلك مركبات النحاس مثل الملاكيت (الزنجار . كربونات النحاس) سشمت Sechmet. (١٦) وقد بدىء استغلال المناجم فى عهد الملك القديم سانخت * ولكن العمل فيها قد ازدهر فى عهد الرعامسه ازدهاراً منقطع النظير ، ولم يعد العمل يتعسر

---

* الملك سانخت حكم فى منتصف القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد .

بسبب نقص المياه . أما البدو الذين كانوا يهاجمون دواما عمال المناجم أو حراسهم فقد التزموا جادة العقل أو غلبوا على أمرهم .

وكانت توجد دائما متاعب من نفس النوع الذى أشار اليه مهندس يسمى حرأوررع عاش زمن الأسرة الثانية عشرة ، اذ أن الظروف الطبيعية واحدة ، كان هذا المهندس مكلفا بالقيام بأبحاث فى المنجم ، إلا أنه وصل إلى مقر العمل فى الشهر الثالث من بريت ، ولم يكن هذا الوقت ملائما تماما لحضوره إلى المنجم ، ومنذ غداة وصوله تباحث مع العمال الفنيين ذوى التجارب ، فقالوا له بإجماع الآراء : « توجد فى المنجم كميات من الفيروز لا حصر لها ، ولكن العبرة فى هذا الوقت هى فى لونه ، نحن نعلم أن لون الفيروز يكون فى هذا الفصل رائعا ولكن يبهت لونه فى موسم شمو المكفهر » ثم يستطرد حرأوررع :

« فى فصل شمو تلتهب حرارة الصحراء كاللظى ، وتصبح الجبال مثل المعادن المنصهرة ولا يصفو لون أحجار الفيروز . »

والواقع أن المهندس حرأوررع عندما باشر العمل كان فى نهاية فصل الشتاء ، ولم تكن الحرارة الشديدة قد بدأت بعد — ولكنها كانت تقترب. وربما شعروا بوطأة الحرارة عندما كان العمل على أشده . ولكن رغبته فى تأدية خدمات لمليكه بإخلاص وتفان قد رفعت من روحه المعنوية ، ولفرط إيمانه فى حاتحور سيدة السماء والتى كانت أيضا سيدة الفيروز وحامية عمال مناجمه من جهة أخرى . وقد وصل كل عمال حرأوررع دون أن تقع لهم حوادث وقد زايلهم القلق بعد أول إنتاج واستمر العمل بكل توفيق حتى انه فى الشهر الأول من فصل شمو قبل أن يتعرض للحرارة الشديدة التى تفسد لون الفيروز .

وفى مزيد من السرور ينهى حديثه قائلا : « لقد جمعت هذه الأحجار الكريمة . . ولازمنى التوفيق أكثر من أى شخص قبلى . . بل قمت بعمل أكثر مما طلب منى . وبالتأكيد لم أكن أتوقع شيئا أفضل من ذلك .

كان لون الفيروز رائعا ، ويسر مرآه العيون — ونوع الحجر أكثر جمالا منه فى الموسم العادى . . فاعتمد إذن على المعبودة حاتحور فإن فعلت . . فخيراً تفعل ، ولسوف يحالفك التوفيق أكثر منى ، فحظك سعيداً » . (١٢)

وهكذا بفضل نشاط المهندسين ومثابرة العمال المهرة ذوى المراكز وبفضل غيرة التجار الذين سوف نتحدث عنهم فى فصل آخر ، امتلأت خزائن مصر بكميات وافرة من المواد التى تستخدم فى الصناعة من الأحجار والمعادن والأخشاب . والآن فلنشاهد العمال وهم يقومون بالعمل فى المصانع.

٣ — العمل فى المصانع

إذا راجعنا الرسوم الكثيرة المدونة فوق جدران مقابر الدولة الحديثة ، تلك التى تبين الأعمال التى تجرى فى المصانع والنصوص الموضحة لها . فإنها تغرى بالاعتقاد أنهم كانوا يقومون بمختلف أنواع الحرف فى مكان واحد : كالنقاشين على الحجر والحفارين على الأخشاب وصانعى الأوانى من الأحجار والصياغ وعمال الجواهر وقاطعى الأحجار الثمينة وصانعى الأوانى المعدنية ، والدروع والنجارين وصانعى العربات ، وقد يكون هذا مجرد تصوير اتفاقى .

ويشرف على هذه الأعمال المختلفة كلها بعين ساهرة ، رئيس عام ، قد

رسم فى هيئة عملاق بينما رسم العمال الكادحون فى هيئة أقزام ، وتحت رسمه نص بالكتابة الهيروغليفية يحدد اعماله ، فعلى سبيل المثال ، جاء تحت رسم دوا أو نحح Douaouneheb المشرف على أملاك آمون : «حضر للتفتيش على الورش ولافتتاح بيتى الذهب والفضة ولتنظيم جميع الأعمال وليقبض على زمام الأعمال التى يتولاها المشرف ... الخ » (١٨) وربما تجمعت معا على طول طريق واحد كافة الورش المخصصة لنوع واحد من العمل ، كما يحدث الآن فى أحد شوارع الأسواق بمدينة القاهرة أو فى دمشق ، وكان المدير يتولى التفتيش عليها بالتوالى . على أنه من الملاحظ أن التماثيل المصنوعة من الخشب ، وحتى المصنوعة من الحجر كانت تحلى بالتطعيم حتى أن بعض أجزاء العربات والأثاث والأسلحة كانت تنقش وتجمل بالذهب وتزين بالفيروز ، واللازورد . وربما كان يتولى هذه الأعمال صانع ماهر فى ممارسة مختلف هذه الحرف أو عدد من المتخصصين كانوا يعملون جنبا إلى جنب ويتنقل ما يصنعونه بين أيديهم حتى ينتهى العمل فيه .

٤ — النقاشون

كان حفارو الأحجار فى ذلك الحين يفضلون أن يعملوا على انفراد . فتراهم عند دواو نحح الذى سبق ذكره وهم يهيئون بابا من قطعة واحدة من الحجر مكونا من صدغين ومن العتبة العليا وإفريز ، وواجهة مبنى مفرغ كالدانتيلا ، وعمود من قطعة واحدة من الحجر له تاج على هيئة النخلة ويماثل الأعمدة التى فى تانيس وأهناسيا . ويعمل بعض العمال بالمطارق بينما يعمل البعض الآخر بالأزاميل ، ويشتغل آخرون بأدوات الصقل ، يعملون وهم وقوف أو جالسون على مقاعد بدون مساند ، أو على قطعة الجرانيت ذاتها . ودون الانتظار حتى ينجزوا عملهم يقوم الرسامون وهم قابعون على

قلم من الغاب فى يد ومحبرة فى اليد الأخرى بتخطيط الكتابة بالهيروغليفية التى سوف تنقش على الحجر وتلون فيما بعد بالأزرق أو بالاخضر . وفى مصنع رخ مارع Rekhmarê الذى يتبع أيضا أملاك آمون (١٩) نجد تمثالا ضخما يمثل الملك جالسا على أريكة مربعة ذات مسند للظهر غير مرتفع وتمثالا ضخما آخر ، منتصب القامة يستند إلى عمود ، وأبا الهول ، ومائدة قرابين ، كاد العمل فيها كلها أن يتم ويجلس النحاتون جلسة مريحة سواء فوق مقدمة «أبو الهول» أو فوق ظهره أو على مائدة القرابين أو فوق سقالة خشبية متحركة حتى يمكنهم مباشرة العمل فى وجوه التماثيل الضخمة أو فى رؤوسها .

ويستخدم بعض العمال مطرقة خشبية ومقراضا بينما ينهمك البعض الآخر فى صقل سطح الجرانيت — ويخطط الرسام ، فى هدوء ، بقلمه الكتابة الهيروغليفية على العمود الخلفى للتمثال بينما يغمس النقاش فرشاته فى إناء استعداداً للتلوين . ولا يسع الإنسان إلا أن يتساءل هل يمكن إتمام كل هذه الخطوات المتعددة فى وقت واحد ؟ وحقيقة الأمر أن النقاش الذى يحفر بعض تفاصيل الوجه والحفار الذى يعمق الكتابة الهيروغليفية على عمود التمثال وقاعدته لا يعترض عمل أحدهما الآخر . ولكن عملية الصقل لا يمكن أن تتم إلا بعد أن ينتهى كل من النقاش والحفار من عملهما ، ثم تأتى فى النهاية عملية التلوين .

يتضح من هذا أن الفنان المكلف بإتمام عملية التمثال ، يجمع فى مصنعه عدداً من ذوى المهن المختلفة يقومون بعملهم مترابطين ، جماعة وراء الأخرى ، وسوف نجد أن هذه الطريقة نفسها متبعة فى أعمال أخرى ، ولا شك أن المصريين كانوا لا يكرهون بدء عملية ما من جملة نواح منها ، وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يصطدم المصقل بالمطرقة أو بالمنقاش ،

وعندئذ تعلو صرخة يتلوها سب يوجهه العامل المصاب إلى زميله المخطيء وقد يكون رده دعابة.

وعندما ينتهي العمل في التمثال في الموعد الذي حدد له ، يصبح معداً للنقل إلى المعبد أو إلى القصر ليكون شاهدا أمام الحشود المعجبة عن مدى العطف الذي أسبغه الملك على خادمه الأمين أو عن مدى الحب الذي يكنه الإله لفرعون.

إن نقل التمثال إلى المعبد يعد مناسبة لإقامة احتفال كبير ، وخاصة عندما يكون التمثال ضخماً والطريق وعراً فيعتبر هذا العمل انتصارا رائعا من الناحيتين الفنية والإدارية . وكان عليهم أن ينقلوا تمثالا من المرمر ارتفاعه ثلاث عشرة ذراعا من مصنع يقع في ضاحية خارج المدينة على الطريق المؤدي إلى محاجر الرخام الأبيض ، إلى مبنى يطلق عليه اسم مشيده « إن حب تحوتي حتب باق في اقليم أونيت Ounit *»[٢٠] لقد كان عملا ينطوي على تعطف ملكي لم يسبق له نظير من قبل ، إذ سمح بأن يطلق اسم فرد عادي على هذا المبنى وأن يصنع تمثال بهذا الحجم ثم ينقل إلى موضعه بمثل هذا الاحتفال العظيم . ويبدأ بوضع التمثال على زحافة قوية تتكون من لوحين سميكين من خشب البلوط مرتفعين في أحد الجوانب ، وقد شدا بعوارض قوية متقاطعة ويثبت التمثال بحبال . ولما كان المرمر حجراً هشا لذلك فإن الأماكن المعرضة لاحتكاك الحبال وضعت عليها وسائد لحمايتها من أي ضرر يلحق بها ، وذلك على سبيل الاحتياط . وقد ربطت أربعة حبال طويلة جدا بهذه الزحافة التي يبلغ وزن حمولتها خمسة أطنان أو ستة ، لشدها بوساطة أربع جماعات من الحمالين ورجال من غربي المقاطعة وآخرين من شرقها وجنود من المشاة وبعض خدم المعبد .

* أقليم الأرنب

ولم يتردد رجلان فى إضافة ثقلهما إلى ثقل التمثال - ركع أحدهما على ركبتيه موجها مبخرته نحو وجه التمثال ليعطره بدخان عطر التربنتينا ، بينما اخذ الثانى يرش الماء من أبريقه نقطة نقطة كما اعتاد أن يفعل فى المعبد أيام تماثيل الإله ، وكان حملة الماء يقفون قريبا من التمثال يسكبون مياههم على الأرض ليسهل الإنزلاق عليها ، بينما حمل رجال آخرون لوحا ضخما من خشب البلوط يخيل إلينا أنه كان بمثابة أداة تعين فى دفع التمثال ، ولكنا لانعلم تماما كيف كان يستخدم .

صدر الأمر بالتحرك ، وكان يشرف على هذه العملية رئيس الأعمال الذى أشرف على صنع التمثال ، يعاونه مساعده وهما اللذان كانا يصدران الأوامر إلى عدد من الرجال الذين يحسنون الكلام أو بعبارة أصح يجيدون إثارة روح الاهتمام ، فى هذا الجيش من الحمالين وإثارة حماستهم بنشيد يشتركون فيه وينتهى بصيحة « هايا* » ، تلك الصيحة التى لا تقاوم يتحرك التمثال ثم يصبح الآن فى عرض الطريق بعد أن رفع عمال المحاجر من الطريق ما قد يعترضه من الأحجار . كان الطريق ممتلئا بالجنود المصطفة وبحشود الأهالى المتشوقين لمشاهدة هذا الحفل ، بينما كانت القوارب تتحرك فى القناة فى موازاة سير الموكب وكانت أصوات البحارة والمسافرين تختلط بأصوات الجمهور من رجال الموكب وقد أقيمت استراحات على الشاطىء يتوافر فيها الطعام يتناوله كل من العمال الكادحين والأهالى الذين اكتفوا بالصياح والتهليل ليستعيدوا قواهم . وكان أهم ما فى هذا الموكب كله ، شخصية تحوتى حتب نفسه الذى حضر محمولا فوق محفة على أكتاف حمالين ، يصحبه أولاده وجنوده وخدم يحملون مراوح من الريش وحصر لتزيد فى روعة هذا الاحتفال المهيب ، وكان يعتقد أنه لم يحدث فى مقاطعته إطلاقا فى الزمن السابق موكب يماثل

(*) يماثل هذا ما يقوله العمال اليوم « هيلاهوب » .

هذا الموكب، اذ يقول: « إن الأمراء الذين عاشوا وعملوا منذ أقدم العهود ، والإداريين الذين بذلوا جهدهم فى سبيل الخلود لم يكن ليخطر ببالهم ما عملته لنفسى فى هذه المدينة وما سأعمله فقد أقمت هياكل على شاطىء النهر . ها أنذا قد أتممت ما عملته فى سبيل الخلود ، بعد أن أقمت لى مقبرة خالدة إلى الأبد ».

لقد جرت أحداث هذا الموكب فى زمن الدولة المتوسطة، ولكنه لم يكن فريدا إلى الحد الذى تصوره حاكم مقاطعة الأرنب ، فقد أقيمت مواكب عائلة كلما سمح الملك بنقل تماثيل أحد الأفراد إلى المعبد ، كذلك عندما كانت تنقل التماثيل الملكية ، وكان المصريون يحبون حقا هذه المناسبات والاحتفالات الحاشدة وما يصحبها من صخب وتهليل وإفراط فى الشراب، كان يكفل لكل فرد بأن يعود إلى بيته سعيدا بقضاء يومه . وقد نال أحد الأفراد، واسمه قن آمون تقديرا ملكياً كبيراً إذ نقل فى موكبه ثلاثة تماثيل (٢١) وكان يرافق الموكب حشد عظيم من الأهالى يصيحون ويترنحون بين سحب من بخور زيت التربنتينا العطرى . وقد حمل الرجال أكاليل من زهور البردى بينما كانت كاهنات حاتحور « سيدة طيبة » ، يحملن المزاهر والصاجات . أما الراقصات وأصحاب الألعاب البهلوانية فكانوا بدورهم يفعلون الكثير .

٥ — الصياغ وتجار الحلى والجواهر

إن صناعة الآنية من الأحجار التى بلغت درجة عالية من الدقة منذ عهد الأسرة الأولى كانت لاتزال مزدهرة دائما فى عهد الرعامسه .

وكانت الجرار والدلاء والأوانى والكئوس والأقداح والقصاع تصنع من أحجار المرمر والشست والحجر السماق ، وكانت تزين أحيانا برسوم بشرية أو حيوانية .

وكانت الأدوات المستخدمة فى الصناعة فى منتهى البساطة وأهمها مثقاب له مقبض من الخشب مكسو فى نهايته العليا بالجلد ، ويمسك الصانع المثقاب بين يديه ويلفه على قطعة الحجر التى يضغطها بين ركبته .

وقد يحدث أحيانا أن تقع أخطاء ، إذ قد تؤدى عملية الثقب إلى شدخ جدار الإناء ، غير أن مثل هذا الخطأ يمكن إصلاحه . بنزع الجزء المعطوب بعناية ووضع قطعة حجرية أخرى مكانه .

وقد أمدتنا مقبرة توت عنخ آمون بمجموعة أوان من المرمر تتمثل فيها مهارة الصناعة أكثر من توافر الذوق الفنى ، ولسوف يفضل الكثيرون عليها القنينة الرائعة المرسومة على جدران مقبرة بوى أمرع Pouyomre (٢٢) وكل حليتها مجرد نقش بسيط من الحروف الهيروغليفية .

ويتطلب الاشتغال بالمعادن عددا كبيرا من العمال ، فكنز بوبسط ومفرداته من الأوانى الذهبية والفضية والكئوس الدينية والأقراط والأساور وحلى مقبرة سبتاح Sipteh وحلى السرابيوم وهى الآن من مقتنيات متحف اللوفر ، وتكون مجموعة تنتمى إلى عهد الرعامسه ، ولكنها أقل فخامة وتنوعا من المجموعة الرائعة التى وجدت فى مقبرة توت عنخ آمون أو مقبرة بسوسنس ، وإذا راجعنا بردية هاريس Harris الكبرى التى أشارت تفصيليا إلى هبات رمسيس الثالث السخية للآلهة نجد أنها تشير إلى مصنوعات من الذهب والفضة والنحاس واللازورد والفيروز والحقيق . وكانت أبواب المحراب بمعابد طيبه إما من الذهب أو من النحاس الذى له بريق الذهب . وكانت التماثيل مكسوة بالذهب ، والكثير من موائد القرابين وأوانى المياه المقدسة كانت من الفضة ، أما المراسيم الملكية التى تصور لصالح

أمون فكانت تنقش على لوحات كبيرة من الذهب أو الفضة أو النحاس . وكانت فخامة البيت الكبير ومركب أمون المقدسة تفوق كل وصف .

وكان بمعبد أتوم Toum فى مدينة أون ميزان من الذهب ، كان فريداً فى نوعه لا مثيل له منذ عهد الآلهة ، وكان يعلو الميزان نسناس (على هيئة كلب Cynocéphale) وزين ، من الذهب الصب ، يرقب عملية الوزن . وقد أشير إلى أن تماثيل النيل صنعت من مواد مختلفة يقرب عددها من واحد وعشرين معدنا . أما التماثيل المصنوعة من اللازورد الحقيق والفيروز فكان عددها ٥٦٨ ر ١٣ وإن كانت التماثيل التى صنعت من الذهب أو من المعادن الأخرى لا يبلغ عددها إلا نصف هذا الرقم ،فإنه عدد لا بأس به . ولم يكن ثمة معبد إلا وله ثروته . وإذا أردنا أن نكون فكرة شاملة عن نشاط العمال المشتغلين فى أعمال المعادن ، فإنه ينبغى أن نشير إلى كافة ما كان فى حوزة الملوك والخاصة سواء ما كانوا يتحلون أو يحتفظون به لديهم .

وكان يبدأ العمل بوزن الذهب والفضة فى المصانع قبل تسليمهما لمن يقوم بصياغتهما(٢٢) لأجل هذا الغرض كان يستعمل الميزان على الأرض ، أما فى العالم الآخر فكان الإله تحوت يستعمل ميزانا مماثلا فى وزن الروح أثناء المحاكمة أمام الإله أوزيريس وآلهة امنتيت Amentit (آلهة الغرب — آلهة الموتى) .

أما الغلال فكانت تقدر كيلا بالمد . وكانت تعد سبائك النحاس الأسيوية الأصل ، دون الاهتمام بوزنها . كان الميزان مكونا من عمود ينتهى برأس معات ، إلهة الحق ، وذراع معدنية تتوسطها سكين فى الوسط ويحمل عند طرفيه كفتى ميزان علقت كل منهما بثلاثة حبال . وعند إجراء عملية الوزن توضع ذراع الميزان بكل ملحقاته على السكين ويجرى الوزان

اختبارات حتى يتم توازن الكفتين . كانت أثقال الوزن على هيئة عجل جاث ، أما المعدن الذى يقدم ليوزن فكان على شكل حلقات .

كان على الوزان — قبل أن يقوم بعمله — أن يوقف بيديه ذبذبة كفتى الميزان وكان عليه أن يتحقق من أن الإبرة التى تتوسط الذراع ، فى وضع قائم . والكاتب وقد نزع من المقلمة ، اللوح والقلم ، يسجل نتيجة الوزن بحضور رئيس عمال المعبد الذى يتسلم منه الذهب الموزون ، ويسلمه بدوره إلى المهرة من العمال .

وسوف يحتاج هؤلاء العمال لأسلاك للسلاسل ، ولرقائق من الألواح وشرائط للحلى ذات الحواف ولألواح كبيرة من المعدن للأوانى والكئوس ، ولأنابيب تصنع من شرائحها الأساور ، ولسبائك معدنية(٢٤) وقبل كل شىء كان يجب أن يصهر المعدن للحصول على هذه الأشكال المختلفة ولذلك كان المعدن يوضع فى قوالب ثم تترك فوق الموقد .

كان المصريون يصهرون الذهب والفضة على نيران موقد فى العراء ، ويصطف حول الموقد فى شكل دائرى ستة أشخاص كانوا ينفخون فى أنابيب طويلة تنتهى بمقبض من الفخار به ثقوب صغيرة ليشتد لهيب النيران . ولما كان هذا العمل شاقا مرهقا فقد كان من الطبيعى أن يمزحوا وهم يعملون طلبا للتسلية .

وقد توارثوا هذه الطريقة التى كانت مستعملة منذ الأزمان السالفة غير أنه قد أدخلت عليها تحسينات منذ بداية عهد الامبراطورية الحديثة :

فصارت الأنابيب التى يجرى فيها الهواء تركب بإحكام على فتحة قرب من الجلد تثبت على الأرض ، وبها حبل متصل بالقربة يتحكم فى فتح أو إغلاق الفتحة العليا للقربة — وكان العامل يقف برجليه على قربتين متماثلتين ويمسك حبلا بكل يد من يديه ، ويضغط بقدميه على القربتين بالتناوب ويشد الحبل الذى يتحكم فى القربة التى يرفع عنها الضغط ، ويرخى الحبل عندما يضغط على القربة فيندفع الهواء فى الأنبوبة ، وبذلك كان عاملان فحسب يقومان بعمل ستة عمال ولا يبذلان إلا مجهوداً ضئيلا(٢٥). وحينما ينصهر المعدن يقوم عاملان ، لايخشيان شدة الحرارة ولا تكاثف الدخان فيتناولان البوتقة بملقاط معدنى ذى ذراعين ويكسران زاويتها فيسيل المعدن المنصهر فى قوالب صفت على مائدة ، وبهذا تتحول إلى مكعبات تسلم إلى العمال الذين يضعونها على حجر كبير يقوم مقام السندان ، ويستعملون حجراً صغيراً يسير الاستعمال كمطرقة يدوية . بهذه الأدوات البدائية ، كانوا يشكلون المعدن إلى أسلاك وقضبان أو ألواح رقيقة . وكان طرق المعدن يعطيه صلابة ، مهما كان نقياً ، لذلك كان يوضع على النار ليستعيد ليونته ، وكان العامل يتناول رقائق الذهب بالملقاط ويقربها إلى الموقد فيشتد لهيبه لأن العامل ينفخ ناره بوساطة أنبوبة يضعها فى فمه . أما الأسلاك فكانت تمرر فى مسحبة ضيقة الثقوب لتصبح دقيقة الحجم . وبهذه الوسائل البسيطة ، تمكن الصائغ من تشكيل كافة مايحتاج إليه ، ولايبقى له بعد ذلك إلا قصها وتجميعها . فالعامل الذى يريد صناعة كأس من الذهب أو الفضة كان يجلس على مقعد أمام كتلة ثبتت تماماً فى الأرض ثم يستخدم المطرقة بطريقة فنية فيستطيع تحويل اللوحة المعدنية إلى الشكل المطلوب ، وعندما يتم تشكيل هيكل الآنية يبدأ فى زخرفتها .

كانت قائمة الأشكال الزخرفية التى عرفها المصريون مادة غزيرة إلى أبعد الحدود، فكان من المستطاع أن يزخرف كأس أو قنينة برسوم هندسية أو برسوم أزهار تضم إطاراً لمنظر مألوف أو لمنظر دينى أو كان يكتفى بنقش عبارة هيروغليفية قصيرة فى دقة كبيرة على أناء أنيق فى شكله. وبعد الانتهاء من اللمسات الأخيرة والفراغ من تلميعها تصبح الآنية مهيأة للعرض على رف قد يمتلىء آخر النهار بأشياء مختلفة الأنواع.

٦ — صناعة الأخشاب

تتكون الأنواع المختلفة من الأخشاب التى استعملها النجار من أشجار اللبخ والسنط والشربين وأنواع أخرى من الأخشاب المحلية التى لم نستدل بعد على كنهها، وذلك بالإضافة إلى الأبنوس الذى استورد من الجنوب وخشب الصنوبر آش Ash والأرز مر Mr المستوردين من سوريا واللذين يماثلان فى اللون حجر اللعل المستخرج من الجبل الأحمر. وتنشر جذوع الأشجار إلى ألواح وأجزاء بالمنشار اليدوى. أما الكتل الخشبية فكان النجارون يحصلون عليها بوساطة بلط ذات أيد طويلة. أما القدوم فهو قاطع معدنى مثبت بزوايا قائمة فى طرف يد خشبية يتروح طولها بين طول قبضة اليد إلى طول الذراع، وكانت تؤدى نفس الأغراض التى تؤديها الفارة الحديثة أو المكشطة. وكانت الثقوب المستديرة تثقب بوساطة وتر القوس. أما الفواصل الخشبية فكانت تعمل بالمطرقة والمثقاب اللذين كانا يستخدمان أيضا فى عمليات تعشيق الخشب. ولم يكن بنك النجار قد اخترع بعد. وعندما يراد نشر لوح من الخشب طوليا، كان يربط إلى قائم ثبت جيداً فى الأرض، ولما كانت حركة المنشار تؤدى أحيانا إلى انزلاق الخشب وبالتالى إلى شجه، فقد أمكن التغلب على هذه الصعوبة بربط اللوح إلى القائم

الخشبي من أعلى ووضع وتد ثقيل الوزن بينهما ، وإذا لم يكن لوح الخشب كبير الحجم فقد كان النجار يثبته على الأرض بيد ، وينشر باليد الأخرى . ويعمل نفس الشيء عندما يستحمل البلطة مستعينا بقدمه أو بيده لتثبيت الخشب ـ ولضم الخشب بعضه إلى بعض كانوا يستخدمون طريقة التعشيق والخوابير الخشبية والصموغ وكانوا يفضلونها على المسامير المعدنية التى كانت تستعمل فى العادة لتثبيت الأجزاء المعدنية إلى الخشب . وتستعمل الفارة فى مسح العيوب الصغيرة .

والتلميع هو الخطوة النهائية ، وفى العادة كانت تسلم قطعة الأثاث أو الصندوق بعد الفراغ من صنعه ، إلى رسام يتولى زخرفته (٢٦) .

والهيكلان الخشبيان الذى أمر أبوى بعملهما لمعبد الملك الراحل امنحتب الأول يوضحان لنا مدى روعة النقوش وكيف قام العمال بخطوات تنفيذ العمل . (٢٧) يبلغ طول هاتين القطعتين ١٢ قدما طولا وترتفع أحدهما أكثر بإضافة قاعدة توصل إليها خمس درجات من السلم . وتسند أعمدة على هيئة ساق البردى إفريز مزخرف برؤوس ثعبان الكوبرا (رمز معبودة بوتو) أما السقف فهو على هيئة الشكل المقبب المألوف ، وفى الواجهة الأمامية يرى رسم للمعبودين هورس وست يربطان النبات الذى يرمز إلى الجنوب والشمال ، حول الملك الراحل . ويتكون الهيكل الآخر من ثلاث طبقات يحمل كل منها على صف من أعمدة صغيرة وترك أسفلها وهو الأرضى فارغا ليوضع فيه الفراش والوسادة ومقعد ومائدة ومرآة والجزء الأعلى مملوء بالثقوب والرسوم المحفورة ، ومن بين النقوش يشاهد رمز حانحور وعدة إطارات ملكية . وعلامات إيزيس وأزيريس والصقور المتوجة ، والمعبود بس وهو يضرب على الدف وتا أوريس

تقبض على تميمتها ، ومن الواضح أن العمال الذين يقومون بالعمل فى هذين الهيكلين من ممارسى الرياضة الموهوبين . ولم يكن ثمة حاجة للعمال الذين تولوا حفر الكتابة الهيروغليفية على العمودين الكبيرين أن يتركا مستوى الأرض ، ولكن العاملين الآخرين اللذين يعملان على الإفريز قد تسلقا أعلى العمود وهما يحملان أمتعتهما ، ويضع أحدهما قدمه مستندا على مجرى الحز تحت تاج العمود ، ويستند الآخر على العمود ذاته وكلاهما يرتكز على ثعبان على الإفريز بيد ويطرق المعدن بمطرقة خشبية بيده الأخرى .

أما عند الهيكل الآخر فإن وصول أحد رؤساء العمال قد أذهل العمال أنفسهم حين أخذهم على غرة ، فعلى القاعدة يرى عامل يجلس على أعلى درجات السلم دون أن يبدى اهتماماً باستعمال أدواته ، بينما يتسلق عامل آخر الأعمدة الصغيرة هارباً بسرعة من ممثل السلطة وفى الجانب الآخر يرفه رسام عن نفسه بتلطيخ وجه زميله الذى يبدو عليه الرضا ، ويمر رئيس العمال دون أن يلحظهما إذ كان كل اهتمامه موجها إلى عامل قد تمدد على الأرض وراح فى سبات عميق بجانب عمله الذى لم ينجزه بعد ، فيصيح فيه رئيس العمال صيحة تزعج أحد العمال المعلقين بالدور الثانى فيفقد توازنه . وعلى السطح يسرع رجلان باستعمال أدواتهم ، فيثقب أحدهما ثقبا ويطلى الآخر الخشب ، بينما يهز رجل ثالث العامل النائم ليوقظه . وفى مصر قديما كما هو حادث الآن،كان العمال يفضلون العمل الجماعى عن العمل الفردى،وللوصول إلى نتائج طيبة يستوجب الحال استخدام عدد كبير من رؤساء العمال ذوى البصر الحاد ، بالإضافة إلى استعمال مجموعة كبيرة من ألفاظ الشتائم وليس ثمة مانع من استعمال العصا ، واستخدام عدد آخر من رؤساء العمال للإشراف على هؤلاء الأخيرين .

ومنذ أول عهد الأمبراطورية الحديثة راجت تجارة جديدة هى صناعة

العربات وأصبحت واسعة الانتشار وكانت فى الواقع مجرد تخصص فرعى فى فن النجارة (٢٨) وكانت هذه العربات تصنع عادة من الخشب ، ولم تصنع إطارات معدنية للعجلات مطلقا وإن استعانوا بألواح من المعدن فى هيكل العربة التى كانت تتألف من عدد كبير من القطع الصغيرة ، ولدينا قصيدة شعرية تعدد أسماء نحو خمسين قطعة دون إكمالها . ويصنع محور العجلة بضم عدة أجزاء دائرية نشرت من خشب سميك . وكانت المشكلة الكبرى، هى عمل العجلة التى كانت تتكون من أربعة أوستة أجزاء مستديرة تماما .

وثمة نوع آخر من التخصص فى صناعة النجارة هى صناعة الأقواس والسهام والنبال والعصى والصولجانات من كافة الأنواع ، ليستعملها فرعون وكبار رجال الدين وعلية القوم من المدنيين والعسكريين والأدوات الموسيقية .(٢٩) وقد يحتاج الأمر تارة إلى عمل أعواد مستقيمة تماماً للرماح وقد تكون تلك الأعواد منحنية انحناء خفيفاً دائماً . وفى مصنع من خبر رع سنب Menkheperrêseneb رجل يختبر قوسا بينما يحاول زميله أن يزن سهما ويتحقق من أنه مستقيم تماماً . ولأجل ثنى أفرع الأشجار كانت تسخن على النيران قبل أن تنزع قشورها وكانت تثبت فوق منضدة بدائية ، هى عبارة عن جذع شجرة ذى فرعين مغروس فى الأرض ، وله ذراعان شدا إلى بعضهما بإحكام ، وبعد تسخين فرع الشجر الذى يراد ثنيه يوضع فى كلابة بدائية حيث يمكن ثنيه بمعاونة قضيب إضافى.(٣٠) وكانت العصى والصولجانات والآلات الموسيقية تزخرف فى معظم الأحوال على غرار قطع الأثاث ذاتها إما بالتطعيم أو بتكسيتها بقشرة أو بإضافة رؤوس نحتت من خشب . ويوجد فى متحف اللوفر حاليا تمثال من الخشب لرأس أنثى — كان يزين فيما سبق أعلا قيثار(٣١) ومجموعة عصى الملك توت عنخ آمون ذات

مقابض من العاج أو الأبنوس وتنتهى برؤوس زنوج أو أسيويين .

٧ — صناعة الجلود

ازدهرت صناعة الجلود منذ عهد الدولة القديمة . وكان أوتا Outa وهو أحد رجال هذه الصناعة فى ذلك العهد ، يصنع النعال ومحافظ للمخطوطات وصحائف من جلد يستعملها أحد الموظفين وفى يده برنامج وهو يقود حفلات دينية أو دنيوية . وبالإضافة إلى ذلك كانوا يصنعون أشياء كثيرة منها خوذات الجنود وبعض حاجياتهم وجعاب السهام وتروس ودروع من جلد قد شد بالمسامير ولوحات من المعدن لتقويته. وعرف المصريون كيف يطرقون الجلود ويزخرفون الجعاب والتروس وينقشونها برسوم اقتبست من قائمة الزخارف السورية ولكنها صنعت بحذق واتقان حتى أنها فاقت زخارف بلادها الأصلية .(٣٢) ومع ذلك ، فقد كان المصريون لا يتبعون دائماً سوى طريقة دبغ الجلود بالزيت وهى المعروفة الآن فى فرنسا بدباغة جلد الشاموا فكانوا يشدون الجلود من أطرافها ثم تغمس فى أوان ملئت بالزيت وتسحب منها بعد ذلك وقبل أن تجف تماما كانت تطرق حتى يتم تشبعها بالزيت . وبهذا يكتسب الجلد الخام صفات الجلد المدبوغ من حيث الليونة وعدم قابلية امتصاص المياه ، دون أن يتعفن .

٨ — مات الفنانين والصناع

كانت القاعدة العامة المتبعة فى كافة المصانع أن تعرض الأشياء التى تمت صناعتها إما على موائد أو ترص فوق رفوف، ويقوم مدير الأعمال بالتحقق من دقة صناعتها واتقانها وأنها صالحة لأن توضع ضمن مقتنيات الإله أو الملك . وكانت توجد معارض عامة تضم كافة منتجات الصناعة المصرية .

وتحتوى مقبرة قن آمون Qenamon على شبه قائمة محلاة بصور الهدايا التى قدمت للملك بمناسبة عيد رأس السنة.(٣٣) وفى معبد الكرنك نقش رائع يوضح كافة الأشياء التى أهداها الملك للإله امون.(٣٤) أما فن نحت التماثيل فهو جد غنى بمجموعة التماثيل الملكية المصفوفة فى التوابيت والمرسومة على سفينة من طراز عتيق، وتماثيل واقفة أو جالسة أو راكعة لرجال أو سيدات وتماثيل أبو الهول برأس آدمية أو برأس صقر، يعلوها تاج أو تصور دون تاج، وتماثيل الحيوانات التى قد صورت الغزال والوعل والماعز البرى.

أما الأوانى الحجرية التى تذكرنا بالعهد القديم فقد أضيفت إليها مجموعة من الزلع ذات الهيكل المستدير ولها دعائم صغيرة فى أسفلها تستند عليها.

ولا زلنا نعجب كثيرا بتلك الأقداح والكئوس ذات القواعد المزخرفة الجوانب فوق أكراشها والمشتملة من الداخل على حديقة صناعية صغيرة ترى فيها زهر اللوتس والبردى والأقحوان وأشجار الرمان تحيط كلها بضفدع جثم فوق قاعدة. وبعض أوانى التوابل قد صنعت على هيئة طيور. وقد تكون مقابض تلك الأوانى أحيانا على هيئة رأس بطة متجهة إلى الداخل، إما لأن ما بداخلها يفتح الشهية للطعام أو لأن بطة صغيرة تعوم فيها.

ومما يثير الدهشة أيضا تلك الزلع الضخمة التى تستخدم قاعدة لقلعة سورية وقد رسمت عليها حاميتها، أو صور عليها بناء تهاجمه فهود لتقتنص طائرا أجيلا حط فوق سقفه. وكانت الصناديق والمقاعد ذات المساند والمقاعد المنخفضة التى لاظهر لها هى أهم أدوات الأثاث. وعرض الصياغ عقود الزينة ذات صفوف متفاوتة ومشابك على هيئة نباتات ذات زهور. أما صانعو

الدروع والعربات فقد بعثوا إلى تلك المعارض بعربات مجهزة بكل أدواتها: أطقم الخيل والسرج والأقواس والحراب والسياط والسيوف والدروع ذات الزرد وأجربة السهام وجرب الأقواس وجعاب البلط والخناجر والخوذات وتتمثل الأدوات المنزلية فى المرايا والمظلات المصنوعة من ريش النعام ذات الأيدى الأبنوسية المطعمة بالذهب، وبعض أدوات أخرى مثل رؤوس طيور ذات مناقير طويلة ورقاب أكثر طولا . ولم يتوصل بعد إلى الكشف عن مهمة تلك الأدوات ، ومما لا ريب فيه أنها لم تكن تؤدى غرضاً معينا . وقد أخذ الأقبال يزداد شيئا فشيئا على نوع من الأثاث والأدوات اتخذت لمجرد الزينة فحسب ، تعلوها رسوم من أشجار النخيل المحملة بالثمار وجماعات من القردة تقفز على فروعها . والحق أنه معرض جميل . وأن الصناع فى مصانع الملك وآمون لجديرون بكل ثناء من سيدهم الإنسان أو من مولاهم الإله .

وهنا يتبادر سؤال لمعرفة ما إذا كان هؤلاء الصناع البارعون ،ومن بينهم الكثيرون من الفنانين ، يجازون بما يتفق ومواهبهم !

عندما تفقد بويم رع Pouyemrê الكاهن الثانى لآمون ومدير عام أعمال معبد الإله ، الأشغال التى تمت فى المصانع وقابل رئيس الفنيين ورئيس العمال، توجها بالكلام إليه قائلين : « تفرح كل القلوب لمنائك » . ولكن بويم رع لم يفه بكلمة شكر لهما . فقد كان ينظر إلى تلك المعجزات المنطوية على المهارة الشديدة وبراعة الفن كما ينظر إلى سلال القرابين والعينات والمعادن الخام ومواد الطعام التى يجمعها رجال الضرائب (٢٥) وليس هناك ما يؤكد أنه نطق مرة بكلمة طيبة أو بعبارة تهنئة وجهها لأمهر عماله . وقد أظهر لنا رخما رع جليا أنه عندما زار مصانع معبد آمون كانت

مسئوليته كمدير أعمال أن يحدد لكل رجل طريقه فى العمل ، ومع أنه لم ينس أن يسرد لنا كل ألقابه ورتبه فإنه لم يشر اطلاقا إلى أولئك الذين امتازوا فى عملهم من العمال .

كان المشرف على العمل يخاطب الصناع الفنانين كما لو كان يتحدث إلى عمال عاديين ، قائلا : « هيا أيها الرفاق ، حركوا سواعدكم . لنعمل ما يستوجب الثناء على هذا الحاكم فتكمل الصروح لسيده فى أملاك والده آمون الذى سيخلد اسمه ما نشيده ويكتب الخلود لأعمالنا هذه طوال السنين المقبلة ».(٣٦) كان عمال كل مصنع يشتغلون متكتلين لتمجيد الإله آمون أو تخليد الملك ، والوزير أو كبير الكهنة بجهد مشترك ، ولم يدون لنا التاريخ أسماء الذين أتموا هذه الأعمال المجيدة ، بل ظل الإنتاج الفنى مجهول الأصل . ولم يطرأ على ذهن أحد من الناس أن النحات العظيم هو هبة الإله .

ومع ذلك ففى العام الثامن من حكم الملك رمسيس الثانى ، بمناسبة اكتشاف كتلة ضخمة أثناء زيارته لمحاجر الجبل الأحمر أقام لوحة تذكارية فى معبد أون أعرب فيها ، بصفة خاصة ـ عن عنايته بكل أولئك الذين ساهموا فى صناعة تماثيل أبو الهول والتماثيل الواقفة أو الجالسة أو الراكعة التى ملأت معابد مصر .

« أنصتوا إلى كلمانى ـ ها هى ذى الثروات التى تملكونها . الحقيقة تؤيد أقوالى . إنى أنا رمسيس الذى أخلق وأهب الحياة للأجيال ـ إن أمامكم الطعام والشراب وكل ما تشتهيه الأنفس . . . إنى أدعم مركزكم ، قولوا بأن حبكم لى هو الذى يدفعكم إلى العمل من أجلى . . إن تحياتكم لى تشد من أزرى . لقد عملت على توفير كميات عظيمة من الطعام قد احتجزت لكم ، على أمل أن تعيشوا لتتموا عملكم . . إن المخازن ملأى بالحبوب ، حتى لا يأتى يوم واحد تجوعون فيه . لقد دفع لكل منكم أجره لمدة شهر . . »

« لقد ملأت لكم المخازن بكل الأنواع من الفطائر واللحوم والـكعك لكي تأكلوها ، وأنواع العطور المختلفة لتعطروا رؤوسكم كل عشرة أيام، وصنادل لتنتعلوها كل يوم ، وملابس لترتدوها طوال العام . لقد جعلت كل هذه الأشياء لكم حتى لا يقضي أحدكم ليله خائفا مترقبا ذل الحاجة والشقاء . لقد عينت رجالا كثيرين من مختلف الطبقات لإطعامكم حتى في سنوات المجاعة ، وعينت رجالا من سكان المستنقعات ليحضروا لكم الطيور والأسماك وآخرين من عمال البساتين ليحصوا ما هو مستحق لـكم . لقد أمرت بتشييد فاخورة لتصنع فيها الأواني الفخارية ليظل ماؤكم سلسبيلا في فصل الصيف (شمو) ولأجل مصلحتكم تقلع المراكب دواما من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب محملة بالشعير والحبوب والقمح والملح والخبز . إني أعمل كل هذا مرددا القول : « طالما كنتم على قيد الحياة فإنكم تعملون من أجلي رجلا واحدا » .(٣٧)

لا شك أنه شيء حميد الغاية أن يحرص الملك حرصاً شديدا على أن يخلد اسمه على الآثار التي سوف تفوق الأبدية في دوامها ، كما نراه يحرص على حسن تغذية عماله وكسوتهم ليشعروا بالسعادة وهم يعملون لحساب حاكم كريم . وقد منح لويس الرابع عشر مناصب ومعاشات لعماله . وما فعله فرعون وحققه رمسيس فعلا هو إنشاء ضيعة واسعة يشرف على إدارتها أشخاص عديدون ، وقد خصصت إيراداتها لمعيشة الفنانين في مصنع يماثل ذلك الذي أقيم في مدينة اورن .. على أننا كنا نعترف بمزيد من الفضل لأعظم الفراعنة لو أنه كان قد ميز فنانا قديرا من بين هذه الجماعة العديدة من العمال الأكفاء وأظهره وهو يتناول مكافأة من تلك المـكافآت التي كانت توزع دائما إما على موظف كبير أو رجل من رجال البلاط أو على كبير من الـكهنة

ولعل الكاتب كان على صواب حين قال : «لم أر نحاتا أبدا يوفد على رأس بعثة أو عامل مسبك برونز يقود حملة ولكنى رأيت الحداد يشتغل أمام فم الأتون وأصابعه أصبحت بمثابة مخالب التمساح، وتفوق نتانته أحشاء السمك!»(٢٨)

على أننا نعثر على بعض الشواهد التى تبين مدى التقدير الذى حظى به الفنانون الذين كانوا على درجة عالية من الكفاءة فقد جاء فى نص كتبه أحدهم يعود إلى عهد الدولة الوسطى على لوحة تذكارية ، يطلعنا فيه على مدى تقديره لنفسه ، قال: «إنى أعرف سر الكلمات المقدسة وإدارة الحفلات ، لقد مارست كل أنواع السحر دون أن أترك منها شيئاً وليس ثمة سر يتعلق بهذه الأشياء و يخفى على . انى سيد الأسرار ، قدير على أن أشاهد رع فى موكبه . » (٣٩)

وكان يتحتم على الفنان أن يكون على علم تام بمراسيم الطقوس الدينية والأساطير ،وصفات الملوك والمعبودات، ولم يكن ذلك كله بالأمر الهين . والفينيقيون الذين كانوا شديدى الحرص على تقليد النماذج المصرية فى مهارة فائقة ، قد ارتكبوا سلسلة من الأخطاء فى هذا المجال كانت تثير دون شك الرأى العام المصرى . ويمتدح الفنان بعد ذلك مهارته فى العمل قائلا : «وبالإضافة إلى أننى فنان موهوب فى فنى ، فإنى على قدر من العلم يفوق المستوى المألوف ، إنى أعرف تماما الأوضاع الدقيقة لتمثال الرجل ، ووقفة المرأة ، وقد ... وكيف يتهيأ الرجل ليطعن بالحربة ، إنى على علم بنظرة العين الخاطفة ، بالدهشة الطارئة التى تعترى الشخص الذى يستيقظ من نومه ، بحركة ذراع رامى الرمح وهو يرفع ذراعه ، مدى ميل جسم إنسان يجرى ، أعرف سر تركيبات لاتقوى النيران على حرقها . . ولا تستطيع المياه اذابتها . »

« لا يوجد أحد يشتهر بهذا كله سواى وسوى ابنى الأكبر . وعندما يشاء

الله أن يعمل ، فإنه سيقوم بالعمل ويتمه فى جدارة وثقة . لقد شاهدت براعته فى أشغاله كدير أعمال فى كافة أنواع الأحجار الكريمة ، من الذهب والفضة إلى العاج والأبنوس . . . »(٣٩)

ولا يسعنا إلا أن نرجو أن تكون هذه الصفات العظيمة موضع تقدير الآخرين ، لا أن يتغنى بها حائزها وحده . وتحتوى مقبرة فى طيبه لأمنمحات ـ وهو واحد من كثيرين يحملون هذا الاسم ـ على لوحة عجيبة لا نظير لها فى القائمة المعروفة لنا . تمثل هذه اللوحة أمنمحات وهو يدعو أربعة رجال يجلسون أمامه على حصير ليشاركوه القرابين العظيمة الموضوعة بجوارهم : أرغفة من الخبز ولحوم وطيور وخضروات وفاكهة ومشروبات وعطور . وأحد هؤلاء الرجال الأربعة هو الرسام أحموزا Ahmosé . أما ثانيهما فنحات تماثيل لا نعرف اسمه . ورسم هذه المأدبة يعد أرفع جائزة تقدم إلى الفنانين الذين تولوا زخرفة المقبرة . ولاشك أنهم نالوا منها ما ناله أمنمحات من تلك الخيرات التى شوهدت معروضة . وأقدم من هذا ، فى العهد الذى بنيت فيه الأهرام افتخر أحد رؤساء الخدم المدعو منا Menna بأنه قد كافأ فى سخاء كل من ساعد فى بناء مقبرته وزخرفتها . قال : « لن يندم أبدا أى واحد قد ساهم فى بنائها ، سواء كان فنانا أم قاطع أحجار ، لقد أعطيت كل واحد مكافأته » .(٤١) وفى زمن رمسيس التاسع عهد سيتاو Setaou كبير كهنة المعبودة نخبيت Nekhabit بزخرفة مقبرته إلى مرى رع MeryRé الفنان المشهور ـ وقد أشار إلى أصله وفضله قائلا : « بيديه حفر نقوش المقبرة عندما كلف بعمل نقوش مقبرة سيتاو . . أما بخصوص، مرى رع كاتب الكتب المقدسة فهو ليس بمجرد ناسخ ، إن الوحى يواتيه من قلبه ، لا يقدم إليه معلم ما أنموذجا لينسخه ، ذلك لأنه كاتب ذو أصابع ماهرة ، شديد الذكاء واسع المعرفة . » (٤٢)

وعلى هذا ، نستطيع أن نؤكد أن الملوك والأمراء والكهنة وعامة الشعب أيضا، كانوا يقدرون أولئك الذين عملوا وضحوا كثيرا لأجل تحقيق بجدهم. لقد دفعوا لهم المال وقدموا لهم الشكر وفقاً لآراء عصرهم وتبعا لوسائل زمنهم. فأحد الفنانين الذين عاشوا فى عهد رمسيس الثالث ورمسيس الرابع والذى كان مكلفا بزخرفة مقبرة عظيمة فى دير المدينة (غرب الأقصر) صور نفسه منهمكا فى تلوين تماثيل الملك أمنحتب الأول وتماثيل والدته.(٤٣) لقد أهمل التقليد الذى كان متبعاً عندما كان يؤدى مهمته فرسم نفسه فى وضع طبيعى جداً وهو جالس القرفصاء على أريكة وقدمه اليسرى عارية وضعت فوق اليمنى وشعره طويل منسدل فوق كتفيه وفى إحدى يديه فرشاة وفى الأخرى لوحة أقلام. وقد استرعت هذه الصورة بعض الاهتمام ، ولدينا نسخة رسمها تلميذ إحدى المدارس على قطعة من الحجر الرملى. (٤٤) ومع أن قيمتها الفنية لا تسمو إلى الأصل ولكنها مهمة للغاية إذ أنها لا تحوى فقط اسم الفنان بل تعطى أيضا لقبين خلعا عليه وهما : « الأمير » و « الكاتب » ، وتحتمس Thntmose وهوى Houy فنانان عاشا فى عهد اخناتون، وكانا على درجه كبيرة من الثراء والمكانة الاجتماعية. بينما نجد فى نهاية عهد الرعامسه ساما كان رفيع القدر حتى أنه كان يعدل فى مستواه مركز محافظ إقليم .

٩ ـ البناؤون وذوو الحرف الصغيرة

ولنعد الآن إلى بعض الأعمال الشاقة نوعا ما تلك التى لا تمكن ممارسها من حمل لقب « أمير » والتى كان يقوم بها عادة الأجانب سواء كانوا من أسرى الحرب أم من الأحرار .

كان أهم عمل يشغل البناء هو عمل قوالب الطوب ورصها ، وكانت كل

مدينة مصرية تحيط بها أسوار من الطوب يبلغ عرضها حوالى خمسة عشر مترا وارتفاعها عشرين مترا والأبواب وحدها كانت تعمل من الحجر . أما الجدران فكانت من الطوب . وكانت المبانى الأميرية والبيوت الخاصة والأسوار التى تحيط بها تحتوى على كميات من الطوب تفوق الحجر . وعند ماأراد رمسيس الثانى بناء مدينته المفضلة (ويطلق عليها المصريون عادة اسم بى رامسو Pi-Ramessu) ومخازن پيثوم ، جمع الاسرائليين وعين عليهم رؤساء عمال واضطرهم تحت ضغط شديد ، إلى عمل قوالب الطوب . (٤٥) وكان العمل مرهقا ولكنه لم يكن عسيرا إطلاقا ، كان طمى النيل يخلط بالرمل والتبن . وللحصول على طين جيد ، كانت تلك المواد تبلل بالماء وتوطأ بالأقدام مدة طويلة ثم تحرك بمعول من آن لآخر . وكان على العامل أن يملأ القالب القريب منه بهذا الخليط المبلل ثم يستبعد كل زيادة بواسطة مكشطة من الخشب ويرفع القالب الخشبى فى حذر ومهارة حتى لا تنكسر الطوبة . ويظل الطوب معرضا للشمس ثمانية أيام يصبح بعدها جافا صالحا للبناء .

وكان صناع الطوب يفضلون أن يعملوا على مقربة من حوض ماء . وكان السقاءون يحملون لهم المياه ويتوجه عمال اخرون إلى الحقول بعد حصادها ليجمعوا سيقان الحنطة لإعداد التبن . وحينما كان فرعون يصدر أمره لأبناء إسرائيل بالذهاب إلى الحقول والبحث عن التبن دون أن يقللوا الكميات المطلوبة منهم يوميا من قوالب الطوب ، كان ذلك يعد مجهودا إضافيا . غير أن احتجاجهم على هذا الأمر لا يقابل إلا بالضرب بالعصا فوق

ظهورهم من رؤساء السخرة . وكان الطوب يعمل على لوحين مسطحين من الخشب متماثلين تماما وقد شدا سويا إلى خشبة غليظة .

وكلمة إكدو Iqdou كانت تستعمل للتعبير عن حرفتين يبدو للوهلة الأولى أنهما مختلفتان تماماً : الأولى البناء والثانية صانع الفخار . على أن الأول كان يعرف باسم أكدوانبو أى بناء الجدران والآخر هو أكدو نيجسيت أى بناء صغير ، والواقع أن كلا منهما كان يستخدم طمى النيل ، على أن السبب الحقيق يرجع إلى اللغة المصرية : فالمقطع «كد» يعنى «مستدير» والشكل البدائى للمنزل كان مستديرا مثل القدر ، ولم تكن المنازل سوى قدور كبيرة . كان الفخرانى يعجن مادته بقدميه ويحولها إلى صلصال ثم يقتطع جزءا منه ويضعه فوق اسطوانة مستديرة مسطحة من الخشب تتحرك على محور رأسى . وبفضل مهارة أصابع العامل المرنة تتخذ الكتلة هيئة جرة مستديرة الشكل أو قدح أو أبريق أو كأس أو طشت او إبريق كبير له قاعدة مدببة يستعمل فى حفظ الخمر أو الجعة او أباريق كبيرة ذات قواعد مستديرة على هيئة الغرارات(٤٧) وإذا كان الدولاب لا يستطيع تشكيل قطعة صلصال أكثر من ذلك ،فإن العامل يستخدم أصابعه لتتخذ شكلها النهائى . وبعد أن يتم عمل الأوانى الفخارية تنقل إلى الفرن وهو عبارة عن بناء اسطوانى يبلغ ارتفاعه ضعف قامة الرجل وقطر دائرته إذا ما كانت الصور يمكن الاعتماد عليها — نحو ذراعين على الأقل ، ولكن ينبغى لنا أن ننبه إلى أن الرسامين المصريين كانوا لا يراعون فى دقة النسب المتعلقة بالناس والأشياء . وفى عهد الامبراطورية الحديثة أصبح صانع الفخار ذا تطلعات تقدمية فلم يكتف بصناعة فخار ذى لون واحد يعتمد فى جماله على أناقة الشكل فحسب ، بل أصبح ينزع إلى طلاء منتجاته بأشكال

مستعارة من فن النقاشين أو موحى بها من قائمة الأشكال الزخرفية أو بإضافة أطراف هندسية أو نماذج نباتية كفروع كرمة أو أشكال نباتية أو طائر يغوص فى الماء ليصطاد سمكة أو ثور منطلق (٤٨) وحتى الانسان الفقير الذى كان لا يستطيع الحصول على أطباق معدنية كان فى مقدوره أن يمتلك أوانى فخارية لا تخلو من جمال .

وكان الحلاق ينتقل بدوره من حى إلى آخر ، يقف فى مفترق الطرق فى مكان ظليل لا يلبث الزبائن أن يقصدوه سراعا.(٤٩) وعندما يطول الانتظار فان أغنيته أو سرد حكايته تساعد على قضاء الوقت سريعا . وقد يشب نزاع يكون إحدى الوسائل المجدية لقطع الوقت وهذا ما يعمله رجلان يجلسان على مقعد يستند ظهر كل منهما إلى الآخر ولكنهما ليسا متساويين فى جلسة مريحة فبينما يجلس أحدهما جلسة مريحة نسبيا نجد الآخر يجلس على حافة المقعد يكاد يقع على الأرض لو دفع دفعة خفيفة . على أن هناك زبائن آخرين يؤثرون أن يناموا وذقونهم مستندة إلى ركبهم ورؤوسهم تلفها أذرعهم .

ويتجه الزبائن أحدهم تلو الآخر ويجلسون على المقعد ذى الأرجل الثلاثة فى هدوء ، وأيديهم فوق ركبهم، يحنون رؤوسهم للحلاق ليقص شعورهم ويحلق ذقونهم . ويحوى إناء محمول على أرجل الماء المذاب فيه الصابون . أما الموسى فهو نصل أقل طولا من قبضة اليد ذو شكل غير منتظم ومزود بحافظة . أما الحلاقون الذين كانوا يترددون على الطبقة الخاصة الغنية فلديهم مجموعات مختلفة من المسلات (المآبر) والملاقط والمقصات والأمواس يضعونها فى حقائب من الجلد ويحفظونها فى صناديق فاخرة من الأبنوس . وكانوا يمارسون عملهم فى المنازل ويستمتعون برعاية ملحوظة . وكان

بعضهم يمارس الطب . وضمن بلاط الآلهة كان يوجد معبود حلاق . ولكن الحلاق الذى كان يحلق لعامة الشعب كان موضع عطف لا حسد . (٥٠)

أصحاب العمل والعمال

يستحق رومى - روى Romé-Roy كبير كهنة آمون أن يعتبر مثلا لرب العمل المصرى ، الطيب القلب ، فقد قال : « أيها الكهنة وكتبة بيت آمون وخدم القرابين المقدسة المهرة ، أيها الخبازون وصانعى الجعة والحلوى الذين سوف تدخلون هذا المصنع فى بيت آمون ، اذكروا اسمى كل يوم بالخير ، وبجدونى لأعمالى الطيبة لأنى كنت رجلا خيرا . لقد وجدت هذا المكان متهدما تماما فجدرانه متداعية تداعيا شديدا وأخشابها متعفنة وإطارات الأبواب الخشبية قد ضاعت وطمست النقوش التى عليها . لقد أعدتها إلى ما كانت عليه . أفسح مما كانت وأعرض ، وصنعت إطارات أبوابها من الحجر الرملى وزودتها بأبواب من خشب الصنوبر الحقيق . لقد شيدت فيه مصنعا يعمل فيه الخبازون اليوم وصانعو الجعة على السواء فى راحة تامة . قمت بعمل كل هذه التحسينات حماية لخدم معبودى أمون رع سوتير Amonrasonter (٥١)

ويبدو أن باكن خونسو Bakenkhonso أحد كبار كهنة أمون قد استحق نفس الثناء ـ إذ قال : « كنت أبا بارا بمرؤسى . كنت أعلم أولادهم الصغار وأمد يد المعونة إلى المحتاجين منهم وأكفل الحياة للمعوزين وأقوم بأعمال نافعة فى معبده بصفتى كبير مديرى الأعمال فى طيبه وذلك من أجل ...رمسيس الثانى . » (٥٢) ونأمل ألا يكذبهم المرؤوسون إذا ما سئلوا عما ينطوى عليه هذا الكلام من حقيقة . كانت المبادىء الأخلاقية السائدة

وقتذاك تحول دون إجبار العمال والخدم على العمل أكثر من المعقول.(٥٣) وعلى هذا فقد كانت الحقيقة الواقعة أن جماعات العمال كانوا يتظلمون كثيرا من جراء هذا الشأن حتى أن بعض تظلماتهم كادت تصل إلى ما يقرب من الثورة. كان العمال يتقاضون تموينهم من مأكل وملبس إما مرة واحدة أو مرتين أو أربع مرات فى الشهر ولكن أولئك الذين يتصفون بعدم التبصر بالأمور - وعلى الأرجح لم يكونوا مغالين فى التبذير - كانوا يستنفدون تموينهم قبل التوزيع الجديد وكانوا يصيحون: «نحن نموت جوعا ولا يزال أمامنا ثمانية عشر يوما حتى الشهر القادم» (٥٤) ويجتمع بعض العمال فى أحد الميادين على مقربة من أحد الصروح ويصيحون قائلين: «لن نعود إلى أعمالنا أبلغوا هذا لرؤسائكم المجتمعين هناك».

أراد أحد الموظفين أن يكشف عن موقف العمال، فعاد يقول: «ذهبنا لنستمع إلى طلباتهم فقالوا لنا وقائع حقيقية، توجه الجائعون جماعات كبيرة نحو الحوانيت ولكنهم لم يحاولوا اقتحامها. وقام أحدهم خطيبا: «لقد جئنا يدفعنا الجوع والعطش ولم يعد لدينا ملابس نرتديها لم يبق لدينا زيت ولا سمك ولا خضر، إرسلوا لسيدنا فرعون ارسلوا المليكنا وسيدنا حتى يعطونا ما يمكننا من الحياة!» رفعت هذه الشكوى لأحد الحكام ولكن خشى زملاء الخطيب أن يصيبه ضرر فأبدوا استعدادهم ليقرروا أن كل شىء على ما يرام، وأنهم فى خير حال. على أن حدا آخر رفض أن ينصرف مالم يتم توزيع التموين عليهم فورا. وقد أذعن الحكام فدعوا أحد كتبة الحسابات واصدروا إليه الأمر التالى: «خذ الحبوب التى تسلمتها وأعط منها لعمال الجبانة» فأحضر بى مونتو نبيات Pe-Monte n-Rebiat ووزعت علينا أنصبتنا من الحبوب يوميا!»

وبهذا زال خطر التهديد بالإضراب ولم يكن حال العمال سيئا مادام سادتهم كانوا يقيمون لهم المساكن والمصانع النظيفة ذات التهوية المزودة بكافة وسائل الراحة على نحو ما فعل باكن خنسو ورومي - روى وكذلك كان يوزع عليهم التموين من مأكل وملبس بانتظام مع تزويدهم أحيانا بقدر إضافى ليرضوا المبذرين منهم . كانت الاجازات وعطلات الأعياد كثيرة . ولم يكن من العسير أن يصل أكثر العمال رزانة ومهارة إلى درجة مراقبين أو رؤساء أعمال ، وأن يجمعوا من المال مايضمن أن يكونوا فى أيامهم الأخيرة ملاكا صغاراً أو أرباب أعمال . وعند حدوث منازعات بين آمون وست فسرعان ما تسوء حالة العمال أكثر من سواهم مما يدفعهم إلى العمل على إضرام عناصر الفوضى بين طبقات الشعب .

١١ — التجارة والنقود

فى دوائر الحكومة وأملاك كبار الآلهة كانت حسابات على درجة كبيرة من الدقة تقيد ما يرد يوميا من غلات ومحصولات ومايستهلكه المستخدمون وعلى هذا فقد كان نطاق الأعمال محدودا . وبالرغم من أن هذه الحوانيت والمخازن كانت مليئة بالسلع إلا أنها كانت مخصصة لاستهلاك فئة محدودة من الشعب . وعند إشباع حاجة هذه الفئة كان الفائض من السلع عندئذ يمكن أن يستخدم فى التجارة . وفى بعض الأحيان كانت دائرتان تتبادلان منتجاتهما مباشرة أو تباع منتجات إحدى الدوائر إلى التجار ، وهؤلاء يوزعونها بدورهم وعلى مسئوليتهم .

وبجانب الدوائر الكبرى ، كان يوجد أيضاً عدد كبير من الملاك من أفراد الشعب أو كبار الملاك . منهم المتوسطون أو صغار الملاك الذين يربون

الطيور والمواشي أو يزرعون الحبوب والفاكهة والخضر وعندما يحتاجون إلى اقتناء الملابس أو الأثاث ومواد الزينة والكماليات فكانوا لا يستطيعون الحصول عليها إلا إذا باعوا ما يفيض من زراعتهم أو من تربية الماشية أو الطيور . وكان ثمة صناع أحرار يستغلون مصنعا يملكونه ويعتمدون في معيشتهم على ما ينتجون . ويوجد أخيراً تجار لا ينتجون شيئاً ويكتفون بشراء وبيع السلع المتداولة في أنحاء البلاد ، وكان كل هؤلاء المشترون أو البائعون أو التجار الوسطاء يتلاقون في الأسواق . وفي قصة الفلاح أنه حمل حميره بكل المنتجات الطيبة لواحة الملح ، ولولا أنه سرق في الطريق لاستطاع الوصول إلى مدينة نن نسوت Nen Nisout الطيبة ومعه بضاعته ولعرض في السوق النطرون والطيور المائية والسمك المجفف ولاستطاع أن يستبدلها بالحلوى والأقمشة والثياب . ولكنه كان سيء الحظ إلى درجة بعيدة ، فعندما كان رجال الشرطة يقومون بواجبهم كان كل مسافر يصل إلى بلده دون أي عائق . وفي مقبرة خا إم حات Khaemhat رسم الفنان تجاراً يعرضون غراراً وسلالاً . وهم يصيحون في صخب شديد قاعدين أو قائمين . وهؤلاء التجار ذوو سحنة خاصة فرؤوسهم ضخمة وشعرهم كثيف غير مرسل ، والعملاء المقبلون للتعامل معهم يعلقون غراراً فوق أكتافهم يكثرون من حركاتهم ويبدو دون شك أن المفردات اللغوية لهؤلاء العملاء لم تكن أقل ضراوة أو أدنى غزارة من لغة التجار ، ووصول سفينة أجنبية قادمة إما من أعالي النيل أو من سوريا كانت تجتذب لا الفضوليين الذين يعجبون برؤية الأجانب ذوي الملابس المتعددة الألوان أو بما كانوا يجلبونه معهم من سلع بل كانت تجتذب أيضاً التجار الذين كانوا يقيمون حوانيت لبيع الطعام للفينيقيين الذين كانوا يعطونهم مقابل ذلك قرنا مزخرفة

أو رأسا ثبت على سن فيل (٥٦) . ومما كان ييسر عملية تبادل السلع أنه كان متبعا فى الأزمان السابقة تقدير قيم السلع والمنتجات المصنوعة على أساس وحدة تسمى شات Chat وقد ورد ضمن مستندات تنتمى إلى عهد الأسرة الرابعة بأن منزلا قدر ثمنه بالشات. (٥٧)

وفى إحدى برديات الأسرة الثامنة عشرة أن ثمن أمة وقيمة خدمتها قدرت فى مدة معينة بنفس الوسيلة .(٥٨)

ولكن التعامل بهذه الوحدة لم يكن إلا تعاملا مثالياً فلم يطرق على بال أحد من أعضاء الهيئات الرسمية أن يسك قطعاً معدنية ذات وزن معين متماثل إلا أن التجار ومعظم الشعب كانوا يعلمون تماما قيمة وزن الذهب أو الفضة أو النحاس التى توازى قيمة الشات ولذلك لم يكن ميسوراً تبادل السلع بقطع من العملة وعلى ذلك فمن كان يرغب و بيع منزل ولم يتفق المشترى على تحديد قيمته على أساس الشات كان يقبل نظير ذلك أن يتسلم مواشى أو حبوباً بنفس القيمة وهذه الحالة بسيطة فى ذاتها ،فإذا كان المطلوب مبادلة حيوانات أو مواد لم تكن قيمتها متساوية كان ينبغى تقدير الفرق بالشات أو بعدد من الشات وأن يسعوا إلى وجود سلع يكون فى استطاعة أحد الطرفين أن يقدمها ويقبل الآخر أن يتسلمها ، وان يتم هذا دون مناقشات ، ويبدو أن الشات أهمل استعمالها فى عهد الرعامسه لأنها لم تكن تسهل المعاملات . ولم يذكر عنها شىء فى بردية هاريس الكبيرة ، ولكن ورد فيها بدقة ذكر الدبن Deben بوزن ٩٠ جراماً والقيط Qite بوزن ٩ جرامات للذهب والفضة والنحاس والأحجار الكريمة دون الإشارة إلى قيمتها بأية كيفية كانت. وقد ورد فى نفس هذا المستند وكذلك فى تقويم مدينة حابو ن الحبوب كانت تكيل بمكاييل خشبية والفاكهة بالسلال ومنتجات

أخرى بالغرار أو المقاطف المختلفة الأحجام . أما الحيوانات والأشجار فكانت تعد بالوحدة وفقا لأنواعها وعندما نجد ذكر عدد العجول أو العجول البرية أو الماعز البرى والوعول والغزلان فكان عددها يجمع ويذكر عدد رؤوس المواشى جملة . وهكذا كان الحال بالنسبة للطور دون أن يحددوا قيمتها بكيفية ما وإذا ما أريد تقدير قيمتها كانوا يعبرون عن هذه القيمة حسب ما يقابلها بوزن الذهب أو الفضة أو النحاس ، فمثلا ثمن العجول يتراوح ما بين ٣٠ و ١٣٠ دبن من النحاس وجوال الذرة يوازى دبن واحد من النحاس (٥٩) . ولكن لم يكن فى استطاعة المشترى - بصفة عامة - أن يقدم كمية ما من النحاس فضلا عن تمكنه من تقديم الفضة أو الذهب .

والمعاملة بتبادل المعادن الثمينة لم تظهر إلا فى نهاية عهد الرعامسه عندما حدث نهب المعابد والمقابر وعلى أثر ذلك أعيد إلى التداول كميات كبيرة من المعادن الثلاثة المذكورة التى كانت مدفونة منذ أجيال أو قرون عديدة فى المقابر أو محفوظة فى المعابد . خصص أحد اللصوص دبن من الفضة وخمسة قيط من الذهب لاقتناء قطعة من الأرض وخصص آخر دبنين من الفضة لشراء عجلين . وقد دفع لشراء العبد دجا دبنين من الفضة وستين دبناً من النحاس ، ودفع خمسة قيط من الذهب ثمنا لعجل واحد.(٦٠) وقبل عهد هذه الفوضى فى المعاملة كان المشترون يدفعون ما عليهم من ثمن بتوريد مقادير من السلع التى يقبلها البائع وكانت تقدر بدورها على أساس مقادير من الذهب أو الفضة أو النحاس ، ذلك دون أن تقدم المعادن ذاتها . فقد باع الكاتب بنانوقيت Pesanoqit عجلا قدر ثمنه ١٣٠ دبن من النحاس فتسلم قميصاً من الكتان يساوى ٦٠ دبن و ١٠ غرار و ٣ كيلات ونصف كيلة تساوى ٢٠ دبنا وعقد من الخرز يساوى ٣٠ دبناً وأخيراً قميصين قيمة وكل منهما ١٠ دبن.(٦١) وإحدى سيدات طيبه اقتنت أمة بقيمة ٤١ دبنا من

الفضة ، وذكرت أمام القضاة عدة وقائع منها أنها أعطت قطعة قماش التاجر الذى باع لها الأمة وأشياء أخرى مصنوعة من برونز ونحاس كلفت أناساً آخرين بتسليمها للتاجر ، كل ذلك سداداً لثمن الأمة.(٦٢)

ولم يكن أمام الحكومة ذاتها وسيلة أخرى للتعامل فذكر أن أوناموون Ounamoon عندما أراد أن يشترى كمية ما من زكربعل Zekerbaal ملك جبيل تسلم فى الحال سبع قطع من الخشب وترك نظير ذلك ، سفينته ضمانا للثمن . ثم طلب أن ترسل إليه من مدينة تانيس جرار وأطباق من ذهب وخمسة جرار من الفضة و ١٠ قطع من الكتان الملكى و ٥٠٠ لفة من ورق البردى ، و ٥٠٠ قطعة من جلد الحور و ٥٢٠ جوالا من العدس و ٣٠ قفة من السمك المجفف . ثم تسلم فى مرة شحنة أخرى د أثواب من قماش الكتان الملكى ، وغرارا من العدس وخمس ققف من السمك المجفف. (٦٣) فما قيمة كل هذه السلع مقدرة بالذهب أو الفضة ؟ هذا مالم يذكره لنا التاريخ .

ويبدو فى الواقع أن ملك جبيل لم يهم بأمره فأمر بقطع الأشجار وجرها إلى الشاطىء . وقبل أن يسلم كل هذا إلى مندوب آمون أثار رعبه . ويمكن الاعتقاد أن كلا من المتعاملين المصرى والسورى كانا قد اتفقا على تقدير السلع بما يعادل قيمتها من ذهب وفضة ولكن عدم وجود عمله حقيقية قد جعل أمر التعامل شاقا ويفسر هذا ما يبدو من ملامح على وجوه البائعين المرسومين على جدران مقبرة خا امحات والمناقشات الكثيرة التى كان يبدو أنها تدور بين الناس دون نهاية لها ، والتى اقترنت بإتمام الاتفاق على تبادل الصفقات بين ملك جبيل والمشترى المصرى .

الفصل السابع

الأسفار

١ — التنقلات داخل القطر

كان المصريون القدماء كثيرى الأسفار ، على عكس الفكرة العامة السائدة عنهم . وكان ذهابهم وإيابهم مستمرين بين القرى وعواصم الاقاليم وبين تلك العواصم وقاعدة الحكم . وكانت الأعياد الدينية الكبرى تجمع الحجاج من كافة أنحاء مصر ، وكانت بعض المدن الكبرى مثل قفط وسيلا وسونو* وبى رومسيس ومنف تغص طول العام بالذاهبين إلى المناجم والمحاجر وبالمسافرين إلى الواحات أو إلى بلاد آسيا وبلاد النوبة ، ثم يعودون منها محملين بكل خيرات البلاد الأجنبية . وكان الشبان المحدودو الدخل لايعرفون غير طريقة السفر الوحيدة التى يعدها جان جاك روسو أفضل الطرق جميعا ، وهى السير على الأقدام . وكان متاع السفر معها يسيرا لايتطلب إلا عكازا وإزارا ونعلا.(١) ولم يلجأ سنوحى إلى أكثر من ذلك، عندما ظن أن حياته مهددة بالخطر ، فاخترق الدلتا من الغرب إلى الشرق متخذا عدة طرق ملتوية فى السير ليصل إلى البحيرات المرة . وقد لبى أنوبو دعوة أخيه وترك قريته وليس معه سوى عكازه ونعله وثوبه وبعض الأسلحة قاصدا وادى الشجرة (أش Ach) القريبة من

---

* أسوان الحالية

جبيل(٢)، وقد سار فلاح واحة الملح وكان ذاهبا إلى نن نيسوت Men nisout على قدميه خلف حميره المحملة بكل أنواع المنتجات . وكان فى استطاعته أن يركب حمارا من حميره بطريقة عكسية ويتحمل سخرية المارة به ، مثله فى هذا مثل طحان قصة الشاعر لافونتين La Fontaine والواقع أن هذا الفلاح قد تعرض لما هو أشد من ذلك خطرا ، إذ أن رجلا كان يعيش فى بقعة منعزلة ، ولم يكن حديث عهد بمهنته ، قد سرق خفية كل ما كان معه فى غمضة عين . وكان الجنود مصدر رعب دائم للمسافرين كانوا إذا عثروا على شخص غير مسلح يحمل كيسا من الدقيق ونعاله بين يديه ، يجدون هذا مبررا كافيا لمهاجمته وتركه عاريا فى الطريق*. وقد اتخذ أونى Ouni من الإجراءات ما كان كفيلا بمنع مثل هذه الفوضى (٣) .

ويؤكد أحد حكام أسيوط أن المسافر فى عهده إذا جن عليه الليل ، كان يستطيع أن ينام آمنا على جانب الطريق تاركا بجانبه زاده وعنزه . والخوف الذى تضفيه سطوة رجال الأمن المحليين كان كفيلا بحماية المسافر ويودنا أن نؤمن بصحة هذا القول ولكن الاحتياطات التى اتخذها بعض الحكام لتعد دليلا واضحا على وجود قطاع الطرق وعلى الأخطار التى كانت تحيق بالأسفار .

كانت الطرق متعددة بتعدد القنوات المائية : فعندما تحفر قناة كوم الطين وعمل منه جسر من الأرض يكون مرتفعا بعض الشيء حتى لا تغمر مياه الفيضان القناة المحفورة . وكانت القنوات والطرق تصان فى آن واحد فعندما تطهر القنوات يؤخذ الردم الناتج منها لتسد به حفر الأرض .

---

* لم يذكر المؤلف أي مستند يؤيد هذا القول .

كانت هذه الجسور تستعمل لمرور المارة والماشية فى ذهابها وإيابها كما كانوا يعبرون فوقها لسحب القوارب. ونحن لا نعرف أية كلمة مصرية قديمة تدل على «الجسر»، ولكن يوجد رسم لجسر ورد فى النقوش البارزة التى تمثل عودة سيتى الأول منتصرا من حملة فلسطين. وقد أقيم هذا الجسر على بحيرة امتلأت شواطئها بالغاب وكانت مأهولة بالتماسيح، ويصل هذا الجسر سفينتين حربيتين إحداهما على الشاطىء الآسيوى والأخرى على الشاطىء الأفريقى.(٥) ولابد أنه قد شيد على أعمدة قائمة متقاطعة. ومما لاشك فيه أنه لم توجد جسور على نهر النيل ولا على فروعه الثانوية فى الدلتا. ولم تكن الجسور الخشبية أو الحجرية عديدة فوق القنوات وإذا اقتضى الأمر عبور قناة أو مستنقع قليل الغور فإن الناس والحيوان كانوا لايترددون فى اقتحام الماء وعبوره. وكان معظم المصريين يعرفون السباحة وأهالى دندرة كانوا يغطسون فى مياه النيل ويعبرونه بكل سهولة دون خوف من التماسيح، على أن ذلك لم يكن فى استطاعة الناس جميعا.(٦)

أما صيادو الطيور المائية وصائدو السمك فكانوا يخشون خشية كبيرة بأس الوحوش؛ لو أننا صدقنا النقاد الذين كانوا يتهكمون من الحرف – وكان لزاما على الشخصيات الكبيرة أن تمد يد المساعدة لعابرى المياه؛ فمن لا يمتلكون مركبات وكان هذا الصنيع لديهم أوجب من اعطاء خبز لجائع أو ملابس لعار.

كانت التعدية من شاطىء لآخر حرفة فى طيبه وفى المدن الكبرى، وقد اتهم أحد اصحاب هذه الحرفة بأنه شريك لصوص المقابر، فأحيل إلى المحاكمة.(٧) وعندما انتقلت المعبودات إلى الجزيرة الوسطى، أمرت

المعبود أتى Anti المكلف بمهمة التعدية ، ان يمنع ايزيس من العبور.(٨) وقد عثر سنوحى عند فراره على قارب لا دفة له ، على الشاطىء فاستولى عليه ليعبر به النهر .

استعمل الأثرياء زمناً طويلا فى تنقلاتهم القصيرة ذلك الكرسى الذى كان يحمل . وكان ذلك شيئا رائعا ولكنه وسيلة بطيئة غير مريحة وكثير التكاليف . وكان الحاملون يغنون على أنغام وقع أقدامهم : « اننا نحبه ملآن أكثر مما نحبه خاويا » . وكان ينبغى دفع أجر لهؤلاء الحاملين أو اطعامهم على الأقل.(٩) وفى عهد الامبراطورية الحديثة كان الملك لا يحمل على هذا الكرسى إلا فى بعض الحفلات ، هكذا فعل حورنمحب Horenembeb عندما كان يحتفل بانتصاره . ولكن الملك مثل الخاصة من أفراد الشعب كان عادة يفضل العربة ، وكانت العربات والجياد لا تكاد تعد من وسائل الترف . وهذا بعض ما كان يأمله كل إنسان لأصدقائه ويتمناه لنفسه : « لتركب العربة وتمسك السوط الذهبى بيديك وتقبض على زمام جديد لخيول مطهمة من سوريا ويجرى الزنوج أمامك وهم رهن إشارتك » (١٠) . وعندما كان يخرج أمنحتب سيزى Amenhotep Sisé للنزهة وهو الكاهن الثانى لآمون(١١) كان جوادان يجران عربته الجميلة المتينة المزخرفة بالرسم الغائر والبارز ولم يكن لها شكائم ولا حواجب من الجلد لعيونها بل كان طاقم الجواد يتكون من قطعتين كبيرتين من الجلد توضع إحداهما فوق منتصف رقبته حتى لا يفلت زمامه وتوضع الثانية أسفل جسمه . أما الزمام فكان يربط فى مقول الحصان وكان أمنحتب سيزى يقود العربة بنفسه واقفا ، وليس معه سائس .

كان السائسون يتقدمونه ، وتتبعه فرقة من الأتباع يسيرون على مهل

وهم يحملون كل ما يحتاجه السيد عندما يريد أن يستريح أو حينما يحتاج إلى إصلاح زيه .

وكانت العربة وسيلة مفيدة لزيارة قصر الملك أو الوزير أو للقيام بجولة تفتيشية فى الريف أو للذهاب إلى الصيد . ولم يكن مستطاعا استعمال العربة للمسافات البعيدة دون إرهاق . أما وسيلة النقل الحقيقية فى مصر القديمة فكانت المراكب .

وقد ركب ددف حور ولى العهد مركبا من منف ومر بخنت -ختيت Khent Khetyt بقصد التوجه إلى الشمال للبحث عن العراف الذى يسكن ديدى سنفرو ثم عادا معا بالمركب إلى القصر .

وبعد أن أصدر الملك عفوه عن سنوحى ، ومنح حرية المرور عبر نقط الحدود فى طريق حورس ، استخدم المركب فى قطع الطريق بين خليج السويس والعاصمة ايث تاوى Ity-Taoui جنوبى منف . وكان خلال السفر ، يشغل وقته بتناول الطعام الشهى الذى كان يعد له أمام عينيه

وعند ما كان ينوى المصرى زيارة الأماكن المقدسة فى أبيدوس (العرابة المدفونة) كان يعد أسطولا صغيرا (١٢) وكان المسافرون يتخذون قوارب من الطراز القديم ، مرتفعة من الأمام ومن الخلف ، وكان المفروض أن الهدف من السفر لم يكن دنيويا فكانوا يجلسون على مقاعد داخل قمرة على هيئة تابوت ، كما لو كانوا داخل أكشاك حدائقهم ، وكانت المأكولات توضع على منضدة أمام القمرة . وكان يستعمل مقدم المركب كمجزر ومطبخ ثم يقطع الثور وتحضر الجعة ، لكى يستمتع المسافرون بشربها طازجة . ولم يكن لهذا المركب مجاديف ولا شراع ، بل كان يجره جرار ، وكان طقم

المركب يتكون من بحارين فقط يباشر أحدهما جهل الاتصال وملاحظة اتزان المركب ، ويباشر الآخر الدفتين المصنوعتين من الخشب الملون والمنتهيتين برأس حاتحور ، سيدة البلاد النائية وحامية المسافرين . أما المركب القاطرة فكانت تحتوى على صار قوى بحبلين أحدهما ربط فى المقدمة والثانى فى المؤخرة ، ويتوسطه قمرة كبيرة ذات إفريز مزخرف ، غطيت جوانبها بمختلف النقوش والموضوعات ، وكانت الدفة تستند إلى صار صغير ، فى آخر المركب ، ويديره ربان بيده ، وفى نهاية الدفة ، كانت ترسم عينان أحيانا وكان هذا شيئا هاما جداً بالنسبة للدفة حتى يمكن أن تتفادى العقبات التى تعترض طريق المركب .

وعندما تسير المركب مع التيار أو عندما تعبر مساحات شاسعة من المياه دون أن تكون هناك رياح مساعدة ، كان من العسير تجنب استعمال المجاديف . وكان عدد المجدفين يتراوح بين عشرة واثنى عشر شخصاً ، وغالبا مايكون أكثر من هذا العدد . ويقف الربان فى المقدمة ومعه مدراة طويلة تمكنه من معرفة عمق الماء . أما الربان الثانى فيجلس على سطح القمرة وبيده سوط يداعب به من وقت إلى آخر أكتاف المجدفين الكسالى . ويكمل ربان الدفة هيئة القيادة . وعندما تسير المركب ضد التيار كانت تفرد الشراع الوحيد وهو عبارة عن قطعة مربعة وغالبا مستطيلة تفرد بين صاريين ، ويمكن تحريك الشراع بواسطة عدة حبال ، ويجلس المجدفون فى مقاعدهم أما رؤساؤهم فيتسلقون الحبال ليستطيعوا رؤية المجدفين بطريقة أفضل . وطالما كان السفر بطريق نهر النيل فإن الإنسان كان يستطيع أن يأمل القيام برحلة سريعة إلى حد ما دون عقبات ، وإذا كان لا مفر من استعمال القنوات فإن الأمر كان يقتضى إجراء تجربات سابقة إذ أنها لم تكن صالحة دائما للملاحة طول العام . وعند مارغب خوفو فى السفر إلى معبد

رع سيدساخ [أو Sakbebou] التى تقع فى مكان ما بالإقليم الثانى من الدلتا لم تكن المياه كافية فى قناة السمكتين فقال صديقه الساحر لاتابه لهذا الأمر : « سآتيك بمياه يبلغ ارتفاعها أربع أذرع فى قناة السمكتين » أما أوفى ، الذى لم يكن فى خدمته أحد السحرة ، فقد استطاع السفر بالمركب فى الموسم الذى كانت المياه فيه منخفضة . وبحيرة موريس كانت قد أعدت خصيصا لكى توفر المياه للزراعة والملاحة على السواء ، ولكننا نجهل الطريقة التى كانت تدار بها.

أما المراكب المعدة للسفر فى النيل حتى بلاد النوبه ، فكانت عبارة عن منازل حقيقية عائمة . ثم إن « دهبية » ابن حاكم بلاد كوش ، فقد كانت عبارة عن قارب طويل على شكل هلال لا يمس مقدمها ولا مؤخرها المياه(١٣). يتوسطها صار واحد فى الوسط ، ولها شراع كبير متصل بالصارى بحبال عديدة . وبدلا من دفة واحدة فى مؤخرة المحور ، توجد دفتان ثبتتا على أعمدة قوية على جانبى المركب الأيمن والأيسر ، على بعد قليل من المؤخرة . وأعدت قمرة كبيرة فى وسط المركب مكانا للمسافرين ، وألحق بها مكان توضع فيه الخيول . كما توجد قمرتان اصغر من السابقة ، إحداهما فى مقدمة المركب والثانية فى المؤخرة .

ويظهر أن الملكيات كانت مجزأة تماما ، فكان للأثرياء من أهالى طيبه ممتلكات فى الدلتا . كما كان آمون يمتلك مزارع بل مدنا لا فى مختلف أنحاء مصر فحسب بل فى بلاد النوبة وفى سوريا أيضاً . وكان لمعبد أبيدوس الذى شيده سيتى Setoui ممتلكات فى بلاد النوبه . وحتى يمكن جمع المحاصيل والمنتجات فى مركز رئيسى ولتسهيل استيراد البضائع وتصديرها كان لزاما على هذه المؤسسات الجماعية وعلى الأفراد الأثرياء أن تكون فى حوزتهم أساطيل حقيقية من المراكب الكبيرة ذات القاع المسطح ، من تلك التى على هيئة هلال وبها قمرة فى الوسط(١٤) أو قمرتان . ولا تعطينا الوثائق إلا فكرة ناقصة عن عدد المراكب ونوعها ، تلك التى كانت تنتقل

فى النيل ذهاباً وإياباً . فاللغة المصرية تحتوى على عدد كبير من الكلمات كلها تعبر عن كلمة مركب . فالصنادل كانت تستعمل لنقل الكتل الضخمة التى تستخرج من المحاجر كذا المسلات والتماثيل الكبيرة . وقد ورد على جدران إحدى مقابر طيبه رسم تمثال لتحتمس الثالث . وقد عومل أثناء نقله معاملة لا تقل كثيرا عما كان يؤدى للملك نفسه ، إذ وضع فى تابوت لحمايته وكانت تقدم له البخور ، والمركب التى تحمله كان يسحبها جرار.(١٥) وكان ثمة صنادل ليس لها قرات كانت تستعمل لنقل المواشى . كما كانت هناك مراكب ذات قرات فى الوسط ، تستعمل لنقل الحبوب ، وعندما ترسو على الشاطئ كانت توضع سقالة مائلة ، قويت بعوارض خشبية على أبعاد مختلفة ، ويصطف الحمالون صفاً واحداً يلى أحدهم الآخر ويفرغون الحمولة ، ولكى يرفهوا عن أنفسهم كانوا يغنون أغانى تتفق ووقع خطواتهم : « هل سنبقى طول اليوم لتفريغ الشعير والقمح ؟ الجو صحو والصوامع ملئت حتى القمة . توجد أكداس كثيرة تحتاج إلى ملئها . . المراكب مكتظة حتى أن الشعير يتساقط منها إلى الخارج — يريدون منا أن نسرع هل يظنون أن قلوبنا من معدن؟».(١٦) وعندما يصل الأسطول الصغير إلى المكان الذى يقصده ، كانت توضع السقالات على حافة الشاطىء وتنزل الحيوانات وتفرغ البضائع . وعندئذ يصل التجار ويعدون مناضدهم أو رفوفهم ويشعلون أفرانهم . وسرعان مايحتفل البحارة بنهاية الرحلة وهم يتناولون الطعام والشراب .

٢ — السفر فى الصحراء

كانت الصحراء توحى إلى المصريين شعور الخوف والرهبة . فلم ينسوا أن أجدادهم كانوا قد طافوا فى عهودهم التاريخية السحيقة كل أنحاء الصحراء

قبل أن يستقروا فى وادى النيل ، وأن الإله مين Min أحد كبار معبوداتهم ، كان مقر عبادته فى أبو Ipou وقفط Coptos ويحكم المنطقة الممتدة بين هذه المدينة والبحر الأحمر . وكانت إقامته المفضلة فى جبل مقدس منذ أقدم العصور وأول الأمكنة المأهولة فى أرض اختيو Akhetiou (وأخيت Akhit هى البلاد التى تقع بعيدا عن الأرض المعروفة للمصريين) وكان هذا الجبل يعتبر القصر المقدس الذى كانت تظلله حياة حورس ، والعش الإلهى حيث ترعرع المعبود ومكان تسليته المقدس ، وأسمى الأمكنة فى الأراضى المطهرة(١٧) كانت كل أنواع الأخطار تحيق بالمسافر الذى يجرؤ على المغامرة فى ارتياد هذه الأراضى المطهرة دون أن يعد العدة لذلك ، كالجوع والعطش والمقابلات المفاجئة ، مع أن الأسد الذى كان يقترب من وادى النيل ويهاجم الثيران قد اختفى تماما . إلا أن الذئب والفهد والضبع كانت لا تزال مصدر رعب للأهالى .

وقد وجد حورمحب Horemheb نفسه ذات يوم ، أمام ضبع قوى كبير الحجم مفترس ، ومن حسن حظ هذا المحارب القوى أنه سبق أن لقى الكثير منها وكان مسلحا ، فمد ذراعه اليسرى نحو الوحش ، وبيده اليمنى صوب نحوه الحربة ثم نظر إليه نظرة جعلته يتراجع القهقرى ويختنق.(١٨) وكانت المنطقة التى تقع شرقى هليوبوليس ملأى بالثعابين التى تختبىء فى الرمال . وكان المسافرون يلاحظون وجود كائنات غريبة فى الصحراء مثل العقاب الذى يحمل رأس انسان على ظهره والفهود ذات الأجنحة وفهود لها رقاب أطول من رقاب الزرافة وكلاب الصيد ذات الآذان المربعة والذيول الصلبة كالسهام(١٩). وكان من المألوف مقابلة بعض البدو مثل القبيلة التى تقدم بعض أفرادها إلى حاكم منات خوفو فى أحد الأيام ، وكان بعضهم

مسلحا بالأقواس والسهام وعصى الرماية ، وكان يقود النساء والأطفال شيخ وكاهن ،كان يعزف على القيثار(٢٠) كانت هذه القبيلة مسالمة وكان مطلبها هو تبادل الحبوب نظير المسحوق الأخضر والأسود الذى كانت تعمل منهما القطرة والكحل ، ولكن بعض البدو الآخرين كانوا لا يفكرون إلا فى السلب والنهب . ولحماية المسافرين ، أقيمت فى الصحراء معابد صغيرة وقد اكتشف أخيرا فى احدها ، على الطريق الممتد بين هليوبوليس وشاطىء البحر الأحمر ، مجموعة تماثيل منحوتة تمثل رمسيس الثالث وإحدى المعبودات وقد غطيت بنقوش أخذ معظمها من نصوص قديمة عن موضوعات عديدة تقوم فيها نساء هورس بأدوار هامة(٢١) كان الأفراد يقرأون هذه النصوص لو استطاعوا ذلك أو يكتفون بالنظر إليها أو بمجرد لمسها ، ثم يستمرون فى طريقهم وهم واثقون من الانتفاع برحمة الآلهة التى تسكنها للملك نفسه.

أما بعض المسافرين الذين لم يستطيعوا ذلك ، جهلا منهم بتأمين أنفسهم بحماية المعبودات أو لعدم قدرتهم على حسن اختيار المرشدين الأكفاء، فإنهم كانوا يضلون طريقهم فى الصحراء . وقد جاء فى أقوال انتف Antef ، الذى أرسل فى عهد امنمحات الأول فى حملة إلى محاجر بخن Bekhen : « أرسلنى مولاى إلى روهانو لأحضر هذا الحجر العجيب الذى لم يؤت مثله منذ عهد الآلهة . لم يعرف أى صياد مكانه ولا تمكن من الوصول إليه . وها أنذا قد أمضيت ثمانية أيام أطوف هذه الصحراء قبل أن أعثر عليه إلى أسجد أمام المعبودين مين Min وموت Mout الساحرة الكبيرة وجميع معبودات الصحراء . وقد أحرقت لهم البخور ، لقد أضيئت الأرض ثانية فى الصباح وبدأ يوم جديد وظهرنا على جبل روهانو الأعلى Robanou » (٢٢)

ويضيف الرئيس أن فرقته لم تشتت أثناء هذه الرحلة الوعرة ولم يصب أحد منهم بسوء فى الطريق وبذلك أمكن تجنب الحوادث والعودة سالمين .

دفع هذا المهندس الملحوظ ثمناً غالياً لقاء خبرته فى حياة الصحراء . ولقد أمضى الكثيرون من المصريين كل حياتهم هناك بحثاً عن الموارد الطبيعية واستغلالها والطرق التى تؤدى إليها ، كما أنهم شغفوا حبا بحياة التجول . وأحدهم سانخ Sankh الذى كان قائد شرطة الصحراء والمشرف على عمال الإقليم المصرى ورئيس حملة الحراب فى النهر ، فقد قاد عدداً من الحملات والبعثات وزودها بالإمدادات من قرب المياه والملابس والخبز والجعة والخضروات الطازجة ، الأمر الذى يبدو كما لو أنه قد حول وادى روهانو Rohanou إلى مراع خضراء ، وجبل بخن Bekhen إلى بحيرة ماء ، وكان وهو فى سن الستين رب عائلة مكونة من سبعين ولداً ، مثل عائلة أبينا يعقوب ، وكان يتجول فى الصحراء دائماً من طاعاوو Taaou إلى منات خوفو Menat Khoufou إلى الأخضر العظيم (المحيط) مقتنصا خلال ذلك الطيور والحيوانات البرية[٢٣] . وبفضل هؤلاء الرواد الذين لا يكلون أصبحت لدينا خرائط مثل تلك التى يحويها متحف تورين ، والتى تعتبر بحق أقدم خرائط العالم وهى تختص بمنطقة المحاجر ومناجم الذهب التى يطلق عليها مناجم فقط . وقد رسمت الأراضى ولونت بالأحمر الفاقع بينما لونت الجبال بمسحوق حجر التوتيا الغامق ، ورسمت عليها أقدام طول الطريق لتدل على الاتجاه ، كما رسم قصر ليدل على موقع الخرائب الذى أقام فيه سيتى Setoui لوحة تذكارية.[٢٤]

وقد سبق أن أشرنا إلى ما بذله سيتى وابنه من مجهودات كبيرة للبحث عن المياه فى هذا البلد الظمآن والذى اشتهر بالجفاف ، ويفتخر رمسيس

الثالث دواما بأنه شيد بئراً كبيرة للمياه فى صحراء أيان Ayan وأحاطها بسور متين جداً كأنه جبل شاهق . وكانت أبواب المدخل من خشب الصنوبر أما الأقفال والمفاتيح فقد صنعت من البرونز.(٣٥)

وكانت تنمو فى بعض وديان الصحراء الشرقية شجرة لها قيمتها ، هى شجرة البطم * . وكان يؤخذ منها الصمغ سوتى Sonté الذى كان يحرق فى المعابد والقصور والمنازل الخاصة ، ولا شك أن البخور الذى كان يرد من بلاد بونت ، كان يرضى الآلهة أكثر من البخور المحلى . وعندما اقتنع البحار الغريق بأن الثعبان الذى يحكم الجزيرة ، التى ألقت به العاصفة عليها لم يكن متوحشا كما كان يظهر عليه ، وعده بأن يقدم له بخور شجرة البطم (التربنتين) . ولكن الثعبان ابتسم لسذاجته وقال له : « ليس لديك الكثير من البخور بالرغم مما تمتلكه من التربنتين ، ولكن بالنسبة لى ، فإنى حاكم بونت». (٢٦)

ولم يكن البخور متوفراً دائماً بطبيعة الحال ، فكان الصمغ يحل محله ، وعندما كان يلقى فوق النيران المتقدة فى المباخر ينتج رائحة طيبة تشتمها فى لذة أنوف الآلهة والبشر على السواء . ولم يكن من المغالاة فى شىء إحراق هذه البخور أثناء ذبح الحيوانات فى أفنية المعابد وحتى فى البيوت ، كى تطهر الأماكن وتبيد الديدان والحشرات وزيادة فى تعطير المنازل وإفاحة عبيرها . وكان النحل يتردد دائماً على غابات تلك الأشجار ، كما كان يتردد عليها نوعان من الصيادين، أحدهما لجمع الصمغ وقطع الفسول التى يمكن زرعها فى حدائق المعابد والفريق الآخر لجمع العسل البرى الذى كان طعاماً شهياً ، يستهلك بكميات كبيرة . ولقد أنشأ رمسيس الثالث فرقاً من الشرطة ومن

* هى شجرة صمغ التربنتين — البخور — ويطلق عليها أيضاً شجرة السرو

حملة الأقواس لحراسة القوافل . وإليه يرجع الفضل فى ان المسافرين كانوا يشعرون بالأمن فى تلك الصحراء الجرداء غير المضيافة ، كما لو كانوا فى تو ميرى Tomery الأرض المحبوبة* .

٣ — السفر إلى جبيل

كان المصريون القدماء ، يعتبرون البحر أيوم Iom معبوداً جشعاً . فعندما وقع بصر هذا الإله على المخلوقة الجميلة التى منحتها الآلهة لبيتاو Bytaou شريكة له فى حياته ، غمر الأرض لينتزعها منه .

ومع ذلك ، فلم يتراجع المصريون أمام أخطار الصحراء ، وجرؤوا على مجابهة هذا الإله المخيف . وكان لبحارتهم خبرة طويلة بشواطىء سوريا. وفى العهد الذى عاشت فيه الآلهة على الأرض كان تابوت أوزيريس ، الذى ألقاه ست فى النيل ، قد عبر الفرع التنيسى ودفعته مياه البحر إلى جبيل حيث ابتلعته إحدى الأشجار . واتجهت ايزيس بدورها إلى هذا المكان العجيب ، وجلست بجوار نبع ماء أتت إليه خادمات الملكة لملأن جرارهن ، فأخذت ايزيس تسرح لهن شعورهن وقد أضفت عليهن عبير رائحتها الجميلة المنبعثة من جسدها . أما ملكة جبيل فقد تأثرت تأثرا بالغا بما أبدته ايزيس من طيبة خالصة ، وأعطت إلى هذه الإلهة الشجرة المقدسة التى كانت تضم جثة زوجها . وهكذا بدأت العلاقات الطيبة على أسس قوية بينهما وقدر لها ألا تنفصم أبدا . كان المصريون يبحرون إلى هذه الميناء الصغيرة التى تسمى كبن Keben . وكانوا يحملون الهدايا إلى ملكة جبيل ، وقد شيدوا لها

* يقصد مصر .

معبدا عاونهم أهل البلد فى إقامته ، كما قدموا لذلك هدايا جميلة ترحيبا بلقائه وأوانى من المرمر وحليا وتمائم ، وكان المصريون يعودون إلى بلادهم محملين بالبخور وألواح من أخشاب الصنوبر والبلوط ومراكب كاملة العدة، وقد كانت كلمة كبنيت Kebenit وهى مشتقة من الكلمة المصرية كبن Kebon، الاسم المصرى لجبيل تدل دون غيرها على المراكب التى تمخر البحار . كان المصريون والأسيويون يشتبكون فى القتال أينما تقابلوا، فى سيناء أو فلسطين أو الكرمل أو فى ريتنو العليا * Retenou، ولكن كان هناك مكان واحد فى سوريا يحتمى بهم فيه : وهو جبيل ، ومع ذلك فقد حدث فى وقت ما أن قتل بعض المصريين هناك ولم يكن الجناة تجارا ولا بحارة من جبيل ، بل كانوا من البدو الذين يرتادون الفيافى ، وهم الذين يترصدون دائما لمصر ويغدرون بها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا (٢٨) .

وبمرور الزمن وسع المصريون منطقة نفوذهم وكان مبعوثوهم فى الدولة الوسطى يترددون على بيروت وقطنه** Qatna وأوجارت*** Augarit ويتركون آثارا تدل على مرورهم بهذه الأماكن على هيئة تماثيل وأبو الهول ولكن جبيل كانت دائما فى المقدمة وبحتفظ بمرتبة ممتازة وكان ملكها يفتخر بأنه يحمل لقب « أمير مصرى » وكان فخورا أيضا بثقافته المصرية . وقد شيد لنفسه مقبرة تماثل المقابر الفرعونية أعدها طبقا للتقاليد المصرية ووضع فيها بعض الأشياء الثمينة التى أرسلت إليه مباشرة من ايتى تاوى ItyTaoui العاصمة المصرية . أننا نجهل ما إذا كان أهالى جبيل

---

* رتنو تعنى سوريا

** قطنه ــ موقعها الحالى قريب من حمص ــ مشرفه

*** أو جاريت ــ موقعها الحالى هوراس شمرا شمال اللاذقية ، وهذا الموقع هو أقصى ما وصل اليه الفينيقيون فى الألف سنة الثانية قبل الميلاد .

قد تخلوا عن أصدقائهم فى محنتهم أثناء غزو الهكسوس لبلادهم . ومهما كان الأمر فقد توقف السفر بطريق البحر وتساءل الأتقياء عن كيفية الحصول على خشب الصنوبر آش Ach الذى كانت تصنع منه توابيت الكهنة والصمغ اللازم لتعطير تلك التوابيت . إن توقف الاتصال بهذه البلاد أتى بنتائج أخرى وخيمة : إذ أن المراكب المقدسة وصوارى الأعلام التى كانت توضع فى واجهة المعابد وتعلو صروحها بعدة أذرع ، وأنواعا أخرى من الأثاث ، كانت كلها تصنع من خشب الصنوبر . لقد انقضى هذا العهد الكريه وحل محله عهد آخر أفضل : فعندما استردت مصر أملاكها عادت إلى الاتصال بجبيل ، ولم ينس تحتمس الثالث الوقوف فى جبيل أثناء حملاته المظفرة . وحصل من حليفته على كمية من الأخشاب والمراكب تفوق ماسبق أن حصل عليه جميع الفراعنة القدماء . وعندما تآمرت سوريا ، فيما بعد ، مع أعداء مصر ، بقى ريبادى Ribaddy على ولائه لأمنحتب الثالث ولخليفته. وقد حفر رمسيس الثانى لوحات تذكارية على شاطىء نهر الكلب بين بيروت وجبيل وفى وادى آش Ach حيث كتب أحد رواة عصره مغامرات بيتارو Bytaou ، كما أنشأ مدينة تحمل اسمه ، ووضع لوحات تذكارية فى معبد بجبيل . وكان ملك جبيل فى وقته يدعى أحيرام Abiram وكان مثل كل رعيته يتكلم اللغة المصرية ويكتبها، أما اللغة الأصلية فكانت تكتب بحروف أبجدية تعتبر تبسيطاً للهيراطيقية (٢٩) ويحتمل أن يكون اقتباسها قد تم فى جبيل نفسها .

كان الفراعنة المحاربون فى الأسرة الثامنة عشرة يصرون على أن يمر رسلهم بجميع أرجاء سوريا دون أن تعترضهم أية مضايقات . وكان هؤلاء الرسل يستقبلون استقبالا طيبا فى جبيل ، ولكن فيما بعد ، فى آخر عهد

الرعامسه وفى أوائل الأسرة التاسعة عشرة تغيرت الأحوال ، فالملك زكربعل Zékerbaal الذى خلف بعد زمن طويل ملبكاندر Melcandre الذى كان قد أحسن معاملة إزيس ، لم يتردد فى أن يعرض على الرسول المصرى أن يريه مقابر عدد كبير من رسل خا ابم حات Kbaemhat عاشر ملوك الرعامسه ، أولئك الذين ماتوا فى جبيل ، بعد أن قضوا مدة طويلة فى الاسر(٣٠) . أما أونامون Ounamon فقد كان أسعدهم حظا ، إذ حصل بعد صبر طويل على التصريح له بالخروج من الميناء ومعه حمولته من الخشب ، ولكن ذلك التوفيق يرجع إلى رعاية آمون حامى الطرق الذى كان أونامون يحتفظ بتمثاله ضمن ما كان معه من متاع .

على أنه ينبغى أن نذكر ، ان حالة أونامون كانت حالة خاصة نوعا ما ، فعندما ما كلفه كاهن آمون الكبير بإحضار الأخشاب اللازمة للمركب المقدس المسمى آمون أوسرحات Amonousirhat التى كانت تمخر عباب النيل أثناء فصل الفيضان، بين الكرنك والأقصر وسط هتاف الشعب المتحمس، توجه أولا إلى تانيس لدى سمندس Smendes وزوجته تنتامون Tentamon اللذين كانا الحكام الحقيقيين للبلاد قبل أن يعترف بهما ملكا وملكة عليها . وقد أعدت له مركب تحت قيادة من يدعى منجابوتى Mengabouti. وبعد أسبوعين تقريبا وصل إلى بحر سوريا الكبير وتوقف فى مدينة دور Dor إحدى مدن شعب الصقال Sakkales ، وبينما كان ينقل إلى مركبه الإمدادات المكونة من عشر سلال من الخبز ، و إناء واحد من الخمر وكتف بقرة ، هرب أحد بحارته ، ومعه الكنز المكون من : ٥ وزنات دبن من الذهب و ٣١ وزنة من الفضة . وقد تأثر اونامون كثيرا ، فرسا على الشاطىء وذهب إلى باديل Badil ملك البلاد وأخبره بما حدث : فأجابه حاكم شعب الصقال :

« سواء رضيت أو لم ترض ، فإنى لا أعرف شيئاً عما تحدثنى عنه . وإذا كان اللص الذى كان فى سفينتك وسرق مالك ينتمى إلى شعبى ، فسوف أعوضك عن خسارتك من مالى حتى نقبض على اللص نفسه ، ولكن إذا كان اللص الذى استولى على مالك من رجالك فامكث هنا بضعة أيام حتى نبحث عنه » وكان معنى هذه الإجابة واضحا . فبعد تسعة أيام لم يعثر لا على المال ولا على اللص . وقد نجح أرنامون فى اقتراض ٣٠ وزنة دبن من الفضة وأبحر إلى جبيل فى مركب وجدها فى صور .

ورفض الملك زكربعل مقابلته لمدة تسعة وعشرين يوما ، ولكنه قرر مقابلته أخيرا عندما أمره آمون إله طيبه بذلك على لسان أحد رجال حاشية زكربعل الذى قبض عليه وأصدر إليه الأوامر الآتية : « احضر المعبود هنا واحضر رسول آمون الذى معه . ابعث به إلى ودعه يرحل » .

وفى اليوم التالى صعد أرنامون إلى القصر ووجد الملك جالسا على عرشه وقد أولى ظهره للشرفة ، التى كانت أمواج بحر سوريا الكبير تتلاطم خلفها . وكانت المقابلة خالية من الود ، وقد أدانت الحقائق أرنامون فبدلا من أن يذهب كرسول رسمى فى إحدى سفن سمندس ويظهر أوراق اعتماده ، فأنه توجه إليه دون أن يحمل أية أوراق رسمية مستقلا مركبا عاديا مصادفة . ومع ذلك نجح أونامون فى شرح موضوع مهمته قائلا إنه جاء للبحث عن أخشاب الفلك المقدس آمون رع سونتير Amonrâsonter فرد عليه الملك : « كان أهلى ينفذون فيما مضى هذه التوصيات لأن فرعون له الحياة والصحة والقوة أحضر ست مراكب محملة من خيرات مصر وبعث فى مخازنى . فهل أنت الذى ستدفع لى استحقاقى » واستمرت المناقشة على هذا النحو « لقد احضر فرعون كشف الحساب وأمر بقراءته فى حضورى وقد وجد فى دفاتره ألف

وزنة دبن من الفضة ثم قال لى : لو كان ملك مصر مولاى ولو كنت خادما له لما أرسل الذهب والفضة قائلا : نفذ طلب آمون دون أن تقدم له عطايا لأن هذا هو مافعله لوالدى. ولكن بالنسبة لى فإنى قطعا لست خادما لك ولا للذى أرسلك . . . » فأجابه أونامون وهو يؤكد قوة آمون رع سونتير إله الحياة والصحة « إنه إله آبائك الذين قضوا مدة حياتهم فى خدمة آمون» ، وأضاف : « وأنت أيضاً خادم آمون . . إذا قلت أنا سوف أعمل . . أنا سوف أعمل لخير آمون ، وإن أنت اهتممت بأمره ، فإنك سوف تعيش سليما وفى رغد من العيش متمتعا بصحة جيدة وسوف تكون بارا بالبلد كله ، وسوف يتمنى لك رجالك أن تنعم ببركات آمون رع سونتير » وبعد تبادل هذه الآراء شحن زكربعل فوق سفينته أخشابا لمقدمة مركب ومؤخرتها وأربع كتل وقطعة أخرى ، وأرسل كل ذلك إلى مصر مع خطاب من أونامون ، عندئذ أرسل سمندس وتنتامون بضائع وذهبا وفضة . وأيضا مايلزم لأونامون شخصيا من ملبس وطعام. وقد سرالملك . وبصرف النظر عن تمنيات آمون التى أراد الرسول أن يكتفى بها الملك ، وبدون أن يبدى اهتماما بتهديداته فقد أمر أن تنقل البضائع المصرية إلى المخازن ، وعين ثلاثمائة رجل ومثلها من الثيران ورؤساء عليهم ، ثم قلعت الاشجار وسحبت بعد انتهاء الشتاء إلى الشاطىء ويلوح أنه لم يكن أمام أونامون إلا أن يرحل ومعه أخشابه ، ولكن لم تجر الأحوال بهذه السهولة ، وجد زكربعل أنه لم يدفع له مبلغا كافيا. ثم يطلب منه أونامون — فى لهجة جادة — أن يحفر على لوحة تذكارية : « أرسل إلى آمون رع سونتير رسوله ، آمون حامى الطريق، له الحياة والصحة والقوة. مع أونامون رسوله الآدمى طالبا أخشابا لمركب آمون رع سونتير المقدسة ، لقد قطعت الأخشاب وشحنتها فوق السفينة . وقد تم نقلها بواسطة مراكبي ورجالى ، لقد أمرتهم أن

يبحروا بها إلى أرض مصر لينحنى آمون خمسين عاما من العمر ، أكثر مما هو مقدرلى . هكذا يكون . ثم يضيف أونامون المحب للمزاح : « وعندما يقرأ أى مصرى اسمك مدونا على هذه اللوحة فإنك سوف تنال المياه المقدسة من أمنتيت Amentit ومن كل الآلهة الموجودة هنا ».

وصرح ملك جبيل ، المغلوب على أمره ، بأن هذا عدل ووعد أونامون أن كبير كهنة المعبود آمون ، بعد أن يطلع على تقريره سوف يرسل إليه بعض الهدايا .

ويستنتج المعلقون المعاصرون من هذه الواقعة أن مصر كانت ضعيفة وفى حالة يرثى لها من المهانة فى عهد سمندس . والواقع أن فرعون ، حتى فى عنفوان قوته ، لم يعتبر ملك جبيل تابعا له أو مغلوبا على أمره ، يجب عليه أن يسلم أخشابه دون ثمن ، وكان على الرسول المصرى أن يتقدم بخطاب رسمى ومعه ذهب وفضة وبضائع ، وبعد أن يتسلم ملك جبيل هذه العطايا ، وافق على إعطاء الخشب . وبعد ذلك يمكن تبادل البركات وعبارات الشكر . وكان فرعون يزود رسوله ببعض الهدايا التى كانت لا تكلفه شيئاً مثل التمائم وتمثاله . ويتسلم ملك جبيل هـــذا التمثال فخوراً به ويحفر عليه بالكتابة الفينيقية التمنيات بأن تطيل معبودة جبيل سنوات حكمه . وقد استمر هذا التقليد متبعاً منذ زمن الآلهة .

وبعد أن ترك أونامون ميناء جبيل تخلص من مضايقات شعب الصقال الذين كانوا يترصدونه ، ولكنه وقع فى أيدى أهالى جزيرة قبرص الذين أرادوا قتله . ولما كانت نهاية البردية ممزقة فلم نعرف بالضبط كيف تخلص من هذا الخطر الجديد ، وثابت أنه تمكن من النجاة . وقد عرفت شعوب البحر وبدأ الناس يتحدثون عنهم فى عهد رمسيس الثانى ومنذ ذلك الوقت أصبح

وجودهم خطراً جديداً يهدد البحارة المصريين، ولكن لم تتوقف الحركة أبداً. ولدينا شاهد صريح على ذلك يرجع إلى عهد رمسيس الثالث. «لقد أقمت لك (لآمون) مراكب ووسائل نقل ومراكب كبيرة ذات أقواس ومزودة بما يلزم لها من أدوات لتمخر عباب البحار. وقد زودت المراكب برؤساء من رماة السهام وربابنة مصحوبين بعدد وفير من الرجال يفوقون الحصر، لنقل خيرات بلاد فينقيا والبلاد الأجنبية فى أطراف المعمورة إلى مخازنك العظيمة فى طيبه المنتصرة».(٣١)

وجدير بالذكر أن فرعون لم يعتمد على آمون وحده. فقد أرسل فرقاً من رماة السهام تحت قيادة حكيمة، أحسن تسليحهم وكان واجبهم حماية المراكب ضد كل عدوان والعمل على احترام مبعوثيه عندما يكونون فوق اليابسة.

٤ — السفر في البحر الأحمر

كانت بلاد بونت هى هدف السفر فى البحر الأحمر، وتقع خلف بوغاز باب المندب على ساحل الصومال وساحل بلاد العرب الذى يواجها، كانت هذه هى بلاد البخور والثعبان الطيب الذى عرفناه فى قصة البحار الغريق أعلن عن نفسه أنه حاكم بلاد بونت أيضاً وفى نفس الوقت سيد البخور أنتى Anti.

وكان المصريون يترددون على بلاد بونت منذ عهد الآلهة. وقد نظموا فى عهد الدولة القديمة خطاً ملاحياً يربط جبيل، على ساحل سوريا إلى شاطىء بلاد بونت أى من مدرجات أشجار البلوط إلى مدرجات شجر البخور.(٣٢) وتبحر المراكب من جبيل حتى تصل إلى الشواطىء المصرية ثم تسير فى

الفرع التنيسى للنيل حتى بوبسطة وتصل بواسطة قناة إلى وادى الطوميلات الذى يمكن أن يعتبر أقصى الفروع الشرقية لنهر النيل . ولم يكن الوادى صالحاً للملاحة طول العام ، ولكن فى زمن الفيضان ، عندما ترتفع فيه المياه يمكن أن تسير فيه المراكب المصرية ذات الغاطس غير العميق ، وتصل هذه المراكب إلى خليج السويس بعد أن تعبر البحيرات المرة ، وتستمر فى رحلتها البطيئة حتى بلاد بونت ، والبدو الذين يعيشون فى الصحارى والذين عرفوا بضراوتهم كانوا ينقلون المسافرين والبضائع بالطريق البرى من سوريا إلى بلاد العرب قد حاولوا دائماً عرقلة سير الخط الملاحى ، وقد شن ببى الأول Pepi I عدة حملات حربية ضدهم ، ولكن محاولاتهم العدوانية قد عادت من جديد ، ويظهر أنه بعد حكم ببى الثانى ، توقفت هـــذه الرحلات بعض الوقت ثم استؤنفت ثانية فى عهد الدولة المتوسطة ، ثم توقفت أثناء احتلال الهكسوس ثم بدأت الرحلات تعود إلى ما كانت عليه ، فى عهد الملكة حتشبسوت وحافظ على ذلك تحتمس الثالث وأمنحتب الثانى وحرمحب ورمسيس الثانى ورمسيس الثالث.(٣٣) ولأجل ربط عاصمة ملكه فى الدلتا بالبحر الأحمر أثناء حفر رمسيس الثانى قناة البحرين التى كلفته نفقات باهظة . وقد وجدت بقايا هذه القناة أثنــاء حفر قناة السويس الحالية . وعلى طول القناة كانت توجد مدن بى رمسيس وبوبسطة وبيثوم كما أقيمت بعض لوحات تذكارية من الجرانيت فوق قواعد عالية لتبين للمسافرين فى البحار المأخوذين من العجب مدى عظمة الملك وضخامة مشروعاته الجرئية.(٣٤)

ولنفترض أن المراكب التى وصلت من سوريا قد أفرغت حمولتها من المسافرين والبضائع على أرصفة مدينة بى رمسيس وستشحن حملة أخرى إلى بلاد بونت ، فهذه عادة مراكب كبنيت Kebenit أى أنها من طراز

جبيل ، شيدت إما فى جبيل نفسها ، ويبعث للمصريين بواسطة اللبنانيين ، وأما أنها قد شيدت فى الأحواض البحرية المصرية ، على طراز مراكب جبيل ولكن من خشب استورد من سوريا . ولدينا رسمان للمراكب ، يرجع أقدمهما إلى عهد ساحورع Sahoure ويرجع الثانى إلى عهد الملكة حتشبسوت*(٥) . على أنه خلال هذه الفترة التى يبلغ مداها أكثر من ألف عام لم يتغير شكل المركب تقريباً . فهيكل المركب عال . فى مقدمته كبش ينثنى بانحناء وينتهى على هيئة مظلة كبيرة ، وفى المؤخرة مرتفع ينحنى إلى الداخل وتنتهى الرأس على هيئة البردى . وفى كل من المقدمة والمؤخرة نقطة للملاحظة ، وعلى جانبى المركب دفتان على مقربة من المؤخرة . ويربط حبل كبير قوى هيكل المركب التف على أوتاد أربعة أعمدة . وللمركب صار وحيد فى الوسط ثبت عليه شراع من قماش عرضه أكبر من طوله وتتحكم فيه أربعة حبال . وعدد البحارة كبير فعندما تهدأ الرياح ولا تؤثر على الشراع يقوم البحارة عندئذ بالتجديف .

وهؤلاء البحارة محنكون . « إنهم رجال رأوا السماء ورأوا الأرض ، يتسمون بحرص الوحوش الضارية يمكنهم التنبؤ بهبوب العاصفة » ، وكان يسافر معهم ممثلون لجلالة الملك وبعض الكتاب والجنود ويشحنون المراكب بالمحاصيل المصرية الطيبة التى يقدرها تماماً أهالى بونت مثل الملابس وأدوات الزينة والمرايا والأسلحة . وتسافر المركب بعد أن يودع الملك القافلة . وتسير فى القنوات وتمر بيثوم حيث يبذل العبرانيون الجهد الكبير فى صناعة القرميد ثم يصلون إلى البحر الكبير** .

---

* يرجع عهد ساحورع إلى العام ٢٥٠٠ قبل الميلاد وحتشبسوت إلى ١٥٠٠ قبل الميلاد

** البحر الأبيض المتوسط

وعلى أحد شاطىء أراضى الآلهة رأى أحد الراصدين المراكب المصرية وأعلن عن وصولها فخرج الملك والملكة والرؤساء من الأكواخ المقامة فوق أعمدة على سطح البحيرة واعتلوا ظهور الحمير ليروا المصريين . وهم مثل المصريين ضخام الأجسام، عراض الأكتاف ، ورؤوسهم مستديرة وذقونهم مضفورة ، مثل ضفائر الآلهة والفراعنة فى وادى النيل ، والفرق الوحيد أن ذقونهم طبيعية بينما ذقون المصريين مستعارة . وتتدلى من أعناقهم حليات مستديرة على مثال ماهو متبع عند السوريين . وهيئة الملكة عجيبة ، فهى عبارة عن كتلة من اللحم المكتنز ويعجب الإنسان كيف تستطيع أن تتحرك ، وابنتها ولو أنها شابة صغيرة فإنها لا تختلف عنها كثيراً وتكاد تضارعها فى الحجم وقد لحظ الرسامون المصريون كل هذا العالم الجديد عليهم بكل ما أوتوا من مواهب ودقة ملاحظة ، ولكن هل سجلوا لمستقبليهم خلسة رسما كروكيا على قطعة من ورق البردى ، أم أنهم قد ثبتوا المنظر فى ذاكرتهم ورسموه بعد أن عادوا مطمئنين إلى المركب تذكارا لرحلتهم . وعلى كل حال، فقد رسموا لهم لوحة رائعة وسجلوا فى إخلاص عجيب كل ماهو جدير بالتسجيل مثل الملك والملكة والقرية والأهالى ، كما رسموا الأسماك والمحار .

وسرعان ما أقيمت خيمة تبودلت فيها تحيات الوصول ويعبد الأهالى بكل تقوى ، آمون رع المعبود الأزلى الذى يزور الأراضى الأجنبية . وكانوا كلهم سعداء برؤية المصريين ، ويعرفون جيدا ماذا يريدون ، ولكنهم تصنعوا الاستغراب وسألوهم : « لماذا جئتم إلى هذه البلاد غير المعروفة للناس ؟ هل نزلتم من السماء ؟ هل جئتم بالطريق البحرى أم بالطريق البرى؟ ما أشد خصوبة أرض الآلهة ، التى تطأها أقدامكم . إنه رع ملك تومبرى، لا يوجد عرش بعيد عن جلالته ، نحن نعيش على النسمة التى يمنحها لنا جلالته ».

وتنفيذاً لأوامر القصر (المصرى*) له الحياة والصحة والقوة ، يقدمون للحكام خبزاً وجعة ونبيذاً ولحماً وفاكهة وكل الأشياء التى فى تومیری . وهاك قائمة بما سوف يشحن على مراكب المصريين ، وهم لا يخسرون فى المبادلة شيئا :

أجمل جذور أشجار تنوتير Tenoutir الطيبة - كميات وافرة من بذور أشجار البخور- شتلات خضراء من أشجار البخور ،خشب الأبنوس والعاج ، ذهب عامو Amou الخام ، ثلاثة أنواع من الروائح العطرية هى : تشيبسس Tichepses وخاسيت Khasytواحمت Ihmet والتربنتين وكحل أسود ونوعان من النسانيس ، وكلاب صيد ، وجلود فهد الجنوب وعبيد وأولادهم . وكانت كل هذه الأشياء ثمينة جداً ، ولكن القوافل التى تأتى من النيل الأعلى كانت تحمل أيضا الأبنوس والعاج وجلود الفهود ومنتجات أخرى ، ولكن الشيء الذى لم تحضره والذى يستحق مشاق الرحلة ومخاطرها كانت أشجار تنوتير وحبات البخور وفوق هذا أشجار البخور وعددها واحد وثلاثون والتى كانت مغلفة كما لو كان قد قام بتجهيزها أمهر بستانى فى فرنسا - لأن الأشجار كانت عالقة بها جذورها والتربة التى تنبت فيها .

ولا نعجب إذا كان المسافرون السعداء قد استقبلوا بكل حماس وترحاب لدى وصولهم إلى رصيف أبيت إيسوت Apit-esout (الكرنك) ، والحمالون الذين يسعدهم أن يجهدوا أنفسهم فى خدمة الملك يتحدثون إلى الأشجار الخضراء كأنما يتحدثون إلى كائنات مقدسة قائلين لها : « كونى

---

* لأوامر فرعون .

سعيدة معنا يا أشجار البخور ، التى كنت فى بلاد تنوتير ، فى مقرك الجديد بين أملاك آمون ، سوف تزرعك الملكة ما كارع فى حديقتها على جانبى معبدها كما أمرها بذلك أبوها » .

وقد سأل أهالى بونت زائريهم عما إذا كانوا وصلوا بالطريق البرى أو بطريق البحر ، فللوصول فعلا من مصر إلى بونت كان يمكن اختيار أحد الطريقين ، وقبل عهد الرعامسه وحتى قبل عهد الملكة حتشبسوت ، فى عهد الأسرة الحادية عشرة ، سافر أحد الرواد المسمى هينو Henou من مصر إلى بونت ، وعاد منها متخذا الطريق البرى أحيانا ، وأحيانا فى مركب. وقد كلفه مولاه بشراء بخور طازج لمشايخ الصحراء وكان عليه أيضا أن يشيد بقوة فرعون ويجعله مهابا ، لذلك كان الهدف من رحلته تحقيق غرضين : الأول تجارى والثانى سياسى ، إذ قال : « رحلت من قفط متبعاً الطريق الذى رسمه جلالة الملك . ورافقنى جنود ينتمون إلى الجنوب فى أملاك أوابوت Ouabout من جبلين إلى شابيت Chabit وكان كبار الموظفين الملكيين وأهالى المدينة والريف يتجمعون ويسيرون خلفى ، وكان جنود الطليعة يفتحون الطريق أمامى لكى يقضوا على أعداء الملك . وقام أبناء الصحراء بحراستى ، وكل هيئة موظفى ديوان جلالته كانت تحت إدارتى ، وكانوا يتراسلون بواسطة الرسل ، وبمجرد أمر واحد يصدر يجيب جلالته الملايين » .

« قمت مع جيش تعداده ٣٫٠٠٠ رجل ، عبرت الطريق البرى إلى الطريق النهرى وعبرت البلاد الحمراء (الصحراء) إلى أرض الأعشاب ، وكنت أمنح قربة ماء وعصا وجرتين من الماء وعشرين رغيفاً يومياً لكل رجل وكانت

الحمير تحمل الجرار ، وإذا تعب أحدها حل محله آخر ، وقد حفرت فى الوادى اثنى عشرة بئرا وبئرين فى ابداحت Idahet سعة كل منهما عشرون ذراعا فى ثلاثين . كما حفرت بئرا آخر فى اياحتبنيت Iaheteb وكان سعتها عشر أذرع من كل جانب عند نقطة تجمع المياه » .

« وهكذا وصلت إلى البحر الكبير ، بنيت هذا المركب وأتممت شحنها بكل شىء ، وقدمت له ذبيحة كبيرة من العجول البرية والعجول الأفريقية والماشية . وبعد أن ذهبت إلى البحر الكبير نفذت ما أمر به جلالته وحملت له كل المحاصيل التى وجدتها على شاطىء أرض الآلهة (تنوتير Tonoutir) . ثم عدت بطريق واج Ouag وروهانو Rohanou وأحضرت معى أحجارا رائعة لتماثيل المعابد ، ولم يسبق أن أرسل إلى القصر الملكى ما يماثلها كما لم يسبق أن قام أحد بمثل هذه المهمة من معارف الملك منذ عهد الآلهة » .(٢٦)

ومن هذا يتضح أنها رحلة على نطاق واسع . فقد قطع هينو الصحراء ومعه ٣٫٠٠٠ رجل بإرشاد أبناء الصحراء المتصلين بالقصر ، واتجهوا نحو الجنوب الشرقى بدلا من ارتياد الطريق العادى المتجه رأسا نحو الشرق وقد اشتغلوا جميعاً فى حفر الآبار حتى وصلوا إلى المنطقة الساحلية حيث أنشئت فيما بعد ميناء برنيكا Bèrénica الصغيرة ، هناك بنوا مركبا ، كما يؤكد ذلك بالأدوات المستوردة من لبنان والتى وصلت بطريق البحر . وقد وصلوا إلى بلاد بونت وزاروا شاطىء أرض الآلهة واشترى هينو البخور وكل منتجات هذه البلاد . وفى العودة وصل بالطريق البحرى إلى القصير حيث اخترق وادى روهانو وتوقف لا ليستريح ولكن لإعداد شحنة مركب من أحجار تصلح لصانع النقش والنحت . وقد انتفع هينو من خبرته وأمضى وقته على خير وجه واستحق أن يسجل اسمه مع قدامى الرواد والمكتشفين

فى التاريخ . وعندما حاول الرومانى ايليوس جاللوس Aelius Gallus الذى عاش فى عهد أغسطس أن يقتدى به ويقوم بمثل رحلاته لق أشد العناء.(٣٧)

وانتفعت بهذه الخبرات الحلات التى نظمت فى عهد رمسيس الثالث إلى بلاد بونت متخذة الطريق البحرى ، وقد نظم هذا الملك البعثات وزودها بوسائل قوية فكان الأسطول يتكون من مراكب كبيرة ، كثيرة العدد ومراكب للحراسة يتكون أفرادها من بحارة وحملة الأقواس ورؤسائهم وأفراد للإمدادات ، وقد شحنوا معهم كميات وفيرة من الطعام والماشية والبضائع لأجل إطعام رجال الحملة ، ولغرض التبادل فى المعاملة وطبقا لما ذكره المؤرخ المسجل المصرى ، لم يسافر هذا الأسطول من البحر الأحمر ولكن من بحر موقيدى Mouqedi وربما لم يكن غير الخليج الفارسى لأن موقيدى « مياه بلاد قيدى » فى بلاد النهرين Naharina كان هو الاسم الذى أطلقه المصريون على نهر الفرات.(٣٨)

ويمكن أن يكون رمسيس الثالث قد وفق فى جلب خشب الأرز من لبنان ونقله إلى الفرات كما سبق أن فعل تحتمس الثالث(٣٩) وشيد أسطولا على شواطىء هذا النهر . وربما اتفق مع ملك بابل وأبرم معه معاهدة تقضى بأن تسمح لأفراد قواته وموظفيه بمجرد أن تصل إلى الفرات أن تعبره واتمام الرحلة على مراكب بابل . ومهما يكن الأمر ، فإن الأسطول الذى يحمل مبعوثى رمسيس الثالث كان يتعين عليه أن يمخر عباب نهر الفرات ويدور حول شاطىء شبه الجزيرة العربية حتى يصل إلى بلاد بونت دون أن يتعرض لأحداث بفضل النفوذ والخوف الذى يثيره اسم فرعون .

وكانت الأحوال وقتئذ تسير ، كما كانت عليه فى عهد الملكة حتشبسوت ، فكان المصريون على علاقة طيبة بالأهالى ، يعطونهم هدايا فرعون ثم تعود

المراكب والسفن محملة بمنتجات تونوتير Tonotir وبالعجائب الخفية التى توجد فى جبالهم ، دون أن ينسى بصفة خاصة ، حبات البخور الجافة ، ثم يمخرون البحر الأحمر حتى خليج السويس حتى يصلوا إلى وادى النيل عن طريق قناة بيتوم ، وفى هذا الوقت كان أبناء زعماء أرض الآلهة (تونوتير) ينزلون من المراكب قرب مينائى بريفيكا أو القصير ومعهم منتجاتهم ، ويسيرون على هيئة قافلة حاملين بضائعهم على ظهور الحمير وعلى أكتاف الحمالين ، ويصلون فى حالة جيدة إلى جبل قفط ومنها يركبون القوارب النهرية حتى يصلوا إلى طيبة فى حالة معنوية جيدة وكأنهم لو كانوا فى أعياد . . انهى الملك حديثه : « عرضت أمامى المنتجات والعجائب ، وكان أبناء أمرائهم يحيون وجهى ويقبلون الأرض وينبطحون على بطونهم أمامى . لقد أعطيتها لمجموعة الآلهة الكبرى ولآلهة البلاد كلها ، لكى أرضى أمراءهم فى الصباح » .

ويمكننا أن نفترض ، وإن لم يكن هذا قد ورد صراحة ، أن رجال القافلة قد وصلوا إلى قفط أو إلى طيبه فى نفس الوقت الذى وصل فيه الذين أتموا الرحلة بطريق البحر ، « وإن قرار استخدام وسيلتى انتقال للرحلة كان الغرض منه زيادة ضمان الحصول على منتجات بونت ، اذ أن مخاطر الرحلة بطريق البحر كانت كثيرة ، فكم من مركب ابتلعها اليم برجالها وشحنتها ، دون أن يذكر أحد من الناجين كيف ألم بهم هذا ، كما يقول الشاعر الغريق : « هبت العاصفة علينا ، عندما كنا فى عرض البحر الكبير ، قبل أن نصل إلى اليابسة ارتفعت الرياح وتضاعفت قوتها وارتفعت الأمواج ثمانى أذرع ، وقد أمسكت بلوح من الخشب وهكذا غرقت وهلكت المركب وكل الذين كانوا بها لم ينج منهم أحد » .

كانت هذه رحلة بهيجة ، ولكن المصريين فى عهد رمسيس الثانى قاموا برحلات أبعد منها بكثير وأجرأ تحدث عنها الرواة الكلاسيكيون : فالمصريون قد استعملوا منذ أقدم العصور حجر اللازورد الأزرق الذى لا يوجد فى صحراء أفريقيا . (٤٠) وكان مصدره الوحيد المعروف فى العالم القديم هى بلاد باكتريان Bactriane التى يربطها الطريق البرى لسوريا ومصر ، وربما كان أيسر من طريق نهر السند حتى المحيط ثم الشاطىء حتى مصب نهر الفرات وهو الطريق الذى اتبعه نيارك Néarque دون شك . ولم يذهب المصريون رأسا إلى البلاد التى تنتج اللازورد بحثا عنه ، بل اكتفوا بشرائه من بلد كانت تسمى تفرر Tefrer (٤١) والتى اعتقد فى شىء من الثقة أنها سيبار Sippar التى تقع تماما على قناة تربط نهر الدجلة بنهر الفرات عندما يقتربان جدا فى تلك المنطقة . وكان من المعروف فى مصر أن مصدر حجر اللازورد هى تفرر ، وإن اسم هذه المدينة كان يطلق أيضاً على حجر مصدره نفس المكان ولا يعرف شىء عنه .

وحدث فى إحدى السنوات عندما كان فرعون فى بلاد نهارينا وكان مشغولا بتلقى تحيات الأمراء الأجانب أن رأى ملك باختان وملك باكتريان شخصياً آتين إليه ، وقدم له الأخير ابنته وهدايا قيمة ، والتمس منه أن يتحالف معه ، فقبل فرعون هذا العرض وعاد ومعه الأميرة إلى طيبه . وبعد زمن قليل جاء رسول من قبل ملك باختان وطلب المثول بين يدى فرعون ، وبعد أن أذن له بذلك أخبر فرعون أن أخت الأميرة مريضة . فبعث فرعون إلى بلاد باختان بأشهر أطبائه من قبل « بيت الحياة » ، ولكن الأميرة لم تشف من مرضها . وقدم رسول آخر وقطع الطريق الطويل بين باختان ومصر . ونظراً لأن الطبيب لم ينجح ، لم يكن ثمة بد من إرسال إله ، إلى بلاد باختان ، ووقع الاختيار على خنسو المعبود الذى ينظم المصائر ،

فاستقل مركباً كبيراً تحرسه خمسة مراكب صغيرة ، ووصل إلى باختان بعد سنة وخمسة أشهر ، وتبدو هذه الفترة طويلة وغير معقولة إذا لم نعرف أن هذا الأسطول الصغير قد اخترق كل البحر الأحمر ودار حول شاطىء بلاد العرب ، متتبعاً شاطىء بلوخستان وصعد نهر السنـــد إلى نقطة نزل المسافرون فيها ليصلوا إلى قصر ملك باختان . وقد بقى الإله ثلاث سنوات وتسعة أشهر فى هذا القصر . وبعد ذلك سمح الملك وهو شديد الأسف بأن يعود إلى مصر وهو محمل بالهدايا تحف به ثلة من الجنود الأقوياء والخيول . وقد وصل الرسول الأول من باختان إلى طيبه فى السنة الخامسة عشرة من حكم فرعون، وعاد الإله إليها فى السنة الثالثة والثلاثين . وفى خلال هذه الفترة ، الثمانية عشر عاماً *، تمت الرحلة الأولى للرسول وعودته مع الطبيب المصرى وكذا الرحلة الثانية وعودته مع الإله ، وأخيراً بعد ثلاث سنوات وتسعة أشهر انتظاراً ، تمت عودة الإله إلى مصر، فالمسافة بين طيبه وباختان قد قطعت خمس مرات . . وتعتبر لوحة اللوفر التى سجلت عليها هذه الوقائع وثيقة رسمية فى كل مظهرها (٤٢) . والأسماء الثلاثة الأولى التى وردت فى مقدمتها هى الألقاب الملكية لتحتمس الرابع أول ملك فى الامبراطورية الحديثة تزوج أميرة أجنبية ، بينما اللقبان الملكيان يماثلان أسماء رمسيس الثانى، وليس ثمة مبرر كما أعتقد أن يعد هذا المستند من العصر المتأخر أو أن تعد هذه القصة مختلقة من أساسها ، فكثيراً ما كان الملوك فى العصور القديمة يتراسلون ، كما كان الأطباء

---

* بين السنوات ١٥ ، ٣٣ من حكم فرعون .

المصريون يطلبون كثيرا ليعالجوا المرضى فى الخارج. (٤٣) وكانت ذكرى رحلات سيزوستريس Sesostris فى بحر أريتريا ، لاتزال تذكر فى عصر الأسكندر الأكبر . (٤٤)

ومن المحتمل أن يكون رمسيس قد أراد أن يتصل رأساً بالبلاد التى كانت مصر تحصل منها منذ أقدم العصور على أحجار كريمة كان المثالون وعامة الشعب يقدرونها حق قدرها .

الفصل الثامن

فرعون

١ — واجب الملوك الأسمى

كان فن تعايش الأهالى فى المجتمع فى مصر يخضع لقواعد ذات طابع خاص . فإن كانت الآلهة هى التى أقامت كحاكم له الحياة والصحة والقوة ، شخصاً يستمد منها كيانه ، عمت البلاد أسباب السلام والرخاء ، وارتفعت مياه الفيضان السخية ، ونمت الغلال والشعير ، وتكاثرت قطعان الماشية وتدفقت على البلاد الذهب والفضة والنحاس والأخشاب الثمينة والعاج والبخور والعطور والأحجار المختلفة من أربعة أركان العالم .

ويتغير هذا الوضع كله إذا لم يتوافر هذا الشرط الأساسى ، فتصبح أرض مصر فى مهب الريح ، وتسود الفوضى البلاد لأن كل فرد يريد أن يتولى فيها الحكم ، فيقتل الأخ أخاه، وسرعان مايصبح الأجنبي هو الحاكم . وياله من عار ، فيحجم نهر النيل عن غمر الأراضى ولا يجد الشعب أقواته ، ولا يرد شىء من سوريا أو من كوش ، ولا تقدم القرابين فى معابد الآلهة التى تعرض عن كفر بها .

إن الواجب الأول لفرعون إذن ، هو أن يعترف بجميل الآلهة ، سادة كل شىء ، وكان من المألوف أن ينقش فى بدء نصوص عدد كبير من اللوحات الرسمية أن جلالته أقام فى منف أو فى أون (عين شمس) أو فى بى رمسيس أو فى طيبه ، مشغولا بعمل كل مايرضى الآلهة ، مثل ترميم ماتهدم وتشييد

هياكل جديدة أو تقوية الأسوار التي تحيط بها وحشدها بالتماثيل وتجديد أثاثها ، والمراكب المقدسة وإقامة المسلات وتزيين المذابح وموائد القرابين بالأزهار ، وبسخاء يفوق كل من سبقه من الملوك .

فلنستمع صلوات واعترافات رمسيس الثالث : « لك التمجيد أيتها الآلهة والمعبودات ، سادة السماء والأرض والمحيط ، ما أعظم خطواتك فى فلك ملايين (السنين) إلى جانب أبيهم رع الذى يفعم قلبه سروراً عندما يشاهد كمالهم فتسعد بهم أرض توميرى Tomery * . إنه (رع) لسعيد . . لقد استعاد شبابه عند رؤيتهم عظماء فى السماء . . أقوياء على الأرض . . يمنحون النسمة للأنوف المزكومة» .

إنى ابنكم صنيعة ذراعيكم . . لقد أقمتمونى ملكاً له الحياة والصحة والقوة على كل الأرض . ولأجلى صنعتم الكمال على الأرض . إنى أؤدى وظيفتى فى سلام ولا يألو قلبى جهداً عن البحث عن كل ماهو نافع وضرورى لصالح هياكلكم . وقد وهبتها بمقتضى قرارات سامية دونت فى كل أبهاء المعابد المنقوشة ، الرجال والأراضى ، وقطعان الماشية والمراكب . وتمخر صنادلهم عباب النيل ، وعمت الرخاء فى هياكلكم التى كانت خربة من قبل ، وقد قدمت لكم قرابين مقدسة بالإضافة إلى ماسبق تقديمه لكم . ولأجلكم أمرت بصياغة الذهب والفضة واللازورد والفيروز فى بيوت الذهب لقد راجعت كنوزكم وأكملت مانقص منها بأشياء كثيرة .

لقد ملأت مخازن غلالكم بالوفير من الشعير والغلال . وشيدت لكم القصور والهياكل والمدن حيث نقشت أسماؤكم إلى الأبد . .

---

* توميرى : الأرض المحبوبة أى مصر .

لقد زودت فرقكم بعدد وفير من الرجال لإكمال النقص بها ولم أسحب الرجال المخصصين لها كلكم أو قوادهم لتشغيلهم كجنود مشاة أو لقيادة العربات ، كما فعل ملوك سابقون . أصدرت قرارات سامية لتنفيذها على الأرض حتى يتمتع بها من يأتى بعدى من الملوك . لقد خصصت لكم قرابين تتكون من كل الأشياء الطيبة . وشيدت لكم مخازن لأعيادكم ملئت بالطعام . ولأجلكم صنعت أوانى طعمت بالذهب والفضة والنحاس بلغت الملايين عداً .

لقد بنيت مراكبكم الجارية فى النهر ومرساها الكبير مكسو بالذهب » .(١)
وبعد هذه المقدمة يعدد رمسيس مافعله فى المعابد الرئيسية فى مصر ، ثم ذكر فى كثير من التفصيل الهبات التى قدمها لأجل آمون سيد عرش الأرضين ، وتوم Toum سيد أرض أون On وبتاح العظيم الكائن جنوب جداره ، وزوجاتهم .

وعندما تنازل رمسيس الثالث مختاراً عن ثروته الخاصة وعن ثروة البلاد لصالح المعبودات ، فإنه لم يبتدع حدثاً جديداً . ويمكن أن يقال ، منذ أن وجد الملوك الفراعنة ، عن كل منهم ماجاء فى لوحة معبد عمدا وينطبق على كل منهم :

« إنه ملك صالح إذ شيد لكل المعبودات ، معابدهم ونحت لهم التماثيل » .(٢)

ولم يكد رمسيس الثانى يتوج ملكا حتى دفعه الطموح إلى أن يكون بمثابة الإبن الصالح لآبائه المعبودات ، ولوالده بالجسد من مآت رع سيتى مرى إن بتاح ، إذ كانت مشروعات عديدة فى مدينتى أنهور Anhour وأون نفر Oun Nefer (أبيدوس) قد شرع فى بنائها ولكنها لم تتمم بعد ، لذا

أصبحت المدينتان تماثلان فى بعض أجزائهما أفنية وقد كدست بالأدوات وفى أجزاء أخرى ، الأماكن الخربة . وأكثر من ذلك فإن العلامات التى غرست على حدود أملاك الآلهة لم توضع فى أمكنتها بإحكام وكان الأهالى ينتزعونها — وعندئذ أمر رمسيس مستشاره الملكى أن يجمع رجال البلاط والأمراء ورؤساء الجيش وكبار الموظفين المناط بهم الأعمال وأمناء المكتبة وخطب فيهم قائلا :

« لقد دعوتكم من أجل فكرة خطرت ببالى — فإنى رأيت المبانى التى أقيمت فى الجبانة والمقابر التى شيدت فى أبيدوس لم يكمل بناؤها منذ عهد أصحابها حتى اليوم ، وكان الإبن الذى يعتلى (العرش) مكان أبيه ، لا يتمم إكمال المبانى التى بدأها من أعطاه الحياة . لذلك قلت لنفسى : « مما يعود على الإنسان بالمثوبة والهناءة أن يقيم ماتهدم وانهار — إنه من الأصوب أن يقوم الإنسان بفعل الخير . لذلك دفعنى قلبى إلى تأدية أعمال ذات فائدة لصالح مرى إن پتاح ، وأجعل الأجيال القادمة تقول عنى ، على مر الزمان :

« لقد كان ابنه ، الذى أحيا وخلد إسم أبيه » .

واستمر الملك يتكلم بهذا الأسلوب مدة طويلة ، وانتهى بقوله :

«إنه لعمل طيب أن يشيد صرح فوق صرح وبهذا يكون قد أتم عملين طيبين فى آن واحد ، هكذا كان الإبن . . وهكذا كان الأب الذى أنجبه » أثار الاقتراح الملكى حماس المستشارين ، وبعد أن استمع جلالته لآرائهم أمر بأن يكلف المهندسون المعماريون بهذه الأعمال ، واختار جلالته الجنود والبنائين والنقاشين والنحاتين والرسامين وعمالا من مختلف الطوائف لإقامة قدس الأقداس لأبيه ، ولإعادة بناء كل ما كان منهاراً من الجبانة .

وقام جلالته بإعداد جرد شامل لحقوله ومزارعه ومواشيه ، كما عين الكهنة وحدد وظائفهم ، وكذلك كبير الكهنة . . ثم وجه الحديث مباشرة إلى والده الملك أوزير مارع Ousirmare ، معددا الأعمال التي قام بعملها من أجل والده ولمعبده ، قال :

« يكون كل شيء لك على ما يرام طالما كنت على قيد الحياة وطالما عاش رمسيس يا آمون ابن رع — فلتمنح له الحياة مثل رع » .

وعلى أثر ذلك وجه الملك من مآت رع Menmatre —سيتي— كلامه إليه ، كما يتكلم الأب مع ابنه مؤكدا له بأنه دافع عن قضيته أمام رع وأن جميع الآلهة رع وتم وتحوت وأو نفرع ومجموعة الآلهة الكبرى التسعة قد ابتهجوا سرورا لما فعله جلالته » . (٢)

لا يمكن الاعتراض على ما قاله رمسيس العظيم إلا على شيء واحد ، لقد أخطأ عندما اتهم من سبقه ، دون تفريق ، بعدم الاكتراث ، فقبله بقرن ونصف قرن وجد من خپررع (تحتمس الثالث) ، معبد يتاح في طيبه في حالة لا تليق بهذا المعبود العظيم ، فكانت جدران المعبد من الطوب اللبن والأعمدة والأبواب الخشبية كلها في حالة انهيار وتهدم ، فأمر جلالته بأن يحاط المعبد بحاجز ويعاد تشييد بنائه ، بالحجر الرملي الجميل الناصع البياض وتقوية جدان السور حتى تتحدى الزمن وصنع أبوابا جديدة من خشب الصنوبر قوائمها من النحاس المستورد من آسيا وقال :

« لم يسبق إطلاقا أن عمل شيء كهذا قبل تولي جلالتي الملك ، وارضاء لأمنيات المصريين كلهم قد صنعته أعظم مما كان ، وطهرت مسكنه العظيم بتحليته ، فرصعته بالذهب الوارد من الأقاليم الجبلية وكذلك كل آنيته

المصنوعة من الذهب والفضة ومن كافة الأحجار الكريمة ، وجعلت فراشه من الكتان الأبيض وجلبت له الروائح العطرية من العناصر المقدسة لعمل ما يسره فى أعياد بدء الفصول التى يحتفل بها فى هذا المعبد المقدس.وعندما عدت جلالتى من جبال رتنو ملأت معبده بكل شيء حسن من عجول وطيور وبخور ونبيذ وهدايا وخضر» .(٤)

وعندما كان الملك يرضى رغبات الآلهة ويقوم بترميم الهياكل القديمة المقدسة ويشيد هياكل جديدة مستخدماً فى سبيل ذلك أندر المواد ، ويخصص لها أموالا لم يكن مع هذا كله قد قام ما فيه الكفاية ، فكان عليه أن يتولى بنفسه ملاحظة تنفيذ أوامره . وعندما تتم الأعمال تماماً يفتتح المعبد ويهبه المعبودات (٥) وينثر حوله الحبوب ، ويطرق باب المعبد اثنى عشرة مرة بمطرقته ، ويحرق البخور إجلالا للتابوت، ثم يطوف حول أسوار المعبد حاملا فى كل يد إناء ، ويحمل فى بعض الأحيان مجدافا ومثلثاً ، أو يطوف أحيانا بجانب العجل أبيس المقدس . وكان على الملك أن يقوم بدور خاص فى بعض الحفلات الدينية الكبرى ، فعندما يحتفل بعيد أوبت Opet الكبير لا يستطيع أن يتخلف عن الظهور فوق ظهر السفينة المقدسة التى يزيد طولها على مئة ذراع ، والتى كانت تسحب من الكرنك إلى الأقصر .

وعيد مين Min ويقع فى أول فصل شمو ، لا يقل مكانة لدى الشعب عن العيد الأول ، وكان يتعين على الملك أن يقطع بنفسه ملء قبضته من الحنطة بوتى (Boti) . ولم يكن فى استطاعة رمسيس الثالث ، بصفة خاصة، أن يتنحى عن هذا الواجب ويكلف به شخصا آخر ، إذ كان يوم ذكرى تتويجه يتفق وهذا اليوم .

وعندما شرع بيعانخى Piankhi فى غزو مصر احتفل أولا بعيد رأس السنة فى مدينة نباتا Napata مسقط رأسه ، وعندما وصل إلى طيبه ، اتفق أن كان يوم الاحتفال الكبير بعيد آمون فى النيل فتبع موكب المعبود . (٦)

ومنذ هذه اللحظة أصبحت المعارك والحفلات الدينية تتناوبان ، حتى تم النصر النهائى .

وفى منف كلف (بيعانخى) أحد أتباعه بأن يخطب فى أهل المدينة قائلا : « لا تغلقوا عليكم أبوابكم ، ولا تقوموا بمهاجمة مقر المعبود شو ، فعندما أدخل يدخل هو ، وعندما أخرج يخرج هو . لن يستطيع أحد أن يحول دون تقدمى . سأقدم القرابين المعبود بتاح ولمعبودات المدينة ذات الجدار الأبيض (منف) . إنى أحيي الإله سوكارى Sokari فى صندوقه السرى ، وسأتأمل ذلك المعبود الموجود فى الناحية الجنوبية من جدار معبده وأعود فى سلام واطمئنان . . تاركا مقاطعة الجدار الأبيض (منف) سليمة دون أن يبكى أطفالها . انظروا إلى مقاطعات الجنوب ، لم يذبح فيها أحد عدا الكفار الذين أشركوا بالإله» . (٧)

وبعد الاستيلاء على المدينة أخذ فى تطهيرها بالملح والعطور ، ثم توجه إلى معبد بتاح وطهر نفسه فى قاعة التطهير ، وقام بكافة المراسيم الدينية المخصصة للملك وحده ، ثم دخل المعبد بعدئذ وقدم إلى أبيه بتاح ريزان بواف Ptah Risanbouf (بتاح فى جنوبى جداره) قربانا عظيما .

وبعد قليل استؤنفت الحفلات فى مدينة أون ، وعلى أثر تأدية بعض المراسيم التمهيدية التى تمكنه من الدخول إلى قدس الأقداس ، وبعد

أن تقبل عبارات الولاء من كبير الكهنة واستمع إلى الصلوات التى تبعد عن الملك أعداءه ، صعد درجات السلم التى تؤدى إلى الشرفة الكبرى ليشاهد رع فى قصره ذى الشكل الهرمى (معبد رع فى أون) . وحينما أصبح وحده فتح المتاريس ثم فتح الباب على مصراعيه ، وأخذ يشاهد أباه كما أخذ يتأمل سفينة رع وسفينة توم . وبعد ذلك أعاد غلق الأبواب كما كانت بعد أن وضع عليها صلصالا وختمها بالخاتم الملكى . فسجد الكهنة أمام جلالته وتمنوا له حياة طويلة ورخاء (٨)

أراد بيعانخى أن يظهر المصريين بأنه متدين مثلهم تماماً ، وأشد تمسكا بتقاليدهم القديمة ، ولكن كل ما ذكره من أعمال كان الرعامسه قد سبقوه إليها ، فكانوا كلما مروا بمدينة من المدن دخلوا معابدها وعبدوا آلهتها .

وكان فرعون فى بيته أينما كان . وفى كل مكان ، كانت ترى على الجدران صورة فرعون وهو يقدم إلى الآلهة الماء والنبيذ واللبن ، كما يقدم تمثال الحقيقة وهو يحرق حبات البخور فى المبخرة . ومع ذلك فقد كان رمسيس الأول ونجله ، قبل اعتلائهما العرش كبيرى كهنة ست . ، وكانا قد شغلا مناصب متعددة الدرجات فى تأدية مراسيم عبادة كبش مندس والمعبودة الثعبان واچيت ، التى كان لها تقديس كبير فى مسقط رأسيهما وفى البلاد المجاورة .(٩) وكان رمسيس الثانى يفخر فى أول عهده باعتلاء العرش ، بلقب كبير كهنة آمون. غير أن هذا لم يحل بينه وبين تعيين شخص آخر كبيراً للكهنة بعد تتويجه مباشرة ، ليلقى على عاتقه عبء القيام بالواجبات الدقيقة التى يتطلبها هذا المنصب ، وليسعد هو شخصياً بما يجوز لملك فى سنه ، يميل بطبعه الملذات والصيد والحرب.(١٠) ولكن رمسيس الثانى لم يختلف عمن سبقه أو خلفه من الفراعنة ، فلم يتهرب مطلقاً من الإلتزامات التى ينبغى لكل فرعون أن يؤديها للآلهة . وبهذه الطريقة كان يحصل بثمن غال ، دون

شك ، على السلام فى البلاد ، ما دام السواد الأعظم من العمال ، بصفة عامة كانوا يعدون أنفسهم قانعين بمصيرهم ، وليس فى استطاعتهم القيام بثورات جدية ، وما دام أولئك الذين يستطيعون حقاً الإخلال بالنظام ، كانت مصالحهم تفرض عليهم مراعاة النظام .

٢ — تزيين الملك —

كان استيقاظ الملك يتم دون شك باحتفال خاص ونعلم أن أحد كبار الموظفين المسمى بتاح موزى Ptah mosé كان يستيقظ مبكراً كل صباح ليكون أول من يحيي سيده .(١١) وأنا لا أعرف أية صورة تمثل الاستيقاظ الملكى ، ولكن يمكن أن يشاهد المرء على مقبرة بتاح حتب رسما لإحدى الشخصيات الكبيرة . وقد تعهدها الحلاق ليزينها ويقلم أظافر الأيدى والأرجل فى حضور أفراد الأسرة والأتباع . ولا يمكن أن يعمل أقل من ذلك الملك .

لم يكن الزى الملكى أكثر فخامة فحسب من زى الأمراء والرؤساء المدنيين والعسكريين ، بل كان يجب أن يظهر مكانة وشخصية من يرتدى هذا الزى . وكان الملك لا يظهر مطلقاً عارى الرأس أمام الجماهير ، بل كان يضع زيا على رأسه حتى وهو بين خاصته ، وكان شعره قصيراً ليتيح له فى يسر تغيير زى رأسه . وكان أبسطها شعراً مستعاراً مستدير الشكل يحوطه أكاليل معقود من الخلف ، وتتدلى خصل هذا الشعر المستعار فوق قفا الملك . ويلتف فوق الإكليل ثعبان الكوبرا المصنوع من الذهب ، انتفخ عنقه فانتصب وسط الجبين .

وتاج الجنوب وتاج الشمال والتاج المزدوج كانت كلها أزياء للرأس

تستخدم فى الاحتفالات : الأول عبارة عن طاقية عالية تضيق كلما علت وتنتهى باستدارة واسعة ، والتاج الثانى عبارة عن شكل هاون ، مستوى السطح ، يمتد من الخلف بعود صلب بينما يلتف حول القاعدة شريط من المعدن يبدأ عند قاعدة العود الصلب ويمتد ملتوياً على شكل حلزونى .

ويجمع التاج المزدوج بين خصائص التاجين . وكان الملك يفضل أن يضع على رأسه أثناء استعراض الجيش وخلال الحروب ، الخوذة الزرقاء ذات الخطوط المتعرجة المتناسقة والمحلاة أيضا بالثعابين والشريطين المتدليين خلف الرقبة .

وكانت التيجان والخوذة تلبس مباشرة فوق الرأس . وكان تاج النمس Nems واسعا لدرجة كافية لكي يضم الشعر المستعار ، المستدير ، وكان يمكن صناعته من قطعة قماش ، تحوط الجبين وتمر فوق الأذنين وتنسدل على جانبي الوجه حتى تصل إلى الصدر ، ومن الخلف كان على شكل جيب ينتهى فى نقطة وسط الظهر . وهذا القماش أبيض اللون مخطط بخطوط حمراء ، وكان من الممكن أيضاً أن يوضع على رأس الملك نمس أعد من قبل ، ويلتف حوله شريط من الذهب لتقويته وهذا الشريط ضرورى بصفة خاصة بالنسبة للتاج المزدوج أو لتاج الشمال أو تاج الجنوب عندما كانت توضع فوق النمس ، كما كان من الممكن أن توضع ريشتان صلبتان فوق النمس ، أو آتف وهو مكون من طاقية الوجه القبلى على جانبيها ريشتان لينتان وموضوع فوق قرنى كبش جمع بينهما قرص لامع من الذهب وعلى حافته صلان من الذهب غطيت رؤوسهما بقرص الشمس . ويديهى أن مثل هذه التيجان كانت مخصصة للحفلات التى يظل الملك فيها ثابتا دون حراك .

ومن أزياء الحفلات أيضاً تلك اللحية المستعارة ، وهى تماثل اللحية

ذات الجدائل التى كان يكلف بها أهالى بلاد بونت – تلك الأرض المقدسة – والتى عرفت بهذا الإسم لأن كثيراً من كبار آلهة المصريين كانت تنتمى إليها .

وكانت هذه اللحية تثبت بشبكين مع زى الرأس ، مهما كان نوعه ، وكان الملك فى العادة يحلق ذقنه وشاربه ، وأحياناً كان يترك شعر الذقن ينمو قليلا ثم يحلقه فتصبح مربعة الشكل .

كانت القطعة الأساسية فى ملابس فرعون ، وملابس المصريين عامة ، مهما كانت طبقاتهم ، هى النقبة . وتمتاز النقبة الملكية بأنها ذات ثنيات يشدها حزام عريض تتوسطه أنشوطة من المعدن نقشت على فتحتها كتابة هيروغليفية جميلة ، ويعلق ذيل ثور فى الخلف . وأحياناً كانت تعلق فى الحزام من الأمام مئزر على شكل شبه منحرف مستطيل . وقد تكون كلها من المعدن وإذا كان إطارها وحده من المعدن ، إرصعت من الداخل بعقود من اللؤلؤ . وثبتت فيها ثعابين قد توجت بقرص الشمس أو تدلت فيها يميناً ويساراً .

ولم يكن الملك يحفل بأن يسير حافى القدمين ولو أنه كان يمتلك مجموعة ثمينة من الصنادل المصنوعة من المعدن والجلد والقش . (١٢) وتكمل الحلى وأدوات الزينة ما قد يكون فى هذا الزى من بساطة .

والعقود التى يملكها الملك مختلفة الأشكال إلى حد بعيد ، وهى تحتوى غالبا على دلايات ذهبية أو لؤلؤ أو قطع ذهبية صغيرة مثقوبة قد انتظمت فى خيوط وتنتهى بمشبك مسطح يوضع خلف الرقبة ، وتتفرع خيوط من الذهب ذات شكل رائع عبارة عن سلاسل وزهور ، وهذه القلائد حديثة

الصناعة نسبياً . أما القلادة الأصلية فكانت تحتوى على عدة صفوف من اللؤلؤ يضمها قفلان على شكل رأس صقر كانت تعلق على الرقبة بوساطة رباطين ، وكان خرز الصف الأخير يصنع على هيئة الدموع ، وبقية أنواع الخرز كانت إما مستديرة أو على شكل ثمرة الزيتون. وقد تزن هذه القلادة أحيانا عدة كيلوجرامات . وكأن هذا الثقل لم يكن يكفى الملك ، فإنه كان يعلق على رقبته أيضا لوحة مستطيلة للصدر على هيئة واجهة المعبد بواسطة سلسلة مزدوجة، كما كان يتزين بثلاثة أزواج من الأساور على الأقل ، أحدها بقرب الكتفين وآخرين عند المعصمين والثالث عند الكعبين (١٣) . وقد يحلو له أن يضع فوق كل هذا رداء طويلا خفيفاً وشفافا ذا أكمام قصيرة وله حزام من نفس القماش يربط من الأمام .

٢ ـ الملك فى عمله

يؤكد ديودور ، الذى يفتخر بأنه فحص بدقة الأحداث المدونة فى حوليات الكهنة المصريين، بأن حياة الملوك العامة والخاصة كانت تجرى وفق نظام دقيق، لقد كان الملك يستيقظ مبكرا فى الصباح ويطلع على المراسلات، وبعد أن ينتهى من استحمامه ويتزين بالشعارات الملكية كان يقدم ذبيحة للآلهة ويستمع للصلوات وعظات كبير الكهنة وللقصص التى تنطوى على القدوة الصالحة . وله بعد ذلك أن ينظم أوقاته بين الاجتماعات والمحاكمات والتنزه والتسلية . وكان ينبغى له أن يراعى الاتزان وبأن تكون أعماله مطابقة تماماً للقانون ، ولما كانت هذه عادات جرى عليها العرف ، لم يكن هناك مايدعو إلى الغضب وكان الملك يعد نفسه سعيدا بما قسم له (١٤) ولكن مما لا ريب فيه أن تصرفات فرعون لم تكن كلها مثالية ، كما يعتقد ديودور .

ومع ذلك فإن تنظيم الوقت على النحو الذى ذكره يجب أن يكون مطابقا للحقيقة لأن ما نعلمه من حوادث تلك الأزمنة يؤيد ما ذهب إليه فى سهولة ويسر .

ومن المؤكد أن كثيرين من الملوك قد قاموا بأداء الأعمال التى تتعلق بمناصبهم على خير الوجوه ، فكانت تتلى عليهم الرسائل ، وكانوا حريصين على أن يحاطوا علما بكل الأحداث الجارية ويملون نص الإجابات ، وفى بعض الأحيان كانوا يطلبون عقد اجتماع للمجلس الملكى لاستشارته إذا اقتضى الأمر ذلك .

وعبارة : « أبلغ جلالة الملك . . » نعثر عليها فى بداية عدد كبير من النشرات الرسمية المدونة على اللوحات . ومشروعات الأعداء كانت أهم ما يبلغ لجلالة الملك . فأثناء وجود الملك بسماتيك فى تانيس قائما بالمراسيم الدينية التى ترضى المعبودات المحلية ، حضر من أبلغه بأن كوار Kouar الزنجى قد حمل السلاح ضد مصر . (١٥)

وعلى هذا فمسألة السلام أو الحرب كانت تتعلق بالملك وحده ، ومع ذلك فقد كان يبدى اهتمامه أيضا بالمسائل الفنية . وقد رأينا من قبل أن سيتى كان مشغولا بتزويد الباحثين عن الذهب بالماء ، وهم أولئك الذين كانوا يعملون فى المنطقة الواقعة شرق إدفو . وكان هذا الأمر يشغله إلى حد أنه انتقل بنفسه ليرى مدى متاعب العمال المحرومين من المياه وهم يكدون تحت الشمس المحرقة (١٦) وعندما أراد رمسيس الرابع أن يقيم معابد ومبانى لآبائه آلهة مصر وإلهاتها ، بدأ يدرس الكتب المحفوظة فى « بيت الحياة » ليعرف كيفية الوصول إلى جبل بخن Bekhen ثم ذهب بنفسه ليجوب أرجاء هذا الجبل المقدس . (١٧)

ونظراً لأن مشاغل رمسيس الثانى الجسيمة كانت تحول دون إمكانه الافتراق عن شاطىء النيل فقد اكتفى بأن يكلف فى قصره بحات كابتاخ Hatkaptah على دراســة الوسائل التى يمكن بها توفير المياه فى صحراء ايكايتا (صحراء العطمور بين وادى حلفا وأبو حمد) المقفرعة ، فجلس على عرشه الذهبى ، متوجا بالتاج والريشتين وأمر حامل الأختام الواقف بجانبه ، قائلا : « أدع كبار رجال الدولة الموجودين فى القصر ، كى تشاورهم جلالتى فى شأن هذا الاقليم ، سأضع المشكلة على بساط البحث ، فاحضروا فى الحال مهرولين ليمثلوا بين يدى الإله الطيب ، كما لو كانوا مذنبين ، إذ لا يستطيع أحد ولو كان من هيئة المستشارين أن يشاهد وجه فرعون المبجل دون أن تعتريه الرهبة ، وقد قبلوا الأرض بين يديه ، وشرحت لهم المشكلة.

ولو أنهم أجابوا إجابة مباشرة ، ليظهروا مقدار علمهم ، لخالفوا أبسط قواعد الأدب ، إذ أن فضل انجاز هذه العملية ، التى سوف يشرع فيها ، يعود كله إلى الملك ، لذلك فقد أجابوا بنفس الطريقة التى اتبعها رجال حاشية رمسيس عندما جمعهم منذ بضعة شهور ليبلغهم رغبته فى اتمام معبد أبيدوس فأثنوا ثناء بالغا على هذا الملك الذى لا نظير له ، والذى يبتكر مشاريع فى الليل فتتحقق عند بزوغ النهار . وبعد أن استعيد ذكر المحاولات التى فشلت فى الماضى القريب والبعيد ، انتهى بهم الأمر إلى أن يقولوا : « إذا قلت أنت بنفسك لأبيك حابى ، والد الآلهة بأن تنبثق المياه فوق الجبل فإنه يحقق كل ما تطلبه طبقا للخطط التى أوضحتها لنا ، إذ أن آباءك الآلهة يحبونك أكثر من أى ملك آخر تولى العرش منذ عهد رع » ثم ينفض اجتماع المجلس . ولم يعد هناك إلا أن يبدأ الفنيون بالشروع فى العمل ، وعليهم أن يخطروا الملك بما يصطون . وسيخلد نجاح هذا المشروع على لوحة تذكارية عن الصرائيث (١٨)

ومن البدهى أن تعيين كبار الموظفين وأصحاب المناصب الكبرى كان من اختصاص الملك وحده . وكان اختيار رئيس كهنة آمون من أخطر الأمور شأنا . فالملوك الرعامسه لم ينسوا ذلك النزاع الذى جعل العرش ورئيس الكهنة مطمعا لأكثر الآلهة ثراء وأشدهم طموحا . وكان رمسيس الثانى فى بداية توليه العرش قد أضفى على نفسه لقب كبير الكهنة ، وعندما اعتزم ، بعد وقت قصير ، أن يعين شخصا ، كبيرا للكهنة وقع اختياره على انسان من غير كهنة آمون ، ولم يكن هذا الذى وقع عليه الاختيار نكرة أو أنه غير كفء لهذا المنصب ، لأنه كان إذ ذاك كبيرا لكهنة أنهور Anhour فى مقاطعة طينه ، وربما كان هذا الشخص قد استرعى انتباه الملك عندما تفقد الأبنية التى كان قد شرع فيها والده فى تلك البقعة المقدسة . وقبل أن يبت فى قراره هذا لجأ إلى نوع من الاستشارة ، لم تصلنا كل تفاصيلها . لقد لجأ إلى المعبود نفسه ، وكان قد عرض أسماء رجال الحاشية الملكية ورؤساء الجنود وكهنة المعبودات وذوى الألقاب من البيت الملكى حينما كانوا ماثلين أمام وجه المعبود ، غير أن آمون لم يبد رضاه عن أحد من هؤلاء ، ولم يظهر علامات السرور إلا عندما ذكر اسم نبونف Nebounnef ، وعندئذ قال الملك : «كن معه كريما . فان اختياره قد وقع عليك ، وبعد انتهاء هذه الكلمات بادر رجال الحاشية ومجموعة الثلاثين مستشارا بالثناء على طيبة جلالته فسجدوا عدة مرات أمام هذا الإله الطيب ممجدين أرواحه حتى عنان السماء . وبعد أن خفتت أنغام هذا المدائح سلم الملك ، كبير الكهنة الجديد خاتميه الذهبيين وعصاه المصنوعة من الفضة المذهبة ؛ وبهذا أخطر أهالى مصر جميعا بأن أملاك آمون ، بكل مشتملاتها قد سلمت إليه». (١٩)

٤ — من منح العفو

تضمنت مذكرات سنوحى Sinoubit المناسبة الوحيدة المعروفة لنا التى منح فيها فرعون العفو لمذنب ، وشرح واضع القصة بإسهاب الملابسات التى اقترنت بهذا الحادث . لم يكتف الملك بأن يرفع العقاب عن سنوحى والأذن له بالعودة فحسب، بل أراد أن يراه ، فوصل المغامر إلى نقطة «طرق حورس» على الحدود ، وترك أصدقاءه البدو بعد أن وزع عليهم الهدايا التى أرسلها له البلاط الملكى ، ثم استسلم للجند الذين اقتادوه على مركب إلى إثى تاوى Ity Taoui . وعند وصوله أخطر القصر بقدمه ، فاحتشد أطفال القصر الملكى بين رجال الحرس ، وقاده رجال الحاشية ، المنوط بهم إرشاد الزائرين إلى قاعة الأعمدة ، إلى المكان المناسب. وهكذا مثل أحد الرعايا أمام مليكه الذى تبوأ عرشه الكبير فى القاعة المذهبة ، ونظرا لأن خطيئة سنوحى الجسيمة كانت تسيطر تماما على كل حواسه ، فقد تمدد على الأرض ، وقال «كنت بمثابة رجل وقع فى مهالك ظلام حالك ، تكاد روحى تفارقنى ، أجزاء جسمى ترتعد، لم يبق قلبى فى صدرى، ولم أعد أميز بين الحياة والموت» .

ثم رفع سنوحى عن الأرض ، وبعد أن كان الملك ينتهره ، أخذ يهدىء من روعه ويشجعه ليتكلم ، غير أن سنوحى لم يستغل هذا التصريح وأنهى خطابه القصير ، قائلا : «ها أنذا أقف ماثلا أمامك ـ أنت مصدر الحياة فلتفعل جلالتك ما يحلو لك» .

ثم أمر الملك بدخول الأمراء من الأطفال ، وبينما هم يدخلون ، لم يستطع الملك إلا أن يبدى ملاحظته للملكة بأن سنوحى قد تغير تماما بسبب معيشته بين الآسيويين مدة طويلة فأصبح مثلهم تماما ، فصاحت الملكة

مدهشة وأيد الأمراء الأطفال كلهم ملاحظة الملك قائلين : « حقيقة ، يامولانا ، أنه ليس هو كما عرفناه ! » .

ثم أحضرت الصاجات وصلاصلتان وقدمت للملك ، وقالوا له : « تناول هذه الآلات الجميلة أيها الملك ـ ضع يديك عليها ـ خذ أدوات زينة حاتحور ، لعل السيدة الذهبية تمنح لأنفك الحياة ، لعل سيدة النجوم تتحالف معك » .

وبعد إنشاد قصيدة مطولة فى مدحه التمسوا العفو لسنوحى ، لأن ما ارتكبه كان ، نتيجة إدراك غير سليم ، والمعبودة صاحبة الصلاصلة والصاجات والتى تدعى المعبودة الذهبية وسيدة النجوم ، كانت فى الحقيقة معبودة السرور والرقص والمآدب ، وكان دورها فى هذه المناسبة هو التمهيد لقرار العفو الذى سيصدره الملك لصالح هذا الضال . وكان تدخل المعبودة فى هذه المناسبة بلا شك من المراسيم المتبعة .

ويخرج سنوحى أخيرا من القصر الملكى ولم يكن مجرد شخص غفر ذنبه فحسب وتم العفو عنه ، بل أصبح غنيا يملك بيتا ويطعم مما يغدقه عليه الملك من طيبات الرزق. (٢٠)

٥ — الهبات الملكية

وصف أحد رجال الحاشية فرعون: فقال عنه : «إنه هو الذى يضاعف الخيرات ، ويعرف كيف يعطى ، هو الإله بل هو ملك الآلهة ، يعرف من يعرفه ويكافىء من يخدمه ويحمى اتباعه ، هو رع ، جسده الظاهر هو القرص يوميا إلى الأبد» (٢١) .

وأثناء حروب التحرير ، وخلال غزو سوريا فكر فرعون فى أن

يوزع الذهب تقديراً لشجاعة عدد من أبطال الحرب . فأصبحت عادة .
وسرعان ما جاء دور المدنيين فأنعم عليهم .

وقد تمنح المكافآت لفرد واحد ولكن فى الغالب كان ينتظر حتى يصبح عدد هؤلاء الأفراد كبيرا ، وعندئذ يدعون للحضور إلى التكريم، فيرتدون أجمل مالديهم من ثياب وعندمايخرجون من بيوتهم ليركبوا عرباتهم يقف خدمهم وجيرانهم صفوفا بجوار المنزل ليحيوهم ، وتتجمع العربات فى فناء أمام القصر الملكى . ونجد الفرسان يتحدثون فيما بينهم أو مع رجال الحرس ، كل يثنى على سيده وما سوف يكافأ به . وقد يسأل سائل : « لمن يقام حفل التكريم هذا أيها الصغير ؟ إنه يقام احتفالا بآى Ay الوالد المقدس وتايا . . لقد أصبحا ممن ينعم عليهم بالذهب » ، وسأل أحدهم بدوره، إذ لم يكن قد سمع ما قيل « من ذا الذى يحتفل به ؟ فتكون الإجابة : « أنظر إلى ما يفعله فرعون (له الحياة والصحة والقوة) من أجل آى وتايا ، إنه يهبهم ملايين الهدايا . . انظر إلى النافذة ، سوف نرى ما يقدم لآى الأب المقدس » (٢٢) .

وعندما يجتمع شمل الجميع ، يجلس الملك فى الشرفة المطلة على الشعب والتى تمتد من قاعة الأعمدة .

ويرى من الخارج صف القاعات الملكية وقد زودت بالكراسى ذات المساند والصناديق الفاخرة ، وقد رصت جميع الهدايا التى ستوزع على موائد وضعت بجانب الملك ، وتجدد تلك الهدايا كلما نفدت . وفى بقية أجزاء القصر يقوم الخدم بتأدية أعمالهم ذاهبين آيبين كالمعتاد ، ويتسامر بعض الناس فى هدوء ، بينما تقوم بعض السيدات بالغناء أو الرقص أو العزف على القيثار .

وفى فناء القصر يقوم حملة المظلات والمراوح ، والضباط بترتيب صفوف مستحق الجوائز وادخالهم ، كل بدوره ، حتى حافة الشرفة . . .

عندئذ يحيي مستحق المكافأة الملك ، بذراعيه فقط ، دون أن يركع على الأرض ويلقى كلمة يمتدح فيها الملك ، فيجيبه الملك بالثناء على خادمه ، مادحا إخلاصه ومهارته وتفانيه ، وفى بعض الأحيان يمنحه ترقية قائلا : « أنت خادمى العظيم لقد نفذت تعليماتى فى كل ما عهدت به اليك من أعمال وفقت بتأديتها بما يرضينى ، لذلك أمنحك هذه الوظيفة وأقول لك : استطعم من خبز مولاك فرعون ، له الحياة والصحة والقوة فى معبد آتن Aton » ثم يلقى إليه بكئوس من الذهب أو بقلائد من الذهب ، فيهم الضباط بالتقاط هذه الأشياء الثمينة قبل أن تسقط على الأرض ، وعلى الفور تعلق القلائد فى أعناق من أنعم بها عليهم ، وقد تكون المكافأة ثلاث قلائد أو أربعا ، فيتجه المنعم عليه إلى الخارج وهو ينوء بحمل هذه الأثقال ، وقد امتلأ سرورا وامتنانا ، يصحبه الضباط حاملين الأشياء الأخرى التى لا يمكنه تعليقها . ويقوم موظفون آخرون بتقديم الأطعمة ، أما الكتاب فيسجلون كل ذلك .

وعندما يصل المنعم عليه خارج القصر يجد أصدقاءه وخدمه وموظفيه ، فيعبرون له عن سرورهم ويركب عربته ليعود إلى بيته تحف به الجماهير التى يزداد عددها فى كل خطوة يخطوها ، وتستقبله زوجته رافعة ذراعيها نحو السماء شكرا على كل هذه النعم ، بينما تقف نساء أخريات يضربن الدف ويغنين ويرقصن ، ويأتى الاقارب والأصدقاء وتستمر الحفلات فى البيت وقتا طويلا . (٢٣)

لم تكن حفلات توزيع المكافآت مقصورة على الرجال فحسب ، إذ أنه آى Ay ، الذى رأيناه عندما كان اخناتون يكافئه ، قد أصبح هو نفسه فرعونا وقد أصبح بدوره يوزع الجوائز، وبعد أن منح نفرحتب Neferhotep الكاتب ، ومدير قطعان آمون ، وساما قرر أن يمنح زوجته مريت رع Meryt-Rê وساما أيضا ، فأقيمت الحفلة فى أحد المنازل الملكية الريفية وهو عبارة عن مبنى على هيئة مكعب تخترق جوانبه نوافذ صغيرة مربعة الشكل ، وعلى الواجهة نافذة كبرى تطل على شرفة ذات أعمدة ، أما الحديقة التى تحيط بهذا المنزل البسيط ، فقد زرعت بكروم صفت على طول الممشى، وارتكزت غصونها على أعمدة صغيرة مماثلة لبقية أعمدة المنزل . وقد وضعت بجانب الجدار أوان وسلال ومجموعة من الأطباق ، وتقدمت نحو الواجهة ، مريت رع، الرائعة الجمال فى ثوبها الشفاف وفوق رأسها قالب مخروطى معطر ، وتسلمت بيديها القلائد التى ألقى بها الملك إليها من النافذة . ولم يشهد هذا الحفل الخاص العائلى سوى عدد محدود من الشعب ، وترى إحدى النساء تصفق وأخرى تقبل الأرض، وأحضرت باقات الزهور وأخذت إحدى الموسيقيات التى استؤجرت لهذه المناسبة تتناول المشروبات دون أن تكف عن تحريك الصلصالة ، وقد تمكن طفلان من التسلل إلى داخل الحديقة متطفلين لمشاهدة الحفلة فلفتا انتباه أحد الحراس، فرفع عصاه نحوهما مهددا بالضرب، وعادت مريت رع إلى منزلها على قدميها بعد انتهاء الحفل وقد تأبط رجل ذراعها ولم يعرفه أحد لنا ، هل هو زوجها وهل هو ضابط كلف من قبل الملك بمصاحبتها فى العودة ، لقد كانت تسير فى زهو وكبرياء ، والقلائد التى أهداها لها الملك لا تزال تتدلى حول عنقها . وسار خلفهما موكب ترى فى وسطه لاعبة الشخشيخة كما تشاهد طفلتين عاديتين أما الخدم فقد اقتسموا فيما بينهم حمل جرار الفخار والأربطة والسلال التى ستكون قوام مأدبة فخمة فى هذا اليوم

وقد وضعت أغلى الهدايا قيمة داخل صندوق . (٢٤) وكانت هذه الحفلات المخصصة لتوزيع المكافآت تعقد فى الهواء الطلق أحيانا ، إما لأن الذى سيمنح المكافأة من الشخصيات المرموقة ، فلا يكتفى فرعون بأن يلقى إليه بضع قلائد من أعلى الشرفة، أو لأن عدد الحاضرين كبير جداً فيقام الحفل عندئذ وسط فناء متسع وضعت به منصة ، صنعت من مواد خفيفة ، وقد جعل منها صناع الأبنوس الماهرين تحفة رائعة من حيث الذوق السليم والفخامة والأبهة ، وفوق هذه المنصة قاعدة زخرفت بنقوش غائرة تمثل السوريين والليبيين أو الزنوج راكعين وهم يمدون أيديهم ملتمسين الرحمة ، أو يرى هؤلاء والملك يطأهم بقدميه وقد تحول إلى هيئة حيوان العقاب .

ويعلو القاعدة أربعة أعمدة على شكل ساق نبات اللوتس ، زخرفت بالتطعيم ونقشت من أعلى إلى أسفل ، تسند أفريزا من عدة صفوف يعلوه سقف مقبب، ويصعد فرعون درجات السلم، تحميه مجموعة من تماثيل أبو الهول ذات رؤوس صقور، ثم يجلس على أريكة رائعة فى فنها وصنعها . إن حورمحب هو الشخصية التى ينتظرها الملك ، والذى سوف يصبح فيما بعد ملكا ، أما الآن فقد منح قيادة حربية هامة واستطاع حماية جماعة من البدو كان يضطهدهم بدو آخرون . وقد أسر حورمحب قبيلة المعتدين بأكملها ، ووصل مع الأسرى إلى العاصمة مستصحبا معه أولئك الذين دفع عنهم العدوان ، وقد أتوا ليلتمسوا فى خشوع الإذن لهم بدخول الأراضى المصرية ومعهم قطعان ماشيتهم على نحو ما كان يحدث دائما . وسيشهد أولئك وهؤلاء حفل تمجيد حور محب ، فهذا القائد ـ وهو فى أبهة ملابسه الرسمية يرفع ذراعيه تعبيرا عن عظيم تأثره ، بينما يقوم بعض الضباط بتعليق القلائد ، الواحد تلو الآخر حول عنقه ويأتى ضباط آخرون بقلائد جديدة وضعت فوق صوان ، وهم يسيرون وقد أحنوا ظهورهم . ويشير أتباع حور محب إلى صفوف

طويلة من الأسرى، ومن بين هؤلاء رجال يتميزون باللحى والشعور الطويلة نكست سهامهم وعبست وجوههم لما يلقون من ألم شديد وقد وضعت القيود فى أيديهم ، أما النساء فقد تركن دون قيد ، يسرن فى وقار ويأخذ أحد الجنود بيد أم تلبس رداء ذا ثنيات وتحمل طفلا على كتفها ووضعت طفلا آخر أصغر منه داخل خرج ، ويبدو على امرأة أخرى أنها تحاول التحدث مع الجندى بتقدمها فى السير ، ومما يسترعى الانتباه ، أكثر من أولئك الأسرى ، الذين سوف يساقون إلى صناعة صب الطوب أو قطع الحجر فى المحاجر ، تلك الخيول التى يقودها هذا الضابط المصرى .

وبعد أن تمت مكافأة حورمحب ، تولى بنفسه الدفاع عن قضية البدو الذين كانوا معرضين لخطر سلب ماشيتهم ونهب أموالهم ، لولا تدخله فى الأمر . وألقى خطبته أمام فرعون وهو لا يزال متحليا بقلائده وحاملا إلى الأمام المروحة ذات المقبض ممجدا عظمة فرعون وقوته ثم شرح الموضوع بعدئذ . وبعد ذلك اتجه صوب المترجم وطلب إليه أن ، يخطر البدو بأن فرعون قد قبل أن يأذن لهم بالإقامة فى أرضه : هؤلاء هم الليبيون ويسهل التعرف عليهم بفضل الريشة التى تتوسط رأسهم ، والشعر القصير المنسدل على جباههم والخصلة الغزيرة التى تغطى جانبا كبيرا من وجوههم . وقد اختلط بهم بعض السوريين الذين يرتدون ملابس ذات أكمام طويلة ووشائح عريضة ويعبرون عن امتنانهم وعرفانهم بالجميل بقسمات وجوههم المعبرة رافعين الأكف نحو السماء ثم يمدونها نحو فرعون وهم منبطحون حتى تكاد بطونهم تمس الأرض ، وقد اعترتهم نوبة هذيان جعلتهم يتمرغون فى التراب . (٢٥)

وحورمحب قد استحق مكافأته ، فإن مثل هذا لا يمكن أن يقال بصدد أمنحتب كبير كهنة آمون الذى عامله رمسيس التاسع كشخص مساوٍ له

وينتهى الأمر بأن يتنازل له عن كل شىء، وقد تم الاحتفال داخل جوسق نخم حيث ظل الملك و كبير الكهنة واقفين وجها لوجه لا يفصل بينهما إلا الأرفف المحملة بالهدايا، وكان كبير الكهنة عارى الرأس، بينما كان الملك متوجا بالخوذة الزرقاء، وقد وقف فوق حصير، ولكن الفنان الذى رسم هذا المنظر فى معبد الكرنك قد جعلهما متساويى القامة.

وكانت الهدايا ذات قيمة كبرى وتتكون من ١٠ دبن من الذهب و ٢٠ من الفضة وكمية من المأكولات تكفى لإقامة مأدبة و ٢٠ أروراً Aroures)من الأراضى الزراعية، ولكن الامتيازات التى انتزعت من الملك كانت أكثر قيمة من هذا كله، وقد حصل أمنحتب على سلطات لاحد لها، جعلت دائرة أملاك آمون الغنية جداً بعيدة عن كل مراقبة خارجية، وأصبحت كأنها دولة داخل الدولة. وقد حصل كبار كهنة آمون بفضل جهودهم وجلدهم الطويل الأمد، على نفوذهم الذى كانوا قد اكتسبوه فى عهد الملكة حتشبسوت وخلفائها من الملوك التحتمسيين، بعد أن اضطهدهم اخناتون وأساء معاملتهم، وبعد أن كانوا موضع ريبة وحذر من رمسيس الثانى. (٢٦)

٦ ـ استقبال السفراء الأجانب

كان حفل استقبال السفراء الأجانب يفوق بكثير حفل توزيع المكافآت، لأنه كان مناسبة عظيمة تتيح لفرعون بأن يظهر فيها أبهته ويشبع فيها كبرياءه وفخره، لاسيما إذا، كان الموعد قد حدد لاستقبال عدد من السفراء الوافدين من أركان العالم الأربعة فى وقت واحد. كان الرعامسه يستقبلون دائماالنوبيين والزنوج ورجال بلاد بونت والليبيين والسوريين والقادمين من نهارينا (بلاد ما بين النهرين) ولكن لم يشاهد مجىء مندوبى كريت الذين يرتدون أردية ذات ألوان مختلفة ولهم شعور طويلة ملتوية، مسترسلة ويحملون معهم أوانى مستطيلة ذات حجم كبير وأخرى على هيئة أقماع وأقداح ذات مقابض

وجرار علاة بالزهور وقد التمسوا أن يسمح لهم بالإقامة فى مياه الملك .

ومع أن البعثات قد توقفت إلا أن شهرة الملك امتدت ناحية الشرق حتى بلاد لم يسمع الملوك الذين يحملون اسم تحتمس وأمنحتب عنها شيئاً مثل ميديا والفرس رباكتريا وشواطىء نهر السند .

ولإقامة هذه الحفلات كان يشيد الملك سرادق كبير وسط ميـــدان ، ويحيط بهذا السرادق الحرس الملكى وحاملو المظلات والكتبة . ويصطف السفراء على جوانب السرادق الأربعة ، تتقدمهم الهدايا الثمينة التى أحضروها معهم ، فيقوم الكتبة بجردها وتسجيلها ثم يؤمر بحملها إلى مخازن المعبد المجاور . (٢٧) ويمنحهم الملك فى مقابل تلك الهدايا « نسمة الحياة » وقد يهبهم أحيانا هدايا مادية أعلى قيمة من تلك التى أحضروها ، إذ كان يسر فرعون أن يظهر نفسه بمثابة جبل من الذهب أمام أى بلد آخر ، وما كان يستطيع أن يمتنع عن إعانة الأمراء المعوزين الذين كانوا يتمنون محالفته ، إما عن طريق الزواج وإما عن طريق آخر ، طالما اتصفوا بالمقدرة التامة على أن يلقوا نظرة سريعة نحو منافسيه ، متى حانت الفرصة .

٧ — المباهج الملكية : الرياضة

كانت الحرب هى أهم مايشغل وقت الملك . وكان ينشأ الأمراء لهذا الغرض منذ حداثة أظفارهم ، وكان سيزوسيس Sesoosis أو بعبارة أخرى رمسيس الثانى قد عوده أبوه ، مثل سائر زملائه على أن يمارس تمرينات رياضية متواصلة ترهق الجسد ولم يكن يسمح لأحد منهم أن يتناول طعاما قبل أن يكون قد قطع عدوا مسافة ١٨٠ ، ستادا Stades * ولذلك فهم عندما يبلغون أشدهم يصبحون أبطالا صناديد . (٢٨) .

---

* الاستاد نحو ميلين

وتثنى قصيدة قادش . وغيرها من النصوص النثرية على قوة الملك البدنية وشدة احتماله ومهارته وشجاعته ، وإذا أردنا أن نعرف تفاصيل التربية الرياضية لصغار الأمراء فإننا نجدها فى لوحة تحتمس الثالث (٢٩) المحارب الشجاع ولا سيما لوحة ابنه أمنحتب الثانى الذى تولى العرش بعده ، وقد كان طبقا لما قاله الأطباء الذين فحصوا مومياءه بأنه كان ذا قوة بدنية خارقة والذى كان يقول عنه معاصروه «انه كان ذا ذراع قوية حتى لا يستطيع أى شخص أن يشد قوسه سواء فى ذلك الجنود أو رؤساء البلاد الاجنبية أو كبار رجال بلاد رتنو . Retenou » (٣١) والأمير الذى كان يؤهله مولده لتولى عرش هورس ، كان يقضى وقته على الصورة التالية :

« عندما يبلغ عمره ثمانية عشر عاما ، يكون قد بلغ ذروة قوته ، وقد عرف كل أعمال مونتو Montou وليس له مثيل فى ميادين الحرب ، تعلم ضروب الفروسية ، ولا يوجد له نظير بين أفراد الجيش العديدين ، كما لا يوجد رجل واحد يستطيع أن يشد قوسه أو يدركه فى العدو . وعلى الجملة فهو بطل صنديد ، حقق مرانه فى ثلاثة اتجاهات ، إنه فى آن واحد : مجدف، ورامى سهام وفارس .

« كان قوى الذراع ، لا يصيبه كلل مهما حرك المجداف أو أدار دفة السفينة الملكية بوصفه رئيس طاقم مكون من مائتى نوتى . وعندما ترسو السفينة ، بعد أن يكون هؤلاء الرجال قد قطعوا مسافة نصف أتور Atour ملاحة ، أصابهم التعب ولا يستطيعون بعد ذلك حراكا ، قد انهكت أجسامهم وشق عليهم التنفس .

أما جلالته فكان على عكس ذلك تماما ، دائبا على التجديف مع أن

فى يده مجدافا طوله عشرون ذراعا ، وعندما رست السفينة تقدم جلالته ليربطها فى مرساها ، لقد قطع جلالته ثلاثة أتورات Atoura دون أن يستريح مطلقا منذ أن بدأت الرحلة لقد فرح جميع الرجال لرؤية جلالته يقوم بهذا العمل الخارق . »

وعلى أية حال فلا ينبغى لنا أن ننسى أن مهمة الربان صارت أقل مشقة مما كانت عليه من قبل ، حين أصبحت الدفة تستند فى مؤخرة السفينة إلى صار وإلى شق خشبى دار بواسطة محور ، أو توضع على جانبى السفينة إذا كانت ذات دفتين ، وفى عهد الدولة القديمة كان ربانو السفن يستعملون المجداف بمثابة دفة يمسكها الربان بكلتا يديه ، دون أن يستعين بأى شىء آخر ، وكان ذلك يتطلب قوة خارقة لو كان الاتجاه ضد التيار أو إذا قصد تغيير اتجاه السفينة .

ولم يكن ثمة سبب لنعتقد أن الأمير قد استعمل الوسيلة القديمة ، وعلى كل فان إدارة الدفة كانت تتطلب دون شك مجهودا كبيرا وقوة احتمال ، حتى بعد ابتكار التحسينات المشار إليها .

ينبغى أن يكون رامى السهام الماهر خبيرا فى اختيار الأقواس . « لقد شد ثلثمائة قوس ليقارن بين انتاج صانعيها ، وليميز بين الصانع الجاهل والصانع الماهر » . وبعد أن اختار قوسا لا عيب فيه ، بحيث لا يستطيع أحد سواه شد هذا القوس ، فعل ما يأتى : « دخل ميدان الرماية الشمالى المخصص له فوجد أنهم أقاموا له أربعة أهداف من النحاس الآسيوى وسمك كل منها فتر واحد* ، ويبعد كل هدف عن الآخر بنحو عشرين ذراعا . وعندما ظهر جلالته ممتطيا العربة مثل مونتو Montou فى جبروته ، أمسك بالقوس وتقدم صوب أربعة سهام معا على الأهداف ، تماما كما فعل مونتو ، ونفذت

* الفتر يبلغ ١٢ أصبعا

سهامه إلى الجانب الآخر للهدف . وصوب سهامه نحو الهدف التالى . « هذه الطلعة لم يسبق لاحد أن صوب مثلها ولم يسمع من قبل أن سهاما صوبت على أهداف من نحاس فتخترقها وتقع على الأرض سوى ماقام به الملك القوى الذى نصره آمون » .

وفى الواقع أن ما قام بعمله الامير آخبرورع Akhepéroure ما هو إلا تكرار المأثرة التى كان قد حققها والده الملك من خبر رع Menkheperre الذى سبق أن قام هو بثقب لوحة من النحاس رمياً بسهامه . ولكن هذا لايقلل من تقدير هذا الأمر الذى يعتبر حقا من أعمال البطولة . وإذا كان آخبرو رع (امنحتب) مثل أوليس Ulysse قد اضطر إلى أن يعود إلى قصره وهو كمتسول ، فقد كان فى استطاعته بفضل ساعده القوى الذى لايقهر وقوسه الذى لامثيل له أن ينتقم من أولئك الذين قاموا بنهب قصره ومراودة نسائه .

كان المحارب الحقيقى يحب خيله ، بل كل الخيول أكثر مما يحب نفسه ، فالأمير نيماروت Nemarot لم يكن سوى حاكم على أحد أقاليم مصر الوسطى وكان يملك أسطبلا فى عاصمته الأشمونين Chmounou ، وأثناء الحصار قاسى العذاب كل من كان بالمدينة من الخيل والرجال على السواء . ولما دخل بيعانخى المدينة منتصرا تفقد الأسطبل ، فوجد المخازن خالية من العلف والخيول جائعة فأشفق عليها ، وقد اعترته نوبة غضب حادة عندما تحقق لديه بأن شدة غباء خصمه قد جعلت هذه الحيوانات الجميلة تصل إلى هذه الحال المؤسفة ، فقال : « قسما بحياتى . وقسما بحبى لرع وبالحياة التى تتجدد فى أنفى ، أن ترك هذه الخيول جائعة أمر قاس على قلبى يفوق كل

ما فعلته من أذى بحماقتك . ألا تعلم أن الإله يظللنى بحمايته لأنى لم أخطىء فى حقه . لقد ولدت من بطن مقدس ، لقد خلقنى الله داخل الرحم وفى داخل البذرة المقدسة ، أستشهد بروحه (الـكا) بأنى لم أعمل شيئاً دون علمه ، أنه هو الذى يأمرنى أن أعمل » . (٣٢) ولم يعتمد رمسيس الثالث على ضباطه للتأكد من أن خيوله فى حالة طيبة ومعدة للعمليات الحربية ، فهو الذى كان يتوجه إلى الأسطبل الكبير بالقصر مرتديا ثيابه الرسمية كاملة وممسكا عصا بيده ، وسوطا بالأخرى ، يحيط به حامل المظلة وحامل المروحة ، ويليهما الضباط المخصصون لخدمته ، وعندما يدق الناقوس الملكى يثب سياس الأسطبل ويقف كل فى مكانه ، ويمسك كل منهم عنان زوج من الخيل فيفتش الملك على الواحد منها بعد الآخر . (٣٣)

كان الأمير أمنحتب فى حداثة سنه وقبل أن يكون قادرا على ممارسة أعمال منتو ، يسيطر على رغباته الجسدية ، فكان يحب الخيل ويفخر بذلك ولأنه كان يحبها فقد كان يعرف كافة وسائل تدريبها ، ولما وصل النجاح الذى لقيه إلى مسامع أبيه من خبر رع ، (تحتمس الثالث) الجبار ، شعر بارتياح ونخر لما يقال عن ابنه البكر ، فقال لمن كان حوله من خاصته :

« فلتعط له أجمـــل الخيول التى فى أسطبل جلالتى فى مقاطعة الجدار الأبيض . وقولوا له : « اهتم بها ودربها ومرنها وقوها ، إننا نستحلفك أن تفعل ذلك » . فاهتم الأمير بالقيام بالعمل نظرا لما لقيه من تشجيع ومعاونة رشيف وعشترت Rechef&Astarte آلهة البلاد التى ترد منها الخيول ، جعل

منها خيولا لا نظير لها ، لا تكل من التعب مهما طالت مدة امساكه بزمامها ولا تتصبب عرقا مهما طالت المسافة التي تقطعها عدوا .

وكان ميدان السباق في المنطقة الواقعة غربي منف بجوار الأهرام الكبرى ، وقد أمر أمنحتب عندما اعتلى العرش ، أن يشيد مذبح في تلك المنطقة وأقيمت أيضا اللوحة الحجرية البيضاء الكبرى التي حفظت لنا سجل أعماله الباسلة ، وكان ابن أمنحتب تحتمس الرابع شغوفا بتجديد هذه الأعمال الباسلة ، فكان مولعا بتصويب السهام نحو أهداف تقع على مقربة من تمثال أبو الهول الكبير ، ويتجه بعدئذ لصيد الوحوش من الصحراء . وفي أحد الأيام نام بين مخلبي تمثال أبو الهول وظهر له في الرؤيا وأمره أن يرفع الرمال التي تكاد تخنقه وبهذا يكون جديرا بأن يتولى عرش جب Geb وكان لا مفر للأمير من أن يصدع للأمر ، ويسجل للأجيال القادمة (٢٤) قصة هذا الحلم العجيب .

ولولا تقوى هؤلاء الشبان لما علمنا كيف كانوا يؤهلون ليتولوا المهام الملكية .

٨ — مغامرات الصيد الملكية

كان الأمير ، طلبا للتسلية ، يكتفي بالرماية على أهداف من نحاس أو كان يقوم بصيد الوعول في الصحراء على مقربة من الأهرام في حماية حراختي Harakhti ، ولكن أنواعا من الرياضة أشد إثارة كانت تنتظر فرعون متى أراد ذلك . إذ كان في إمكانه أن يجدها في الصحراوين الممتدتين على جانبي وادي النيل ، ففي وادي نهر الفرات في مكان معين يسمى ني Niy حيث يجري النهر بين صخرتين وجد الملك من خبررع Menkheperre وحرسه

قطيعا مكونا من مائة وعشرين فيلا، وبدأت المعركة داخل الماء. ولم يفعل أى ملك شيئاً يماثل هذا العمل منذ عهد الآلهة ، وتصادف بإرادة الله أن تقدم أضخم هذه الأفيال زملاءه ليواجه جلالته بالذات ، الذى وجد نفسه فى خطر داهم ، ولكن من حسن الحظ كان رفيقه القديم فى السلاح أمنمحب Amonemheb بجواره فقطع خرطوم هذا الوحش ، فوهبه سيده وساما ذهبيا وأثنى عليه . وبالرغم من ذلك ، فقد أخفى قصة ما بذله أمنمحب من تضحية فى النشرة الرسمية التى نقشت على لوحة نباتا فى حين أن ذكر فيها « إنى أبرز هذه الأشياء فى صدق ، دون مغايرة للحقيقة » . وماكنا لنعلم حقيقة ما حدث لولا أن أمنمحب قد دون بدوره قصة هذا الصيد الجديرة بالتخليد . ولو كان الذى شارك فى هذا العمل المجيد جندى فى رتبة تقل عن مكانة أمنمحب العظيم فن الذى كان يعرفنا بها » ؟!

أهملت النصوص المعروفة أن تذكر لنا ما إذا كان سيتوى ورمسيس ، قد مارسا صيد الفيلة فى وادى الفرات والخرتيت بين الشلال الثالث والشلال الرابع . ولكن النقوش الغائرة فى مدينة حابو تمثل رمسيس الثالث وهو يصيد الأسد والثور الوحشى والوعل (٣٦) . وقد تأهب الملك كأنه مقبل على ميدان الوغى ، فقد ركب عربته ، وتحت بطن الحصان ، يبدو أسد جريح ، قد انقلب على ظهره محاولا أن ينزع بمخالبه سهما مغروسا فى صدره ، وهناك أسد آخر طعن برمحين وحربة ، يتجه نحو أجمة من الغاب ليختبىء فيها وهو يزأر ، وأسد ثالث يثب فى وسط أجمة خلف العربة ، ولكن سرعان ما يلتفت الملك نحوه ممسكا بالحربة وبديهى أن هذا المعتدى الجديد لم يتفاد الضربة القاضية التى أصابته .

يواصل الملك ورفاقه الصيد على مقربة من مستنقع يحيط به الغاب

والأعشاب الطويلة ، ويطاردون قطيعا من الثيران الوحشية . واصطف الجنود وقد سلحوا بالحراب والأقواس والسيف والدروع ، كأنهم فى حرب حقيقة وتضطر الحيوانات وهى فى حالة ذعر إلى الفرار هربا ، ولكن عربة الملك تلحقها ، وقد سلح بدوره بالقوس كما لو كان فى ميدان للقتال ، لقد سقط أحد الثيران مثخنا بجروح السهم التى أصابته فى ظهره وارتمى داخل أجمة ، وأخذ يضرب الهواء برجليه ، بينما تمرغ ثور آخر تحت أرجل الخيل ، وحاول ثالث أن يثب إلى الماء فى حالة من اليأس جعلت ذيله مشدودا ولسانه خارج فمه ولكنه سقط على منكبيه خائراً ، مهدود القوى .

أما صيد الوعول فيبدو مجرد تسلية إذا ما قورن بهذه المطاردات العنيفة ، فالملك وحيد فى عربته يتقدم داخل الصحراء لا يصحبه حرسه ولا يحاول أن يجذب الوعل إلى مكان مغلق كما يفعل أفراد الطبقات البورجوازية فى طيبه أو الصيادون المحترفون ، ولكنه عندما يرى عن بعد قطيعا من الحمير الوحشية أو الوعول أسرع متجها إليها بعربته إلى أن يلحق بها ويقهرها تماما .

١ — الملك فى ميدانه الشخصى

عندما كان الملك يعود من رحلة بعيدة أو من حملة داخل الصحراء ، وجد راحته فى قصوره فى پى رمسيس (٣٢) أو فى منف أو فى طيبه . ولشد ما كان اخناتون يرتاح فى قصره الجديد فى مدينة اخيتاتون حتى كاد لا يفارقه إطلاقا ، فقد كان أبا باراً وزوجا وفيا وابنا ودودا ، كان لا يجد متعة إلا فى صحبة الملكة والأميرات فكن يرافقنه فى نزهاته ، ويترددن معه على المعبد ، كما كن يحضرن حفلات توزيع المكافآت ، ويعاون الملك فى استقبال السفراء الاجانب ويعددن له المشروبات والحلوى ، وكانت الملكة تمسك بالإبريق

والمصفاة لتقدم بنفسها الملك مشروباً ساخناً، وكانت سعادة الجميع تكمل عندما تأتى الملكة الوالدة لزيارة أبنائه .

كانت وجبة الطعام فى الظهر والمساء تجمع أفراد الأسرة ، ولكن ليس من المؤكد أن هذه العادة كانت متبعة لدى جميع الفراعنة . ولقد قاوم اخناتون الكثير من التقاليد والعادات التى كانت مألوفة فى العهود السابقة ولكنها أعيدت إلى ما كانت عليه بعد وفاته .

وفى بداية الأسرة الثامنة عشرة كان الملك قلما يعيش بين أفراد أسرته، وعندما جاء الملك أحموزا ليستريح على أريكته كانت تجلس عليها السيدة الفضلى موضع الثناء من الجميع الابنة الملكية الجميلة ، الاخت الملكية ، الزوجة المقدسة ، الزوجة الملكية الكبرى احموزا نفرتارى Ahmose Nefertari ، فعلا دار الحديث بينهما ؟ على ما يمكن أن يقدماه من خير لهؤلاء الكائنين هناك (الراقدين) وعلى المتوفين الذين يطالبون بالماء وموائد قرابين مثقلة فى مناسبات كل أعياد السماء والأرض ، سألت الملكة وقد اعتراها بعض الاندهاش فربما كانت تتوقع حديثاً أرق من هذا — سألت « ولم تتنابك هذه الأفكار ؟ وما مناسبة هذا الحديث ؟ وما هذا الذى اعترى قلبك ؟ فأجابها الملك وهو لا يزال بجانبها : « لأنى تذكرت تتى شرى Teti-Cheri والدة والدتى ووالدة والدى الزوجة الملكية الكبرى ، الملكة الوالدة ، رحمها الله ، ومقبرتها ومعبدها لا يزالان موجودين بين أتربة طيبه وطينة .

قلت ذلك أمامك لأن جلالتى كانت تتمنى لو شيدت لها هرماً وقصراً فى جبانة تاجسر Ta - djousir بالقرب من صرح جلالتى وأن تحفر بركته

(المقدسة) وأن تزرع أشجاره وأن يوطد عيشه ، وأن يخصص له على الدوام رجال توهب لهم أراضى زراعية وقطعان من الماشية ، وأن يعهد بخدمته إلى كهنة الروح (الكا) ، وأن يكلف رجال بإقامة الحفلات وكل على علم بما يجب أن يعمله . » (٣٩) ومما يثير الإعجاب ، مدى تقوى الملك وسمو حديثه وما يبديه من احترام نحو زوجته ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر أن الملكة ربما كانت تود أن يتناول الحديث موضوعا آخر . ومع ذلك فإن رمسيس الثانى أقل زهدا بل مرحا من ذلك ، فالنصوص العديدة التى تشير إلى پى رمسيس العاصمة التى أنشأها فوق أطلال أواريس شرق الدلتا تمتدح جمال هذه المدينة وحبورها وسحرها ، اذ كان الطعام والشراب فيها طيبا وكان النبيذ حلو المذاق كالعسل ، وكان الأهالى يكللون بالورود ويهللون للملك كل يوم ، وبالإيجاز كانت فردوسا (٤٠) وكانت الحياة أيضا فى مدينة اخيتاتون تماثل أيام الأعياد ، ولكن مع فارق واحد على الأقل ، كان هذا الملك الخارج على دين آبائه يحيا الحياة العائلية الفاضلة كما ندركها حاليا . كان الرعامسه يحبون التغيير ، وفى عهد رمسيس الثانى ، طبقا لما وصل إلى علمنا كانت خمس سيدات يحملن لقب « الزوجة الملكية الكبرى » ، ولا يثير هذا العدد العجب إذ أن هذا الملك تولى العرش لمدة سبعة وستين عاما ، وأن عدد أولاده الذى بلغ ١٦٢ ولدا تدل دون ريب على أنه لم يقتصر على زوجاته الرسميات . أما كيف كان مستطاعا أن يعيش كل هؤلاء القوم فى وفاق فهذا مما لا يمكن أن يتخيله إنسان نظرا لقلة المستندات التى وصلت إلينا .

فلنذكر مثلا واحداً فى إحدى مغامرات الملك الكبير ، كان قد أبرم معاهدة صلح مع خصمه خاتوسيل Khattousil ملك الحيثيين ، وبالرغم من ذلك فإن الأعمال العدوانية لم تتوقف ، وكان كلما التقى فريق مصرى بفريق

من الحيثيين كان يحدث اشتباك مسلح ، فاعتزم خاتوسيل أمراً عظيم الأهمية لجرد نفسه من كل أملاكه وأرسلها مع ابنته المحبوبة إلى رمسيس ، انتقل الموكب فى الموسم غير المناسب ، ولكن المعبود سوتخ ، الذى لم يرفض شيئاً لرمسيس — وما كان ليرفض له طلباً لأنه من صلبه قام بعمل معجزة فاتت أيام الصيف وأنارت الشمس الساطعة الرحلة الطويلة التى قطعتها الأميرة من عاصمة بلادها فى وسط آسيا الصغرى إلى أن وصلت إلى مصر ليس هذا كل ما حدث ، إذ أمر رمسيس بإقامة حصن بين مصر وفينيقيا وأسماه « رمسيس العظيم بانتصاراته » ، ووضعه تحت رعاية أربعة آلهة ، منها اثنان آسيويان هما سوتخ وعشتروت واثنان مصريان هما آمون وواجيب ، وجمع فيه كميات وافرة من المؤن وأرسل إليه أربعة تماثيل ، ثم انتقل إليه بنفسه انتظاراً لقدوم الأميرة وموكبها ، حتى يصحبها إلى عاصمته الكبرى بي رمسيس ، وكان الأهالى يعبرون عن فرحهم فى تهليل وسرور عظيم برؤية أميرة فائقة الجمال وأيضاً لأنه للمرة الأولى يتآخى الجنود الحيثيون والمصريون(٤١).

ولم يحاول خلفاء رمسيس الثانى اغتصاب مجده فى هذا الصدد ، فرمسيس الثالث ذاته ، مع أنه كان غيوراً على الإقتداء به فى كل شيء ، قد اقتصر على ثلاث زوجات ، وعلى ما يقرب من عشرة أبناء ولكنه كان مغرماً بمجالسة النساء ، وكان يسره أن يلعب الضامة مع حسناوات يكدن يكن عاريات ، وكن يقدمن له الزهور والمشروبات والحلوى .

وكان الملوك يحرصون على مجالسة رفاقهم فى السلاح وفى الصيد ، وأهل العلم المشهودين ، كان خوفو قد دعا أنجاله وأخذ كل منهم يقص عليه ، بدوره قصة ، وعندما بلغ سمع خوفو ، أنه يوجد فى عصره عالم يأتى بالمعجزات ،

كلف أحد أولاده ، بأن يحضره إليه . واستدعى سنفرو إلى البلاط الملكى، عالماً كان يعرف أحداث الماضى ويتنبأ بالمستقبل . وبعد ذلك بوقت طويل أسر أمنحتب الثالث لحكيم يتسمى باسمه بمخاوفه . ورغبته فى رؤية المعبودات.

١٠ — دسائس الحريم

بالرغم من أن فرعون كان يعد معبودا وابنا شرعيا لآمون ، إلا أنه لم يعدم بعض المارقات اللاتى كن يتآمرن على هلاكه ويبحثن عن وسيلة لاختصار مدة حكمه وتغيير النظام الطبيعى لوراثة العرش. وفى أواخر حكم رمسيس الثالث فكرت أحدى زوجاته التى تسمى تايا أن تضمن لصالح ابنها وراثة العرش بعد أبيه العجوز ، وقد ورد ذكر هذا الابن فى بردية تورين القضائية باسم بنتاؤر ، وليس هذا حقيقة إسمه (٢٤) اتفقت الملكة مع أحد أمناء القصر المسمى باباكيكامون Pabekikamun ، ويعنى هذا الاسم « الخادم الضرير » وقام هذا الرجل بدور الوسيط بين نساء الحريم المخلصات لتايا وبين أمهاتهن واخواتهن اللاتى كن يقمن بضم الرجال إلى هذه الحركة وإثارتهم ضد سيدهم (٤٣) وقد توهم أنه وجد نجدة قوية فى شخص بن هوى بين Pen Houi bin أحد مديرى قطعان الماشية واجابة لطلبه أمده بكتاب من كتب الملك أوزير مارع ميامون المعبود الكبير ، سيده له الحياة والصحة والقوة . (٤٤) وعندما تناول هذا الكتاب قام بن هوى بين بتدوين كتابات سحرية ، وصنع تماثيل صغيرة من الشمع كانت تؤثر تأثيرا مذهلا على فرعون وحاشيته وكان من خواصها إما إضعافهم وإما أن تفت فى عضدهم وتصرفهم عن أداء واجباتهم . وقد اشترك فى هذه المؤامرة اشتراكا فعليا موظفون وسيدات ، وكان أحد المتآمرين قائد حملة الأقواس فى كوش وهو شقيق إحدى سيدات الحريم التى كانت

تمكتب خطابات كثيرة. وقد ورد ذكره فى المحضر الذى حرر باسم بن إم يات Bin m yat ومعنى اسمه الشر فى طيبة وضابط آخر باسم مسد سورع Mesed sou Re ومعناه رع يكرهه (٤٥) وكان هؤلاء يحملون دون شك قبل الحادث أسماء مثل الخير فى طيبه ، رع يعزه ولكنهم أصبحوا غير جديرين بتلك الأسماء المكرمة لقد علم الكثيرون بهذه المؤامرة ، وما أكثر ماتداوله الناس من حديث عنها ، ولم يسمح المعبود رع بأن ينالوا مآربهم وينتصروا فى مؤامرتهم ، ولو أننا لا نعلم بأية وسيلة تمكن من إفساد المؤامرة إلا أننا نعلم بأنه قبض على كبار المذنبين ومساعديهم كما قبض أيضا على الذين وقفوا على سر هذه التصرفات الشنيعة ولم يبادروا بالتبليغ عنها فشكلت هيئة محكمة من اثنين من أمناء الخزينة وأحد حملة المراوح وأربعة من السقاة ومدع ، وقد فضل فرعون اختيار رجال من حاشيته على القضاة الرسميين ، وألقى خطبة تمهيدية وردت مقدمتها مشوهة ، يحثهم فيها على ألا يرحموا المتهمين ، قائلا : ـ

« لتقع على رؤوسهم مسئولية ما ارتكبوه ، أما عن نفسى ،فإن عناية الآلهة ترعانى إلى الأبد،إنى من الملوك العادلين أمام الآلهة آمون رع سونتير وأوزيريس سادة الأبدية . » (٤٦) ولم يكن الملك موفقا فى اختيار أعضاء هذه الهيئة فاثنان منهم وأحد ضباط الحرس قد تخلوا عن أداء واجبهم الشريف عندما علموا بأن بعض النساء المتهمات قد هربن وبادروا إلى اللحاق بهن فى مكان غير شريف ، ولكن ذلك لم يستمر زمنا طويلا ، إذ عثر عليهم قوم يتصفون بالجد ، وكان أول عقاب لهم أن قطعت أنوفهم وآذانهم ، وكان هذا هو العقاب الذى طبقه حورمحب على القضاة والحكام الذين كانوا يسيئون استعمال سلطة وظائفهم .

وقد استعمل الكاتب تعبيرا غريبا ليبين كيف حل العقاب النهائى بهؤلاء المذنبين الكبار إذ قال : « لقد تركوهم فى مكانهم وماتوا من تلقاء أنفسهم . وقد يكون معنى هذا أن هؤلاء المساكين قد تركوا وحدهم فى قاعة المحاكمة فريسة لتأنيب الضمير وفى متناول أيديهم سلاح حاد ، ثم بقى بعد ذلك ما ينبغى عليهم أن يعملوه . ولكن هناك تفسيراً آخر أشد إثارة من هذا التفسير ، أشار إليه جاستون ماسبرو على أثر فحص مومياء عثر عليها فى الدير البحرى معروفة باسم مومياء الأمير المجهول وهى جثة لشاب تتراوح سنه بين الخامسة والعشرين والثلاثين عاما ، سليم البنية ، خال من الإصابات دفن دون أن تتخذ مع جثته الإجراءات التى تتبع عادة فى التحنيط ، فالمخ بأكمله ، لم يستخرج من مكانه ، وبقيت الأمعاء كاملة . « ولم يعبر وجه من قبل ، بمثل هذه الدقة عن الذعر الذى لازم نزعات الموت ، فتقاطيع الوجه المتقلصة رعبا توضح بطريقة شبه مؤكدة أن هذا المسكين قد مات مختنقا لأنه قد دفن حيا » (٨١) وربما يعتبر هذا التفسير روائيا ولكن بمقارنته بالتفسير الأول قد يعترض بأنه ليس ثمة فى مصر دليل على أن يترك للمذنبين أن يعاقبوا أنفسهم ، وفضلا عن ذلك فليس ثمة رحمة لأولئك الذين تزين لهم أنفسهم ، أن يعتدوا على فرعون .

١١ — أفكار ملكية

إن مدة حكم طويلة وبعض الأحداث مثل التى سبق ذكرها يمكن أن يوحيا إلى فرعون بالرغبة فى إطلاع الأجيال القادمة على خبرته بالناس . وقد ترك كثير من الملوك نصائح وتعليمات ومن بينهم سوحتب ايب رع Sehotepibre (١٩) والد مرى كارع Merikare ، ولكننا لم نتلق أية مذكرات خاصة لا من سيتى الذى دفن فى الغرب (الأمنتيت) Amentit فى

شرخ شبابه ، ولا من رمسيس الثانى الذى لم يكل إطلاقا من القيام ، طيلة حياته ، بأداء دور الآلهة بين الناس ، وفيا يتعلق برمسيس الثالث فقد وصلت إلينا المذكرات الطويلة التى أملاها فى نهاية حياته ، فى حالة تكاد تكون كاملة . (٥٠)

وكان الملك يعتقد أنه قام بعمل حسن فقد خصص أفضل مصادر الثروة فى البلاد لتكبير وتجميل معابد الآلهة وعلى الأخص معبد آمون فى أوبت Opet ومعبد توم Toum فى ايون رع Ioun Re ومعبد بتاح فى منف وما يماثلها دون أن ينسى معابد المعبودات الأقل مرتبة ، إذ أمدها بعدد وافر من الموظفين المدربين وبقطعان من الماشية والأملاك العينية وفى مناسبة كل عيد من أعيادها ، زود هيا كل المعابد بالطعام والشراب ، ومع كل ذلك فانه لم يهمل الجنس البشرى ، فقد جعل النظام والسلام سائدين . وقد هزم الليبيين وفتك بهم لأنهم كانوا يحتلون حافة الدلتا فيما بين غربى النيل والصحراء كما لو كانوا يمتلكونها ، واتخذهم أسرى وضمهم إلى ثكناته، أما قرصان البحر الذين كانوا يهاجمون الشواطىء المصرية فقد صدهم ولقنهم درساً لم ينسوه مدى الحياة ، وقد أنشأ أساطيل كاملة وأرسل بعثات لا يحصى عـديدها إلى كافة أنحاء العالم لجلب البخور والعطور والزمرد والذهب والنحاس والأبنوس والعاج وكذا خشب الأرز من لبنان ، وأصبحت مصر فى عهده جنة لم يستطع أحد أن يعكر صفو السلام فيها .

« لقد منحت الحياة للأرض كلها وسكانها رخيت Rakhyt وبابيت Payt وهنميت Henmyt رجالا ونساء . لقد انتشلت الناس من وهدة الفقر ووهبتهم نسمة الحياة وحميتهم من الأقوياء الذين كانوا يضطهدونهم . لقد نوت الأرض وازدهرت طيلة حكمى ، منحت الخيرات للآلهة

والناس ولم استحوز لنفسى على شىء مما كان ملكا للجميع. وقد أتممت مدة حكمى على الأرض كملك للأرضين ، لقد كنتم خدما لى تحت قدمى ، وكنتم أعزاء إلى قلبى كما كانت أعمالكم حسنة لعلكم تستطيعون قراءة مراسمى وقراراتى ، هاأنذا أرقد الآن فى الجبانة مثل والدى رع . لقدأصبحت ضمن مجموعة الآلهة الكبيرة فى السماء وعلى الأرض وفى الآخرة »(٥١) ومع أنه كان عظيم الثقة فى معبوداته . إلا أنه كان ثمةشىء يقلق بال الملك . إن ابنه الذى أنجبه رع نفسه ، ابن آمون الذى خرج من جسده قد توج سيدا للارضين مثل تاتنن Ta-tenen ، ولا شك أن الدنيا كلها تحت قدميه وتقبل الأرض بين يديه، ولكن هل سيستمع المصريون إلى نصائح هذا الذى انضم إلى الآلهة التى خلقته طالبا إليهم أن يتبعوه فى كل وقت ، وأن يعبدوه ، وأن يمجدوه وأن يزيدوا جماله كما يفعلون لرع فى كل صباح .

وكأنه كان يتنبأ بأن أيام مصر الفرعونية السعيدة سوف تزول فيكرر الملك دعاءه لجميع المعبودات من أجل ابنه ، فكان يقول لآمون :

« استجب لابتهالاتى يا أبى وياسيدى ، إنى وحيد بين مجموعة الآلهة القائمة بجانبك ، اجعل ابنى ملكا مرموقا فى مسكن توم Toum ، فأنت الذى أقمته ملكا منذ كان شابا ، وأنت الذى جعلت منه حاكما ، له الحياة والصحة والقوة، على الأراضى فوق البشر ، فامنحه الملك لملايين السنين وافتح الحيوية لأعضائه امنحه أولادا يوميا ، أنت الدرع الذى يحميه كل يوم واجعل سيفه ودبوسه فوق رؤوس الآسيويين المنطر حين أرضا خوفاً منه كأنه المعبود بعل ولتمتد حدود أراضيه كما يشاء ، ولتسكن الأراضى والصحارى فى رعب منه امنحه توميرى Tomery (الأرض المحبوبة) بدعوة خالصة من أهلها ، ابعد عنه الشر والنكبات والمصائب واجعل السرور يسكن قلبه وأن يهلل الناس

فرحاً ويغنوا ويرقصوا أمامه ـ ضع فى قلوب الآلهة والمعبودات حبهم له ، والحنان والوقار له فى قلب بابيت .

سوف يتحقق ما تتنبأ به تماما دون أن يستطيع أحد رده أو الوقوف أمامه ، وأن ما تقوله سوف يصبح حقيقة ثابتة راسخة ، لعل فى مقدورك أن تمنحنى الملك لمائتى عام ، وأن تثبت الملك لابنى الذى على الأرض . مد من أجل بقائه على العرش أكثر من أى ملك آخر ، مراعاة لما فعلته من خير لشخصك . وبأمره يسوس الملك ، لأنك أنت الذى توجته لن ينحرف عن اتباع ما تفعله يا سيد الآلهة . اجعل مياه النيل فى عهدك السعيد تفيض بوفرة وخير تكفى لإطعام مملكته بالكثير من المؤن ـ اجلب إلى قصره المقدس الملوك الذين يجهلون مصر وظهورهم محملة . . »(٥٢) . ويكرر الملك هـــذا الابتهال بنفس هذه اللهجة لأتوم Toum وبتاح Ptah ولكل آلهة ومعبودات التاسوع الكبير ، السطور الأخيرة لهذا المستند تعد نداء علويا للناس وللمعبودات على حد سواء من أجل هذا الابن المحبوب ، هل جاء عاقل من بين أولئك الكثيرين الذين أنجبتهم مصر لينذر رمسيس الثالث بأن المصائب التى أمكنه أن يبعدها عن مصر بفضل مهاراته وجرأته وحسن توفيقه سوف تنقض على توميرى — أرض مصر ؟ فى الأزمان السالفة لخوفو سبق أن أنذر قومه بأن أسرته سوف تنتهى بعد ثلاثة أجيال ، وأما أسرة رمسيس فلن يكون أمامها أكثر من سبعين عاما تقريبا ، كانت السنوات الأخيرة منها شديدة البؤس ، ولكن سوف تستعيد مصر مجدها بفضل حكام آخرين .

الفصل التاسع

الجيش والحرب

١ — مزايا واضرار مهنة الحرب

اعتبر الكتاب مهنة الجندية أقل مكانة بكثير من مهنتهم. أما تلاميذهم وقد خدعهم بريق المظاهر فكانوا يؤثرون أحيانا على الأقلام والألواح، السيف والقوس وخاصة تلك العربة التى يجرها حصانان مطهمان قويان . وكان لزاماً أن يوضح لاولئك الشبان المجانين مدى تعاسة الجندى . فمن بين التمارين المألوفة التى كتبت فى عهد الرعامسه الكثير الذى يحوى وصفا لهذا البؤس ، فكان الذى يقع الاختيار عليه ليصبح ضابطا فى المشاة ، يؤخذ من المهد ، وعندما يبلغ طوله ذراعين ، حبس فى الثكنات ، وكان يخضع لتمرينات بلغ من قسوتها أن رأسه وجسمه كانا يصابان بجروح عميقة تترك أثراً ولا تشفى أبدا ، وإذا حاول الاستراحة ضرب كما يدق ورق الكتابة وأخيرا إذا ما آن أن يشترك فى معركة ماأصبحت حياته كابوسا مزعجا : «تعال واسمع حملاته الحربية فى سوريا وسيره فوق الجبال، إنه يحمل خبزه وماءه فوق أكتافه كأنها حمولة دابة تنوء من ثقلها فقرات سلسلة ظهره . يشرب الماء الآسن . وينام متيقظا . وعندما يلتحم بالعدو يكون مثل طائر قد وقع فى فخ وأصبح لاحول له ولا قوة . وعندما يحين الوقت ليعود إلى مصر يكون بمثابة خشبة نخرها السوس ، تنتابه الأوجاع، ويصاب بالشلل ، ويحمل على حمار ، يسرق اللصوص ملابسه ويهرب مساعده» . (١)

وتنعدم هذه المتاعب بالنسبة لضابط العربة . فى أول عهده بالخدمة ، عندما يتسلم من الاسطبلات الملكية جوادين كريمين وخمسة من المساعدين يبلغ به السرور مداه فيجرى إلى بلده ليظهر بها ، ويتحدى أولئك الذين لا يظهرون إعجابهم به ، وعليه الآن أن يتولى كسوة اثنين من مساعديه كما أن عليه أن يشترى عربة ، ويساوى ثمن عريش العربة ٣ دبن من الفضة وصندوق العربة ٥ دبن ، وهذا يستنزف كل المبلغ الزهيد الذى ورثه عن والديه . ويجد نفسه وقد تورط فى معارك جديدة ، فيسقط ويجرح ويترك الحصان والعربة مهملين فى خندق ، وفى نفس الوقت يمر عليه رؤساؤه التفتيش ، فيقبض عليه ويحكم عليه بالضرب بالعصا ، فيطرح أرضا ويضرب مائة ضربة . (٢) وليست هذه اللوحة بطبيعة الحال مضبوطة تماما وتنقصها الصراحة ، على أنه يمكن أن يستنتج منها أن طبقة المتعلمين لم تكن على علاقة طيبة مع طبقة العسكريين . وربما كان الشعور متبادلا بين هاتين الطبقتين .

استطاع قدماء العسكريين الذين قاموا بحملات حربية فى سوريا والنوبه وليبيا أن يعودوا إلى بلادهم بعد أن أنهوا مدة خدمتهم ومنحوا معاشا مجزيا مثل أحمس ابن أبانا . Ahmose fils d' Abana ، أو نالوا منصبا فى البلاط الملكى مثل أحمس بن نخبيت Ahmose de Nekhabit ، ولم يشيروا إلى أى شىء سادهم خلال خدمتهم العاملة . ويقول بن أبانا : « إن ذكرى الإنسان الذى يقوم بأعمال البطولة لن تمحى أبدا من هذه الأرض » .

وبالإضافة إلى هذا فقد كانت مهنته مجزية ، فبعد كل غزوة موفقة كانت الغنائم توزع . أما الشجاع الذى يقيد اسمه فى السجلات الملكية فتمنح له أراضى فى بلده ثم مما يصادر من أملاك أعداء الملك ، كما يمنح عبيدا من

الجنسين ، وقد نال أحموزا نفسه ١٩ عبدا وحصل على مكافأة جزاء شجاعته ذهبا عدة مرات ، على هيئة عقود وكؤوس تماثل كأس تحوتى Thouty ، وكان محفورا عليها بالهيروغليفية ، منحت بإنعام من الملك منخبررع إلى الأمير النبيل والأب المقدس المحبوب من الإله ، الذى أسعد قلب الملك فى طول البلاد الأجنبية وعرضها ، وفى جزر البحر الكبير ، والذى ملأ المخازن باللازورد والفضة والذهب ، حاكم البلاد الأجنبية ، قائد الجند ، والمرضى عنه من الإله الطيب ، والذى يمنحه سيد الأرضين الحياة ، الكاتب الملكى تحوتى». (٣)

وديدو Didou أحد الجنود المحترفين ، الذى شغل الأعمال الآتية على التوالى : حاكما للصحراء غرب طيبه ، ورسولا ملكيا لكل البلاد الأجنبية ، حامل العلم لحرس جلالته ، قبطان السفينة مرى آمون Mery-Amon ، وأخيراً قائد الشرطة ، قد نال بدوره فى عدة مناسبات ذهب التقدير . وقد علق فى رقبته نحلا وأسدا يتحرك ، (٤) من الذهب تتدلى من شريط فوق العقد الذى يتقلده .

كذلك فإن أحد معاصريه وهو أيضا من حملة العلم ، ويحمل اسما رنانا هو : نب كيمى Neb-kemi (سيد مصر) ، نال أيضا سوارا من خليط الذهب والفضة . (٥)

وقد كان أكثرهم توفيقا ، حامل العلم نب آمون Nebamon الذى بلغ الشيخوخة وهو فى خدمة فرعون ، قضاها فى إخلاص وشهامة وتفان دون أن يتعرض طول مدة خدمته الطويلة لأى عقاب أو لوم ، صمم جلالته الذى قدره حق قدره وعرف مزاياه أن يتوج شيخوخته فمنحه منزلا جميلا ذا طابقين وفناء داخلى تظلله شجرة من نخيل ، كما أمده بخدم وقطعان من الماشية

وأراض وعبيد ، مع ضمان ألا يتمكن موظفو القصر من استردادها ، وقد انعم عليه بلقب ايماخ Amakh ، ولم يشأ فرعون أن يعفيه كلية من الخدمة العاملة لذلك عينه رئيسا للشرطة فى غرب المدينة ، وقد منحت له هذه الخيرات والألقاب فى حفلة استعراضية ، ولما كان نب آمون حاملا للعلم فقد عين فيما بعد ، مثل ديدو تماما ، قائدا للسفينة الحربية مرى آمون، وقد رسم على علم سفينة تتوسطها قرة ودفة وحبال ، وقد وفد كل رجال السفينة الحربية ، فى مركب ليشتركوا فى تكريم رئيسهم القبطان السابق. جلس الضباط على مقاعدقوائمها متقاطعة على شكل X بينما وقف الرجال وقد التصقت أكتافهم فى أربعة صفوف. وقد أعاد نب آمون العلم الذى كان يحمله، عندما كان يرافق سيد الأرضين فى البلاد الأجنبية وفى الجنوب والشمال ، بعد أن حياه ، وبعد ذلك تقدم ضابط من حملة مروحة الملك وأعطاه علما جديدا رسم عليه غزال ، فوق ظهره ريشة نعام ، وهى شارة رجال الشرطة العاملين فى غرب طيبه ، وكذلك عود صغير على هيئة نخلة ، أطول قليلا من الكف ربما كان يتضمن نسخة من المرسوم الملكى بتعيين نب آمون .
بعد هذه الحفلة كان رؤساء شرطة الحدود الميجاوو Medjaiou يسيرون فى استعراض أمام رئيسهم الجديد ، بينما ضابطان هما ترى Teri قائد الميجاوو والملازم مانا Mana يركعان أمامه على ركبتيهما حتى تمس كيعانهما الأرض، ثم يقدمان أعلاما صغيرة إلى نب آمون بعضها مربع ، وبعضها نصف دائرى ، وقد نقش على البعض دون شك اسم ورقم أو علامة مميزة للوحدات التى تتكون منها قوة الميجاوو . وأخيرا يعلن بوق بدء الاجتماع ويسير الموكب وفى مقدمته حامل العلم يتبعه حملة الاقواس الذين يسبقون المشاة الثقيلة المسلحة أفرادها بالرماح والدروع، وعندما يمرون بجانب نب آمون، يعرض حملة الأقواس أسلحتهم باليد اليمنى ، ثم يعلقونها بعدئذ فى رقابهم بحيث تصبح أذرعهم طليقة ، ويسيرون وأكفهم مقبوضة . (١)

ومما لا جدال فيه أن رجالا مثل هؤلاء لا يمكن أن يجأروا بالشكوى من معاملة رؤسائهم ، وما نعرفه عن صغار الضباط والرتب العسكرية الأخرى الذين لم تكن السبل ميسرة لهم ليشيدوا لأنفسهم مقابر ويزينوها برسوم تبين مراحل حياتهم الحربية ، يقل عن ذلك بكثير. على أية حال فإن هذه الرسوم تطلعنا على طريقة حياة الجندى العادى، ومن الجلى أن كبار الضباط وكتاب الملك وكتاب التجنيد مثل چانونى Tjanouni وحرمحب Horemheb وأمنمحات Amenemhat كانوا يظهرون ، وهم يبذلون مجهودات شاقة فى اطعام الجنود . ويتكون الطعام العادى للجيش من الخبز ولحم البقر والنبيذ وفطائر وخضراوات ، من كل الأطعمة الطيبة المغذية المنعشة . ويسير الرجال فى نظام تحت إشراف ضباط الصف ويحمل كل منهم مزوده ويعبرون أحد الأبواب إلى فناء توجد فيه جرار وتصف ملآى بالفطائر وقطع مستديرة من اللحم المفروم وشرائح اللحوم . ويجلس على الأرض رجال كبار السن يرتدون ملابس بيضاء ، خلف القفف وهؤلاء هم ، دون شك ، الخبازون والطهاة .

ويسجل الكتاب أولا بأول عدد الرجال وكمية التموين التى أعطيت لهم (٢) وأصبح من بين مسئوليات نب آمون بعد ترقيته قائداً للبيچاور ، الإشراف على تدريب المجندين الجدد والعناية بهم . وكان سعيدا بأن يؤدى هذا الواجب وهو جالس على مقعد صغير ، يعاونه مساعدان يحملان ، تحت تصرفه ، مقعداً صغيراً آخر وصرة ونعالا وعصى . وفى حضوره يحمل الكتاب كميات التموين ويقيدون عددها ويختمون أوانى النبيذ ويعبرون الثيران. (٨) ومن المحتمل أن نفترض أن هذا الطعام كله لم يكن مخصصا لنب آمون وحده بل من حق كل الفرق التى كانت تحت قيادته ، لأن نب آمون كان هو المكلف بالعناية بالجنود الجدد .

وقد اهتم الرعامسه ، مثل أسلافهم ، بأن تكون تغذية جنودهم طيبة وأسلحتهم موفورة ، وقد بذلوا كل ما فى وسعهم حتى يرضى الجنود بحالهم . وهذا هو السبب الذى من أجله أنب رمسيس الثانى رجال جيشه فى شدة بالغة وذلك عندما تركوه وحيدا وسط أعدائه دون أن يتمكن من ألا يعتمد إلا على نجدة آمون ، لقد خاطبهم قائلا : «كم كنتم جبناء ، يا راكبى العربات ، لن أكون فخورا بكم بكل تأكيد مع أنه لا يوجد أحد بينكم لم أسد إليه جميلا فى بلادى . ألم أقف بينكم كسيد؟ أما كنتم فقراء ؟ فجعلت منكم كبراء ، بفضل روحى (الكا Ka) كل يوم ، أقمت الابن مكان أبيه ، وجنبت هذه الأرض مغبة الشرور ، وخفضت عنكم الضرائب ومنحتكم أشياء أخرى كنتم قد حرمتم فيما سبق منها — وكلما تمنى أحدكم شيئا لبيت على الفور أمنيته . ولم يعمل أى ملك لجنوده مثل ما عملته جلالتى لكم ، بالمعيشة فى مدنكم دون أن استعمل حتى كحاكم عليكم ، وكذلك أنتم أيها المحاربون بالعربات أذنت لهم بالذهاب إلى مدنهم قائلا : «سوف أجدهم دائما مستعدين لخوض المعركة وعندما تحين ساعة السير إلى الحرب.» (٩)

وربما كان فى استطاعة رمسيس أن يسائل نفسه كثيرا عما إذا لم يكن قد يسر لجيشه الحياة الهنية ، لكن رمسيس الثالث ظل يراوده نفس الشعور ، إذ بعد مضى ، عدة سنوات من توليه العرش ، استكان له العدو ولم يجرؤ على الظهور ، وأصبح الجند كأنهم من الأعيان أصحاب الدخل ، يسكنون المدينة التى تروقهم ومعهم أسرهم ويتصرفون فى وقت فراغهم الطويل كما يشاؤون . «لقد تركت الجنود والمحاربين بالعربات يستريحون ، فى عهدى . تركت الساردان Sardanes والقاهاق Qahaq (جنود مرتزقة من أصل ليبى) ، ينامون فى مدنهم ممددين على ظهورهم ، أصبحوا لا يهابون المحاربين النوبيين ولا الأعداء السوريين . وصفت الأسلحة والأقواس فى حجرات

المخازن ، وكان الجنود يأكلون ويرتوون وقد تهللت قلوبهم سروراً ، وكان أولادهم ونساؤهم يمشون معهم، كانوا لا يتلفتون إلى الخلف . كانت قلوبهم مطمئنة ، كنت لهم بمثابة الضمان أحمى أجسادهم»(١٠) وبالاختصار فان ما قاله هيرودوت عن الجيش المصرى فى عهد بسمتيك ، كان صحيحا فى عهد الرعامسه ، فكان ثمة نوعان من المحاربين كان يطلق عليهم اسم كلاسيرى Calasiries وهرموتيبى Hermotybies كما قسم رمسيس جنوده إلى المشاة مشاو Mechaou والمحاربين على العربات تنت حتيرى Tent-Heteri : ولم يكن الجنود يتعلمون مهنة أخرى سوى مهنة حمل السلاح كانوا يتوارثونها ابناعن أب وكانوا جميعا من ذوى الأملاك . وكان رجال الحرس الملكى يحصلون على حصص إضافية من القمح واللحوم والعجول .(١١)

٢ — الحرب الداخلية

عندما خاض ملوك طيبه حرب التحرير ضد الهكسوس لم يكن جيشهم مكونا إلا من المصريين وحدهم ، ثم خطرت لهم سريعا فكرة ادماج الأسرى بهذا الجيش وفى الفرقة التى كان يقودها جانونى Tjanonni الكاتب الملكى الذى عاش فى عهد تحتمس الأول نجد فيلقا من الجنود الأشداء ذوى تقاطيع تختلف عن بقية الجنود المصريين (١٢) ، فالمصريون طوال القامة ، نحاف الأجسام ، أكتافهم عريضة وبطونهم مستوية ، أما هؤلاء الأجانب فأعضاؤهم ضخمة ، يتركون شعورهم تنمو طويلا وتتدلى فوق أقفيتهم . أما الحزام فيؤكد حجم بطونهم الكبيرة . ويعلقون خلف ظهورهم ذيول حيوان الفهد التى تصل حتى أقدامهم . ولا شك أنهم أتوا من الأقطار الجنوبية ولكنهم ليسوا من الزنوج . ويسيرون معا فى خطوات متزنة واسعة خلال التمرينات العسكرية . تتقدمهم أيديهم اليمنى التى يقبضون بها على عصى .

وكان أخناتون يفضل هؤلاء الأجانب على غيرهم وكان من بين حرسه الخاص الذى كان ينتظره لدى خروجه من القصر ويصاحبه إلى المعبد عدد من الأجانب السوريين والليبيين والزنوج يفوق عدد المصريين (١٣)

بدأ ظهور الحيثيين فى الجيش المصرى أيام حرنمحب Horemheb كما ظهرت شعوب البحر أيام سيتى . وكان كل حرس رمسيس الثانى من شعوب الساردان (١٤) ، كانوا طوالا ، نحافا أقوياء البنية . وقد أظهر الرسامون المصريون ، الأقوياء الملاحظة مهارة فائقة ودقة فى التعبير برسم المصريين بتقاطيع وجوههم الواضحة وأشكالهم الجانبية البارزة المعالم ، وميزوهم عن الزنوج ذوى الوجوه المفرطحة الأفقية وعن الليبيين النحاف الأجساد ذوى العظم البارزوعن الساميين بأنوفهم المحدودبة ، وظهر على أحد جدران معبد أبيدوس رسوم أولئك الذين جندهم فرعون فى جيشه ضد التكتل الذى كان يهدده ، يظن من يراهم أنهم من الأوروبيين .

وقد مكنت انتصارات جيش رمسيس الثالث فى حروبه ضد الليبيين وشعوب البحر الأبيض من ازدياد عدد الأسرى . الذين كانوا يوسمون كالماشية ويختمون باسمه . كما كانوا ينخرطون فى خدمة الجيش ويخضعون له طبقا للنظام المصرى. (١٥)

وكانت التمرينات عبارة عن السير جماعات فى طوابير منظمة أو يتعاركون شخصا تجاه الآخر ، وكانت إحدى تسليات الملك أن يشاهد المصارعات والمسابقات التى تقام بين الجنود الذين أحسن تدريبهم . وكثيرا ما كان يدعو معه رجال البلاط ليستمتعوا بالمشاهدة .(١٦) ويسير الأمراء وهم يحملون مراوح ذات أيد وثبتت دلايات فى الشعر تغطى الخدود. وكان

يشترك مع المصريين أمراء أجانب مثل اللاجىء حداد Hadad عدو داود .
ويمكن تمييز السوريين بالمئزر الذى يحيط بوسطهم ، وبشعورهم الطويلة التى حبكت بشريط ، وبذقونهم . أما الزنجى فيتزين بأقراط ضخمة فى أذنيه ويغرس ريشة نعام فى شعره ، أما الحيثيون والليبيون فيرتدون الملابس المزركشة . ويحيى الجميع فرعون بصوت واحد : « أنت ، يافرعون ، مثل المعبود مونتو Montou ، لك الحياة والصحة والقوة أيها السيد الطيب . لقد أخضع لك المعبود آمون هؤلاء الأجانب الذين ارتكبوا إثما فى حقك وتآمروا ضدك ، فنا أخمهم ! »

والآن يقف المتبارزون فى الميدان ، يرى متنافسان كل منهما تجاه الآخر ، وكلاهما مسلح بعصا ، وقد ارتدى الزى الحربى الذى يتكون من مئزر على هيئة مثلث ، ونكس طرف العصا إلى أسفل . وقد لف كل منهما على ساعد ذراعه اليسرى أسورة ويحمى اليد اليمنى قفازمن الجلد ، وأما الذقن والصدغان فتلف بأربطة كثيفة عريضة تتصل بقبضة تحمى الجبهة . وينحنى أحد المتبارزين نحو ولى العهد ، الرئيس الأعلى للجيش ، فيشجعه هذا قائلا : « تحية لقلبك - تحية لقلبك أيها المحارب » . أما المبارز الآخر فيرفع كلتا يديه إلى السماء ، وتبدأ بعد ذلك المبارزة . يكيل المتبارزان كل منهما للآخر ضربات قوية بالعصى ويحمى كل منهما وجهه بذراعه اليسرى ، ويتبادلان التحديات قائلين : « خذ حذرك . . سأريك قوة ساعد المحارب . »

ويلى المتبارزين بالعصا ، المصارعون . يرفع مصارع مصرى خصمه الليبى الذى يعض يد خصمه ، فيصرخ المعضوض قائلا : « الويل لك أيها السورى الذى يعض بفمه . إن فرعون معى ضدك . فله الحياة والصحة والقوة إنه مولاى ! » فهل يمكن أن نعتقد أن فرعون يوقف المبارزة ويعاقب المصارع المخادع ،

أو أن هذا التصرف غير السليم من الناحية الرياضية لايحول دون انتصار البطل المصرى لأن فرعون يؤيده بدعواته ؟

والآن يتبارز مصريان ، يرفع الذى على اليسار ساق خصمه من الأرض ويعلن فى لغة الجند بأنه سيلقى به أرضا أمام فرعون .

وأخيرا يواجه مصرى ، ربما كان الذى قد ربح المبارزة السابقة ، زنجيا ويتبارزان ، وقد يشجع الحكم المصرى مواطنه ، بالرغم من أن هذا العمل ليس مستحبا كثيرا ، فيقول له : « اعلم تماما أنك أمام فرعون ، له الحياة والصحة والقوة مولانا الطيب ، يرفع المصرى ، الزنجى من وسطه ويقول له وهو على وشك أن يلقى به على الأرض : « آه ها أنت ذا بين يدى أيها الزنجى القذر ، سوف أرميك ممزق الاضلاع أمام فرعون » . وها هو ذا يسقط للمرة الثالثة وقد انكفأ أرضا على ركبتيه وأكتافه . عندئذ ينسحب لزنجى من المبارزة دون شك ، إذ أن الفائز قد هب واقفا رافعا ذراعيه مؤكدا انتصاره ، قائلا : « آمون المعبود المزدهر ، المنتصر على الأجانب ، إن الكتيبة الكبرى أورسى مارع Oursimare هى التى تتزعم القيادة ، وقد قهرت كل البلاد ! »

وقد أرضت نتيجة هذه الحفلة زهو المصريين ويمكن أن نسأل أنفسنا كيف كان رجال البلاط يقابلون انتصار الأجانب حين يكونون أقوى من المصريين ؟ لاشك أنهم كانوا يقابلون ذلك بفتور ، ولكن صاحب هذه النقوش المحفورة البارزة ، التى دونت حياة الجنود ، لم تبين لنا عمدا مدى انعكاس هذا على الأهالى ، كما لم تبين لنا المنح التى كانت تعطى للفائزين أو من ناحية أخرى فقد أوضحت لنا فى عناية رسوم الأمراء الأجانب الذين كانوا

فى الصف الثانى من المشاهدين يرقبون هذا المنظر ومظهر تقاطيعهم السلبى الصامت لا ينم عن تمام الرضا .

٣ — الجيش فى الحرب

حصل الجيش المصرى على الكثير من الفرص لإظهار بسالته فى عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين. وإذا كنا نثق فيما ورد فى القصص والنقوش البارزة الرسمية وبصفة خاصة فى تلك التى ذكرت الأعمال الكبرى التى قام بها الملك سيتى فى فلسطين والتى أقدم عليها الملك رمسيس الثالث ضد الليبيين وضد شعوب البحر، فإن هذه الحملات الحربية تظهر لنا وكأنها درامة تتكون من أربعة فصول ، الفصل الأول ـ توزيع الأسلحة وتحرك الجيش والفصل الثانى ـ موقعة فاصلة فى مكان متسع . والفصل الثالث ـ حصار مدينة والاستيلاء عليها . والفصل الرابع ـ عودة المنتصرين . كان هذا هو المألوف عادة فى عهد الرعامسه . على أن النصر فى العهود الغابرة لم يكن إلا بجرد مصادفة كما هو الحال فى عصرنا الحالى .

والمصريون لايذكرون عن طيب خاطر خسائرهم ، ونحن نعرف أنهم قاسوا خسائر مرة : فى نهاية الأسرة الثامنة عشرة تتبع جنود الملك الحيثى سوبيلوليوما Subbiluliumma الجيش المصرى وهزموه داخل سوريا ، انتقاما من مقتل الأمير الذى كان قد جاء إلى مصر بدعوة من أرملة فرعون .(١٧) أما العهد الذى نتحدث عنه فكان فى مجموعه عهد انتصارات جيدة للجيش المصرى ، فلنتابع إذن الجيوش فى سيرها الذى لايقاوم .

٤ — تجميع الأسلحة وتوزيعها

قبل أن يزج فرعون ببلده فى العمليات الحربية كان يرجع عادة إلى رأى

مستشاريه حتى ولو كان مصمما على أن يثير الحرب . وهذا ما اتبعه كاموزا «Kamose» أحد محررى مصر عندما عزم ، بناء على وحى آمون ، على مهاجمة الهكسوس الذين كانوا يحتلون كل أراضى الدلتا ومحافظات مصر العليا ابتداء من المحافظة الرابعة عشرة والذين كانوا يطمعون أيضا فى توسيع منطقة احتلالهم وفرض عبادة سوتخ على أهالى مصر التى بقيت مستقلة وكان المستشارون وهم شبان متحفظون يفضلون الانتظار خشية زيادة إفساد الموقف الذى كانوا قد اعتادوه ومع ذلك فقد رجحت فكرة الملك وأعلنت الحرب. (١٨) على أننا نجهل ما إذا كان أحد الرسل قد أخطر الهكسوس بإرادة فرعون أو إذا كان المحتلون لم يعلموا بنيات أهالى طيبه إلا عندما رأوهم يتقدمون حاملين السلاح فى اتجاه الشمال ، كان ملوك الشرق القديم يتراسلون كثيرا ، وكانوا يكتبون كتابات رمزية وتهديدات ومطالبات وشكاوى ، كما أنهم كانوا يتبادلون أنباء المواليد الجديدة والوفيات والمؤامرات ضد بعضهم والبعض وختمت العداوة بين الحيثيين والمصريين فى السنة الحادية والعشرين من حكم رمسيس الثالث بمعاهدة ذات مقدمة وعدة بنود وخاتمة وقعها الطرفان وأمهرت بالاختام . وكانت هذه المعاهدة تعتبر ، زمنا طويلا ، أقدم معاهدة مدونة فى العالم* . غير أن بين يدينا الآن كثيرا غيرها ، أقدم منها عهدا . ولكننا لا نعرف فى الوقت الحاضر واحدة منها تشير إلى أعلان الحرب بين دولة وأخرى . على أننى أعتقد أنه كان يحدث أن تعلن دولة الحرب على غيرها لأننا ، كما سنرى ، كان الخصوم يتبادلون الرسائل خلال العدوان .

وعندما تبدو الحرب محتمة الوقوع كان فرعون يجهز المشاة ويعد معداته

* يرجع تاريخها الى عام ١٢٨٠ قبل الميلاد

الحربية ، وجنود الساردان الذين كانوا أسرى نتيجة انتصارات الملك ، وقد سلحهم ، ومدربهم على وسائل الحرب ، وكانو يكونون فرقة خاصة يحتفظ فرعون بقيادتها . وكان الجزء الأكبر من الجيش يتكون من عدة فرق من المصريين والسوريين والليبيين ورجال من الأقاليم الجنوبية . وتشير نصوص من عهد الملك سيتي إلى فرقة آمون وكانت تعرف أيضا باسم « الأقواس الباسلة » ، وفرقة رع وتعرف باسم « الأذرع العديدة » وفرقة سوتخ وتعرف باسم « الأقواس القوية » .(١٩) وفرقة رابعة تعرف باسم فرقة بتاح ، ظهرت لأول مرة ، حسب ما نعلم في بدء حكم رمسيس الثاني.

كان توزيع الأسلحة والمهمـــات يتم في حفل رائع يحضره الملك شخصيا .(٢٠) وكـان رمسيس الثالث يتخذ مكانه على شرفة فوق ربوة عالية وقد اتـكأ بذراعه على وسادة يتقبل التحيات ويسمع خطب ضباطه ، ثم يتحدث إليهم بنفسه : « أخرجوا الأسلحة وأعرضوها على الملأ حتى تحمد شجاعة أبي آمون البلاد الثائرة التي تجهل قدر مصر » وكـان يرتدى في هـذه المناسبات الزى الـكامل الذى يتـكون من مئزر فخم وفي قدميه نعلاه ، ويتجمع حوله ولى العهد والـكاتب الملـكى وعدد كبير من عظماء الضباط ، وكانت ترص الأسلحة على اختلاف أنواعها : فهذه خوذات من النوع ذى الحواف الذى يغطى الرأس وخلف الرقبة على السواء ولها شريطان يتدليان من أعلى وينتهيان « بطرر » وعلى بعد الخوذات ، نرى السيوف والأقواس المثلثة وجعاب السهام ودروع حديدية ذات مقابض قصيرة تحمى جسم المحارب ، وخناجر ذات حدود مقوسة على هيئة المنجل لها أيد طويلة تنتهى بقبضة كروية عرفت في مصر باسم خبش — الذراع . ويتقدم الجنود الواحد تلو الآخر في صف طويل ، ولا يلبسون إلا مئزرا تغطيه قطعة قماش مثلثة الشكل وبأيديهم الخالية يتسلمون الأسلحة ومن ثم يتحركون بينما يقيد كتاب

كثيرون الأسماء والأسلحة .

وفى القرن الثالث عشر (قبل الميلاد) انتهى الأمر بأن اقتبس المصريون أسلحة السوريين ، أعدائهم القدماء وبفضلها تمكنوا من الانتصار على السوريين . وتشبه الخوذات التى وزعها رمسيس الثالث على رجاله والتى كانت مرسومة بالألوان على إحدى جدران مقبرته ، خوذات المحاربين السوريين التى نعرفها جيدا ، لا من مناظر موقعة العربات الحربية التى قادها تحتمس الرابع فحسب ، ولكن من صور مواكب حملة القرابين الأجانب أيضا ، ثم من بعض التحف السورية الفريدة.(٢١) فالشكل واحد غير أن المصريين قد استبدلوا ذيل الحصان بأشرطة تنتهى « بطرر » والمعبود ست Seth الذى كان يطلق عليه عن طيب خاطر فى هذا العهد ، سوتخ وبعد أشد آلهة مصر ارتباطا بآسيا ، كان يرتدى خوذة مماثلة زينت بقرص الشمس من الأمام وقرنين مدببين وشريط طويل ربط من أعلى ويتدلى على مقربة من الأرض وينتهى بزهرة مثلثة . ولما كان سوتخ معبودا محاربا ، فنستطيع أن نقول أن خوذة الجنود ما هى إلا خوذة المعبودة تحولت حتى تصلح عمليا للاستعمال ، ولكن لا يمكن أن ننسى أن — سوتخ كان رداؤه على الطريقة الأسيوية وأنه كان يشبه المعبود بعل كأخ له .

كان المحاربون الأسيويون يستعملون منذ عهد طويل الأقواس المثلثة . وقد استعمل المصريون أنواعا كثيرة ، فى البداية استعملوا قوسا مزدوج الانحناء ، واستبدلوه فى عهد الدولة القديمة بقوس ذى انحناء قليل ، ولكن النوع القديم لم يتخلوا عنه تماما . وبقوس من هذا النوع تمكن تحتمس الثالث وامنحتب الثانى من ثقب عدة ألواح من النحاس ، وكان الجيش المصرى بكامل هيئته يستعمل آنئذ القوس المثلث ربما لسهولة صناعته فى مجموعات وفيرة أما السيوف التى على هيئة المنجل فقد ثبت أنها تعتبر سلاحا من أصل أسيوى .

قديم.(٢٢) وكان كل ملوك جبيل فى الدولة المتوسطة يضعون نماذج فخمة لهذا السيف فى مقابرهم . وقد قدم محاربون سوريون سيفاً من هذا النوع لكبير كهنة آمون من خبر رع سنب ، وقد جمع تحتمس الثالث السيوف المقوسة من سوريا ، وعرف المصريون فيها سلاحا مرعبا فاتخذه الملك سلاحا شخصيا له وتابعه الجميع فى استعماله .

وقد اخترعت الدروع أيضا فى سوريا (٢٣) ، وكانت عبارة عن صدرية من الجلد زودت بقطع صغيرة من المعدن ، كان معظم السوريين الذين يحاربون بالعربات مع تحتمس الثالث يتمنطقون بالدروع ، وكان البعض منهم يستعيضون عنها برباطين عريضين متقاطعين على الصدر . ولو أن هذه الدروع لم تحم جنود رتينو المحتقرين من سهام فرعون ، إلا أن المصريين لا حظوا أن لهذه الدروع نفعها وميزتها .

أما العربة التى لعبت دورا هاما فى حروب ذلك العهد فقد أخذتها مصر عن سوريا . (٢٤) ولا نعلم على وجه التحديد الزمن الذى عرف فيه السوريون الحصان ولا الزمن الذى اخترعت فيه العربة . ولا تحمل وثائق الدولة الوسطى سواء كانت سورية أو مصرية أدنى اشارة إلى الحصان أو العربة ، ولم تشر إليها أيضا قصة كاموسى Kamose ، ولكن منذ أول الأسرة الثامنة عشرة استعمل كل من الجانبين المتخاصمين الحصان والعربة ، وقد تكون الأسبقية للسوريين لأن أسماء العربة وأجزاءها واسم الحصان والعدة باللغة المصرية ، أخذت لغويا من أصل سامى . والزخارف التى تزين بها صناديق العربة والعريش وعدة الحصان والحبال الممتدة المجدولة حلزونيا ، تعتبر بدورها من أصل أسيوى . وعلى أية حال فإن عربات فرعون والأمراء ، حيث الذهب الكثير قد غطاها وارتفع فوقها ، كانت تبدو فخمة حتى أن

كبراء الرتنو لم تكن لديهم السبل للحصول على مثلها .(٢٥) وكان طاقم الحصان مزودا بأقراص من الذهب ومقوى بالمعدن ، ومع ذلك فيجب ألا نغتر بهذه الأناقة ولا بهذا الثراء فننسى أنه قد أسيء تصميمها فلم تؤد دورها فى الانتفاع إلى أقصى حد بقوة الحصان مع التحكم فى زمامه .

ويتكون طاقم رأس الحصان من خزام الأنف وقطعتين عموديتين من الجلد ينتهيان بوردة (من الجلد أيضا) ثبتت فيها قطع لتغطية الجبهة والرأس والاذنين ، وفوق الرأس على هيئة طاقية من الجلد تشبه الهاون ، تنبت منها زهور صناعية أو ريش نعام. أما الزمام والزمام الإضافى فيبدآن من الشكيمة. ويوجد طوق حديث يرتبط بطاقم الرأس يتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية، حزام من الجلد عريض نوعا ما ذو شكل دائرى يغطى الكتف ، وحزام أقل عرضا يحيط بالجسم ورخو إلى حد ما ، وحزام ضيق مشدود على الصدر. أما بقية أجزاء الجسم فحرة ، وترفرف فى الهواء أعلام صغيرة تثبت فى الطاقم وفى أمكنة كثيرة منه وتلمع أقراص من الذهب فوق الجلد ، وصورة المعبود سوتخ ، سيد الخيول ، قد نقشت على الحاجب الذى يوضع على عيون الخيل . ويتكون طاقم العربة من رجلين، السائس والمحارب. ويحمل الأول سوطا غالبا ما يكون بدوره قطعة فنية رائعة . أما المحارب فيحمل قوسا وسهاما وعشرات من السيوف يضعها فى جعبة تثبت فى هيكل العربة ويرتفع هيكل العربة نحو ذراع ونصف الذراع عن سطح الأرض ويرتكز على محور العربة مباشرة دون أى زنبرك ومثل هذا النوع من العربات كان سهل الانقلاب فى الطرق الحجرية الوعرة فى سوريا ، ومن البدهى أن طاقم العربة عندما كان يشعر بقرب وقوع حادث فإن الوقت كان كافيا لديه ليقفز إلى الأرض مادامت العربة مفتوحة من الخلف . وعندما تفك العربة فإن أفضل ما كان يفعله الراكبان هو المبادرة إلى فك الخيل وأمتطاء ظهورها ، هذا ما كان

يفعله السوريون ولم يحرم المصريون أنفسهم من اتباع هذه الطريقة فى الوقت المناسب وهذا على الأقل ما أذهب إليه لأن الرسامين عندما نقشوا المناظر التى تمثل المواقع الحربية لم يخطر لهم ببال فكرة أن عربة مصرية يمكن أن تنقلب .

أما رجال الساردان Sardannes ، فبقيت أسلحتهم دون أن ، يعترها تغيير منذ كانو يحاربون فرعون ، وحتى عندما أدخلهم فرعون ضمن جيشه ، كما حافظوا على مئزرهم وعلى درعهم المستدير وسيفهم ذى الحافة المثلثة والخوذة التى على هيئة « كاسة » مقلوبة تعلوها ريشة ويزينها القرص والهلال وهكذا كان الفلسطينيون Philistins يميزون من بين قوات جيش فرعون بأكاليل الريش. أما السوريون فلم تكن أسلحة المصريين الحربية غريبة عليها ، فقد كان لديهم مايماثلها ، على أن بعضهم قد احتفظ بدلايته الصغيرة ومئزره المزخرف بالطرر أما الزنوج فقد بقوا أمناء على أقواسهم التقليدية ذات الثنية المزدوجة والتى كان يستعملها أسلافهم منذ عدة قرون ، والكثيرون منهم يحملون أيضا عصا الرماية .

٥ — نظام السير

وها هى ذى مصر مستعدة الآن لخوض المعركة . لقد تجمع جيشها فى سهول الدلتا . ومرة أخرى سينظم صفوفه ويعبر فى همة ونشاط جسر سيله Sile ثم بحيرة التمساح ، التى رسمها أحد الرسامين من عهد سيتى على جدار من جدران معبد الكرنك . تسير فى مقدمة الجيش إحدى فرق المشاة (٢٦) ويتحرك الرجال فى صفوف الواحد تلو الآخر ، تسير متوازية وتبلغ سبعة أو ثمانية صفوف . ويلى هؤلاء الجنود نافخو المزمار ، المصنوع من النحاس أو من الفضة ، وطوله لايتجاوز ذراعا واحدة ، مستقيم الشكل

ولا تصدر عنه إلا بعض النغمات الموسيقية العادية . ومع أن الطبلة كانت معروفة إلا أنى لم ألحظ وجودها بين المناظر الحربية ، ولكنها رسمت فى اللوحات التى تمثل التجنيد وفى الأعياد ، ويحملنا هذا على الاعتقاد بأن الطبلة كانت مخصصة للأمور الداخلية .

ويلى هؤلاء فريق من الضباط ممن يعملون فى خدمة الملك . وبعد ذلك ، تأتى العربة الأولى وقد رسمت عليها لوحة تمثل الكبش وقد توج رأسه بقرص الشمس ، ليؤكد لكل أفراد الجيش أنهم فى حماية معبود طيبه العظيم .

ويلى هذه العربة فريق آخر من الضباط ، وأخيرا تتقدم عربة الملك يسبقها اثنان من حملة المظلات يسيران على أقدامهما ويقودها رمسيس نفسه ويسير بجانب الخيل أسد طليق . ويتبع بقية الجيش خطوات السير ، فالمشاة من كافة الطبقات والعربات ورجال الإمدادات يقودون الحمير المحملة بالصرر والجراء ،أو يسيرون العربات الضخمة التى تجرها ستة ثيران ، فالصحراء شاسعة وبلاد فلسطين فقيرة ، ويعرف المصريون بحكم التجربة أن الجيش لا يمكنه أن يعيش هناك زمنا طويلا إلا على ماجلبه معه من طعام .

وتصل ، بعد مدة طويلة ، صفوف المحاربين والعربات إلى الأماكن المحيطة بالعدو وتحصل على أول بئر للمياه يطلق عليه : هوبانا Houpana ، بجانب حصن ومبنى يسمى حصن السبع. (٢٧) ومن بئر إلى بئر ووفقا للطريق الذى يقع عليه الاختيار ، أما أن يصلوا إلى بئر سبع وحبرون أو إلى غزة على شاطىء البحر . وتتوالى الشواطىء وكثبان الرمال وأشجار النخيل حتى قرب بجدو حيث يعلو سطح الأرض وتصبح صخرية . ثم تتيح حدائق صور وصيدا للجيش أن يأخذ قسطا وافرا من الراحة . ويوجد

فى سهل بيروت الكثير من موارد العيش ، وهنا يبدأ المرء فى مشاهدة قمم الجبل المرتفع المغطاة بالجليد والمنحدرات المليئة بأشجار الأرز والصنوبر . وعلى بعد أقل من مرحلة واحدة نمر بجانب سيل صغير متدفق ،مياهه باردة، فنرى لوحات تذكارية ، نقشت فى أول عهد رمسيس الثانى وقد محيت الآن معظم نقوشها . وبعد عبور بعض قرى صيادى الأسماك والحطابين والمزارعين نصل إلى نهر آخر* يماثل كثيرا النهر السابق ، وتصطبغ مياهه كل سنة باللون الأحمر بدم أحد الآلهة ، ثم نصل بعدئذ إلى الجبل وإذا سرنا تجاه البحر فإننا نصل بعد مرحلة قصيرة إلى مدينة كابنى المقدسة Kapni جبيل التى يعيش فيها تجار خبثاء جشعون ، على استعداد دائما أن يبيعوا اخشابهم للمصريين أو يؤجروا لهم مراكبهم .

وهنا يحسن التوقف وطلب حماية المعبودة المحلية **التى تماثل حاتحور معبودة منف كأخت لها كما تشبه ايونيت Iounit .

والآن نولى البحر ظهورنا ونعبر الغابات ونعلو دائما مصعدين فيصبح الجبل المغطى بالثلوج الذى كنا نراه شديد الارتفاع ونحن نسير على شاطىء البحر ، أصبح لايبدو لنا أكثر علوا من الأهرام حينما نشاهدها من منف .

وأخيرا تنعش الجنود المرهقين نسمة لطيفة تهب عليهم ، ثم تنتهى الهضبة فجأة وتهبط إلى ذلك الوادى الأخضر الذى أحسنت زراعته كوادى النيل ، وتنتشر فيه القرى الكثيرة وتتخلله ينابيع مياه صافية فى شتى أنحائه. وأصبح الجميع يعرفون أن قارش لم تعد بعيدة كما كانوا يتصورون .

---

* نهر ابرهيم أدونيس — راجع قصة أدونيس وعشتروت
** عشتروت

٦ - الموقعة

كان فى إمكان العدو أن يكتفى بالدخول فى حرب دفاعية محضة من وراء حصونه القوية . أما إذا شعر أن لديه القوة الكافية ليلاق الغاصب فى العراء فان المتبع فى هذه الحالة أن يقترح يوما معينا ويحدد مكانا، يناسب عدوه للاشتباك معه وعندما أرسل بيعانخى الأثيوبى جيشه إلى الشمال ليهاجم المصريين ذكرهم بهذه العادة - أو بهذا القانون - فى نشرته الشهيرة : « لاهجوم فى الليل واتبعوا قانون المعركة ، حاربوا فى وضح النهار ، أعلنوا العدو من بعد بموعد الاشتباك ، وإذا قالوا إن الجنود أو الخيالة متأخرون ، فانتظروا حتى يتجمعوا وحاربوا عندما يقولون لكم ، واذا كان حلفاؤهم فى بلد آخر فأخروا الاشتباك من أجلهم أعلنوا الأمراء الذين يحضرهم العدو لمساعدته من الليبيين والمحاربين المخلصين له ، أعلنوهم مقدما بموعد المعركة ، قائلين : أنت يامن تتسمى بأى اسم ، أنت يا من تقود القوات . أشدد أحسن خيولك ونظم مكانك فى المعركة وستعلم أن آمون الإله هو الذى أرسلنا. (٢٨)

وتعليمات بيعانخى هذه لم تكن مفهومة دائما. (٢٩) وهى فى الواقع تتفق وقانون الحروب التى كانت تخاض قديما وفى العصور الوسطى أو على الأقل كان يوصى باتباع هذه التعليمات ويذكر لنا مونتينى Montaigne كيف أن الخدعة التى قام بها القائد لسيوس مارسيوس Lucius Marcius ، «قد أثارت كبار السن من أعضاء مجلس الشيوخ الذين لايزالون يذكرون أخلاق وسير آبائهم ، قد هاجموا هذا الأجراء الذى لا يتفق وتقاليدهم العريقة القديمة التى تعتمد على الشجاعة والفضيلة وليس على المهارة أو على عامل المفاجأة والاقدام

ليلا أو الهروب الخادع والهجوم غير المتوقع ، فلا تثار حرب إلا بعد إعلانها وغالبا بعد تحديد زمن المعركة ومكانها. (٣٠) ومنذ عهد قدماء المصريين حتى عهد قدماء الرومان لم تتغير هذه التقاليد. ونحن ندرك بفضل ، وتتبين ما يعنيه الزعيم الأثيوبي ، بقانون اللعب ، الذى يشير اليه ، إذ ينبغى أن يتخذ الخصمان كل منهما فى مواجهة الآخر دون خداع أو إخفاء القوات أو التواء القصد ، وأن يتحاربا مع تكافؤ الفرص ، أسوة باللاعبين الذين تتكافأ فرصهم فلكل أحجار وأقشاط متساوية ، فى بدء المباراة. وسيمنح الله النصر المعوز منهما .

ولدينا ما يثبت أن المصريين قد اقتبسوا هذا المبدأ الصريح قبل عهد بعانخى بزمن طويل . والدليل على ذلك ، تلك الصفة التى كانت تطلق أحيانا على ست الإله المحارب ، وهى : « معلن المعركة » . (٣١) ودليل آخر أوضح من ذلك يستخلص من وقائع معركة مجدو التى خاضها جيش تحتمس الثالث ضد تحالف القوات الآسيوية. (٣٢)

وصل الجيش المصرى فى السادس عشر من الشهر الأول من فصل شمو إلى مدينة إيحم Yrehem ، وأمر جلالته أن يجتمع جنوده الشجعان فى هيئة مجلس وأعلنهم أن « اللئيم الساقط » فى قادش قد اتجه إلى مجدو وأقام فيها قيادة جيشه والتف حوله رؤساء البلاد ، الذين كانوا موالين لمصر من قبل ، حتى بلاد نهرين وقال لهم : « سآتى هنا فى مجدو لأخوض معركة مع الملك المصرى » . وقال الملك لجنوده « أشيروا على برأيكم فى هذا الموضوع » وقد اخشوا أنهم وقعوا فى مكيدة إذ أن الطريق المباشر الموصل من إيحم إلى مجدو يضيق ضيقاً شديداً بحيث لا يستطيع أن يسير فيه الجنود إلا فرادى ،

جندى خلف جندى وحصان خلف آخر ، وعندما يشتبك مقدمة الحرس فى الموقعة تكون المؤخرة لا تزال فى ألونا Alouna ، فالأفضل أن نجتاز طريقاً دائرياً يسمح للجيش بالوصول بأكمله دفعة واحدة إلى عدو من طريق الشمال . غير أن هذه الخطة الحكيمة قد رفضها فرعون الذى صاح قائلا : « ستخترق جلالتى طريق ألونا الوعر ، فقسما بحياتى وبحياة رع الذى يحبنى ، وقسما برحمة أبى آمون الذى سيعاوننى وبنسمات الحياة التى تختلج فى أنفى ، فليبق معكم من رغب اجتياز الطريق الذى حدثتمونى عنه ، وليتقدم من يشاء مع جلالتى ، فإن هؤلاء الأعداء الذين يكرهون رع سيظنون « أن جلالته قد اتخذ الطريق الآخر وابتعد خوفاً منا » . قضى هذا الحديث الحماسى على كل اعتراض ، وصرحوا أمام جلالته قائلين : سنتبع جلالتكم إلى أى مكان تذهبون إليه ، فالخادم يتبع سيده » .

وعلى ضوء تعليمات بيعانخى أصبح الموقف الذى يواجه مجلس الحرب واضحاً جداً ، أرسل ساقط قادش رسولا إلى فرعون يطلب منه أن يقترح عليه زمن المعركة ومكانها . وقد ظن المستشارون أنها خدعة ، ولكن من خبز رع (تحتمس) ، اعتبر أنه أمر لا يليق به ولا بالمعبودات التى تحبه وتحميه أن يتنصل من إجابة الطلب الذى يتفق والتقاليد المعمول بها . وقد أثبتت الحوادث صواب رأيه .

وتولى الملك قيادة الجيش وسار فى طريق الوادى الضيق ، وملأوا الوادى كله . توسل الضباط إلى مليكهم . وكان الشك لا يزال يساورهم ، أن يستمع إلى نصيحتهم هذه المرة بالا يتقدم إلا بعد أن يكون رجال حرس المؤخرة قد عبروا منطقة الخطر ، ولم يكن ثمة حاجة لهذا الاحتياط . فالعدو الذى كان منتشراً بين طناخ Taanakh وبجدو لم يحاول أبداً

أن يقاوم حركة تقدم الجيش المصرى ، الذى استطاع أن يتخذ أماكنه فى المنطقة فى جنوب قادش فى منتصف النهار وأن يستعد فى هدوء للمعركة التى حدد لها صباح اليوم التالى . وهكذا احترم قانون المعركة .

وقد كان من واجبات المستشارين أن ينصحوا فرعون بأن يكون حذراً . وكان الجيش الذى يواجههم تحت قيادة ملك ميتانى ولكنه كان يتضمن عدداً عظيم من رجال العامو * Amou وهؤلاء هم الأعداء الدائمون لمصر والشام الخبثاء الذين قال عنهم أحد قدماء ملوك الأسرة الحادية عشرة فى التعليمات التى دونها لابنه مرى كارع : « أما بخصوص رجل عامو فإنه لا يستطيع أن يتوقف فى مكانه فأقدامه لا تكف عن الحركة ، إنه يحارب منذ عهد الآلهة دون أن ينتصر أو ينهزم . ولا يعلن عن موعد المعركة ، مثله مثل من يعتزم أن يرتكب عملا آثماً » . (٣٣) ولما كان شعب العامو يعرفون معرفة تامة غابات إقليمهم وجباله فإنه كان يفر أثناء القتال فى العراء إن شعر بأنه ليس لديه القوة الكافية للوقوف أمام عدوه ، كان يتحرش بالجيش المصرى ثم يختفى ، معتمداً قبل كل شىء على سرية العمل وعلى الخديعة . وكان عاملا الاختفاء والمفاجأة خير أسلحته ولكن عندما يصبح خصماً للمصريين وعاثلهم فى القوة ، كان لعامل المفاجأة دوره الهام ، إذ كان على وشك أن يقوم بدور مدمر ضد المصريين أمام قادش عندما تلاقى رمسيس الثانى وجيشه بجيش الحيثيين ** . (٣٤)

وقد حشد ساقط الحيثيين الذى ضد مصر جميع البلاد الشمالية التى تحالف منها حتى امتداد المحيط ، بالإضافة إلى أعداء فرعون المعتادين الدائمين الذين كانوا يجندون من المنطقة الممتدة من سواحل سوريا حتى نهر

---

* الأسيويون

** موتللا Mutallu ملك الحيثيين

القوات كما انضم إليه أهالى آسيا الصغرى والدردانيون Dardaniens وحلفاؤهم من الأليون (وهم أهل طرواده). والكاشكاش Kachkech والقارقش Qarqech، والليسيون Lyciens – وبعض أهالى أوروبا كالميسيين Mysiens.

ولم يدخر ملك الحيثيين وسعاً وتجرد من جميع أملاكه كى يضمهم إليه ليحاربوا فى صفه، وقد غطت جحافلهم الجبال والوديان وقد قيل إنهم يبدون كأسراب من الجراد نظراً لكثرتهم وكانت كل هذه القوات مختبئة شمال شرقى قادش. والمصريون الذين كانوا يعتقدون أن أعداءهم لا يزالون متأخرين فى إقليم حلب إذ أن عملاء مخابراتهم لم يكونوا قد أعلنوا عن وجودهم فى أى مكان بعد، وتقدموا دون حذر فى وادى نهر العاصى (الأورونت) Oronte. وتقدم رمسيس نفسه، بعد أن عبر النهر من أحد معابره، يقود حرسه، تليه فرقة آمون. أما فرقة رع فقد عبرت نهر العاصى عند معبر شبتون Chabtoun – أما فرقة بتاح فقد انتظرت فى معسكراتها فى أرنام Iroam حتى يخلو طريق المعبر وفرقة سوتخ التى كانت فى المؤخرة قد جاهدت لتلحق ببقية الفرق الأخرى، ولكنها كانت تبعد عنها مسيرة عدة أيام.

وبينما كان الملك فى شبتون تقدم إلى جلالته اثنان من الشاسو Ghasou وهمامن أولئك البدو الذين طالما سببوا الذعر للقوافل التى تسير بين سوريا ومصر والزراع القريبين من خليج السويس وأخبروا جلالته نيابة عن «إخوانهم أنهم يرغبون فى التخلى عن ملك الحيثيين والانضمام إلى فرعون خدما له. فسألهم فرعون وأين إذن، أخوانكم؟ وما هى الأنباء التى تحملونها لجلالته؟ فرد البدويان «إنهم فى المكان الموجود فيه ملك الحيثيين اللئيم، فأين سائق جلالته؟». فرد الحيثيين فى إقليم حلب، شمال تونيب وهو يخشى جداً فرعون، له الحياة والصحة والقوة وأن يتجه صوب الجنوب منذ اللحظة التى سمع فيها

أن فرعون سيتجه نحو الشمال .

لقد كانا يكذبان وهذا بأمر لئيم الحيثيين الذى بعث هذين الجاسوسين لكشف موقع المصريين وتضليلهم بالأنباء الكاذبة لإثباط عزمهم ولإخماد نشاطهم .

والواقع أن الملك صمم على أن يعسكر فى شمال قادش على الضفة الغربية لنهر العاصى . وقد حدد فى السهل مستطيلا كبيراً أحاطه بسور من الدروع أو أشياء تماثل الدروع . وأقيمت فى الوسط خيمة كبيرة للملك وثلاثة خيام أخرى أصغر منها ، وفى جهات أخرى أقيمت خيام متفرقة أصغر من السابقة . أما أسد الملك فقد ربط من قدمه إلى قوس وقد ربض على الأرض ناعسا . وحلت أربطة الخيل لإطعامها ، ورفعت الأحمال عن ظهور الحمير التى كانت تتمرغ فى التراب وتنهق وتجرى وترفس بأرجلها .

وبينما يجرى العمل فى رص الأسلحة والموازين إذ تأتى عربات أخرى تجرها الثيران . أما كبار الضباط فيستريحون فى أكواخ من الخشب يستند سقفها على عمود ولها باب يماثل باب المنزل . وتوجد بالداخل أزيار وطسوت أقيمت على قواعد ، وقد أفرغت من الصناديق موائد ومناضد ومقاعد صغيرة وحصر . ويأتى بعد ذلك عمال السخرة بقيادة أحد العسكريين يزيلون الأتربة بمكانس صغيرة ويرشون المياه وآخرون يروحون ويجيئون ويقودون أمامهم الحمير التى تحمل أثقالا على طرفى نير وضع فوق ظهورها . وبجانب الأكواخ ، حصان أدخل رأسه فى مخلاة ، وسائس اسطبل يهدئ حصانين يضربان الأرض بحوافرهما وقائد عربة يجلس داخل صندوقها وينام ملء جفنيه ، وجندى يرتوى .

ولم يفكر أحد فى الخطر المحدق بهم .(٢٠) ولكن دورية مصرية قد

أسرت اثنين من دورية ساقط الحيثيين. وأحضرتهما أمام الملك الجالس على عرش من الذهب أقيم فوق منصة عالية. وكانت العصا هي الوسيلة الصحيحة لإجبار الناس على الكلام، ويفضي الأسرى بكل ما يطلب منهم الإجابة عليه: «نحن ننتمي إلى ملك الحيثيين، وقد أرسلنا لنستطلع المكان الذي يعسكر فيه جلالة الملك». ولكن أين هو ساقط الحيثيين فقد سمعت أنه موجود في إقليم حلب إلى الشمال من تونيب Tounip ؟ وها هو ذا ملك الحيثيين اللئيم يأتي ومعه شعوب كثيرة من الموالين له وعددهم أكثر من رمال البحر، وهاهم أولاء الآن قد اتخذوا مواقعهم استعدادا للقتال حول قادش القديمة. وصاح الملك غاضباً: «هاهم أولاء قد اختفوا بالقرب من قادش القديمة ورؤسائي الأجانب لا يعرفون ذلك كما لا يعرفه ضباطي من بلاد فرعون، الذين معهم، ويقولون لنا إنهم سيأتون، او يعترف المستشارون أن أخطاء جسيمة قد ارتكبت: «هذا غير حميد، فإن خطأ كبيراً قد وقع فيه الرؤساء الأجانب وضباط فرعون له الحياة والصحة والقوة لأنهم لم يوضحوا المكان الذي يعسكر فيه مخادع الحيثيين اللئيم في تقريرهم اليومي لفرعون له الحياة والصحة والقوة». وكلف الوزير بتعجيل قدوم القوات المتأخرة جنوبي شابتون وإحضارها إلى المكان الذي يعسكر فيه صاحب الجلالة بكل سرعة ممكنة. ولكن بينما كان جلالته يعقد مجلساً يناقش الموقف كان مخادع الحيثيين اللئيم يقترب بجنده وأسلحته وجميع حلفائه وقد اجتاز معبرا غير محصن جنوبي قادش وبذلك فاجأوا القوات المصرية وراكبي العربات مفاجأة جعلتهم يهربون دون نظام حتى تمكن العدو من أن يجمع بعض الأسرى من رجال حرس جلالته.

إزاء هذا الخطر العظيم الداهم وقف جلالته مثل والده مونتو وارتدى ملابس الحرب والدرع وكان مثل بعل في ساعته، وعندما شاهد الياور

هنا Mouna عدداً وفيراً من عربات العدو تحيط بسيده أخذ يرتجف ويرتعد وقد انخلع قلبه وسرى فزع كبير فى جميع أعضائه ، فقال لجلالته : « أيها السيد الطيب ، أيها الملك الشجاع ، أيها الحامى العظيم لمصر فى يوم القتال .. هانحن أولاء وحيدان بين أعدائنا ، فقد تركنا الجنود والحاشية ، ماذا أنت فاعل لأجل إنقاذهم ، اعمل على أن نكون طاهرين ، أنقذنا يا أوزير ماوع Ousirmare » .

أخذ جلالته يطمئن ياوره وكان جلالته لا يخشى شيئاً ، وقد تركه جنده بحثاً عن الغنائم بدلا من أن يأخذوا أماكنهم فى المعركة . ولم يكن هناك أمير ولا ياور ولا دليل ولا ضابط ، ولكن لم يكن عبثاً أن أقام رمسيس عدداً كبيراً من المآثر حين أنشأ مسلات كثيرة لوالده وملأ قصوره ، ذات ملايين السنين بعدد كبير من الأسرى وأعد مراكب مليئة بالمنتجات الأجنبية النادرة وصدرها من مصر . وقد سمعت استغاثة الملك فى كل مكان حتى وصلت إلى طيبه واستجابها حليف عظيم يفوق الملايين . فأخذ رمسيس يطلق سهامه على يمينه ويحصن يساره . وعندئذ انقلبت عربات الأعداء البالغ عددها ٢٥٠٠ عربة بخيولها ، وكان الجنود المفزوعين خوفاً عاجزين عن استعمال أيديهم فى القتال وقد خفقت قلوبهم فى صدورهم ، فكانوا لا يعرفون كيف يصوبون ولا كيف يقبضون على السيف ، وقد ألقى بهم الملك فى الماء كالتماسيح ، والجند الذين كانوا يزحفون على بطونهم لم تقم لهم قائمة . وكان ملك الحيثيين اللئيم يشهد المعركة وهو بين جنده وعرباته التى كان يركب كل منها ثلاثة من المحاربين ، فأدار ظهره للمعركة وفرائصه ترتعد ، وجميع جنده وحاشيته وكل حلفائه ، الملك أرتو Irtou والملك ميزا Mesa وملك ألونا Alouna وملك ليسى Lycie وملك داردانيا Dardanie وملك قرقيش Karkemich وملك قرقش Qerqech وملك حلب وأخوته ، كل هؤلاء

قد ارتدوا مهزومين ومبهورين من فرط شجاعة فرعون ، وكانوا يصيحون «لينجو بنفسه من يستطيع » وجرى جلالته وراءهم مثل العقاب . وهجم عليهم خمس مرات مثل بعل فى ساعة أوج عظمته . وقد أحرق حقول قادش حتى تضيع معالمها ويمحى أثر المكان الذى وطأته أقدام جموعهم . وجاءت القوات المصرية بعد أن كسبت المعركة بفضل قوة فرعون وشجاعته ، ولسبب آخر لم يجد راوى القصيدة داعيا لذكره لنا ، فأخذ فرعون يسخر منهم وأثقل عليهم اللوم قائلا : «لم يكن أحد منكم هناك . لم يقف أحد بجانبى ويضع يده فى يدى وأنا أحارب العدو . إنى استشهد بروح أبى آمون .. لم يشهد أحد منكم الحرب أيها الجند ليقص أمجاده التى صنعها حين يعود إلى أرض مصر . إن الأجانب الذين شاهدونى سوف يخلدون اسمى حتى فى البلاد النائية التى لم يسمع بها أحد » .

وفى خضوع تام أخذ الجند يشيدون بشجاعة سيدهم ، أما النبلاء والحاشية فكانوا يمتدحون قوة ساعده قائلين : « أيها المحارب العظيم ، القوى القلب ، أنت الذى أنقذت جيشك وعرباتك .. أنت ابن آمون الذى يحارب بسواعدك ، أنت الذى أخضعت أرض الحيثيين بساعدك الباسل . لقد كسرت ظهر الحيثيين إلى الأبد . ! »

ولم يرد الملك إلا بتوبيخ جديد قائلا : « .. ما أجمل اسم من استبسل فى القتال ، إن الإنسان يحترم منذ أقدم العصور لقوة ساعده ولكنى لن أقدم لأحد منكم خيرا ، لأنكم تخليتم عنى بينما كنت وحيدا وسط أعدائى . »

ولم يكن هذا التأنيب رهيبا ، لأنه يرى إلى أن أفراد الجيش قد أضاعوا فرصة لمنحهم مكافآت . وقد حصل نفس هذا الشيء مع الملك بيعانخى الذى

ثار ضد جيشه ، مع أن هذا الجيش كان قد حارب جيدا ، وأرغم الملك تفنخت Tefnakht على الهروب نحو الشمال ومعه فلول جيشه المهزومة ، ولكن الملك كان يريد أن يأسر جميع أعدائه أو يقضي عليهم دفعة واحدة. ولما رأى الجيش أنه قد خيب أمل الملك فيه ، استولى بعد جهد عنيف متواصل على ثلاثة أماكن قد حصنت تحصينا قويا،غير أن بيعانخي لم يهدأ قلبه بالرغم من ذلك. وذات يوم ظهر جلالته راكبا عربته التي كان يجرها حصانان، فوق رصيف يرسو عليه قاربه الحربى وأخذ يؤنب جنده مرة أخرى قائلا :

« هل تنتظرون أن يجيء مندوبي لمحاربة هؤلاء ؟ هل يجب أن تنتهي هذه السنة بأكلها دون أن تصل أخبار جبروتي إلى الدلتا ؟ » فأخذ جميع جنده يضربون أنفسهم في ألم مرير .(٣٦)

ومع هذا فإن ملك الحيثيين اللئيم ، هذا الساقط ، قد بعث رسولا ليمجد اسم فرعون مثل رع ، قائلا :

« انت سوتخ ؛ إنك بعل بشخصه . . إن هيبتك بمثابة السعير في بلاد الحيثيين ! » كان الرسول يحمل خطاباً . لم يكن إلا طلبا للهدنة : « إن الخادم الموجود هنا يتكلم ويحيطك علما أنك ابن رع متقمصا ذاته وقد منحك كل الأراضي قد جمعت كلها في واحدة . . أرض مصر وأرض الحيثيين ، هاهي ذي في خدمتك ، هي تحت قدميك وإن والدك برا Pra المبجل الوقور قد أعطاك إياها لتصبح ملكا عليها . فهل من الصواب أن تقتل أتباعك ، انظر ماذا فعلت بالأمس ، لقد قتلت ملايين ، إنك لن تترك مايورث لا تجن على أموالك أيها الملك القوى ، العظيم في المعركة ، امنحنا نسمة الحياة ! »(٣٧) « فسارع جلالته وطلب كبار قواد الجيش والحاشـــية والنبلاء وعقد مجلسا عرض فيه على مسامعهم ما طلبه ملك الحيثيين اللئيم . وبلا تردد قالوا في صوت واحد: « إن السلام شيء عظيم ، شيء عظيم جداً أيها المليك . مولانا »

كان هذا هو صوت القلب، ولكنهم عادوا وصححوا حديثهم قائلين: « لا يوجد ضرر من السلام إذا كنت أنت الذى تصنعه . من ذا الذى يعيبك فى يوم غضبك ؟ » (٣٨)

وكانت هذه النصيحة هى التى يتوق الملك إلى سماعها ، فاتجهت القوات المصرية فى سلام صوب الجنوب دون أن تستولى على قادش وكان فى استطاعة كل انسان أن يرى الأسوار المحصنة التى على هيئة قلاع وراء فرع نهر العاصى. وفى الحقيقة فإن فرعون ، وقد ألقى بجيشه فى بلاد العدو ، قد نجا بأعجوبة من كارثة محققة إذ كانت معلوماته خاطئة بالنسبة لمواقع الحيثيين ، ولم يكن لديه جنود طلائع ، ولم يحصن جناحيه وقد كتب له السلام بفضل الحرس الخاص المكون معظمه من رجال الساردان ، فقد لوحظ أن الهوم لم يكن موجها إلا للمصريين ومن المحتمل أن الحيثيين عندما تمكنوا من الدخول فى معسكر فرعون ، لم يفكروا إلا فى السلب والنهب، فكانت شراهتهم سبباً فى أن انتصارهم قد انقلب إلى هزيمة. ولم يغضب ملكهم من أن ينال بثمن بخس عودة هذا الجيش الكبير . على أن بعض الوقائع الحربية كانت ذات نتائج حاسمة ، مثل تلك المعركة الكبرى التى انتصر فيها رمسيس الثالث على الليبيين.(٣٩)

كان الملك يندفع بنفسه مثل جده فى المعمعة ، كانت خيول عربة الملك تنهب الأرض نهبا وقد ثبت أعنة الخيل فى حزامه لكى يتمكن من أن يشد القوس . وكان يضع الخوذة فوق رأسه وأساور عريضة فى ذراعيه وعقدين فى قبضة يديه ، وشريطين عريضين يتقاطعان فوق صدره وجعبة من الجلد قد ثبتت فى جانب العربة وملئت بأسلحة الصوان ، . . . بعد الذى يقف وراء الملك لا يحارب ، ولكنه يحمل . . سا ودورقا من الذهب ، سبق أن أشرنا إليه ذلك عند قيام الجيش من مصر . وتسير خلف عربة الملك عرباته

أخرى يركب كل منها اثنان من المحاربين . قام جنود فلسطين الذين التحقوا بالجيش المصرى بالإتيان بالمعجزات ضد الليبين . فالرئيس الليبي ميشيشر Mechecher ابن كابورو Kapouro وجد نفسه مضيعا حين نفقت خيوله ووقع ياوره من عربته بعد أن اخترقت جسمه حربة ، فاتجه نحو فرعون رافعا ذراعه ، ناصبا سبابته مستسلما معترفا بهزيمته ، وكانت قوات جيشه تستسلم بدورها فى مجموعات كبيرة . كانوا يرفعون سيوفهم الطويلة عموديا فيبدو السيف كما لو كان شمعة ، ويمدون أذرعهم اليسرى وراحات الأيدى تجاه الأرض . (٤٠)

وفى عهد رمسيس الثالث وفدت شعوب كثيرة من سواحل البحر فى جموع عديدة على طول الشواطىء وملأوا جميع الطرق البرية التى كانت تؤدى إلى مصر .(٤١) وكانت عربات تحمل النساء والأطفال تجرها جواميس ذات عجلات مصبوبة مثبتة فى المحور بعامود أفقى .

أما سفنهم فكبيرة الحجم ، قد زينت مقدمتها إما برأس أسد أو برأس طير ، وذات مؤخرة عالية ، وقد غصت بمحاربين وتكاد أن تغرق من كثرتهم . وكان الاشتباك فى البر والبحر رهيبا .

وقد ترجل الملك من عربته حتى يتمكن من تسديد السهام ، وكان بجانبه جميع أفراد حاشيته ، والضباط الذين يحملون الأقواس وجعاب السهام والحراب ، وكان الخدم يتقاسمون حمل أدوات الزينة ومظلات ريش النعام والأكياس التى تحتوى على الملابس الداخلية اللازمة للاستبدال وكل ما يلزم لإصلاح ما تسببه المعركة من فوضى وارتباك .

وعندما يتم النصر ، يعتلى الملك منصة عالية ليلقى نظرة شاملة على ميدان القتال تحت ظلال المظلات التى يرفعها ويشدها حاملوها بطول اذرعتهم ، وصفت الأعلام وهى ترفرف على مقربة من المنصة . وكان الأمراء ورؤساء الجيش يتقدمون لتهنئة الملك بينما تبدا عمليات حصر غنائم المعركة وتقدير

تليجتها . وكما كان الحال فى عهد احموزا ، وكان كل محارب يقتل أحد الأعداء يقطع يده ، وإذا كان هذا العدو من الليبيين فكان يقطع العضو ، وتقدم هذه الغنائم إلى المكلفين من قبل الملك باستلامها . وكانت تكوم كل هذه الأشياء مع الأسلحة التى جمعت من ميدان القتال ويرص كل هذا بالقرب من المنصة ، وكانت ترتب وتصنف وتحسب فى اطمئنان بواسطة رهط من الكتاب .

أما الأسرى فكانوا يقيدون ويكتفون ويقدمون للملك . ويحتفظ بالرؤساء لحفلات أخرى . وكان الرجال الذين يصلحون للعمل يوشمون بالحديد المحمى ، وينتظرون فى جموع صغيرة حتى يأتى دور كل منهم . وثمة جنود مسلحون تسليحاً كاملا على أتم أهبة لقمع أى محاولة تمردية من جانب الأعداء ولكن المهزومين كانوا يستسلمون لمصيرهم. (١٢)

وبعد أن يتم وشمهم فإن الجنود الدنانيين Danaaens والفلسطينين Philistins يلحقون بجيش فرعون لتعزيزه ، وأخذ الجيش يخلو شيئاً فشيئاً من المصريين لأنه كان من اليسير فى مثل تلك الظروف أن يمارس الحرب رجال من أمم أخرى .

٧ — حرب الحصار

تتخذ الحرب ، فى غالب الأحيان، شكل حرب حصار ، إما لأن العدو لا يجسر على مواجهة الجيش المصرى وإما لأن الاشتباك فى العراء لا يمكنه من حشد العدد الكافى من المحاربين لحماية قلاعه .

وهذه الحصون تشيد فوق مرتفعات ، وفى بعض الأحيان فوق جبل منحدر .

والعقبات الرئيسية التى تحول دون اجتياز هـذه التحصينات كانت عادة خنادق مليئة بالماء أو أسوارا خشبية دقت فيها بأوتاد . ويتخذ الجند الهاربون الغابة القريبة مخبأ لهم ، كما يتخذها من لم يتمكن من دخول القلاع قبل غلق الأبواب . وهم يفضلون أن يسوقوا قطيعهم من الجاموس معرضين أنفسهم لأنياب الدببة ، على أن يكونوا فريسة لسهام المصريين . وغالبا ما تكون المشارف القريبة من القلاع مزروعة ويغطى كروم العنب والتين المنحدرات وتحف الطرق أدغال مزهرة وقبل الانسحاب ، كان المصريون يقطعون الأشجار النافعة كما جرى العرف (٤٣).

وتتكون القلاع السورية من أبراج عالية ذات حواف بارزة قليلا مسننة وجدران عالية تساير حدود الأراضى المحيطة بها ، قد حليت بزخارف وفتحت فى هذه الجدران أبواب وشبابيك والمدن المحمية بسورين أو بثلاثة أسوار ليست نادرة. وفى بعض الأحيان كان برج يستخدم قاعدة لبرج آخر يستعمل بدوره قاعدة لبرج ثالث . ويرفرف علم فوق قمة أعلى الأبراج (٤٤) .

ويصوب المصريون سهامهم نحو زخارف الأبراج . ويسوقون أمامهم الهاربين ، فالذين يكونون فى مخبأ داخل الحصن ينحنون ويمدون أيديهم لانتشال زملائهم المتأخرين فى الخارج ، بينما يطلق المدافعون السهام والحراب والأحجار ، بينما ينتظر آخرون وبأيديهم السيوف ويوقد كاهن بخورا فوق كانون له مقبض يشبه النوع الذى يطلق عليه المصريون أسم آخ Akh وذلك لطلب النجدة من آلهة المدينة ، ويستمر رافعا يده كما كان يفعل موسى فى قتاله ضد العمالقة Amalec ويطل الكاهن أحيانا من بين زخارف الأبراج على

المقاتلين فى الطابق الأسفل مشجعا إياهم . ولم تعد كافة وسائل التحصينات ذات قيمة ، فداخل القلاع أصبحت مليئة بجثث القتلى وقد قتل المدافعون وهم فى أماكنهم ، ولا يمضى وقت طويل إلا ويصل المصريون إلى أسفل الجدار ، وبقوة الفئوس يقتحمون الأبواب ويقيمون السلالم ، وهكذا تقع فى أيديهم استحكامات الخط الأول .

وعندما تصل الأمور إلى هذا الحد فلا يبقى على المحاصرين إذا أرادوا أن يظلوا على قيد الحياة إلا أن يمتنعوا عن المقاومة ويحسموا الموقف بتقديم هدايا للتغلب على ضراوة المنتصرين . فها هو ذا حاكم أمار Amor يوجه مبخرته نحو رمسيس الثالث وباليد اليسرى يؤدى حركات التعبد والخضوع ، ويقول :

« امنحنا نسمة الحياة لكى نتمكن من أن نعيش من جيل إلى جيل بفضل عظمتك » (٤٥)

ويخرج الرؤساء واحدا تلو الآخر ويزحف بعضهم على مرافقهم وركبهم ، ويأتى آخرون حاملين أوانى ذات مقبضين بها زهور صناعية ودوارق مزينة برسوم بارزة لحيوانات ذات أسنمة مستديرة ، كما يحملون حليا . هذه الأشياء كان يقدرها حق قدرها الملك ورؤساء الكهنة الذين كانوا ، فى نهاية الأمر يضعونها ضمن كنوز المعابد ، وثمة غنائم أخرى كان يهتم بها جميع الجنود مثل الحبوب والنبيذ والذبائح والأسلحة على أن الجند كانوا يأكلون ويشربون كل يوم على غرار أفراد الطبقة الموسرة من المصريين فى أيام الاحتفالات . وكانت المدن السورية غنية بالخيول وكان خيرة المقاتلين يركبون العربات . وفى مدينة مجدو وحدها غنم تحتمس العربات المكسوة بالذهب التى كان يمتلكها طغام قادش ومجدو كما غنم ٨٩٢ عربة من جنودها اللئام .

والحق أن هؤلاء الأمراء كانوا قد كونوا حلفا حقيقا ضد مصر ، وقد انضم إليهم حلفاء من أهالى أرض الفرات . وهؤلاء الأمراء الذين جاءوا من بعيد ، قد طردهم تحتمس وهم يركبون حميرا ووجوههم تجاه ذيول الدواب . وكان هذا الانتصار قد أثلج قلب فرعون وأدخل البهجة على نفسه .

أما منحدرات لبنان فكانت مكسوة بالغابات ومنذ عهد الآلهة ، كان المصريون يأتون إلى جبيل . لأخذ الأخشاب اللازمة لصنع المراكب المقدسة وصوارى الأعلام التى كانت تقام أمام صروح المعابد ولعمل أشياء أخرى كثيرة دينية ودنيوية وخشب الصنوبر المسمى أش Ach كان أكثر أنواع الخشب تقديرا ، لأنه مدبب أكثر من سنابل القمح ومستقيم كالرمح وكذلك خشب الأرز الأحمر المسمى مر Mer وخشب الخروب المسمى سسنجم Ses nedjem وخشب يسمى أوان Ouan نوعه غير محقق وربما كان هو القزعر . ولما كان المصريون سادة سوريا فقد أخذوا يتوسعون فى استغلال الغابات . وفى عهد تحتمس الثالث انتشر الجنود فى الجبال وأخذوا يقطعون الأشجار ، وكان الرؤساء السوريون يسحبونها حتى قرب الشاطىء بواسطة الثيران . وكان أمراء لبنان يستقلون هذه المراكب التى كانت تبنى بكثرة خصيصاً لهذا الغرض مع أفضل خيرات الأرض المقدسة(٤٠) .

وفى عهد الأسرة التاسعة عشرة من التاريخ المصرى ، لم تعد سوريا مستعمرة للاستغلال ، فإن الحيثيين كانوا ينازعونهم فيها ، وكان السوريون أنفسهم قد أخذوا يدافعون عن أنفسهم خيرا من الماضى . ومع ذلك فإن كميات وفيرة من المنتجـــات والبضائع كانت تأخذ طريقها سنويا إلى مصر .

وكان سيتى يعرف كيف يضطر الأمراء اللبنانيين إلى أن يقطعوا له خشب الأرز .(٤٧)

٨ — الحرب فى بلاد النوبة

عندما تثار الحرب ضد البلاد الجنوبية ، تتخذ الحرب مجرد صفة نزهة حربية . إذ يكتفى المصريون بمحاصرة دورهم . أما النوبيون فإنهم يرتدون جلد الفهد ويتسلحون بالدروع والحراب الطويلة ، أما النساء فيحملن الأطفال الصغار فى قفف فوق ظهورهن ويجمعن الأولاد عاديات ليختفوا بين أشجار النخيل .

والحرب بين الطرفين غير متكافئة وتنتهى دون شك فى صالح المصريين الذين يستعدون لحمل أوفر الغنائم ، إذ أن أهل الجنوب صناع مهرة لاسيما فى صناعة الأثاث الفاخر المطعم بالذهب والأبنوس والعاج . ولديهم فى أكواخهم كميات وفيرة من ريش النعام وسن الفيل وجلود الفهد والقرون والعطور (٤٨)

٩ — عودة النصر

أظهر فرعون قوته حتى أقصى أطراف الأرض ، وكل ماتغمره الشمس بأشعتها من أراض شاهد على انتصاراته الحربية

لقد أقام حدوده حينما أراد هكذا شاء أبوه آمون رع وشاء كل تاسوع الآلهة . ولم يبق إلا أن يعود إلى بلاده المحبوبة توميرى ليسمع هتاف الشعب وابتهالات رجال الدين الذين كانوا استعداد على الماء صحف سطلاتهم

بالأسماء والأرقام وتخصص أهم أجزاء الغنيمة للآلهة ومكافأة الشجعان ومعاقبة المتمردين ليكونوا عبرة لغيرهم في الأرض كلها .

ويعود الجيش تقريبا بنفس نظام التشكيلات التي قام بها . ويتقدم الأسرى من أصحاب الرتب الكبيرة ، عربة الملك وأيديهم مغلولة في سلاسل حديدية تكون أحيانا على هيئة فهد . وفي رقابهم حبال ، وقد ربطت أيدي غالبيتهم خلف ظهورهم أو فوق رؤسهم(٤٩) وتبدأ الاحتفالات بمجرد أن تطأ الأقدام أرض مصر ، فيتكتل الكهنة أمام جسر سيلا حاملين باقات من الزهور .(٥٠) وينكل ببعض كبار الأسرى حتى الموت في احتفال كبير . فأمنحتب الثاني الذي يشبه درنل قد قتل ثمانية فوق مقدمة مركبه وشنق ستة في طيبه أمام صرح المعبد ، والاثنان الآخران شنقا في نباتا ، « لإظهار انتصارات جلالته دائما وإلى الأبد في الأراضي كلها وفي جميع جبال بلاد الزنوج » (٥٠) ويقوم المنهزمون حتى آخر لحظة بتقديم فروض الطاعة والخضوع فيرفع الليبيون أصابع السبابة ويرفع الآخرون راحة اليد تجاه جلاديهم . وبعد انتصار رمسيس الثالث كتب ملك ليبيا العجوز كابورو إلى فرعون ملتمسا العفو عن ابنه الذي وقع أسيرا بين أيدي المصريين وهو على قيد الحياة ، طالبا من فرعون أن يعذب هو بدلا من ابنه .(٥٢) ولكن هذا الالتماس لم يلق أذنا صاغية فقد كان الليبيون على جانب كبير من الخطورة ، حتى أن قلب فرعون لم يشأ أن يتفتح للصفح . لقد قال رمسيس الثالث في وصيته السياسية :

« عندما احتلوا مصر استولوا على المدن الواقعة على الحدود الغربية من حات كابتاح Hatkaptah إلى قربان Qarban ، ووصلوا إلى شاطىء النهر الكبير واستولوا على بلاد المقاطعة وعلى الثيران خلال سنوات عديدة .

كانوا يحتلون مصر ولكنى هدمتهم وقتلتهم دفعة واحدة، وأجبرتهم على أن يعبروا الحدود المصرية ، أخذت الباقين غنيمة ـ وسقتهم بسيفى ، فكانوا كالدواجن أمام خيولى ، وكان نساؤهم وأطفالهم يحصون بعشرات الألوف عد ودوابهم بالملايين وقد جمعت أمراءهم وعهدت بهم إلى قواد حملة الأقواس وإلى شيوخ القبائل ، وقد ختمتهم بخاتم يحمل اسمى فأصبحوا عبيداً لى » . (٥٣)

وعندما ينفذ حكم الإعدام فى الأسرى الذين تقرر مصيرهم يقام حفل آخر فى المعبد ، يتقرر فيه مصير بقية الأسرى فى نفس الوقت الذى تقدم فيه الغنائم للآلهة . لقد عرضت أمام تمثال الآلهة، الكنوز التى أحضرت من بلاد الحيثيين الذليلة . وهى الدوارق والقنانى والأكواب والكؤوس الذهبية والفضية المرصعة بالأحجار الكريمة التى تماثل الأوانى التى قدمها السوريون المحاصرون إلى المنتصرين عند ما سلموا بلدهم أو مثل تلك التى أحضرها فى وقت السلام مبعوثو الرتنو وآمار ونهرينا سداداً لقيمة اشتراكهم فى الحرب أو ليكونوا حلفاء للملك . ويصل الملك بدوره ويشد الأسرى المغلولة أيديهم وقد ربطت الحبال فى رقابهم ، هؤلاء هم الزنوج والليبيون والسوريون ، والعامو والعموريون والحيثيون .

ويعترف الأسرى بهزيمتهم . وفرعون مثل المصير المتقد الذى يلتهم كل شىء إذا ما أقفر المكان من المياه ، إنه قدير على أن يخمد أى ثورة وعلى إسكات أى فم تخرج منه كلمة كافرة . وأن يحرم الإنسان نسمات الحياة ويعترف فرعون أن أباه آمون هو الذى منحه الانتصار على الشعوب المعادية، ولذلك فهو يرد إلى الآلهة ما سبق أن منحته إياه ، مقدما هدية لمعابدها هى بعض الأسرى والكنوز النفيسة. (٥٤)

الفصل العاشر

الكتبة والقضاة

١ — الوزارة

نعمت مصر منذ أقدم عصورها التاريخية بادارة حازمة متنورة فمنذ بدء الأسرة الأولى كان موظفو القصر يطبعون أسماءهم وألقابهم على سدادات الأوانى الفخارية بوساطة اسطوانة . فكل الأشخاص الذين نعرفهم عن طريق تماثيلهم أو لوحاتهم أو مقابرهم ، كان لكل منهم لقب واحد على الأقل وكان لبعضهم عشرات الألقاب . . وفى عهد الدولة القديمة كانت الألقاب وأسماء الوظائف من الكثرة بحيث تكفى لملء مجلد كبير . وقد وصلنا كتاب يشمل ترتيب وظائف الحكم فى عهد رعامسه . (١)

وقد ورد على رأس القائمة أسماء الآلهة والآلهات تليها الأرواح ، والملك الحاكم ، فالزوجة الملكية ، فوالدة الملك ثم أبناء الملك . ثم الحكام وعلى رأسهم الوزير وكل من أسعدهم الحظ فى أن يعيشوا قريبا من الشمس (الملك) وهم الحكام الذين كانوا يلقبون أبناء الملك ، وكبار رؤساء الفرق ، والكتاب الملحقون بالمكتبة الملكية ثم رجال التشريفة والبشير ، وحامل المظلة وحامل المروحة وكتاب القصر وكبار موظفى البيت الأبيض وكبير كتاب ملفات المحكمة العليا وكتاب الأموال المقررة.

ثم تشمل قائمة ثانية ممثلى فرعون فى الخارج ، فى الأقاليم وفى المدن والمبعوثين الملكيين فى كل البلاد وحاملى أختام الملك فى الموانى البحرية والنهرية .

وكانت كل وظيفة معينة تشغلها فرقة حقيقية من الموظفين ، فقد كا لكل موظف كبير عدد غفير من المساعدين يعينونه على أداء وظيفته. وكا حكام الأقاليم يحاولون جاهدين أن يعيشوا كما يعيش فرعون، فيقيموا مناز في عواصم الأقاليم على طراز قصر فرعون فى عاصمة ملكه .

والإله مثل آمون كان يمتلك ثروات طائلة فأنشأ لإدارة هذه الثروات هيئة مثقفة ورتبها ترتيبا منظما واعيا . (٢)

وكان بجانب الكاهن الأول رئيس الخدم ورئيس الدار وحاجب وحارس الغرفة وكتاب ورئيس البحارة والخدم . أما الكاهن الثانى فكان له أيضا موظفون وسكرتيرون ملحقون بخدمته . أما الكاهن الرابع فيعد نفسه أتعسهم حظا إن لم تكن تصحبه حاشية قليلة العدد من الرجال كلما خرج . وعلينا الآن أن نحصى هذا العدد الكبير من المديرين والرؤساء .والكتاب الذين يتقاسمون جميع الأعمال والتحسينات التى تقرها هيئة كبار رجال الدين . وكانت أهم هذه الوظائف هى وظائف مديرى وكتاب الخزانة ورئيس هيئة بيت المال وكاتب الخاتم المقدس لبيت آمون .

ومعبود أقل شهرة عالمية من آمون ، ولكن له أهميته القصوى وهو المعبود مين سيد إيبو وقفط ، وكان يمتلك بجانب العدد الوفير من رجال الدين ، موظفين إداريين كثيرى العدد من كتاب ورؤساء الأعمال ، ومشرفين على قطعان الماشية وآخرين يشرفون على أصونة الثياب والنقل وأمناء المخازن ، كما كان هناك أيضاً محاسبون(٣).

وكانت الإدارة المصرية ، على شاكلة كل البلاد ، تميل إلى التوسع لا إلى الانكماش . وقد أغنى رمسيس الثالث الآلهة منذ أول سنة من حكمه

الذى استمر إحدى وثلاثين سنة . وكلما امتدت أملاك الآلهة ازداد تبعاً لذلك عدد الوظائف . فكان فى حاجة دائمة إلى عدد من الكتاب لجمع الضرائب وفرضها ونقلها . وترتيب نظام العبيد ، وصيانة القنوات ووقاية الطرق والأرصفة والمخازن كى تكون دائماً فى حالة صالحة .

٢ — تعيين الموظفين وتدريبهم

أسس پا رمسيس الأسرة التاسعة عشرة وظل فى الحكم مدة طويلة تولى خلالها عدة وظائف ووصل إلى أهم المناصب المدنية وحمل الألقاب الدينية وتولى القيادات الحربية فى الإقليم الشرقى للدلتا .

ولما استدعاه الملك حرمحب إلى طيبه لإدارة أعمال معبد أوپت Opet منح ابنه سيتى الذى كان قد بلغ أشده معظم ألقابه ووظائفه (٤) وكان صغار الموظفين يقلدون الكبار ، فإن نفرپريت Neferperit الذى كان أحد رجال الحرس الملكى ، عندما كان فرعون فى جبال رتنو أرسل إلى مصر أربع بقرات من السلالة الفينيقية وبقرتين من السلالة المصرية وثوراً للقصر العتيق (قصر ملايين السنين .) وقد استطاع أن يحصل لأخيه على وظيفة حارس لهذا القطيع الصغير ولابنه على وظيفة حامل أوانى اللبن ، ولم تكن هذه الوظائف مضمونة لشاغليها مدة حياتهم فقط ، ولكنها كانت تبقى وقفاً على أسرهم يرثها الابن عن أبيه وتؤول من وريث إلى آخر .(٥) وما كان لأحد أن يعترض على ذلك . وكم كان الآباء فى العائلة يتمنون الحصول على مثل هذه الوظائف لأبنائهم .

ونجد من بين النصوص التى يقرأها زوار المقابر النص التالى : « إذا أردتم أن توصوا بوظائفكم لأولادكم فعليكم أن تقولوا .... ومن

كان يسيء السلوك فى إحدى المقابر ، كان عرضة لتهديد خطير . . فلن يصبح له وجود ولن يشغل ابنه مكانه .

وقد نص القانون على أن الموظف العاصى يحرم من وظيفته وتوقع عليه عقوبة شديدة كما يحل العقاب بأولاده الذين تسند إليهم أعمال يدوية شاقة وينزلون إلى مراتب العبيد.(٦)

ولا نستطيع أن نستنتج من هذه النصوص أن الوظائف ذات المسئوليات الخطيرة التى تتطلب كفايات كبرى كانت تسند تلقائيا إلى ابن شاغلها بمجرد وفاته . فالواقع أن أولاد الموظفين كانوا يبدأون وظائفهم الادارية بمجرد تخرجهم فى المدارس ، وكانت ترقياتهم تبعا لقدراتهم ومواهبهم وتفانيهم فى العمل ووفقا لقوة نفوذ من يناصرهم .

وكانت المدرسة ، عادة ، جزءا من المعبد . كان باكن خنسو Baken Khonsou الذى أصبح فيما بعد كبير كهنة آمون ، قد درس مدة اثنتى عشرة سنة فى مدرسة الخطوط الملحقة بمعبد سيدة السماء . (٧) وقد وجدت قطع من الشقف المخطوط Ostraca وأوراق البردى ، عليها تمرينات مدرسية ، داخل أسوار معابد الرمسيوم وتانيس ودير المدينة وفى بعض المعابد الأخرى .

كانت تبدأ الدراسة فى سنين مبكرة ، فلم يكن باكن خنسو قد تجاوز الخامسة من عمره عندما ألحق بالمدرسة ، ولكن والده ، ذلك الكاهن المرموق ، الطموح الغيور على أن ينال ابنه مستقبلا عظيما ، كان يدفعه دائما إلى الأمام حتى بلغ مالم يبلغه أى طفل عادى .

ومع ذلك ، فالمسلم به أن اليوم الذى يمتنع فيه الأطفال عن السير عراة الأبدان ، ويضعون أردية حول خصورهم للمرة الأولى ، لم يكن بعيدا عن اليوم الذى يلتحقون فيه بالمدرسة .

وقد علمنا أن الشاب الذى سيعد ليكون ضابطا ، كان يؤخذ من أسرته فى سن مبكرة وكان نظام المدارس فى الغالب أن يكون التلميذ خارجيا، وكان يحمل التلميذ الصغير قفة صغيرة تحتوى على قطعة من الخبز وجرة من البيرة تعدها له والدته كل صباح. (٨) وفى أثناء سيره من البيت إلى المدرسة أو حين عودته منها كان لديه متسع من الوقت لأن يتشاجر ويتضارب مع زملائه الصغار . وقد نشرت حديثا قصة مصرية تبين لنا ولدا كان موهوبا جدا حتى أنه كان يتفوق على أقرانه ممن يكبرونه سنا . فاكتشف هؤلاء ذات يوم أن فى حياة هذا الغلام نقطة ضعف ، فسألوه مرة : « ابن من أنت؟ أليس لك أب ؟». ولما لم يحر جوابا لم يكفوا عن اضطهاده والسخرية منه وضربه . وهم يرددون : « ابن من أنت ؟ ليس لك أب ! »

كان الطفل يبدأ بتعلم القراءة والكتابة وكان ورق البردى مادة نفيسة جدا حتى أنه لم يكن يوزع على التلاميذ، إذ كانت تعطى لهم لوحات من الحجر الجيرى المصقول ذى السطح الناعم ، وقد رسمت عليها خطوط أو مربعات، ليؤدوا عليها تمريناتهم . وفى طيبه كانوا يكتفون (باعطاء التلاميذ) بقطع الأحجار ، نحتت دون عناية . كانت هذه كراسات واجباتهم . وكانوا يتمرنون على أن يخططوا عليها رموزا منفردة أو يكتبون الهيروغليفية أو الكتابة العادية أو الرسوم الصغيرة أو نسخ نصوص موجزة يزداد مقدارها شيئا فشيئا . وكانت هذه اللوحات الحجرية هى أيضا كراسات لحفظ دروسهم ، لأن بعضها قد كتبت عليه تواريخ . ولو وجد من هذه اللوحات عدد كاف أو كامل ، لاستطعنا أن نستنتج عدد الأيام التى تلزم التلميذ ليدرس أو ليحفظ عن ظهر قلب قطعة كلاسيكية مثل نشيد النيل أو وصايا أمنمحات. (١٠) وبعد أن يكون قد أتلف عددا ليس باليسير من هذه المواد الرخيصة يصرح للتلميذ الناجح بأن ينسخ على الورق البردى

الجيل السليم ، ليس مجرد نص فحسب بل مؤلفا كاملا فيجلس القرفصاء وينشر أمامه جزءاً من ملف ورق البردى الذى لم يستعمل بعد ، يبلغ عرضه عرض صفحة من النموذج الذى سينقل عنه . وقد أحضر المداد الأحمر والمداد الأسود واختار بين مجموعة الأقلام مايصلح لهذا العمل ويبدأ عمله فينسخ قصة أو مجموعة من القصائد الشعرية أو من الحكم الأخلاقية أو نماذج مراسلات . وتكتب بالمداد الأحمر العناوين وبداية الفصول ، وأما النص الأصلى فيكتب بالمداد الأسود . وكان الكاتب عادة ، رساما ومصورا فى آن واحد . وكان يستعمل للزخرفة أنواعا من المداد المختلفة الألوان منها الأخضر والأزرق والأصفر والأبيض .

ولم تكن التربية مقصورة على مجرد دراسة قواعد اللغة والخط ومعرفة النصوص الكلاسيكية والتاريخ المقدس وقليل من الرسم ، لأن الموظفين المصريين كانوا يؤدون أعمالا متنوعة للغاية ويتنقلون من عمل إلى آخر فى سهولة مذهلة . فقد كان أونى Ouni فى بادىء الأمر من رجال الشرطة ثم أصبح قاضيا ، ثم توجه إلى مكان ناء للبحث عن أحجار كما قام ببناء سفن وطهر القنوات . ولما نشبت الحرب ، شغل وظيفة رئيس أركان الحرب ، وعلى هذا فقد كان ينبغى للطلبة أن يكونوا على علم بالقوانين واللوائح والتاريخ والجغرافيا والفنون الرئيسية . فهل كانت هناك وقتذاك مسابقات وشهادات ؟ إننا نميل إلى الاعتقاد فى ذلك حينما نرى الأسئلة التى كان يوجهها الكاتب هورى Hori إلى أحد زملائه ، وقد كان يقصد بذلك إحراجه : « مامقدار المؤنة اللازمة لفرقة محاربة ؟ .. ماعدد الأحجار اللازمة لبناء سور معروفة أبعاده ؟ وكم عدد الرجال اللازمين لنقل مسلة ؟ وكيف يقام تمثال ضخم ؟ ثم كيف تنظم حملة حربية ؟

وفى النهاية ألقى عليه عدة أسئلة تتعلق بجغرافية سوريا . . كل هذا يحتاج دون ريب إلى برنامج دراسى واف . (١١)

على أن درجة الأقبال على العمل كانت تختلف لدى هؤلاء الشبان من كتبة المستقبل ، وكثيرا ما كان أساتذتهم يتألمون لشدة كسل تلاميذهم ، فكان الكاتب أمن موزى Amenmosi يهيب بهم ، قائلا : « اكتب بيدك وناقش من هم أعلم منك . . فالإنسان يصبح قويا إذا تمرن كل يوم . . وإذا أهملت يوما واحدا . . فستضرب . فأذن الشاب فوق ظهره . لا يستجيب إلا لمن يضربه اجعل قلبك يصغ إلى أقوالى . إن هذا سوف يفيدك . إن القردة تدرب على الرقص ، كما تدرب الخيول . . إن الحدأة تنزع من عشها ، ويدرب الصقر على الطيران . . فلا تنس أن المناقشة تدفع دائما إلى التقدم ، لا تهمل الكتابة . اجعل قلبك ينصت إلى احاديثى فستجدها نافعة لك . » (١٢)

هذا العالم التربوى كان يعتقد أو كان يتظاهر أنه يعتقد أن الدراسة ليس لها من عدو فى قلب الشاب سوى الكسل والعناد . ولكن ما دام من المستطاع كبح جماح الحيوان وتدريبها ، فقد كان يأمل فى الوصول إلى تقويم التلميذ الطائش وهدايته إلى الطريق القويم المؤدى إلى النجاح وإلى أعلى المراتب بحثه على الطموح ونهج الطريق السوى مع تذكيره بكرامته ومراعاة الإتزان ، وإلا فيمكن تقويمه بتوقيع عقاب صارم عليه .

واأسفاه ! لقد كان الشبان المصريون يتصفون بخصال وخيمة العواقب ، إذ قال أستاذ آخر يتصف بالتذمر مثل أمن موزى ولكنه أكثر منه تجربة واطلاعا : قيل لى إنك تهمل الكتابة وأنك تمارس الرقص وتنتقل من حانة إلى أخرى وأن رائحة الجعة تفوح منك فى كل خطواتك . إنك تشبه المعبد الخالى من معبوده أو البيت الذى انعدم فيه الخبز . وقد راوك تصطدم

بالجدران فيفر الناس من أمامك. هل تستطيع أن تؤمن بأن الخمر رذيلة شنيعة؟ آه لو أمكنك أن تنسى الكئوس ! ولكنك تجهل مقدار عظمتك ؟ » (١٣)

وكان هناك ما هو أشنع وأسوأ من ذلك ، فقد كان من اليسير على الرجل فى مصر أن يستقبل فى بيته عشيقات أو يشترى إماء أو يستأجرهن، وكان هذا كله يمنع إلى حد ما انتشار بيوت الدعارة . ومع ذلك فقد كانت تلك البيوت موجودة وكان روادها يسرفون فى شرب الخمر إلى حد فقدان الوعى ويجدون فى تلك البيوت الراقصات والمغنيات والموسيقيات المحترفات، وكن فى الغالب من النسوة السهل منالهن ولو كن من مغنيات آمون . وفى هذه الأماكن كان من المستطاع الاستمتاع بالأنغام السحرية الموسيقى الأجنبية . وكان الغناء والأناشيد مصحوبة بدق الطبول ونغمات القيثار . وكان يمكن الاستمتاع فيها بملذات أخرى حتى يحين الوقت ليجد الإنسان نفسه فى الطريق فى حالة يرثى لها وبعد محاولات فاشلة يبذلها ليسير دون ترنح ، نراه يتمرغ فى القاذورات أو يشتبك فى مشاجرة حقيرة .(١٤) .

٣ — الحكام الصالحون والطالحون

كان الشعب والعمال والفلاحون يهابون رجال القانون ولو كانوا فى أدنى المراتب . كانت زيارتهم فى أغلب الأحيان نذير عقوبة قانونية بالعصا أو مصادرة للثروات الضئيلة . ومما لاريب فيه أن الحكام كانوا يوصون ممثلى السلطة بالعدل والإنصاف فى أداء مهمتهم قائلين : « لا تغبن أحداً عند جباية الضرائب — ولكن لا تكن شديد القسوة إذا وجدت فى القائمة مبلغاً جسيماً متأخراً على شخص فقير فقسمه إلى ثلاثة أجزاء ، وتترك منه جزأين حتى لا يتبقى عليه إلا جزء واحد ».(١٥)

وقد ذكر بعض الموظفين على لوحة فى مقبرتهم ، أو على تمثال شيد فى المعبد فى كنف معبودهم ، أنهم كانوا يعملون وفقاً لمثل هـــذه المبادىء الحكيمة . قال الوزير بتاح موزى Ptahmosé : « لقد عملت مايستحق ثناء الناس ويستوجب رضا الآلهة ، لقد أعطيت خبزاً الجائع وأشبعت من لا يملك شيئاً » (١٦) وقال وزير آخر ، رخمارع ، بأنه قام بإدارة الأملاك الملكية بكل عناية . وأنه ملأ المعابد بالتماثيل وشيد لنفسه مقبرة فخمة ولكنه كان يحمى الضعيف ضدالقوى ويدافع عن الأرملة التى لاأقارب لها. وعين الأولاد فى مراكز آبائهم . (١٧) وإذا كنا نعتقد فى صحة ماقاله باكن خنسو ، كبير كهنة آمون فإن مرؤوسيه لم يــكن لديهم ما يشكون منه من رئيسهم المذكور إذ قال : « لقد كنت أبا لمرؤوسى ، أعلم أولادهم الشبان وأمد يدى للبائسين وأضمن العيش للمعوزين . لم أعامل الخدم بقسوة ولكنى كنت أبا لهم . . كفلت الطقوس الجنائزية لمن لاوريث له ، وجهزت تابوتاً لمن لم يكن يملك شيئاً . وضمت اليتيم الذى التجأ إلى تحت حمايتى وحرصت بنفسى على مصالح الأرملة . لم أطرد ولداً من مركز كان يشغله أبوه . . ولم انتزع الطفل من بين ذراعى أمه . . لقد أصغيت تماماً لأولئك الذين يقولون الحقيقة وباعدت بينى وبين الآثمين . » (١٨)

وكذلك نرى الكاتب الملكى السابق ورئيس مخازن الغلال خام حات Khāemhat قد توجه إلى المقبرة بعد أن برأه البشر من التهم التى كانت موجهة إليه ، على أنه لم تكن قد وجهت إليه اية تهمة . . وعندما وصل إلى قاعة العدالة الكبرى وجدت الآلهة المقيمة فيها أعماله راجحة الكفة وفقاً للميزان . وقد برأه المعبود تحوت أمام محكمة جميع الآلهة والآلهات.(١٩)

هذه الأقوال تدعو إلى تقوية العزائم . . ومع كل فإن أحد الملوك

وكان قد بلغ من الكبر عتيا وعلى علم تام بطباع الناس قد حذر ابنه من القضاة حين قال له : «إنك تعلم انهم غير رحماء عندما يحاكمون الفقير . . .» وحرمحب Horonemheb المحارب المحنك الذى تولى الحكم بالنيابة فى الفترة بين اعتلاء ذرية أخناتون ورمسيس الأول للحكم كان بصيرا بحقيقة أخلاق رجال عصره فقد كان يعلم أنه خلال سنى الاضطرابات التى تلت الثورة الدينية ، أن الكتاب ومحصلى الضرائب وكل من حاز سلطة ولو ضئيلة كانوا يضغطون على صغار الممولين بصورة شنيعة ، عاملين على سرقة فرعون والشعب فى آن واحد . وعندما يلجأون إلى العدالة كان أولئك الذين ينبغى لهم حماية الممول ، يتسلمون النقود (الرشوة) لتبرئة الجانى ويحكمون على البرىء الفقير الذى لايستطيع شراء ذممهم . ولذلك فإن حرمحب ، الذى كان ينتهز الفرصة ليسحق الظلم ويقضى على الفساد قد سن مرسوما ضد المفسدين .. فكل قاض يثبت عليه بأنه أساء استعمال سلطته كان يحكم عليه بجدع أنفه وينفى فى شبه معتقل يقع فى سيلا فى برزخ السويس . (٣٠)

وتناول مرسوم من مآتدرع Menmatre * الذى طبع منذ سنوات قليلة تحذيرات وجهت بلهجة شديدة إلى الوزراء وكبار الموظفين والقضاة وحاكم كوش وإلى قواد حملة السهام وإلى حراس الذهب ، وإلى الأمراء ورؤساء القبائل فى الجنوب وفى الشمال وإلى الفرسان ورؤساء الاسطبلات وحملة المظلات وإلى جميع رجال حرس القصر الملكى وجميع المبعوثين . وكان المقصود من هذا كله حماية معبد ملايين السنين الذى كان الملك قد شيده فى أبيدوس وخصص له فى سخاء الأملاك والخدم والمواشى لمنع هؤلاء الموظفين من سوء استغلالها . وكان الملك على حق إذ كان يخشى أن يجبر على السخرة الرعاة وصيادو الأسماك والمزارعون والصناع أو أن تستغل المستنقعات فى صيد الأسماك أو الأراضى المخصصة لصيد الحيوان أو أن

---

* الملك سيتى الأول

تصادر السفن وبصفة خاصة السفن القادمة من بلاد النوبه المحملة بمحاصيل المناطق الجنوبية. كما قرر أن كل موظف يضع يده على ممتلكات المعبد يعاقب بضربه مائة ضربة بالهراوة على الأقل وأن يرد ما سرقه وعليه أن يدفع مايعادل قيمته مائة مرة على سبيل التعويض . وقد تصل العقوبة فى بعض الحالات إلى مائتى ضربة وخمسة كسور فى عظامه ، وقد تصل فى بعض الحالات القصوى إلى جدع الأنف وقطع الأذنين وحجز الجانى ويصبح عاملا زراعيا بين خدم المعبد . (٢١)

ومما يثير الدهشة أن نرى الملك يعامل موظفيه الإداريين بمثل هذه القسوة لصالح طبقة من ذوى الامتيازات كانت تكون دولة داخل الدولة . ومع ذلك فالحقيقة أن نفوس الموظفين لم تكن تنطوى دائما على الاحترام المطلق للامتيازات التى يتمتع بها رجال الدين .(٢٢)

على أننا ، مع ذلك ، نتساءل عما إذا كانت هذه العقوبات الصارمة تطبق بنفس العدالة إذا ماوقع ظلم على عامل أجير أو مزارع ... إن قصة فلاح واحة الملح ، بالرغم مما يعتورها من نقص كبير ، تبرهن ، على الأقل ، أن الملك كان يرغب رغبة صادقة فى أن تسود العدالة حكمه .

٤ — المحافظة على النظام

وقعت فى زمن الملوك الأخيرين من عهد الرعامسه أحداث فى طيبه لا يمكن تصديقها ، كما وقعت دون ريب فى سائر أنحاء القطر المصرى .

إن السرقات وإساءة استعمال السلطة والجرائم كانت منتشرة فى كافة العصور حتى فى عهد أقوى الملوك . ولكن لم يسبق لنا مشاهدة عصابات منظمة تنهب المعابد والمقابر التى كانت تحوى ثروات ضخمة ولم يكن لها من

حارس سوى سماحة الأهالى . فمنذ عهد الدولة القديمة كان من عادة المصريين أن ينحتوا أو ينقشوا فى أمكنة مختارة وبحروف كبيرة الحجم انذارات تحظر من يسىء التصرف فى المعبد كأن يتلف أو يسرق التماثيل أو الرسوم الملونة أو المنقوشة أو النصوص المكتوبة أو أى شىء من الأثاث الجنائزى بأن عمله السىء لن يظل دون عقاب : « كل من قام بأى عمل ضد ما هو موجود بهذا المكان فليهاجمه التمساح فى الماء والثعبان فى الأرض ولن نعمل له أبدا احتفالات جنائزية والإله هو الذى سيتولى ادانته ». (٢٣) وبعد ذلك بزمن كبير أمر أحد حكام أسيوط بنحت انذار يتمشى مع عقلية الجيل الذى عاش فيه يحوى تهديدات كثيرة لما كان يشعر به من خوف من عدم احترام مقبرته ، إذ كان هو نفسه قد نهب مقبرة قديمة ، فقال : « كل الرجال وكل الكتبة وكل العلماء وكل أفراد الطبقة الوسطى وأفراد الطبقة العامة الذين يثيرون ضوضاء داخل هذه المقبرة أو يتلفون الكتابات المنقوشة عليها أو يحطمون تماثيلها سوف يتعرضون لغضب تحوت ، أسرع الآلهة انتقاما . وتسلط عليهم سكين جلادى الملك المستقرين فى القصور الكبرى . ولن تقبل آلهتهم قرابينهم من الخبز . » وبعكس ذلك « فإن البركات العميمة سوف تمنح للزائر المحتشم الذى يقدس هذا المكان وسوف يعمر طويلا فى بلده ويكون موضع الاحترام فى مقاطعته . » (٢٤)

ولم يفقد المصريون الثقة فى صحة هذه التعليمات المنطوية على التهديد فى عهد الامبراطورية الحديثة ، فالملك « من مآت رع » عندما وجد ماء فى الصحراء بجوار مناجم الذهب شيد معبدا صغيرا وهبه لآمون رع ولمعبودات أخرى لا ليشكرها فحسب ولكن لكى تضع تحت حمايتها أولئك

الذين يذهبون لغسل الذهب ليسلموه بعد ذلك إلى الخزائن الملكية . لأن الآلهة آمون وحر أختى وتاتنن سيمنحون ملوك المستقبل الذين يحترمون وينفذون رغبات « من مآت رع » بأن يحكموا البلاد بنفس مطمئنة وأن ينتصروا على الأقطار الأجنبية وعلى أرض القوس أما الملك الذى (لاينفذ هذه الرغبات) فإنه سوف يحاسب عن ذلك فى مدينة أون أمام محكمة لا ندرى ماذا تكون . والأمير الذى ينصح سيده بأن يسحب عمال المناجم عن عملهم ليشغلهم فى عمل آخر « فإن النار سوف تحرق جسده وتحطم الساطعة أعضاءه . وأخيراً فكل رجل يصم آذانه حتى لايسمع هذا الأمر سيطارده أوزيريس وتطارد ايزيس زوجته ويطارد هورس أولاده ، مع أمراء تاجوسر الذين يؤدون مهمتهم ،[٢٥] وضع حريحور Heri-hor كبير كهنة آمون تمثاله فى المعبد ليستقر بجوار المعبود ولكى يحييه عندما يخرج فى الموكب . والويل لمن ينقله من مكانه ولو مضت سنوات عديدة .. « إنه يصبح هدفا لغضب آمون وموت وخنسو . ويمحى اسمه من جميع أنحاء القطر المصرى وسيموت جوعا وعطشا » [٢٦] وأصدر امنحتب الثالث مرسوما لتنظيم مقر كا « الروح » وصفيه امنحتب ابن حابو Hapou . ووضع هذا المبنى تحت رعاية آمون رع سونتير طالما بقى المبنى على الأرض . والذين ينالونه بأى تلف فإنهم يتعرضون لغضب آمون : « أنه سيسلمهم لنيران الملك فى يوم غضبه ويقذف الثعبان اللهب على جباههم ، ويفتك بلحمهم ويلتهم أجسادهم ، ويصبحون مثل أبوبى Apopi فى صبيحة يوم رأس السنة ولن يستطيعوا ازدراد قرابين الموتى ولن يصب عليهم ماء النهر . ولن يخلفهم ابناؤهم فى مراكزهم . ويهتك عرض نسائهم أمام أعينهم . . . ويكونون هدفا لسكين يوم المذابح . وتبلى أجسادهم إذ يقاسون الجوع ولن ينالوا طعاما . »[٢٧]

كل شىء مرتبط بالآخر فى أى بلد فمخافة الآلهة والرعب من العقاب

فى الأخرة كانا كافيين لصيانة المعابد والمقابر طالما كان رجال الأمن أمناء يقظين ، يقومون بأداء الحراسة فى ضرب طيبه . إلى أن جاء يوم أنسى فيه الشرطة أداء واجبهم ، ففقدت التحذيرات المرعبة المنقوشة على جدران المقابر كل قيمتها وأول أعمال السلب والنهب حدثت على ما نعلم فى السنة الرابعة عشرة من حكم رمسيس التاسع ولا شك أنه لم يكن العمل الأول ، فمنذ سنوات طويلة كانت تنهب المقابر ، دون أن يعلم شيئا عنها الأمير خر Kher وهو سيد الجبانة والذى يرأس رجال الشرطة الميجاوو وفرقة الحراس العديدين ولم يبد أحدهم أدنى اهتمام لوضع حد لهذا الأجراء الآثم : والذى قام بابلاغ هذه الفضيحة فى تقريره إلى الوزير وإلى لجنة كبار الموظفين هو باسر Paser حاكم المدينة ، بالرغم من أن هذا الأمر لم يكن يخصه وكان هذا التقرير جد خطير ، ومثيرا للذعر . . فاضطر الأمير خر باورع Paourâ - إذ كان هو الذى وجه الاتهام مباشرة إلى إجراء تحقيق بوساطة أعوانه من رجال البوليس . فاختيرت مجموعة من المقابر لجردها فى المنطقة الشمالية من الجبانة وبدىء العمل بمقبرة الملك امنحتب الأول الذى كانت ذكراه عزيزة على أهالى البر الغربى (الشاطىء الأيسر لنهر النيل) وكان الأمير باسر يؤكد فى تقريره بأن هذه المقبرة قد نهبت ولكنه كان قد أخطأ إذ أن مقبرة الملك الصالح (امنحتب الأول) كانت سليمة لم تمس بسوء كما كانت مقبرة أخرى مجاورة لمعبد امنحتب ذاته سليمة أيضا إذ كانت هذه المقبرة معروفة جيداً لدى الجميع لأنها كانت تحوى تمثالا يمثل الملك أنتف Antef وبين قدميه كلبه باحكا Bahka . وقد حاول اللصوص محاولة محكمة لسلب مقبرتين أخريين ولكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى غرفة الدفن وبعكس ذلك كانوا قد نجحوا تماما فى السطو على مقبرة الملك سخمارع شدتاوى Sekhemarê Chedtaoui ابن الشمس سبك أم ساف Sebekemsaf ، فوجدت

القاعة التى كان يرقد فيها هذا الملك مع زوجته الملكة نوب خاس Noubkhas خالية من كل ما كانت تحتوى عليه . ووجدت خمس مقابر ملكية أخرى سليمة ولكن نهبت مقبرتان من تلك المقابر الأربع التى كانت مخصصة لمنشدى بيت عبادة آمون رع سونتير أما الجبانة المجاورة التى كان يرقد فيها المغنون وأهل البلد وأجدادهم فقد كانت فى حالة يرثى لها .

فقد سطا اللصوص على جميع القبور التى بها ونهبوها وكان المجرمون قد انتزعوا المومياءات من توابيتها الخشبية أو الحجرية وتركوها ملقاة على الأرض ، بعد أن نزعوا منها الذهب والفضة وسرقوا جميع الأثاثات الجنائزية . وعندما ألقى القبض على بعض هؤلاء اللصوص وتم استجوابهم ، أرسل الامير « باوورع » Paourâ المحضر الذى سجلت فيه أقوالهم إلى اللجنة التى كلفت بالتحقيق معهم .

وهذه الشخصيات الهامة ما كان يحق لها اطلاقا أن تفخر بما فعلت ، وما كان ينبغى لها إلا أن تفكر فى شيء واحد هو إلقاء القبض على المجرمين وطرد كل أولئك الذين تسببوا فى اقتراف تلك الجريمة الشنيعة وإنزال عقوبة شديدة بهم لإهمالهم أو لاتفاقهم مع المجرمين ولكنهم ، بدلا من أن يتخذوا هذا الإجراء منذ بداية الأمر ، أخذوا يصبون جام غضبهم على « باسر » حاكم المدينة الذى اضطرهم اضطرارا إلى التخلى عن جمودهم ، وأخذ يهددهم أيضا بأن يرفع تقريرا لفرعون نفسه حتى يأمر بالقبض عليهم جميعا . . والتخلص من هذا الشخص الذى سبب لهم الضيق والحرج كلفوا شخصا يدعى باخارو وصناعته عامل فى المعادن ليقابل باسر ويروى له كذبا بأنه اشترك مع عصابة فى سلب المساكن الكبرى (المقابر) .

وطبيعى أن الأمير خر الذى كان يعلم حقيقة الأمر والذى أعد عدته لهذا التلفيق أجرى تحقيقا أثبت فيه عدم صحة التهمة ثم اجتمعت لجنة التحقيق برياسة الوزير واستدعت العامل المذكور وشركاءه المزعومين كما استدعت الشاكى والمتهمين الذين أشار إليهم . ولخص الوزير الموضوع وذكر نتيجة التحقيق قائلا : « لقد عاينا الأماكن ، التى زعم حاكم المدينة بأن عمال قصر «أوزير مارع مياءون Ousirmsrâ Miamoum قد وصلوا إليها أو دخلوا فيها» فوجدناها سليمة . وقد تبين لنا ان كل ماقاله كان غير صحيح » استجوبنا العمال وواجهناهم بباسر واتضح لنا فعلا أن هؤلاء العمال لم يكونوا يعلمون مكان أية مقبرة من المقابر فى ميدان فرعون التى أشير إليها فى تقرير الاتهام الذى قدمه حاكم المدينة . . ولذلك اقتنع باسر بأنه قد اقترف كذبا . أما العمال الذين كانوا ينتمون جميعا إلى آمون رع سونتير كبير الكهنة ، وهو الذى يستحق أن تحوم حوله كل الشبهات ، فقد أخلى سبيلهم وأعيدوا إلى أعمالهم .(٢٨) وبالرغم من الرغبة الملحة من جانب رجال الشرطة فى أن يغضوا الطرف عن أعمال اللصوص ، إلا أنهم لم يجدوا مناصا من إلقاء القبض على بعض هؤلاء الذين سرقوا مقبرة الملك سوبك إم ساف Sobekemsaf وقد أمكننا أن نعرف كيف كان اللصوص يسرقون المقابر وذلك بفضل أوراق التحقيق التى وصلت إلى أيدينا . : لقد اشترك بناء يدعى أمن بانوفر Amenpanofer وكان تابعا للكاهن الكبير آمون رع سونتير امنحتب ، مع سبعة عمال آخرين يعملون فى البناء أو النجارة . وانضم إليهم مزارع آخر ونوتى كان لاغنى عنه لأنه هو الذى كان يعبر نهر النيل ذهابا وإيابا حاملا المسروقات دون أن يلفت أنظار الفضوليين . وكان هؤلاء اللصوص

يعملون قبل ذلك بأربع سنوات، عندما اعتزموا السطو على هرم سبك إم ساف
ولكنه لم يكن يشبه فى شيء الأهرام أو مقابر النبلاء التى اعتدنا سلبها ،
فحملوا معداتهم النحاسية وقاموا بحفر ممر فى كتلة الهرم ولم يكن هذا العمل
يتم فى يوم واحد ولكنهم انتهوا أخيرا من الوصول إلى القاعات السفلى
وأضاءوا مشاعلهم وأزالوا آخر العوائق فوجدوا أنفسهم أمام ضريحى الملك
والملكة . ولكنهم لم يأتوا إلى هذا المكان ليقوموا ببحوث أثرية ورفعوا
دون تردد غطائى الضريحين ووجدوا بداخلهما تابوتين من الخشب المذهب
لم يترددوا فى فتحهما . وكانت مومياء الملك النبيلة ممددة داخل تابوتها وبجانبها
سيف ربما كان مزخرفا وعليه نقوش تمثل أغصان شجرة النخيل ومناظر
الصيد على طراز ما كان على سيف الملكة اح حتب Ah-hotep وكان
يغطى الوجه قناع من الذهب ، وقلائد وتمائم تدلت من العنق وكانت المومياء
مكسوة كلها بالذهب. فجمع أفراد العصابة كل الذهب والفضة والبرونز وكافة
الحلى وأشعلوا النيران فى التوابيت . كان وزن هذا الذهب ١٦٠ دبن (اى
مايعادل ١٤ كيلو جراما) وقسموه ثمانية أقسام متساوية وعبروا النيل عائدين.
وسواء كانوا قد ثرثروا حول هذه الحلة أم أنهم لم يستطيعوا اخفاء أمر حياتهم
على جميع الناس . فقد ألقى القبض على آمون بانوفر Amonpanofer بمعرفة
حراس المدينة الذين حبسوه فى مكتب الحاكم بامر - فقام هذا اللص بجمع
العشرين دبن من الذهب التى كانت لديه وسلمها إلى كاتب الجمرك ، فاطلق
هذا بدوره سراحه على الفور دون محاكمة وعاد اللص إلى زملائه الذين قاموا
فى أمانة تامة بعمل تقسيم جديد، فأصبح نصيب كل منهم وأصدقاء ١٧,٥ دبن
وقد كان عليهم أن يعوضوا هذا النقص فقامت العصابة بانجاز أعمال جديدة

حتى حل اليوم الذى اعتزم فيه رجال السلطة إلقاء القبض عليهم . وقد أضاف اللص قائلا : « ولكن هناك عددا كبيرا من الأهالى قد قاموا أيضا بسلب هذه المقابر وهم مدانون مثلنا تماما » فحجز اللصوص بعض الوقت . وقد استدرجهم المحققون حتى اعترفوا وقادوهم إلى الهرم الذى نهبوه ليمثلوا طريقة ارتكاب الجريمة . وقد قرروا تسليم اللصوص الثمانية إلى كبير كهنة آمون ولكن حدث أثناء نقلهم أن اختفى خمسة ولم يبق إلا ثلاثة من الثمانية أضيف إليهم شخص كان ينتمى إلى عصابة أخرى مكونة من سبعة عشر لصا ، أما الباقون فكانوا قد هربوا ، وقد ألقى القضاة عبء العثور على اللصوص على كاهل رئيس الكهنة .

وبعد ثلاثة شهور من هذه الحوادث ألقى القبض على البناء آمون بانوفر وكان قد حكم على أمه بالنفى فى بلاد النوبه اقتيد أمام إحدى المحاكم . وبعد أن ضرب ضربا مبرحا ، كما ينبغى له أن يضرب ، أفضى باعترافات جديدة : لقد نهب مع زملائه مقبرة الكاهن الثالث لآمون . وكان عدد اللصوص يبلغ خمسة رجال . حملوا التابوت الخشبى المذهب خارج المقبرة ، تاركين المومياء فى ركن من القبر ثم ذهبوا جميعا إلى جزيرة آمون إم أوبت ووضعوا الذهب جانباً ثم قسموه بينهم وأحرقوا التابوت . واستأنف آمون بانوفر أعماله الإجرامية ثم قبض عليه وأخلى سبيله ، ثم استأنف أعماله إلى أن قبض عليه أخيراً واقتيد للمحاكمة .(٢٩)

وفى بادىء الأمر كان اللصوص الذين يسلبون مقابر الملوك والأفراد يتكونون من عمال المحاجر والبنائين والعمال الذين يشتغلون فى الجبانة وسرعان ما ازدادت العصابة حين انضم إليها صغار الموظفين المكلفين بخدمة

المعابد فى المنطقة الغربية وعمال الجبانة وبعض رجال الدين . ورجال إحدى هـــذه العصابات التى كانت تضم أحد الكهنة ويدعى پن أون حب Pen-oun-Heb وأربعة من كهنة الآلهة وهم مرى Mery الطاعن فى السن وابنه ماى سم Paisem سمدى Samdy وپاخاروا كانوا قد اشتركوا فى سرقة قلادة تمثال نفرتوم Nefertoum الخاص بالملك أوزير مارع ستپ إن رع كبير الآلهة . ولما انصهرت الحلية كانت تزن ٤ دبن deben و ٦ قيط qite من الذهب . وكان مرى الشيخ بوصفه عميدهم فى السن هو الذى تولى دون شك أمر القسمة . (٣٠)

وكانت هناك عصابة أخرى اشترك فيها رجال الدين والكهنة وبعض الكتبة وعمال الحظائر ، وكانت تقوم بالسطو على بيت الذهب الخاص بالملك أوزير مارع ستپ إن رع . ولا نعرف بالتحديد ماذا كان يقصد بعبارة بيت الذهب ولا أين كان يوجد هذا البيت . وكان بابه الخارجى من جرانيت أبو Abou (جرانيت الفنتين) ذا متاريس من النحاس . وكانت الأبواب الداخلية الرئيسية مكسوة جميعها بالذهب . ويبدو أن هذا المبنى العظيم لم يكن به عدد كاف من الحراس . وكان الكاهن كاوكاروى Kaoukaroi وأربعة من زملائه قد ذهبوا إليه أكثر من مرة وعادوا منه حاملين فى كل مرة كمية من الذهب يستبدلونها فى المدينة بالقمح . وتشاجر أحد الرعاة ذات مرة معهم قائلا لهم : « لماذا أصبحتم لا تعطوننى شيئاً ؟ » فاتجهوا على الفور إلى رصيدهم الذى لا ينفد وعادوا ومعهم ٥ قيط من الذهب فاشتروا ثوراً بخمسة وأربعين جراما من الذهب وأهدوه إلى الراعى .. ولكن الكاتب المكلف بمسك الدفاتر الملكية بالمكتبة ويدعى ستوى موزى Setoui mosé كان قد سمع حديث الكهنة والراعى عندما كانوا يتشاجرون فانتهز هذه الفرصة وقال لهم : « سأقوم بتقديم تقرير لكبير كهنة آمون » وعلى هذا أسرع الكهنة فى القيام بحملتين وأتوا

بأربعة قيط ونصف قيط من الذهب ليشتروا بها سكوت أمين المكتبة . وكان توتوى Toutouy ، وهو أحد الكهنة الذين كانوا يترددون على بيت الذهب ، قد أراد أن يوسع نطاق أعماله . ذهب مسرعا يصحبه نسى أمون Nesiamon إلى أبواب السماء وأشعلا النار فيها بعد أن سلب ما فيها من ذهب(٣١) واختفت كذلك كمية كبرى من الأثاث القيم بنفس هذه الطريقة وذات يوم خطف اللصوص الصندوق المتنقل الخاص بكبير كهنة أمون رمسيس ناخت وكان قد توفى منذ زمن قريب . وفى يوم آخر كانت عصابة أخرى تنهب الصندوق المتنقل الخاص بكبير الآلهة أوزير مارع ستب إن رع كما استولوا على اربعين بيتا خاصة بالملك منمعات رع سيتى Menmatré Setoui كانت مودعة داخل خزينة قصر أوزير مارع Ousirmaré(٣٢)

والتقارير ومحاضر التحقيق الخاصة بتلك العمليات للنهب تكون مجموعة ضخمة نوعا من المستندات ولكنها لم تذكر إلا حوادث ضئيلة فى ذاتها إذ أنها لا تشير إلا إلى سلب مقبرة ملكية واحدة . مع أن جميع المقابر تقريباً فى وادى الملوك ووادى الملكات قد سرقت ونهبت قبل بدء عهد الأسرة الحادية والعشرين أى فى فترة لا تتجاوز ثلاثين عاما . ولإنقاذ مومياءات الفراعنة لم يجد الوزراء وكبار كهنة آمون مناصا من نقلها من توابيتها ووضعها فى توابيت خشبية متواضعة ، بعد أن جردوها من حليها وأقنعتها الذهبية ثم ووريت فى مخابىء .

أما مقبرة توت عنخ آمون فقد كانت المقبرة الوحيدة هى ومقبرة الملكة أح حتب التى لم يسطو عليها اللصوص ، مع أنها كانت تقع فى تلك المنطقة التى كانت مسرحا لعمليات السرقة منذ بدأ اللصوص يسطون على

المقابر . ويظهر لى أنه ليس من المرجح تماما أن تكون مقابر أسرات الملوك أمنحتب وتحتمس وسيتى والرعامسه قد سلبت بواسطة بعض العمال حتى ولو نظموا فيما بينهم عصابات لأن رجال الشرطة كان من اليسير عليهم أن يتعرضوا لهم فى الأوقات العادية . فى عهد الملكين الأخيرين للرعامسه كانت مصر مسرحا لحروب مدنية فظيعة نشبت بين رجال الدين وأنصار آمون وبين رجال الدين ومناصرى ست المنتشرين فى كافة أنحاء القطر وكان يزداد عددهم ونشاطهم بصفة خاصة بجوار قفط والبهنسا وتل مدام وبى رمسيس ، فمزقتها تلك الحروب شر ممزق

ويخيل إلى أنه أثناء هذه الحروب قد نهبت المقابر الكبرى جميعها إما بوساطة أنصار آمون وإما بوساطة أنصار ست أو بكل من أولئك وهؤلاء على التوالى وكان عذر كل منهما أنه لا يريد أن يترك لخصمه مثل تلك الكميات الكبيرة من المعدن الثمين . وأسوة بما كان يفعله كبار الرؤساء أخذت طبقة صغار الأهالى تواصل أخذ المال حيثما وجد ، ولكن فى حدود ضيقة ، لا سيما وأن المعيشة كانت قد وصلت إلى حد مريع من الغلاء نتيجة الفوضى التى كانت تسود البلاد . فالسلع قد أصبحت نادرة ولا يمكن أن يحصل عليها إلا مقابل كمية كبيرة من الذهب الرنان أو من الفضة الخالصة ..

كان ثمن الجاموسة الواحدة يقدر بما يزن ٤٥ جراما من الذهب ، وقد اعترف بعض شركاء لص مشهور يدعى بوخاف Bou khâf بأنهم استطاعوا أن يقتنوا أراضى زراعية أو حبوبا أو أقمشة أو عبيداً نظير نصيبهم من المسروقات ، ولما كان القانون يحتم على من يشترى عبداً أن يسجل شراءه فى مكتب رسمى خاص ، فقد كان من العسير على الأهالى أن

يخفوا شراء العبيد . لذلك عندما بلغ القاضى أن أناسا كثيرين من الطبقة البسيطة قد اقتنوا عبيداً أخذ يستجوبهم عن مصدر أموالهم ومن أسئلة كاتب محكمة وجهت لامرأة من طيبه تدعى أرى نوفر Ary nofer : ماذا تقولين فى المـال الذى أحضره زوجك بانهسى Panehsy — ؟ فردت : « لم أره »

وكان الوزير يلح سائلا . « وبأى كيفية اقتنيت الخدم الذين كانوا معه؟ » فردت قائلة : « لم أر المـال الذى دفعه ثمنا لهم إذ كان فى سفر عندما وجد معهم » فألق القضاة سؤالا أخيرا : « من أين كان لبانهسى Panehsy المال الذى استغله له سوبك إمساف؟ فردت قائلة : « إنى حصلت على هذا المبلغ ثمناً للشعير الذى بعته فى سنة الضباع ، زمن المجاعة ! »(٣٣).

لم تكن هيئة المحكمة فى حاجة لأن تسأل المتهمة عن تفسير ما كانت تقصده بعبارة « سنة الضباع » فقد كانت هذه العبارة شائعة الاستعمال لدى العامة ولكننا نجد أنفسنا فى حيرة حين نريد تفسير معنى هذه العبارة تفسيرا دقيقا ذلك أن : بعض علماء الآثار المصرية قد اعتقدوا أن الضباع كانت قد ظهرت فى طيبه فى تلك السنة ، كما يرى أهل بلادنا بعض الذئاب تطوف حول ضواحى المدن الكبرى فى بعض الأحيان ، وقد ذهب بعض العلماء الآخرين إلى أن هذا التعبير مجرد استعمال مجازى . وربما كانت سنة الضباع هذه ، هى التى انتصر فيها أعداء آمون واستولوا على مدينة طيبه ونهبوا تماماً كل ما كان فى معابدها وجباناتها . لقد انحطت الأخلاق إلى حد كبير فقد صاح لص فى وجه والد امرأة كانت تعمل فى عصابة بوخاف قائلا له : « أيها العجوز الأخرق ، الذى لا يصلح لشىء ! وإنك إذا قتلت وألقيت فى نهر النيل فمن ذا الذى يسعى للبحث عنك ! »(٣٤)

كان رمسيس الثالث على صواب عندما كان يتضرع للآلهة فى إلحاح

وبلغة مؤثرة أن تمنح ابنه عهدا سعيدا وأن يكون موفقاً فى حكمه . لقد كان يشعر بقرب حلول الكارثة ، وتحقق شعوره بعد مرور ثلاثة أرباع قرن من وفاته تقريبا ، لقد ضعف شأن مصر بسبب هذه النكبة إذ قاست مدة ربع قرن أو ما يزيد عن ذلك ، فسادت فيها الفوضى وحدث مالم يحدث منذ عهد الهكسوس حين قام العمال والكتاب والكهنة بسلب الآلهة والسطو على الموتى على السواء .

٥ — فى المحكمة :

بعد أن استتب النظام بدأ القمع ، ومما لاريب فيه أنه منذ عهد رمسيس التاسع تكونت لجنة تحقيق برياسة الوزير وهو أكبر شخصية فى المملكة تلى فرعون ، فتجمعت لديها معلومات عن مدى الأضرار . ولكن يبدو لنا أنها كانت ترغب فى منع الأهالى من تداول الحديث فيها أكثر مما كانت غيورة على معرفة الحقيقة . لقد كان يلقى القبض على اللصوص ، ثم يشترى هؤلاء حريتهم مقابل القليل من الذهب ثم يستأنفون أعمالهم . . وينتهزون فرصة نقلهم من سجن حاكم المدينة إلى سجن كبير الكهنة ليفروا إلى الفضاء الشاسع فى الحقول . ولكن بعد تكرار حوادث السلب التى حدثت فى السنوات الأخيرة من عهد رمسيس التاسع ، تكونت لجنة تحقيق أخرى كان بين أعضائها الوزير وسقاة الملك وأمين الخزينة واثنان من حملة المظلات والكتبة وبعض المنادين . وقامت اللجنة هذه المرة بأداء عملها بصورة جدية . وكثيرا ما كان الشاكون يلتمسون من تمثال الملك المقدس استرداد ما سرق من متاعهم أو ليحصلوا على إيرادها بأكمله . غير أن الأمر كان على جانب كبير من الخطورة ، ولذلك ترك الملك المقدس مكانه . ولجأ القضاة إلى الوسائل التى ثبت من قبل أنها تؤدى إلى معرفة الحقيقة .

وفى بداية جلسة التحقيق التى خصصت لاستجواب كبار اللصوص الذين سرقوا المقابر ونهبوها ، قال الوزير للراعى بوخاف : « لقد كنت مع عصابتك فى هذه الحالة وقد أمسك بك الإله وأتى بك إلى ووضعك تحت سلطان فرعون ، فاذكر لى أسماء كل من كانوا معك فى المقابر ؟ » فلم يتردد المتهم فى ذكر أسماء ستة من شركائه . ولكن المحكمة لم تكتف بهذا إذ ضرب بوخاف بالهراوة . فأقسم أنه سيتكلم . فأعيد استجوابه من جديد : « قل بأى وسيلة انتقلت إلى المقابر الكبيرة المقدسة ؟ » فزعم أن المقبرة التى دخلها كانت قد اقتحمت من قبل ، فلم تصدقه المحكمة وأمرت بضربه من جديد حتى وضع هو حدا لذلك بأن صاح قائلا : « أقسم بأنى سأتكلم ! » وبهذه الوسيلة أمكن أن ينتزع منه ذكر أسماء ثلاثة عشر شخصا ، ثم قال « أستشهد بآمون وأستشهد بالملك العظيم بأنى إذا كنت قد أخفيت اسم واحد من شركائى فإنى أتحمل الجزاء بدلا منه ! » (٣٥) ويبدأ بعد ذلك تتابع الشركاء فى صورة مملة وسرعان مايلحق بهؤلاء أشخاص آخرون ذكرت أسماؤهم خلال التحقيق . ويقسم المتهمون بالا يكذبوا وإلا استحقوا النفى إلى بلاد النوبه أو بترت بعض أعضائهم أوشدت أجسامهم إلى الأخشاب . لقد صادفتنا العبارة الأخيرة من قبل ، فكثيرون ممن كانوا قد تآمروا ضد رمسيس الثالث قد حكم عليهم بأن يشدوا إلى الخشب . وقد ظن بعض علماء الآثار المصرية أن معنى هذا أن يرفعوا على « خازوق » ولكن ليس هذا مؤكدا . إذ نرى بعض مناظر أفراد على خازوق على النقوش البارزة الأشورية ولم نرها إطلاقا على النقوش المصرية. ولكننا نرى أحيانا فردا شد إلى عامود خشبى ليضرب.(٣٦) لذلك فإنى أفترض أن المحكوم عليه ربما كان يشد إلى عامود إلى أن تواتيه منيته . وقد يجيب المتهم أحيانا على سؤال القاضى : « ويل لى ! ويل لجسدى ! » ولكن

القاضى - دون أن يتأثر بذلك وربما كانت إجابة المتهم غير مرضية غالبا ، فيأمر بضربه . وكان الضرب على عدة أنواع إذ ذكرت ثلاثة ألفاظ مختلفة بادجانا Padjana ونادجانا Nadjana ومانينى Manini وذاق بعض المتهمين الأنواع الثلاثة على التوالى ، ولكننا لا نستطيع أن نحدد بالدقة الفرق بينها . كان الضرب بالعصا يتم على الظهر ولكن كان أيضا على الأيدى وعلى الأقدام . فهذه المعاملة الحازمة كانت كثيرا ما تحل عقدة اللسان ، ولكنها لم تنجح دائما . وكثيرا ما يسجل كاتب الجلسة بأنه بالرغم من الضرب مرتين أو ثلاثا فإن المتهم لم يعترف . والأرجح أنه كان يعجز تحت تصرف العدالة . وقد يحدث أن القاضى يرتبك إذا لم يحصل على اعتراف أو على معلومات فيدعو المتهم البائس إلى أن يذكر اسم شاهد نفى يستطيع أن يعاونه على تبرئته .

وكان من النادر أن يطلق سراح متهم . وعندما دخل ذات مرة نافخ البوق المسمى آمون خاوو Amonkhaou قاعة التحقيق سأله الوزير : « ما هى الوسيلة التى استخدمتها مع حارق البخور شدسوخنسو Chedsoukhonsou حينما وصلت إلى المقبرة التى أخذت منها الفضة بعد سطو اللصوص عليها ؟ » فقال : « ويل لى ! ويل لجسدى ! لقد كنت أقول لزميلى بات چاو نافخ البوق ، أثناء مشاجرتى معه : « سيقتلونك بسبب السرقات التى تقوم بها فى الجبانة » . . . » فاستجوبوه مرة ثانية وهو يضرب على أقدامه وعلى يديه ، فقال : « لم أر أحدا غير من ذكرت . » فأعادوا استجوابه مع ضربه بطريقة النادجانا مرتين ثم بطريقة المانينى فقال : لم أر شيئا . . . . لقد ذكرت لكم ما رأيته » . وأعادوا استجوابه فى اليوم العاشر من الشهر الرابع فى فصل الصيف فوجد أنه برىء من السرقات ، وأطلقوا سراحه .

وكان هذا البائس قد استحق الحرية حقا .(٢٧) وبفضل كل هذه المستندات تتاح لنا مشاهدة عدد كبير من التحقيقات . أما الأحكام التى صدرت فإنها لم تصلنا ولا نعلم ما كان قد حكم به من عقوبات . فهؤلاء المساكين إما أنهم قد لقوا حتفهم أثناء تعذيبهم وإما أنهم قضوا حياتهم البائسة فى المناجم والمحاجر .

٦ — استقبال رعايا الدول الأجنبية

رأينا فيما سبق أن رجال الحكومة كان يسند إليهم بصفة خاصة استثمار الأراضى الملكية ومقاومة أعمال عصابات اللصوص والحكم بالعدل بين الناس وتحصيل الضرائب ، وفى زمن المجاعة كان عليهم أن يمدوا الشعب بالمواد الغذائية . كانت تلك هى المهام العادية التى تسند إليهم . على أن هناك بعض الأحيان مهمات أكثر تكريما كان يختص بها بعض المقربين .

ويبدو أن مهمة استقبال مندوبى البلاد الأجنبية عند قدومهم إلى مصر ، ومصاحبتهم حتى مثولهم بين يدى فرعون كانت على ما يظهر أشدها متعة وكان هؤلاء الرسل الأجانب يأتون إما ليدفعوا تعويضا حربيا أو ليلتمسوا من الملك أن يكون راضيا عن بلادهم أو ليرفعوا إلى أسماع الهيئات العليا أن فى بلادهم النائية إحدى الأميرات قد انتابها مرض لم تستطع أن تشفى منه ، وأن الوسيلة الوحيدة لاسترداد صحتها هى الإلتجاء إلى علم أحد كبار الأطباء المصريين أو زيارة الآلهة الرحماء لها .

وكان فى إمكان مندوبى الرتنو ونهارينا الاثنين من أقصى حدود آسيا أن يستخدموا حسب رغبتهم الطريق البرى ، وفى هذه الحال كان يقوم باستقبالهم حراس الحدود عند طريق حورس ، كما كان فى

إمكانهم أن يأتوا بطريق البحر . وكانت سفنهم تشبه السفن المصرية ولا يمكن أن يثير هذا دهشتنا إذ أن المصريين كانوا فيما يختص ببناء السفن تلاميذ أبناء جبيل .

وعندما كان الرؤساء السوريون يصلون إلى الميناء ، كانوا يحرقون البخور ويعبرون فى تهليل وتكبير عن سرورهم لأنهم قد أنموا رحلتهم الطويلة فى سلام . وفور وصولهم يفرغون بضائعهم فى حين يفتح المصريون على الأرصفة ، المطاعم والمشارب وبعد ذلك يتصلون بموظف مصرى يصحبهم إلى مقر الوزير . وكان موكبهم من أمتع المواكب . ومن المحتمل جدا أن الجماهير كانت تحتشد لمشاهدتهم أثناء مرورهم . وكان الفنانون الذين كان عليهم أن يرسموا هذا الموكب ذات يوم على مقبرة الوزير ، يطيلون النظر إليهم فى انتباه شديد . وكان الرجال يرتدون أزرا مطرزة بخيوط صوفية متنوعة الألوان ومحلاة بطرر ، وكان بعضهم يرتدون جلاليب طويلة ذات أكمام ، تقفل من الأمام بوساطة رباط ومشابك متماسكة وأحيانا يكونون متشحين بوشائح كبيرة من الصوف . وقد يحمل البعض منهم دلايات تعلق فى أعناقهم . وكانت النساء تتزين بثياب ذات هدب وكان السياس يقودون الخيول والدببة وصغار الفيلة التى لا يزيد حجمها عن حجم العجل إلا قليلا . وكانوا يحملون على أكتافهم جراراً ، تحتوى على صمغ التربنتين والقطران والعسل والزيت وسلالا مليئة بالذهب أو بأحجار اللازورد . وكان المصريون يفضلون المنتجات الصناعية والعربات والأسلحة وأدوات الزينة والأوانى المعدنية . وكان السوريون قد بلغوا فى هذه الصناعة مهارة فائقة تبلغ حد الاعجاز . ولم يعودوا يكتفون كما كان الأمر فى بداية عهد الأسرة الثامنة عشرة بصناعة جرار ذات مقابض على هيئة الزهور

أو بالكئوس ذات الإفريز أو الطاسوت التي تحتوى على باقات من النباتات الصناعية ، فقد أصبحوا ينتجون كئوساذات أرجل كبيت برسوم منقوشة أو مطعمة أو محلاة بالنباتات أو برؤوس آدمية أو حيوانية مجتمعة حول قاعدة الكأس أو حول منتصفها أو على الغطاء . وكان لبعض هذه الأوانى ثلاثة انبعاجات وثلاث رقاب وكانت أغطيتها على هيئة رأس بس أو رأس العقاب . وأقداح تكون قاعدة يبرز منها مبنى مكون من عدة طوابق أو يسند على القاعدة شكل أبو الهول رأسه رأس امرأة .

وأحيانا كانت الأقداح على عكس ذلك مستقرة فوق رجلين أدار كل منها ظهره للآخر . . ولنذكر أيضا أشكال الرؤوس ، مثل رأس بس ، أو رأس امرأة ، وقد جعلت لها مقابض من عاج طبيعى أو صناعى ومحلاة أيضا بزخارف كثيرة .

لم تكن لمثل هذه الأشياء أى فائدة عملية فهى مجرد حلية ومع ذلك فقد كانت تنال رضى المصريين لأنهم كانوا يبادرون بإرسالها إلى مصانعهم ليقلد منها ما كان سهلا يسيرا . ويمكن تقدير مدى اهتمام المصريين لهذه المنتجات الأجنبية إذا لاحظنا الرسوم التى تمثلها بعناية كبيرة على المقابر مثل مقبرة أمى‌سبا Amiseba .(٣٨)

ولم تكن مواكب أهل الجنوب أقل روعة من مواكب الآسيويين . فقد كانوا يسيرون راقصين على دقات الدفوف والقلائد تحلى أعناقهم ، وذيول الفهود معلقة على أذرعتهم وقد حلقت رؤوسهم ماعدا ثلاثة خصلات غزيرة من الشعر وترتدى نساؤهم أزرا وثيابا ذات كرانيش ويحملن أطفالهن داخل سلال خلف ظهورهن ، وقد يصل عددهم إلى أربعة أطفال ويحضرون معهم دروعا من الجلد ، وعاجا وريش نعام وبيضا وجلود النمور الرقطاء وجرارا وأمتعة . ويجرون بحبال قرودا وفهودا

وزرافات طويلة العنق . ولا يمكن أن نقارن إحدى هذه المواكب بالموكب الذى قدمه هوى Houy حاكم كوش إلى توت عنخ آمون (٢٩) فكان ولى العهد يستقبل زملاءه المصريين وهو لايزال يضع حول عنقه القلائد الذهبية التى كان قد أهداه إياها الملك ، وهم بدورهم يحيونه راكعين ويلمسون قدميه أو رداءه . وقد اختار أغلب النوبيين ملابس المصريين ليرتدوها مع احتفاظهم ببعض زينتهم القومية . وشعرهم الطويل قد صفف على هيئة تشبه القلنسوة يشدها تاج مثبت فيه ريشة نعام . وتتدلى من آذانهم حلقات كبيرة الحجم . وحول الرقبة قلادة من الخرز . وتلمع أساور ضخمة حول معاصمهم . ويحمل بعضهم جلد الفهد فوق ظهورهم تعلوه مجموعة تحتوى على حزام وحمالة وستر أمامى رسمت فوقه شموس ذات أشعة مضيئة ويرتدى الأمراء فى رشاقة ثيابا شفافة ذات ثنيات والطوق الذى يستعمله المصريون ، وينتعلون صنادل . وكان أولادهم مثل أبناء المصريين يتركون على خدهم الأيمن خصلة طويلة من الشعر المضفور وذيول الفهود معلقة على أذرعهم . أما حاملو القرابين فلم تكن بآذانهم إلا حلقات بسيطة تتكون من أقراص من الذهب ودلايات .

ويشمل هذا المشهد محاربين يركعون على الأرض ملتمسين نسمة الحياة ، وحملة القرابين يقدمون أكياسا مليئة بالعطور وحلقات ذهبية فوق صوان ، كما يقدمون جلود الفهود والزراف والثيران ذات القرون الضخمة التى تشكل أطرافها رسم اليد .

ويتقدم جماعة من الأمراء ملك الإقليم (كوش) الذى يستقل عربة تكاد تشبه عربة المصريين والأسيويين ، إلا أن ما يميزها هو أنها ذات مظلة ضخمة

تتكون من ريش النعام . ويجرها ثوران لاقرون لها . ويتبع هذه العربة بعض الأسرى وقد قيدت أيديهم ووضعت أطواق حول أعناقهم. وينتهى الموكب بجماعة من الزنجيات يحملن فوق ظهورهن أطفالهن الصغار فى سلال ويسحبن أولادهن الأكبر سنا وقد حلقوا شعر رؤوسهم تماما حسب تقاليد البلاد وأنهن عاريات الأجساد حتى خصورهن ويحملن مثل الرجال أقراطا فى آذانهن ويعلقن على أذرعتهن ذيول الفهود وفى معاصمهن أساور ضخمة الشكل.

وأهل الجنوب وإن لم يكونوا مهرة مثل الفينيقيين فى الصناعة إلا أنه ظهر فيهم صناع ماهرون جدا ، ويبدو أن الحكام المصريين لبلاد النوبه ، وكانوا يلقبون باسم أبناء كوش الملكيين قد بذلوا جهدا كبيرا للنهوض بالصناعات المحلية ، وهذا ما يلاحظ حين نرى هوى يتأمل السلع المعروضة أمام عينيه والتى سيقدمها بنفسه إلى مليكه . ولم يقتصر النوبيون على صناعة الأشياء المنقولة عن النماذج المصرية مثل المقاعد والأسرة والوسائد والعربات ، بل إنهم كانوا يصنعون أيضا أسلحة تختلف عن أسلحة المصريين . فكانت الدروع الجلدية التى يصنعونها تحاط حافتها بشريط من المعدن ، وتثبت بالمسامير ،وكثيرا ما كانت تحلى بزخارف تمثل مناظر مقتبسة من سجل حياتهم الرسمية . ومما كان يشاهد شكل أبو الهول ، وله رأس كبش ، ويطأ الإعداء بأقدامه أو يرى فرعون يصرع نوبيا برمحه . كما كان المصريون يقدرون تماما المصنوعات الذهبية التى تمثل قرى الزنوج ، صفت فوق منضدة صغيرة أو داخل سلال وتمثل كوخاً على شكل هرم مرتفع جدا تظلله أشجار النخيل وأشجار الدوم بينما يتسلق الأطفال والقرود الأشجار ليقطفوا ثمارها . ويطوف فى القرية الزراف وحراسها وحول أطراف القرية زنوج يحيون . وقائمة المنضدة الصغيرة محلاة برسوم

تمثل زنوجا شدوا إلى عمود وإلى خرطوش باسم الملك . كما تحتوى على مناظر تمثل جلود الفهود وسلاسل من الذهب تتدلى على المائدة . هذه هى أروع ما يحتويه المعرض وتعد فى نفس الوقت خير ما ابتدعته صياغة الذهب فى بلاد النوبه من الوحى المصرى .

وكان نائب ملك كوش الذى أحضر كل هذه الكنوز من بلاد الجنوب فضلا عن سبائك الذهب وخشب الأبنوس والعاج والذى كان يمكنه أن يفتخر ويزهو بحق بأن حكمه كان موفقا وأنه تمكن من جعل السلام يستتب فى عهده — قد استحق بجدارة الثناء وحسن الجزاء .

الفصل الحادى عشر

النشاط الداخلى داخل المعابد

١ - التقوى

قال هيرودوت إن المصريين كانوا أشد الناس تدينا (١) فكانوا يعتقدون أن كل شىء فى العالم ملك للآلهة وأنهم منبع كل خير وأنهم على علم برغباتنا الدنيوية وأن فى استطاعتهم فى كل وقت أن يتدخلوا فى أحوال البشر. وإذا كان رمسيس الثانى قد هجره جنود جيشه وأحاط به الإعداء أمام قادش وإذا كان قد تمكن من أن يتفادى المهالك، فما ذلك إلا لأن صوته قد وصل إلى طيبه واستجاب له آمون. وإذا كان قد توافر جو منعش خلال الفصل الردىء أثناء رحلة خطيبة رمسيس الثانى الأميرة الحيثية، فما ذلك أيضا إلا لأن المعبود سوتخ لم يكن يرفض له شيئا، وإذا كان عمال حفر الآبار قد عثروا على المياه فى صحراء إيكايتا Ikayta فلأن والده حابى قد أحب رمسيس الثانى أكثر من كل الملوك الذين سبقوه. على أن الفكرة بأن الآلهة تميز بعض الأشخاص، قد شجعت، أحيانا، على رغبات جنونية فقد قيل إن الملك أمنوفيس أراد، وهو على قيد الحياة، أن يرى الآلهة. (٢) والأمير حرنخت Hornexht ابن أوسركون الثانى والملكة كاروم Karom تمنى أن يساعده الصقر المقدس عندما يشتبك مع الفهود فى الصحراء والطيور فى السماء (٣) حتى يفهم حديثها الذى لا يعلمه إلا قلة من العارفين بالأسرار، وأن يدرك الرسالة الهامة التى اختارت الآلهة أن تعهد إليها بها. وكان كثيرون يميلون إلى الاعتقاد بأن فى استطاعة المحظوظين من البشر أن يتحكموا فى الطبيعة

والسماء والأرض والليل والجبال والمياه ، وأن يزيلوا عقبات الزمن والفضاء (٤) كانت هذه مجرد أفكار جنونية عابرة . وعندما أملى رمسيس الثالث ما دون على بردية هاريس Harris لم يطلب من آلهة مصر بأجمعهم الكبير منهم والصغير ، إلا الأشياء البسيطة المعقولة : أبدية سعيدة لنفسه وأن يصبح ابنه ملكا قويا ومحترما وأن يحكم حكما زمنا طويلا ويمنح فيضانات عالية عديدة . ويعتقد أنه جدير بكل هذه الرعاية إذ أن الآلهة قد أقامته مكان أبيه كما انها وضعت هورس فى مكان أوزيريس ، لأنه لم يظلم أحدا ولم يسرق ولم يخالف أوامر الآلهة وكانت رغبات الخاصة سواء أكانو أغنياء أم فقراء ، متواضعة ، فالآباء المحرومين من الأولاد يطلبون من امحتب Imboteb أن يرزقهم ولدا . وعندما كان يتاوو يطارده أخوه الذى أصيب بجنون وأصبح ثائرا يتذكر أن فى إمكان المعبود حرأختى أن يميز بين الصواب والخطأ . ومعلوم للجميع أن كافة الآلهة تشفق دائما على الفقراء وأنه عندما تشتد أحوالهم ضيقا ، يبقى المعبود عونا لهم ، فهو القاضى الذى لا يقبل رشوة ولا يؤثر على الشهود ، وفى الحكمة نرى أن الفقير الذى لا يملك فضة ولا ذهبا ليقدمها للكتاب ولا يملك ملابس ليقدمها لخدمهم ، يكتشف أن أمون يتحول إلى وزير ليظهر الحقيقة ويؤيد نصر الضعيف على القوى .(٥) وأحد الكتاب كان يعتمد على المعبود تحوت ليصبح مبرزا فى مهنته ، كان يقول : « تعال إلى ياتحوت ، أيها الأيبس* المكرم ، المعبود الذى تحبه الأشمونين ، أمين سر المعبودات التسعة ، تعال إلى واهدنى وأعطنى علما بعملك ، لأن عملك يفوق الأعمال كلها جمالا وحسنا ، وقد وجد أن الذى يؤديه على خير الوجوه يصبح أميرا ».(٦)

وكثيرا ما يحيرنا هذا التدين الشديد والمعقول فى نفس الوقت : فتذوق

---

* هو الطائر أبو منجل الرمز الدينى لمعبود الأشمونين .

الآلهة للترف شعور عام يوجد فى كل الأزمان وكافة البلاد ، ولكن ثروة المعابد فى عصر الأمبراطورية الحديثة قد فاقت حد التصور ، فمنذ أن تولى أحموزا العرش ، أصبحت الأموال التى تفيض على الحاجة وكل ما يقتصد يكدس فى المعابد وكانت تشيد معابد جديدة ، أما التى كانت موجودة فقد أصبحت توسع وتجمل وترمم أسوارها وأبوابها ، وذلك فضلا عن صناعة المراكب المقدسة وإقامة تماثيل ، واستبدال اللبن بالأحجار وتغيير الأخشاب المحلية بأخشاب ثمينة مستوردة من الخارج وعمل تكسيات بصفائح الذهب لقمم المسلات الهرمية الشكل وجدران البيت الكبير * وتزويد كل القاعات بالأثاث المطعم بالذهب والأحجار الكريمة . ونحن نعرف أن هذه الأمور كانت منذ زمن بعيد الشغل الشاغل لاهتمام كل الملوك . ولا نستطيع أن نشك أنه فى زمن اخناتون وربما فى السنوات الغامضة ، أى التى لا نعرف عنها إلا الشيء اليسير جدا ، والتى سبقت تولية ست ناخت قد حدث بعض التخريب الذى يماثل ماقد حدث بالفعل على نطاق واسع فى عهد آخر الرعامسه ولكن عهودا مجيدة وزاهرة جاهدت بنجاح فى إصلاح ما أفسده أولئك المفسدون .

ولا يسعنا إلا أن نقتدى بالإغريق والرومان فنشاركهم الدهشة لكثرة عدد المعبودات المصرية وغرابة أشكالها ، فإحدى الصور الصغيرة لبردية فى المتحف المصرى بالقاهرة تمثل إحدى الكاهنات ، ابنة ملك ، واسمها إيزيت امحب Isitemheb تركع فى حركة بالغة الرشاقة على حافة

* المقصود به المعبد أو قصر فرعون

بركة ماء أمام تمساح تمدد على الناحية الأخرى من البركة تحت جذع شجرة صفصاف. (٧) وتشرب هذه الكاهنة من مياه البركة التى كان يلغ فيها الحيوان دون أن يعتريها أى اشمئزاز. كان يرنو إليها بكل هدوء دون إن يتحرك. وهذا التمساح هو المعبود سوبك أحد الآلهة ذوى الشهرة الواسعة. وكان لعباداته مركزان احدهما فى الفيوم سماه الأغريق كروكوديلوبوليس Crocodilopolis والثانى فى سومنو* Soumenou جنوبى طيبه، وفى معابد وهيا كل كثيرة منتشرة فى أنحاء البلاد.

أما سكان منف وعين شمس فكانوا يفضلون الثور على التمساح، وكان يطلق عليه اسم حابى Hapi فى منف ومرأوير Merauer فى عين شمس، وكان يعرف ببعض الصفات التى تحدث عنها الكتاب الإغريق (٨) وعندما تثبت هذه الصفات على واحد منها كانوا يسجلون بعناية يوم ميلاده ويدخلونه معبد بتاح فى احتفال عظيم، وكانوا يطعمونه الحلوى ويغمرونه بكل أنواع الهيبة والاحترام طيلة حياته وإذا مات حزن عليه الشعب بأكمله وارتدى ملابس الحداد، ثم يحنط بعد ذلك وتعد له مقبرة خاصة ليدفن فيها كما يدفن أمير من الأمراء.

وفى الأشمونين طيور ايبس Ibis مقدسة. وكان الطائر السعيد الذى يقع عليه الاختيار يحظى بالتشريفات الإلهية. وكانوا يحضرون الطائر ايبس ميتا ومحنطا ليدفن فى كهف كبير جدا تحت الأرض. وكانت الصقور مقدسه فى كل مكان وليس فقط فى مدينة نخن Nekhen التى سماها الاغريق هيراكونبوليس Hierakonpolis ولكن أيضا أمام نخن فى مدينه نخب Nekheb وفى

---

* مكانها الحالى الرزيقات قبلى أرمنت

كل الأماكن التى يسميها المصريون الآن دمنهور (مدينة حورس)أوسنهور (حماية هورس) وفى أماكن أخرى مثل اثريب Hathirib التى رممت جبانتها بأكملها بواسطة المنقذ چدحروفى تانيس وجدت بعثتنا حديثا هياكل عظمية للصقور فى قدور صغيرة من الفخار .

وفى باسط Bast كان الأهالى يعبدون القطة .

وفى إميت Imit كان الأهالى يتعبدون للثعبان المخيف . « واجيت » أما الفلاحون فى إقليم طيبه فـكانوا يقدمون لنفس الثعبان الذى يطلقون عليه اسم رنوتت Renoutet بشائر المحاصيل .

ولم تـكن هذه الرعاية الدينية مقصورة على الحيوانات وحدها ، فقد كان للخضروات نصيبها منها . كان الأزواج والرجال والنساء ، منفردين أو مزدوجين يدنون فى احترام من شجرة الجميز وأيديهم مبسوطة لجمع المياه التى تصبها تلك المعبودة المخيفة داخل الشجرة . وكان لـكل مدينة شجرتها المقدسة ، كما كان لها معبودها المحلى ، ولـكن هذا المعبود لم يـكن كافيا ليرضى حماسهم الدينى . وفى كل مدينة ، مهما كانت ضئيلة الأهمية كان الإله المحلى يتحد مع معبودات أخرى قد أتت فى يوم ما من مدينة قريبة أو بعيدة ، فعندما شيد رمسيس الثانى مقر إقامته الموجود فى الدلتا الشرقية جمع فيه طائفة كبيرة من المعبودات فكان آمون موجودا بجوار ست ، عدوه اللدود فى الماضى وفى المستقبل . وتوم Toum معبود أون وبتاح Ptah معبود منف ومعبودات الدلتا مع معبودات سوريا وفينيقا ، كأن لم يـكن لدى المصريين آلهة كافية فى بلادهم فراحوا يتعبدون لآلهة البلاد المجاورة لهم. وقد أبدل قاتل أوزيريس رأسه، الذى كان يشبه رأس الـكلب السلوقى برأس بشرية ، وارتدى زى أتباع المعبود بعل واتصف بصفاته . ووضع على رأسه

خوذة مدببة كان يلمع من ثناياها قرص الشمس ، وقد برز فيه قرنان حادان وتدلى من قمتها شريط طويل يصل حتى الأرض ومئزر مطرز ومزين بطرر . ولم تكن عشيقته اخت ايزيت بل الكنعانية انتا Anta. (١٤) وعندما ما جاءت عشتروت Astarte للمرة الأولى إلى مصر استقبلتها المعبودات المصرية بالاحترام الذى يليق بملكة . (١١) وعندما شيد رمسيس الثانى حصنه بين مصر وسوريا لم يتركه دون حماية الآلهة فاختار معبودين مصريين هما آمون وواجيت ومعبودين آسيويين هما سوتخ وعشتروت. (١٢) ومنذ عهد الملك توت‌عنخ آمون ، بدأ المعبود الكنعانى هورون Houroun الذى كان أيضا على هيئة الصقر مثل حورس كان يحاول خلع هذا الأخير الذى كان شفيع النظام الملكى من قديم الزمن .(١٣) وفى منف كان هناك حى بأكمله يسكنه أهالى صور فكان عبارة عن عالم صغير يضم جميع العقائد المصرية والأجنبية ، وطيبه التى تسمى المدينة ذات المائة باب كانت جديرة بأن تسمى المدينة ذات المائة معبود .

٢ — الكهنة .

إننا نعلم أن كل معبد كان عبارة عن مدينة صغيرة يعيش داخل أسوارها موظفون وشرطة وصناع وزراع ، كما لو كانوا يعيشون فى مدينة عادية ومع أن هؤلاء القوم كانوا تابعين للمعبد إلا أنهم لم يكونوا من الكهنة والذين يطلق عليهم لقب « دينى » هم أواب Ouâbou الأطهار ،وايت نتر Itneter الآباء المقدسون ، وحم نتر Hemneter الخادم المقدس ، وخرى حبت Kheryhebet كاهن الأطواء الذى يمسك بيده برنامج الاحتفال مدونا على رق مطوى ، وأعضاء الأونويت Ounouyt ، هيئة علية تتكون على الأقل من اثنى عشر شخصا إذ أن كلمة أونوت Onout تعنى ساعة .

هؤلاء الكهنة كانوا يتناوبون فيما بينهم كل ساعة حتى يضمنوا إقامة المراسيم الدينية ليلا ونهاراً . وكان يوجد فى كثير من المعابد رئيس للأسرار يهتم بالمراسيم المقدسة التى سوف نتكلم عنها فيما بعد . والكاهن سم ؛ ولم يكن موجوداً ضمن كهنة آمون، كان يلعب دوراً هاماً فى أون ومنف . أما فى طيبه فكان على رأس كهنة آمون أربعة من الحونترو Hemeu neterou ، وبالرغم من البساطة التى تبدو من مدلول اللقب « الخادم الأول للإله » فقد كان من أهم الشخصيات الكبيرة فى مصر وفى أون On . كان رئيس كهنة أتوم يلقب بالنبى الكبير أورما Our ma أما الذى ينتمى إلى بتاح فى منف فكان لقبه « رئيس الفنانين . » وفى الأشمونين كان كبير الخمسة من الكهنة وهو رئيس

معبد تحوت وفى كثير من المعابد كانت الشخصية الرئيسية هى خادم مقدس كما هو الحال فى معبد آمون . وقد أخذنا عن الإغريق فى الاستعمال الحديث تسمية الحونترو بالأنبياء ، إذ أنهم كانوا أحياناً يفسرون الإرادة الإلهية . ولكنا غير واثقين من أن هذه الوظيفة كانت هى الوحيدة التى يزاولونها وأنها كانت مقصورة عليهم وحدهم . ومهما كان اللقب الذى يحمله رجال الدين فإنهم كانوا حريصين ، فى عهد الإمبراطورية الحديثة ، أن يتميزوا فى مظهرهم عن بقية المواطنين ، فكانوا يحتقرون الملابس ذات الثنيات والأكمام الطويلة ويكتفون بارتداء مآزر طويلة تاركين الجــزء العلوى مـن الجسم عاريا ، كما كانوا يحرصون على حلاقة شعر الرأس والذقن والشارب .

ولما كان من عادة المعبد أنه كان كثيراً ما يستضيف عدداً من الآلهة لذلك لم يكن رجال الدين ملزمين بأن يكرسوا حياتهم كلها لخدمة معبود واحد . فسيتى Setoui ، كبير كهنة ست ، كان فى نفس الوقت مسئولا

عن أعياد بانبدد Banbeded ومكانها بالقيام بشعائر المعبودة واجيت Ouadjit التي تحا كم الأرضين . ونبونف Nebounef الذى عينه رمسيس الثانى كبيراً لكهنة آمون لم يكن منتسبا مطلقا لكهنة هذا الإله ، بل كان كبير كهنة عنحور فى تجينى Tjiny ، وحاتحور فى دندره . وآنن Anen ، أحد كبار كهنة أمون ، لم يستطع أن يرقى إلى الدرجة العليا ، فواسى نفسه عندما عين كبيرا للأنبياء وكاهنا فى أون من مونتو ، وهى مدينة فى إقليم طيبه .

وكان يشترك عدد كبير من النساء فى المراسيم الدينية وكان لكل معبد فريق من المغنيات كان عليهن أن ينشدن ويغنين ويحركن الصلاصل أو الصاجات ، أثناء إقامة الشعائر الدينية .

ولم يقم هؤلاء النسوة فى المعبد بل كن يقمن مع أسرهن ، إذ تتطلب خدمتهن غير حضورهن بضع ساعات فى بعض الأيام . يقابل ذلك أن النسوة اللواتى يكون هيئة الخنريت Khenerit كان ينبغى لهن الإقامة فى المعبد لأن كلمة خنر Khener تدل على السجن أو على الأماكن المغلقة تماما داخل المعبد أو القصر . وكان يطلق على رئيستهن أسماء الزوجة المقدسة للمعبود ، اليد المقدسة أو الساجدة المقدسة ، وقد ظن البعض أن نساء هذا الحريم المقدس كن يكون هيئة من « غانيات المعبد » كما كان الحال فى جبيل البلد الذى كانت تتغلغل فيه الحضارة المصرية . ولكن ليس ثمة دليل على أن مثل هذا النظام قد وجد إطلاقا فى مصر . والواقع أن بعض مغنيات آمون كن يتصفن بعادات مستهجنة وكن يترددن على الأماكن المشبوهة ، ولكن من الخطأ أن يبنى الإنسان حكمه بناء على هذا المثل الوحيد

المحفوظ على بردية بمتحف تورين .(١٥) ليعممه على كل موسيقيات آمون . وهذا لا يبرهن على أنه قد فرض على النساء الملحقات بالمعبد أن يكن مثل نساء جبيل فى مسلكهن فى الأعياد إذ كن يفرطن فى عرضهن للأجانب ويدفعن لخزينة المعبد المكاسب البسيطة التى يحصلن عليها من مثل هذه المعاشرة .

وكما كان الموظفون يعينون عادة من بين أبناء عائلات الموظفين ، كان الكهنة كذلك فى غالب الأحيان من أبناء الكهنة . (١٦) وهكذا كان باكن خونسوابن الكاهن الثانى لآمون إذ ألحق بالمدرسة عندما كان عمره خمس سنوات كى يعد ليكون فيما بعد من هيئة رجال الدين . أما أبناء وأحفاد الكاهن الكبير رومى روى Romé-Roy فكانوا جميعا من رجال الدين ، وكان ابنه الأكبر يقيم بجانبه ككبير ثان للكهنة ، وكان الابن الثانى يتولى الشعائر الدينية فى معبد غرب طيبه ، كذلك كان حفيده كاهنا ، ومع ذلك فقد يحدث أن تتعارض نوايا الأسر مع ميول الأبناء ومواهبهم ، وقد علمنا من خطاب إدارى أن الوزير قدم ثلاثة من الشبان ليكونوا كهنة فى قصر مرى ان بتاح الكائن فى معبد بتاح ، ولكن أحد الموظفين الذين لم يكونوا يقيمون وزنا لحقوق رجال الدين مثله مثل أولئك الذين أشار إليهم منشور سيتى Setoui الذى سبق أن تحدثنا عنه قبض على هؤلاء الشبان الثلاثة وبعث بهم إلى الشمال ليصبحوا ضباطا . فكان هذا مثلا صارخا لسوء استعمال السلطة فانبرى أحد الكتاب على الفور لإبلاغ هذا الحادث وطالب بعودة هؤلاء الشبان الثلاثة. (١٧)

والتلاميذ الذين كانوا يعدون أنفسهم ليصبحوا من رجال الدين ، كانوا يتعلمون كأندادهم قواعد اللغة والكتابة ولكن كان عليهم أن يدرسوا

أشياء أخرى كثيرة. كان ينبغى لهم أن يعرفوا صور المعبودات وألقابهم وصفاتهم ومزاياهم وقصصهم وأن يلموا بكل ما يختص بالشعائر الدينية والعقائد ولم يكن هذا بالأمر الهين.(١٨) وكان عليهم أن يؤدوا امتحانا فى نهاية الدراسة ومن كان منهم جديراً بالاندماج فى هذه الهيئة، كان يخلع ملابسه ويستحم ويحلق له ويطيبونه بالعطور ثم يرتدى زى رجال الدين كاملا قبل أن يسمح له بدخول أفق السماء، ورغم سيطرة الخوف على قلبه بفكرة القدرة الإلهية فإنه كان يستطيع فى النهاية أن يقترب من المعبود فى قدس أقداسه.(١٩)

٣ — العبادة

كانت الشعائر التى تقام فى جميع معابد مصر باسم الملك وعلى نفقته تعتبر فعلا سراً يتم فى دجى الظلام فى قدس الأقداس دون أن يشترك الشعب فيه مطلقاً. ويطهر الكاهن القائم بالعمل نفسه قبل كل شىء فى « بيت الصباح» ويأخذ المبخرة ويشعلها ويتقدم نحو المذبح مطهراً الأماكن الملحقة به برائحة البخور. ولما كان التابوت الذى يحوى التمثال الخشبي المذهب للمعبود أو المعبودة مغلقا، فإن الكاهن يفض الختم المصنوع من الطين ويسحب المزلاج ويفتح المصراعين فيظهر التمثال المقدس، وعندئذ يسجد الكاهن ويبخر التمثال ويدهنه بالطيب، ويسبح الأناشيد التعبدية. وكان التمثال حتى تلك اللحظة عبارة عن قطعة فنية لاروح فيها، فيهبه الكاهن الحياة بأن يقدم له على التوالى عين حورس التى انتزعها منه عدوه ست وعثرت عليها الآلهة، وتمثالا صغيراً للمعبودة معات — Maat الحقيقة — ابنة رع. ثم يسحب المعبود بعد ذلك من التابوت ويبدأ الكاهن فى تزيينه، كما لو كان يزين

الملك ، فيغسله ويبخره ويلبسه ثيابه ويعطره ثم يعيده إلى داخل التابوت ، ويضع أمامه كل أنواع الأطعمة التي كانت تأتي عليها النيران بعد ذلك . وبعد إتمام التطهير النهائي بالنطرون والمياه والتربنتين ، كانت تختتم الشعائر الدينية، ولا يبقى بعد ذلك إلا أن يغلق التابوت ثم يسحب المزلاج ويوضع الختم . وعلى أثر ذلك ، ينسحب الكاهن إلى الخلف موليا وجهه نحو الإله مزيلا أثر خطواته .(٥٠)

وفي مقابل تلك العناية وهذه العطايا كان المعبود يهب الملك الحياة وليست الحياة الجسدية على الأرض فحسب بل أيضاً حياة الاتحاد مع المعبود ، مع مستقبل تكتنفه أعياد سعيدة لا نهاية لها مدى الأبدية كلها . أما الشعب الذي كان لا يشترك مطلقا في هذه العبادات اليومية ، فكان يكتفي بأن يعرف أن فرعون ما دام يتمتع برضا آبائه الآلهة ، فإن كل أنواع البركات ستعم مصر . وكانوا يترقبون فرص خروج المعبود — التي سنتحدث عنها فيما بعد — للاستفادة منها إلى أقصى حد ، *ولكن في انتظار هذه الأيام السارة،* فقد كان في إمكان من يريد أن يدخل إلى قصر المعبود ويرتاده ، أن يقدم قربانا يسيراً للمعبد فيعبر الفناء ويخترق المرج الذي يمرح فيه بحرية تامة الكبش أو العجل المحظوظ الذي يتجسد فيه المعبود ، وأن يقترب من بركة الماء التي يسبح فيها التمساح الذي يمثل المعبود سوبك . ولم يكن ثمة مايمنع من أن يضع أحد الأهالي تحت أقدام آمون ، - إذا كان من أهالي طيبه أو تحت أقدام بتاح إذا كان من أهالي منف - لوحة تذكارية صغيرة من الحجر الجيري حفر عليها شكل المعبود وبجانبها أذن ، بل عادة آذان كثيرة يبلغ عددها ثلاثة أو تسعة وأحياناً أكثر من ذلك ، إذ يصل عددها إلى ٤٨ أو ٣٧٨ أذنا وعيونا . كانت هذه طريقة ساذجة لإجبار المعبود على الاستماع له والنظر إليه وإجابة طلباته المختلفة من مزايا ونعم ومنافع عديدة

ما عدا الموت ، لأنه يعلم جيداً أن هذه الدعوة لا تجيبها المعبودات . (٢١)

وتوجد فى كل معبد تماثيل أو لوحات أطلق عليها اسم « الشافية » (٢٢) وكان الوجه الرئيسى للوحة مزينا بالطفل هورس عاريا ، واقفا على تمساح وقابضا بيديه على ثعابين ، وفوق هذا المعبود الصغير رسم المعبود بس Bes ذو الوجه العابس ، وقد سجل على ظهر اللوحة ، أو فى أسفلها كيف أن ثعباناً لدغه أثناء غياب والدته ، فى مستنقعات أخبيت . فلما سمع رئيس الآلهة صياح والدته كلف المعبود تحوت بأن يتولى شفاء الجريح ، كما كان يسجل أيضا كيف قام رع بشفاء باستيت Bastit عندما لدغتها عقرب . وكيف أنقذ أوزيريس عندما ألقاه أخوه فى النيل بطريقة خارقة للطبيعة من بين أنياب التماسيح . أما التماثيل فكانت تمثل شخصيات مقدسة اشتهرت أثناء حياتها بالعمل حواة للثعابين . وكانت أنغام هذه التماثيل أو اللوحات على قواعد وسط بركة ملأى بالمياه تتصل بواسطة قناة أو مصرف ببركة أخرى حفرت فى الدرجة الأخيرة من سلم القاعدة ، فإذا لدغ أحد رشت المياه على اللوحة التذكارية أو على التمثال فتتشبع بمفعول النصوص السحرية والكتابات وتتجمع المياه فى أسفل ويشربها الجريح ، وعندئذ لا يتطرق السم إلى قلبه ولا يحرك صدره لأن هورس هو اسمه ، واوزيريس اسم أبيه ونايت النائحة اسم والدته . وعندما يشفى الجريح فليس عليه ألا أن يتقدم بصلاة خاصة للقديس الذى كان صاحب الفضل فى شفائه أو كان وسيطاً فى برئه ولم يكن هذا يعفيه من أن يقدم للطاهر أو للأب الألهى الذى رش عليه الماء عملة ضئيلة القيمة .

إلا أن أصحاب هذه الإلتماسات المتواضعة والتى رفعوها للآلهة فى خشوع وخضوع فى هذه المعابد الفخمة سواء أكانت فى طيبه أو فى منف أو فى المدن الكبرى . وكانوا يؤمنون إيماناً فى قدرة أمون وبتاح ، ولكنهم

كانوا يفضلون زيارة هذين المعبودين الكبيرين في معابد بسيطة صغيرة تتفق مع مكانتهم المتواضعة ، بعيدين عن الرجال الرسميين . وقد اتخذ عمال الجبانة شفيعة لهم المعبودة الثعبان وكانوا يطلقون عليها اسم « مرسجر Merseger محبة السكوت » . وكانت تفضل السكنى في أعلى الجبل الذي يشرف على القرية . وعندما كان المرء يتحدث عن القمة كان لا يعرف تماماً هل يتعلق الأمر بالمعبودة أو بمقرها . وذات يوم استشهد أحد موظفي الجبانة وكان يدعى نفرابو Neferàbou بكل من المعبود بتاح والمعبودة قمة الجبل ولكنه كان حانثا في زعمه ، فأصيب بالعمى بعد قليل ، وقد اعترف بإثمه أمام بتاح الذي كان قد أصابه بالعمى في وضح النهار ، وشهد بعدالة هذا الإله الذي لا يفوته أي شيء ، ولكن بالرغم من ذلك فإنه لم يشف من عاهته . فاعترف في خشوع أمام قمة الغرب القادرة العظيمة فأتت إليه ، مع نسيم منعش وأنسته آلامه . لأن قمة الغرب رحيمة بكل من يتوسل إليها . (٢٣)

ويمكن الحكم على مدى شعبية معبد مرسجر الصغير والإقبال المنقطع النظير عليه من وفرة عدد اللوحات التذكارية والنذور التي وجدت هناك . وقد شعرت المعبودة براحة تامة لقربها من معابد آلهة أخرى عظيمة. وكانت زيارتها ميسرة إلى حد كبير . فعندما مرض أحد العمال المشتغلين بزخرفة المقابر توسل أبوه وأخوه لآمون الذي يمكنه أن يشفي أيضا من كان في العالم الآخر فحضر كبير الآلهة في سرعة ريح الشمال كأنه نسمة منعشة ليخلص ذلك المسكين التعس ، لأن الإله لا يقبل أن يمضي عليه يوم كامل وهو ساخط فلا يستمر تأثره إلا لحظة ثم يزول دون أن يترك أدنى أثر. (٢٤)

هؤلاء العمال الذين اتخذوا « مرسجر » ، « محبة السكوت » شفيعة لهم قد اتخذوا أيضا شفيعا آخر هو امنحتب (٢٥) ، أول ملوك

الأمبراطورية الحديثة الذى نحت له مقبرة فى وادى الملوك ، وكان أول من استخدم العمال وأول من أنعم على الأهالى الذين تجمعوا فى دير المدينة . وسرعان ما انتشرت عبادته حتى أصبحت له عدة هياكل فى طيبه ، فى البر الغربى .

وقد وجدت آثار معبد لأمنحتب ، له الحياة والصحة والقوة ، المنتسب إلى الحديقة . وقد عرفت أسماء ثلاثة آخرين يطلق عليهم اسم « امنحتب » « امنحتب ساحة المعبد » ، « امنحتب الذى يبحر عبر المياه » ، « امنحتب حاتحور » ، وكان عيد هذا الشفيع الطيب يستمر أربعة أيام ولا يكلف العمال خلالها هم وزجاتهم وأولادهم عن الغناء والشراب . وكان رجال الدين والذين يحملون التمثال أثناء سير الموكب ، وأولئك الذين يظلونه ويروحون له بالمراوح ويبخرونه ، كانوا جميعا من العمال .

وكان العمال يثقون فيه إلى حد كبير ، حتى أنهم كانوا يطلبون منه أن يفض منازعاتهم . وكان قضاؤه ينطوى على السلام ويتصف بالسرعة وقلة النفقات ، مما لا يتوافر لقضاء يتولاه الوزير وكتابه ، وقد عبرت إحدى الشاكيات بقولها : « كن عونا لى يامولاى ! لقد أثارت والدتى وأخوتى نزاعا ضدى ، لقد ترك لها المرحوم والدها نصيبين من نحاس وايرادا يقدر بسبعة مكاييل من الحبوب. فاستولت الأم على النحاس ولم تعط لها إلا أربعة مكاييل . وفى قضية أخرى ، قام أحد العمال بصنع تابوت وأحضر الخشب على نفقته وقدر التكاليف والمجهود بما يوازى ٣١,٥ دبن ولم يقبل صاحب العمل أن يدفع له سوى ٢٤ دبن فقط. وعندما سرقت ملابس أحد عمال النقش ، تقدم العامل بشكواه ووضعها أمام تمثال الملك المقدس ، قائلا : «تعال إلى اليوم وأعنى

ياسيدى ، فقد سرقوا منى قطعتى ثيابى . فقرأ الكاتب بياناً ببعض المنازل وعندما وصل إلى منزل الكاتب أمون نخت Amon Nakht أكد الشاكى أن ثيابه توجد لدى ابنة أمون نخت ، ولما سئل المعبود أكد صحة هذا الادعاء. وقد عورض عامل يدعى خاموس Khaemouas فى ملكية المنزل الذى كان يضع يده عليه ، فسألوا التمثال عن رأيه فأيد الملكية فى انحناءة قوية .

وكانت أكبر المعبودات تتنازل لتمد صغار الناس برأى مفيد أو تنهى نزاعا شائكا ، وربما كانت تقلد فى ذلك أعمال الملك المقدس : فرئيس الشرطة كان مشتركا فى أحد المواكب المقام تمجيدا لإيزيس ، فمالت صورة المعبودة المقدسة نحوه ، من أعلى المركب ، فما فتىء هذا الرجل أن حظى برقى سريع .

وفى العاصمة كانوا يستشيرون بصفة دائمة المعبود الكبير الذى ينتمى إلى طيبه (آمون) فعندما اتهم أحد أتباع آمون بإخفاء أشياء يحتفظ بها وضعوا المعبود فى المركب المقدس وحملوه إلى مكان معين فى المعبد وكتبوا عبارتين متناقضتين الأولى : « يا آمون رع سونتير Amonrasonter يقولون إن تحتمس يحتفظ بالأشياء التى اختفت ، والثانية ، « يا أمون رع سونتير يقولون إن تحتمس لا يحتفظ بشىء مما اختفى » ولما طلب إلى المعبود أن يبدى رأيه فيما إذا كان يقبل أن يحكم فى هذه القضية رد عليهم بكلمة « نعم » . فوضع المكتوبان أمامه وأومأ آمون مرتين إلى المكتوب الذى يبرىء المتهم فأطلق سراح تحتمس على الفور وأعيد إلى وظيفته واسترد مكانته من جديد ، بل أسندت اليه أعمال أخرى تتطلب الثقة . وذات مرة ، أثناء سير الموكب ، سأل كبير الكهنة المعبود آمون عما إذا كان من المستطاع أن تقصر مدة المحكوم عليهم بالنفى فى الواحة الكبرى ، فرد عليه

برأسه « نعم » (٢٦) وإذا كان ملك الآلهة لا يستنكف أن يرد على أبسط العامة فكان يسره بالأحرى أن يشغل بالمهام الكبرى للدولة . فعندما أراد رمسيس الثانى فى بدء حكمه أن يعين كبير كهنة آمون اشترك المعبود فى حضور مجلس الاستشارة حيث تليت أسماء المرشحين وجميع من كان من حقه أن يشغل المنصب ، الواحد تلو الآخر ، والاسم الوحيد الذى حظى بموافقته هو نبونف Nebonnef . وأعتاد حريحور كبير الكهنة أن يستشير خونسو فى عدد كبير من الموضوعات ، وعندما كان عرش إثيوبيا خاليا اصطف الأمراء أمام آمون واختار من بينهم المرشح الذى ولاه العرش . (٢٧)

والمستندات والوثائق التى بين أيدينا لا توضح لنا تماما كيف كان المعبود يظهر رغبته فى الاختيار لأنها لسوء الحظ ، غير واضحة وضوحا كافيا . قد يعتقد بعض علماء الآثار ، وربما كانوا متأثرين بقصة دون كيشوت ، أن أجزاء جسم كانت تتحرك آليا ، فدون أن تجيب كلاما كان فى إمكانها أن ترفع أو تخفض أذرعتها وتحرك رأسها وتفتح أو تغلق فمها . وقد يكون متحف اللوفر هو الذى يحوى التحفة الوحيدة المعروفة لتمثال يتكلم ، وهى على هيئة رأس ابن آوى وفكه الأسفل متحرك ويظل فم هذا الأنوبيس مفتوحا عادة لا يقفل ، إلا إذا شد بخيط (٢٨) وفى بعض الأحوال الأخرى كانوا يأتون بالمعبود الذى يرغبون فى استشارته محمولا فوق أعناق الكهنة فاذا انحنى إلى الأمام فمعنى هذا أنه موافق ، وإذا عاد بظهره إلى الخلف فمعنى هذا أنه يرفض الموافقة (٢٩) . ولم تكن نتائج هذه الاستشارات واضحة دائما وعندما يعين المعبود شخصا لمنصب يمكننا أن نقول بلا شك إن هذا التعيين سبق الاتفاق عليه من قبل . وعندما يبرىء المعبود متهما فلا يعقب

أحد على قضيته بل تحفظ ، وما على الذين سرقوا إلا أن يبحثوا عن اللصوص بعيداً عن ذلك الذى برىء ولكن ماذا عساه يحدث لو اتهم المعبود شخصا بأنه مذنب ؟ أفضل حل له هو أن يعيد المسروقات أو يدفع الثمن الذى يطالبونه به . أما إذا رفض فى عناد ، فإنه يعامل معاملة لص كاذب ويعاقب عقابا مضاعفا جلدا بالعصا . أما إذا كان الأمر يتعلق بالتحكيم فى منازعات فلا شك أن الطرفين كانا قد وعدا مقدما بقبول نتيجة التحكيم ، مهما كان الأمر .

وكان فى معبد آمون شرطة وسجن . وفى البر الغربى كان رجال الحدود الميجاوو Medjaiou على أتم استعداد لتنفيذ أحكام المعبود بالقبض على المخطئين دون إمهال .

٤ — خروج المعبود

كان فى استطاعة المؤمنين أن يتقربوا إلى معبودهم داخل المعبد فى أى وقت وأن يفضوا اليه بمشا كلهم وبما يشغل بالهم أو يعبروا له عن عرفانهم بالجميل . على أن المعبود كان يخرج من مكانه فى المعبد مرة واحدة على الأقل ، كل عام ، فى موكب كبير ليطوف بالمدينة وبالضواحى المحيطة بها . وكان الأهالى بأجمعهم ينتظرون بفارغ الصبر هذه الزيارة التى يقوم بها المعبود ، كما كانت ترقبه المدينة فى شوق كبير ، وقد عرفت بعض هذه الزيارات بتجمع الأهالى وازدحامهم من أقصى البقاع . وقد شاهد هيرودوت حشداً من المراكب مملوءة بالرجال والنساء تتجه ناحية باسط Bast بمناسبة عيد المعبودة باستيت Bastit . ولم تنقطع النسوة عن تحريك الصاجات ورنينها ، بينما كان الرجال يعزفون على الناى . وكان الباقون يغنون ويصفقون

بأيديهم ، وعندما يمرون بمدينة كان سيل حشدهم يتضاعف . وكان الحجاج يمزحون مع أهالى المدينة ويوجهون إليهم مزاحا صاخبا يلقى تجاوبا من الأهالى بنفس الأسلوب . وكان كثيرون ، بدافع المشاركة يتركون أعمالهم بالمدينة ليروا عن قرب الاحتفال بالعيد الذى كان يستحق ذلك فعلا لأن سبعمائة ألف حاج بمجرد أتمام الاحتفال الدينى كانوا يبدأون المرح ويستسلمون للملذات لاهين فرحين إلى أقصى حد . وكانوا يبالغون فى مزاحهم بعض المبالغة نظرا لأنهم كانوا يتناولون كميات وفيرة من النبيذ فى باست وإذا صدقنا ماقاله هيرودت — وقد يكون مبالغا فيه إلى حد ما — أنهم كانوا يتناولون فى خلال أسبوع من أعياد باسط كمية من النبيذ تفوق ما يستهلك فى أرض مصر كلها خلال عام كامل . (٣٠)

● — خروج المعبودين

كان وجود الملك ورجال البلاط فى العاصمة يضفى على موكب خروج المعبود بهجة الأعياد الوطنية . وقد اتفق عيد تتويج رمسيس الثالث مع عيد مين Min ، معبود قفط Coptos والصحراء وإله الخصب . وكان يحتفل به فى الشهر الأول من فصل شمو Chemou ، عندما يبدأ حصاد القمح (٣١) ويتحد الملك مع المعبود ، فى وقت واحد ، فى رياسة الاحتفال بالعيد فيخرج رمسيس الثالث من قصر الحياة والصحة والقوة بهيا كالشمس المشرقة ، متكئا فوق محفة متنقلا من قصره إلى مسكن والده مين ليتأمل جماله . وتتكون هذه المحفة من مقعد كبير ذى مساند جانبية أقيم فوق قاعدة مرتفعة يتوجها طنف ، له أربعة أذرع طويلة . وكانت تحتاج إلى أثنى عشر رجلا على الأقل لحملها وكانت جوانب هذا المقعد مزينة بأسد يسير وبأبو الهول . وأما ظهر المقعد فقد زين برسم معبودتين مجنحتين تضفيان عليه الحماية ،

ومكان موطئ الأقدام ، المزود بوسادة ، فقد ثبت أمام المقعد . وكان أبناء الملك وكبار موظفى الدولة يتنافسون تنافسا كبيرا لينالوا شرف حمل هذه المحفة الملكية . وكانوا يظلون سيدهم من أشعة الشمس بمظلات من ريش النعام ويروحون له بمراوح ذات أيد طويلة تصل إلى مستوى وجه الملك . وتسير فى مقدمة الموكب مجموعة كبيرة تتكون من بقية أبناء الملك وكبار الموظفين، يحملون الشعارات الملكية كالصولجان والقضيب* والعصا والبلطة ويرى أحد رجال الدين بين هذا الجمع يحمل ملفا يتضمن برنامج الاحتفال وينظم كل تفاصيله . وهناك كاهن لا ينقطع طول مسير الموكب عن تحريك مبخرته تجاه الملك لأنه يجب أن يحتفل بملايين الأعياد ومئات الألوف من السنين التى تعبر عن أبديته على عرشه . ويسير أكبر أولاد الملك ، وهو ولى العهد مباشرة أمام حاملى المحفة . أما النصف الثانى من الموكب فكان مكونا من الخدم ورجال الجيش . ونرى فى الموكب نفس الأشخاص الذين قابلناهم من قبل وهم يحيطون بالملك حين يكون على رأس جيشه أو عندما يندفع مهاجما فى معركة أو يطارد الثيران المتوحشة . وقد حمل أحد الرجال سلما صغيرا يستعمله الملك حينما يهبط جلالته إلى الأرض . أما العسكريون فكانوا مسلحين بالدبابيس والرماح والدروع .

وعندما يصل هذا الموكب إلى مسكن المعبود حين يهبط الملك من محفته ويقف أمام هيكل المعبود وبه مقصورته التى تحتوى على تمثاله . ويقوم فرعون بمباشرة مراسيم تبخير المعبود وتطهيره بسكب المياه المقدسة عليه ، ثم يقدم القرابين لأبيه الذى يمنحه الحياة ، وتفتح بعد ذلك الأبواب ليشاهد الناس جمال المعبود الواقف أمام هيكله . أما جسد المعبود وأطرافه التى لم تكن أيزيس قد فصلتها بعضها عن بعض ، فكانت داخل غطاء محكم ، وفوق

* السوط : (المزخة)

رأسه غطاء على هيئة الهاون تبرز منه ريشتان صلبتان وشريط يتدلى حتى يصل إلى الأرض ، وله لحية مستعارة ثبتت فى ذقنه ، وحلية للصدر تتدلى من رقبته . ويتكون هيكل المعبود مين من عناصر عديدة : كوخ قمعى الشكل على هيئة خلايا النحل وتشبه إلى حد كبير مساكن أهالى بونت ، وهذا الكوخ متصل بعمود رفيع يعلوه قرنان وصارى ربطت به ثمانية حبال يتسلقها زنوج ، وأخيرا مربع من الأرض زرع فيه نبات الخس . كان مين معبودا منذ عهد قديم جدا وقد جاب أماكن كثيرة قبل أن يصل إلى قفط حيث حمل إليها متعا مختلف الأنواع .

وكانوا يتلون تراتيل راقصة وهم يرفعون التمثال من تابوته ليوضع فوق محفة يحملها أثنان وعشرون كاهنا ، لانرى منهم سوى الرؤوس والأقدام أما بقية أجسامهم فكانت مغطاة بالستائر المزينة بالورود التى كانت تتدلى من المحفة . وثمة كهنة آخرون فى المقدمة وعلى الجوانب وفى الخلف كانوا يحركون باقات الزهور ويحملون مراوح ذات أيد طويلة ومظلات بينما يحمل كهنة آخرون صناديق الملابس الخاصة بطقوس هذا المعبود . وتحمل مجموعة أخرى صغيرة من الكهنة الصندوق الذى يحوى نبات الخس مرفوعا على حامل .

ومنذ تلك اللحظة كان على الملك أن يقود الموكب ، وقد استبدل بخوذة الرأس الزرقاء التى كان يلبسها عندما غادر قصره ، تاج الوجه البحرى وأمسك بيده عصا طويلة ودبوسا .

ويلاحظ حضور الملكة هذا الاحتفال . وينضم إلى الموكب مخلوق جديد ، هو ثور أبيض ، يحمل بين قرنيه قرص الشمس تعلوه ريشتان طويلتان ، هذا الثور يمثل تجسد المعبود ويطلق عليه عادة فى أغلب الأحيان

اسم « ثور أمه » وبتولى كاهن ، حليق الرأس قد تعرى نصفه الأعلى ، تبخير الملك والثور وتمثال المعبود فى آن واحد .

ويلاحظ خلف هذه المجموعة ، حاملو القرابين وحاملو الأعلام ، وهى أعلام الآلهة التى كانت قد اصطحبت المعبود مين فى أسفاره وهجرته ، وأصبحت هذه الآلهة تشترك فى كل أعياده وهى ثعالب وصقور وطيور والأيبس والثور الراقد وأعلام الأقاليم ومن بينها الإقليم الثانى فى الوجه البحرى خم Khem حيث كان مقر المعبود مين ، كما يرى سوط ودبوس . ويتبعهم بعدئذ الأصدقاء القدماء للمعبود مين ، من الملوك الأجداد السابقين التى تحمل تماثيلهم الخشبية المذهبة على أكتاف عدد يماثلها من رجال الدين ، فالأول للملك الجالس على العرش والثانى لمينا مؤسس الملكية ثم تمثال نب خرو رع Nebkherourê الذى أعاد الوحدة بين الوجهين ، ومعظم ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . ولم يسمح بأن تتضمن هذه المجموعة الملكة حتشبسوت ، التى كان لابن أخيها تحتمس الثالث بعض الأسباب الوجيهة التى حملته على كراهيتها ، وكذلك أخناتون والملوك الذين تولوا الحكم بعده ، وبعض الملوك الذين لم يكن حكمهم مجيدا فقد أبعدوا بدورهم عن هذا الاحتفال .

ثم يتحرك الموكب إلا أنه يتوقف عدة مرات قبل أن يصل إلى قدس الأقداس وهو المكان المقصود فى نهاية المطاف ، وفى هذه المراحل يستمع المشتركون فى الموكب إلى تراتيل راقصة أخرى لا نفهم منها شيئا كثيرا ، فالجزء الأكبر من نصه كان غامضا لا يفهمه حتى أغزر الكهنة علما ، فى عهد الرعامسة ، وهذا مما يزيد فى قدسيته . ولنتذكر فقط أن الآلهة كانت ترقص للمعبود مين ، وكان يتبعها زنجى من بلاد بونت وكان يطلق فعلا على

المعبود مين ، والد الزنوج . وكانوا يرسمون وجهه بلون أسود إذ أن أتباعه الأوائل كانت دماؤهم مختلطة نوعا ما بالدماء الزنجية .

ثم يصل أخيرا التمثال والموكب إلى الميدان الذى أقيم فيه قدس الأقداس ليستقر فيه مين ، ويحمل كاهنان أعلام سحرة الشرق ويقفان أمام المعبود مين بينما يقدم فرعون من جديد قرابين عظيمة أخرى وما كان يتم فى هذه الحفلة الحاسمة قد اتضح لنا فى جزء من نشيد كان يرتل فيما بعد :

« سلام عليك يامين يامن حملت أمه منه ! كم هو سر عجيب ما فعلته بها فى الظلام ! » وجاء فى فقرة من نشيد آخر أن « مين ، ثور أمه قد أخصبها ووهبها قلبه بينما كان خصره دائما بجانب خصرها » (٣٢) وفى الواقع ، لم تكن هى أمه الحقيقية ، تلك التى أنجب منها ولدا ، ولكنها كانت إيزيس التى ولدت هورس ، هذا الذى توج ملكا على الوجهين مصر العليا ومصر السفلى .

ولإحياء ذكرى هذا الحادث الكبير ، وضع الملك فوق رأسه التاج المزدوج ، والتماسا للحماية وضع صقر نخبيت Nekhabit بدلا من صل واجيت Ouadjit . وقد أطلق سهامه فى اتجاه الجهات الأصلية الأربع ليقضى على أعدائه ويطلق بعدئذ حرية الطيور الأربعة المسماة أبناء هورس وهى أمست Amset وحابى Hâpi ودواموتف Douamoutef وقبح سنوف Qebehserouf ، التى ستعلن فى جميع أنحاء العالم كيف أن الملك جدد ما سبق أن فعله هورس قبل أى مخلوق آخر عندما توج رأسه بالتاج الأبيض والتاج الأحمر . وكانت هذه الطيور من النوع الذى يهاجر سنويا تأتى من الشمال فى فصل الخريف وتعود فى الربيع .

إن تولية ملك تقى ومحبوب من الآلهة كفيلة بأن تضفى على أرض مصر كل أنواع الخير والبركات . وقد آن الأوان لتمجيد خصوبة البلاد ،

فوضعت التماثيل على الأرض وكون المجتمعون دائرة حول الملك والملكة . وقدم أحد الموظفين منجلا للملك من النحاس كفت بالذهب وباقة من الغلال بوتى Boti لاتزال الأرض التى أنبتته عالقة فى جذوره ، وكان هذا مثالا مصغرا للحقل الممتد إلى أبعد حدود البصر من البحر حتى الشلال . يقطع الملك السنابل من أعلاها كما كان يفعل حاصدو إقليم طيبه بينما ينشد أحد الكهنة نشيداً جديدا لمين المقيم فى الحقول المزروعة ، وقبل أن يغزو قفط أقام سيد الصحراء السابق فى الوادى الذى كان خصيبا فيما مضى ، والذى يصل هذه المدينة بوادى روهانو Rohanou كما أنه أنبت المراعى التى تغذى الماشية ، ثم تقدم حزمة القمح للمعبود وللملك الذى يحتفظ بسنبلة منها ثم ينشد آخر نشيد ، وفيه تفخر والدة مين بقوة ابنها المنتصر على أعدائه .

وينتهى الحفل بعد إتمام هذين النشيدين ، فيعاد التمثال إلى تابوته ويستأذن الملك من المعبود وهو يقدم له البخور ويسكب عليه الماء المقدس ، ثم يقدم له قرابين جديدة ، فيشكره المعبود مين فى إيجاز . وبعد ذلك يلبس الملك من جديد الخوذة الزرقاء التى كانت فوق رأسه عند بدء الاحتفال ويعود إلى القصر .

وحسب ما نعلم كان المعبود والملك وأعضاء الأسرة الملكية والكهنة وكبار الموظفين هم وحدهم مع الشخصيات الأخرى الذين يظهرون فى موكب خروج مين الكبير ، لأن الفنانين المسئولين عن الرسوم التى وردت على جدران معابد الكرنك ومدينة حابو قد نسوا الشعب . وكان المزارعون فى ذلك الوقت من العام جد مشغولين بالعمل فى الحقول ، ولكننا نستطيع أن نفترض أنه كان يوجد فى المدينة بعض الناس ممن كانوا يتمكنون من أن

يوفروا من الوقت ما يتيح لهم أن يصطفوا فى الطرق عند مرور المعبود مين وثوره الأبيض .

٦ — عيد أوبت الجميل

كان الاحتفال بالعيد الجميل لآمون فى أوبت Opet ، يفوق كثيراً احتفال المعبود مين ، إذ أنه كان احتفال الشعب بأجمعه . كان يقع خلال الشهرين الثانى والثالث من الفيضان أى فى الوقت الذى تصل فيه مياه الفيضان إلى أقصى زيادة ، ووقتئذ لا يكون للمزارعين أى عمل ، أما القوارب فتتحرك بسهولة لا فى مجرى النيل الكبير فحسب بل فى القنوات وخارج القنوات لأن الأرض كلها كانت مغطاة بالمياه .(٣٣) ولم يعد مستطاعاً الانتقال فوق الجسور . إذ تآكلت بفعل المياه ، وأعدت للعمل جميع القوارب والمعديات والأطواف . ومن معبد أوبت بالكرنك تبدأ احتفالات العيد(٣٤) فيتخذ الباعة الجائلون أمكنتهم حول الأعمدة الضخمة للمعبد حيث كانوا يعرضون على المارة البطيخ والرمان والعنب والتين الشوكى والطيور المذبوحة التى نظفت وأعدت للطهى أو التامة النضج والخبز . وفى داخل المعبد كان كل رجال الدين على أتم استعداد للعمل . وأول شىء كانوا يفعلونه هو التوجه إلى داخل القاعات بحثاً عن المراكب الموضوعة على قواعدها والقوارب التى يمكن حملها والخاصة بمعبودات طيبه وكانت مراكب آمون أكبر هذه المراكب ، ويمكن التعرف عليها بسبب رأسى الكبش اللذين يزينان مقدم المركب ومؤخرها . أما مركب موت Mout فيزينها رأساً سيدة . فوق كل منهما زينة للرأس على هيئة نسر إذ أن أسم زوجة آمون (موت) ، يكتب بعلامة النسر والمركب الثالث مركب خونسو وتتميز برأسى صقر . ثم تحمل هذه المراكب على الأكتاف ويمر بها حاملوها فى أفنية المعبد وبين أعمدته ثم

يسيرون فى الطريق المقام على جانبيه تماثيل لأبو الهول ذات رؤوس كباش ، ويمتد الطريق حتى المبنى الكبير . ويرتدى حاملو المركب مآزر طويلة ذات حمالات ، وهم حليقو الذقون ورؤوسهم عارية . ويسير أحد قارعى الطبول فى مقدمة الموكب ، وكان رجال الدين الذين ألقوا جلد الفهد على أكتافهم يحرقون البخور فى المباخر ذات الأيدى ، ويرمون الرمال ويرفعون بأيديهم مظلات مفتوحة ومراوح .

واصطف على طول الرصيف أسطول هام . ولا تدنى المقارنة بين مركب آمون ومركب المعبودة ومركب خونسو وبين بقية المراكب الأخرى التى يمكن حملها والتى أخرجت من مخابئها . فهى بمثابة معابد حقيقية عائمة يصل طولها إلى ١٢٠ أو إلى ١٣٠ ذراعا . وبذلك تفوق فى الطول أكثر المراكب التى تمخر عباب النيل وكانت تزين بزخارف جد فاخرة وتصنع من أجود أنواع خشب الصنوبر الذى ينبت فوق المدرجات (فى لبنان) وقد هيء ليطفو بالرغم من ثقل وزن الذهب والفضة والنحاس والفيروز واللازورد (وقد بلغ جملة وزن الذهب المستعمل فى صناعة السفينة أربعة أطنان ونصف .) وقد زين هيكل المركب ، على غرار جدران المعابد بالنقوش المحفورة التى تمثل الملك وهو يؤدى الشعائر المعروفة التى اعتاد أن يؤديها أمام آمون ، ويقام على ظهر المركب ، فى الوسط بيت كبير ، تعلوه ظلة توضع على سطحها المراكب التى يسهل حملها ، والتماثيل ، وكل الملحقات الصغيرة التى أتى بها من المعبد فى احتفال خاص . وكان يسبق هذا البيت الكبير مسلتان وأربعة من صوارى الأعلام ، مثله فى هذا مثل المعبد الحقيق وانتشرت فى كل مكان تماثيل أبو الهول وتماثيل صغيرة وتماثيل كباش ضخمة علقت فى مقدمة ومؤخرة المركب . أما مراكب موت وخونسو

وكذلك المركب الملكية . فبالرغم من أنها كانت أقل حجما إلا أنها كادت تماثلها روعة .

ولم يكن بالأمر الهين أن تتحرك هذه المراكب وحدها ، فكانت تشد أولا إلى مجرى النهر ، وهذا يتطلب استخدام جيش بأكمله ، مكونا من جنود بملابسهم الرسمية ، مرتدين مآزرهم الحربية ومسلحين بالحراب والبلط الصغيرة والدروع . يحيط بهم حملة الأعلام والشارات ، والبحارة . وقبل بدء العمل يرتلون نشيداً لآمون ويمسك الرجال المكلفون بسحب المراكب الحبال المفتولة ويشجعهم الرؤساء، بل كان الأهالى الذين هرعوا إلى الشاطىء يعاونونهم أيضا . وأثناء ذلك كانت النساء تحرك الصلاصل والصاجات ، ويصفق الرجال بأيديهم ، ويقرعون الطبول بمصاحبة الأنغام الليبية واناشيد الجنود ، ويرقص الزنوج متشابكين ويثبون منتشين ويمر بين الأهالى نافخو النفير والجنود وقد وضع كل منهم ريشة فى شعره . وأخيرا يكون قد مر الوقت العصيب ، وتم سحب المراكب المقدسة إلى مجرى النيل الكبير بعد أن عاونتها مراكب شراعية أو مراكب تعمل بالمجاديف ، تحت إشراف « رئيس » كان يفرقع بسوطه ويتبع هذا الموكب الساحر قوارب من كل الأنواع والأحجام ، ويرى قارب صغير أنيق ، على شكل طائر ، له دفة هيئت على شكل رأس آدمى محلة بما كولات حتى الحافة ، كما يرى أحد بحارته وقد أخذ يعيد ترتيب حمولته ، وآخر يشكل هرما من الفاكهة والخضر .

والأهالى الذين أتوا من كافة الجهات ليشاهدوا هذا الاحتفال ويشاركوا فيه بقدر مايستطيعون، قد ملأوا شاطئ النيل . وكان يعجبهم هذا المنظر أيما أعجاب ، وقد أقيمت الخيام والمشارب فى كل مكان ولا يفتأ التموين من الطعام يتدفق من كل ناحية ، وكان يرد على هيئة قطعان من الثيران والعجول

والغزلان والتيوس والطيور والماعز البرى ، هذا بجانب سلال الفاكهة والبخور اللازم لتطييب الهواء وتنقيته. وعندما تذبح الثيران سرعان ما يسلخ جلدها فى المجازر التى أقيمت فى العراء ، وتقطع إلى أجزاء ثم ينقلها الحمالون إلى البيوت الصغيرة ذات الأعمدة والزخارف المبهجة ، على بعد خطوات ، حيث الطهاة يعدون الطعام . ولا ينقطع الجنود الليبيون عن دق الطبول وعلى رنين الصلاصل والصاجات المتواصل ، تتمايل الراقصات وصدورهن عارية .

والهدف من هذه الرحلة النيلية هو أوبت Opet القبلية حيث يكون آمون معبود الكرنك ضيفا على مدينة الأقصر لمدة بضعة أيام وليس لدينا معلومات دقيقة عن الطريقة التى كان يقضى بها آمون وقته . ولم يكن آمون إلا حديث عهد ضمن مجموعة المعبودات المصرية . وقد استقر فى طيبه فى أوج عهدها التاريخى . والمصريون هم الذين جعلوا له من موت زوجة ومن خونسو ابنا ، إذ يتعين أن يكون لأقوى معبود أسرة إلا أننا لا نعرف له أسطورة خاصة . وكما أن آمون ورث عن مين بعض ألقابه وبعض صفاته ، فقد استطاع أن يعيره بعض عناصر من قصته الأسطورية . وقد يمكن حينئذ خلال هذه الحفلات التى لا تنتهى ، تمثيل بعض فصول من أسطورة آمون ، سواء كانت صحيحة كليا أو جزئيا ، أمام فرعون ، عن المساعدة الفعالة التى قدمها آمون لرمسيس الثانى عندما أحاط به أولئك الجنود اللئام من الحيثيين .

ومهما يكن من أمر فإن الاحتفال كان ينتهى بمجرد عودة الاسطول المقدس وكانوا يحملون من المراكب الكبرى ، الزوارق الصغيرة ويعودون بها إلى أماكنها داخل المعابد ، التى كانت بها منذ أربعة وعشرين يوما مضت . ومرة أخرى يتكون نفس الموكب ، يتقدمه قارعو الطبول مخترقا طرق الكباش ، غير أنه يعود فى كثير من الهدوء وقليل من الضجة . وكان

الملك بعد هذا الموكب على ثقة تامة بأنه سيمتلك كل الخيرات التى يمكن أن ينالها إنسان من المعبودات وهى : « طول حياة رع — ومهمة توم — والحصول على سنوات الخلود وهو متول عرش هورس فى سرور ونشاط، والانتصار على جميع بلاد الدنيا — وقوة آمون أبيه المتجددة كل يوم — وتولى مملكة الوجهين — ويكون له شباب الجسد والأبنية التى لاتبلى ولا تنهدم مثل السماء للأبدية وتكون الطيور الرشيقة طوع إرادته وتبقى دورة قرص الشمس دائما أمام وجهه . »

أما الشعب فقد أكل وشرب وهلل وأخذ يمرح مايقرب من شهر كامل . وقد قرعينا بمشهد عظيم وشعر أن خيره وحتى حياته وحريته وقف على هذا الرجل الذى يشبه الآلهة والذى طاف بوالده آمون بين معبديه الكبيرين .

٧ — عيد الوادى

يقلع مركب آمون المقدس من مرساه للاحتفال بعيد آخر ، هو عيد الوادى . (٣٥) وكان يعبر النيل تشده المعبودات ، ويفسر بعض العلماء (هذه العبارة) بأن المتنكرين الذين يضعون أقنعة ضخمة على مثال سحرة أفريقيا الاستوائية هم الذين كانوا على هيئة المعبودات وكانوا يسحبون المركب . وهذا على أية حال مجرد تفسير خاطىء كما لو كنا نفترض أن الأطباء والقابلات والممرضات والمرضعات ممن كانوا يعنون بالملكة أو بطفلها الحديث الولادة كانوا يرسمون على هيئة معبودات على جدران معابد الأقصر والدير البحرى . ويبدو أن ليس لهذه المناظر أدنى قيمة مثالية بل تبرهن فقط على مدى العناية التى كانت الآلهة تمنحها لفرعون ومدى تتبعها لكل أعماله وتقديرهم للجهد الذى يبذله فى سبيل تجميل مدينة آمون .

وعيد الوادى كانت مدته أقصر من مدة عيد أوبت إذ كانت تستمر عشرة أيام فقط ، فيخرج الملك من القصر مرتديا زيا بسيطا يتبعه حاملو المظلات وخدمه ويرتدى قبل أن يدخل المعبد «فوطة» فاخرة ، ويضع فوق رأسه أغلى غطاء للرأس فيه قرص الشمس وريش وثعابين الكوبرا وقرون الثور وقرون الكبش . والغرض من هذه الرحلة هو دعوة آمون لزيارة معابد الضفة الغربية ، فيتخذ بهو الأعمدة فى معبد الرمسيوم مكانا مختاراً يستريح فيه ، ويستقبل ملك الآلهة ، زيارة المعبودات شفعاء الموتى . وهكذا يترك تمثـــال الملك المقدس امنحتب الأول معبده محمولا على نقالة يرفعها ويحيط به آخرون يحملون الأسواط الملكية ويحركون مراوح ذات أيد طويلة ومظلات ، وكانت تنتظر الملك ، فى قناة قريبة ، مركب مقدس يحمله إلى الأوزيرحات Ousirhat*(٢٦) وعندما يجتمع شمل المعبودات كلها تقام الحفلات لصالح العدد الكبير من الموتى الذين يرقدون فى سراديب الجبل الغربى .

٨ - الأسرار الدينية

لم تكن الاحتفالات بخروج المعبودات تطول أياماً عديدة ، ولم تكن تجذب إليها وفودا كبيرة من الأهالى إذا لم يكن منظم الاحتفالات قادراً على جعل المشهد متنوعا ، فسرعان ما يعترى الإنسان الملل من رؤية مركب مموه بالذهب بصفة دائمة أو من مشاهدة رقص مستمر على دق الطبول . فلأجل اجتذاب اهتمام الأهالى ، فكروا منذ أقدم الأزمنة فى تمثيل أشد الوقائع إثارة فى حياة المعبودات وأفضل من ذلك أيضاً أن يتولى الحجاج أنفسهم تمثيل دور هؤلاء الآلهة . ويعلم المصريون جميعاً أن أوزيريس كان ملكا

* أوزيرحات هى مركب آمون المقدس الكبير .

محسناً ، كما يعرفون كيف قتله ست وألقى به فى النيل وكيف وصل جسده إلى أرض جبيل وكيف عاد منها إلى آخر القصة ، وكانوا جميعاً يستطيعون الاهتمام فى شوق لتمثيل هذه المأساة المثيرة وكان فى إمكان الكثيرين منهم القيام بالأدوار الصغيرة ، أما الأدوار الهامة فتترك للمحترفين .

وأكثر تمثيليات أوزيريس إثارة هى تلك التى كانت تمثل فى ايدوس (Abydos) وأبوصير (Bousiris) ، حيث يبذل المخرجون مجهودا عظيما فى أدق التفاصيل سواء فى ذلك مايختص بالملابس أو الإخراج وكافة مايلزم للتمثيلية كان يعده الموظفون فى دقة وعناية [٢٧] وكانت تتضمن هذه التمثيلية موكبا يقوده المعبود أوب واوات فاتح الطرق ، وكان الأعداء يحاولون اعتراض موكب سير المعبود ولكنه كان يصل منتصرا حتى داخل المعبد . أما تمثيل قتل المعبود فكان يجرى فى احتفالات عيد آخر أو فى فصل ثان أو كانت تروى وقائع القصة على الأقل . فيتوجع المتفرجون ويتجه موكب عظيم إلى مقبرته ، وفى حفلة أخرى يمثل مقتل أعداء أوزيريس فيعم الجمهور الفرح عندما يرى المعبود وقد أعيدت اليه الحياة ويعود إلى قصره فى أبيدوس مستقلا المركب نشمت Nechmet وفى أبوصير Bousiris يرفعون عمود أوزيريس بالحبال وكانت الجماهير ترقص وتقفز وقد غمرها السرور ، ومن بين الأهالى تمثل جماعتان سكان بيه ودب Pé & Dep البلدين المتقاربين وكانتا تتعاركان باللكم والرفص تمهيدا لاعتلاء هورس العرش . وفى سايس Sais حيث شاهد هيرودوت تمثيليات ليلية على حافة البحيرة المستديرة مثلث فيها قصة المعبود بكل تفاصيلها وما جرى فيها من آلام وعذاب وما تضمنتها من تلك الرحلة العجيبة إلى جبيل وتحول المعبود إلى عمود .

كما أتيحت لهيرودوت الفرصة فى أن يزور پاپريميس l'apremis فى شمال شرق مصر وهى مدينة كرست لست ، قاتل أوزيريس وقد شاهد فيها إحدى التمثيليات من نفس النوع وليس هذا مستغربا لأن ست كان معبودا محاربا . وقد نقل تمثال المعبود وهو فى تابوته خارج الأملاك المقدسة يحرسه رجال الدين ولما حان وقت عودته كان يوضع فوق عربة ذات أربع عجلات. وما لبث أن هجم أكثر من ألف شخص مسلحين بالعصى الغليظة على الكهنة الذين كانوا يحرسون التمثال ، وأتت لهؤلاء إمدادات من الرجال . وأصبحت الاشتباكات عنيفة . وفى نهاية المعركة ، كانت الأعين المصابة والجماجم المكسورة تفوق الحصر . ومع هذا فإن أهل المدينة زعموا أن هذا لم يكن إلا مجرد مزاح . ويرمز هذا إلى أن ست عندما أراد أن يدخل بيت أمه ولم يعرفه الخدم فمنعوه من الدخول فذهب وأحضر نجدة أبعدت عن طريقه من كانوا يريدون منعه من الدخول (٢٨)

وفى أمبوس* فى مصر العليا كان جوفينال Juvénal قد شاهد تمثيلا مشابهاً ولكنه لم يكن بصيرا كهيرودوت إذ أن احتقاره للمصريين جعله يعتقد أنه يشاهد معركة حقيقية بين فريقين متعاديين فقال إن حقدا قديما فرق بين أمبوس ودندره ، لأن أهالى كل من هذين البلدين يحتقر معبودات الآخر . وحدث أن إحدى البلدتين كانت تحتفل بعيد معبودها وقد أعدت المناضد والأسرة لمدة أسبوع وكان الجميع يرقصون على نغمات المزمار عندما ظهر أهالى البلد الآخر وابتدأت فى الحال معركة كانت أولا بقبضات الأيدى ثم تطورت بالقذف بالأحجار ثم أخذوا يتقاتلون بالسهام ، وأخيرا هرب أهالى دندره وتركوا خلفهم واحدا منهم على الأرض . فأمسك به أهالى

---

* فى اقليم القنتين وهو يعبد ست .

أمبوس وقطعوه إربا والتهموا لحمه نيئا. (٣٩) وفى الواقع أن أمبوس التى يطلق عليها المصريون اسم نوبيت Noubit كانت إحدى مدن ست أمادنذره فكانت من أملاك حاتحور . وقد وقعت مشاجرات فى أمكنة كثيرة بمجاورة بين أم هورس ومريديها ، من ناحية ، وبين المعبود المخرب المحب للشجار ، من ناحية أخرى ، وما شاهده جوفينال كان إحدى هذه المعارك التى رسمت فى العصر المتأخر وتنطوى على الصخب أكثر مما تنطوى عـــلى ضرر حقيقى (٤٠) .

ويوجد فى كل الأقاليم ، وفى كافة المدن ، من الطقوس الدينية والقصص المخلية ما يمكن أن يستخلص منه مادة غزيرة للتمثيليات . ولا يمكن الشك عندما نتصور فقط فخامة المعابد وعدد رجال الدين والموظفين الذين كانوا يشتركون فى الحفلات إلى أى حد كان الشعب المصرى محبا للانتقاد واللوم. ففرعون نفسه هذا المعبود الذى لم يكن ليتسنى لأحد الاقتراب منه دون أن تعتريه الرعشة من الخوف كان هدفا للنقد فقد قيل عنه فى القصص إنه قد ضرب خمسمائة عصا(٤١) وقد خدعته نساؤه وهو أعجز من أن يتحمل المسئولية أو يتخذ قرارا فكان بذلك عبدا للمستشارين والسحرة ، وفى غفلته يسرقه مهندسوه . كذلك شأن المعبودات فإنها تنطوى على كافة العيوب والرذائل وتتصف بالضعف البشرى بأنواعه ، لا كرامة لها . وكان على المجلس فى اجتماعه أن يختار بين هورس وست ليحل محل أوزيريس فى القيام بمهامه ، وظل الأمر معلقا ثمانين عاما دون أن يبت فيه وبقى كل من المتنافسين ينتظر الحل . ولم يكن يقابل استهتار ست وعربدته . إلا غباوته وبلاهته . وكان هورس ، عندما يضرب ، يبكى كطفل . وعندما دعى سيد العالم المعبودة نايت Neith لتبرهن له عن مدى احترامها لقراراته ، لم تجد افضل من أن ترفع رداءها أمامه. (٤٢) أما المعبود شو فيقال إنه تعب ذاته

يوم من حكم العالم ، فطار إلى السماء . والمعبود جب Geb الذى خلفه فكر فى أن يضع على رأسه الثعبان الكوبرا الذى مكن شو من أن يفوز بكل انتصاراته . ولكن ياله من مغرور ! مد يده ليمسك الصندوق الذى به الكوبرا ، فالثعبان ، ابن الأرض ، انتصب فجأة وألقى كل سمومه على وجه المعبود ، فلما شعر بقسوة الحرق وشدة الألم ، أخذ يجرى على غير هدى بحثا عن الترياق . (٤٣)

وفى المسرحيات الشعبية التى كانت تمثل داخل المعابد ، إما فى الأفنية أو أمام الصروح ، أو على حافة الأحواض المقدسة ، كانت المعبودات تعامل بطريقة أليفة تنطوى على البساطة تقلد أساطير المعبودات المقدسة ولم يقتصر التقليد على التمثيل فقط ، بل كانوا يجعلون الأبطال والآلهة يتكلمون ولم تصل إلى أيدينا أى تمثيلية مصرية من هذا النوع ، وينبغى أن نقنع ببعض النصوص مثل بردية الرمسيوم التى أعاد نسخها الملك سباكون Sabacon من أصل قديم وقد ورد فيها فقط ذكر عناوين بعض المناظر وبعض الردرد أو الملحوظات اللبقة واجزاء بسيطة من محادثات مدونة فوق بعض المناظر من الحياة الخاصة فى المقابر ، وخاصة فى مقابر الدولة القديمة ، على أن وجود هذا المسرح يمكن أن يعتبر أمراً مؤكداً خاصة بعد أن عثر المعهد الفرنسى فى أدفو على لوحة تذكارية لممثل هزلى محترف يقول فيها : « كنت أصحب سيدى فى كل جولاته دون أن أكل أو أمل من إلقاء أدوارى ، وكنت أرد على سيدى فى كل أدواره . فان كان معبوداً كنت ملكا ، وإذا قتل أحداً كنت أعيد الحياة للقتيل . » (٤٤)

وكانت هذه التمثيليات المسرحية دون شك ، أهم مميزات تلك الاحتفالات

والأعياد التي كانت تظل ممتدة أياماً كثيرة دون أن يعتري الشعب المصري الملل أو السأم.

٩ - بيت الحياة

كانت أكثر المعابد تتضمن داخل أسوارها مدارس، وليس فقط مدرسة للأولاد الصغار لتعلم القراءة والكتابة ولكن أيضاً معاهد فنية يتعلم فيها الرسامون والحفارون والمثالون، الذين يستخدمون مواهبهم في تمجيد فرعون والآلهة. وكانت هذه المعابد تضم أيضاً مكتبات تحفظ فيها وثائق المعبد ومجموعة من النصوص المختلفة الانواع، نسخها عدد كبير جداً من الكتاب وبها أيضاً كتب في علم الأخلاق والآداب والفلسفة، التي كان يحتاج إليها صغار الطلبة، كما كانت تضم كتباً فنية. وعندما أراد الملك نفرحتب Neferhotep أن يطلع على كتب توم، قالت له الحاشية: فلتدخل جلالتكم المكتبات ولتتفضلوا بالاطلاع على الأحاديث المقدسة، وقد وجد الملك بالفعل كتاب منزل «أوزيريس خنتي أمنتيو Osiris Khentiamentiou» سيد أبيدوس[٤٥]. وكانت بعض المعابد تحتوي على أبنية أكثر أهمية من ذلك تسمى «بيت الحياة»[٤٦].

ويذكر لنا الملك رمسيس الرابع نفسه أنه كان يتردد بانتظام على بيت الحياة في أبيدوس. وباطلاعه على مدونات تحوت السنوية، التي كانت محفوظة هناك أمكنه أن يعلم أن أوزيريس هو أشد المعبودات غموضاً، وأنه هو القمر وهو النيل وهو الذي يملك في العالم الآخر. ويهبط إليه إله الشمس كل ليلة، ويكون الروح المتحدة التي تحكم العالم. ويدون تحوت أوامره». وعندما اطلع على تلك المدونات الحولية التي يعرف وقائعها كما لو كان هو الذي دونها تبين له تنوع الموضوعات التي تناولها البحث والموضوعات التي

يمكن الإفادة منها . وعندما أراد أن يحصل لنفسه على تابوت من حجر بخن Bekhen من وادى روهانو Robarou وجد فى الحوليات أخبار البعثات السابقة التى أحضرت الكثير من التوابيت والتماثيل إلى «مكان الحقيقة»* والمعابد

وعندما عين الأمراء والعسكريين وكبار الموظفين الذين يكونون الهيئة العليا لبعثته لم ينس أن يضيف إليهم كاتباً من «بيت الحياة». وعندما استقبل أحد الرعامسه سفير أمير بختان Bakhtan رأى لزاماً عليه أن يستشير كتاب بيت الحياة قبل أن يرد عليه . وعندما اكتشف فى عهد بطليموس فيلادلف كبشاً مقدساً جديداً . أرسل سكان مدينة مندس طلباً إلى الملك يلتمسون فيه أن يسمح بأن يفحص كتاب بيت الحياة هذا الكبش .

وقد بين لنا مرسوم كانوب أن هؤلاء الكتاب كانوا يشتغلون بالفلك ، كما كانوا يشتغلون أيضاً بالسياسة وهكذا كان اثنان من كتاب بيت الحياة ، من بين الذين تآمروا ضد رمسيس الثالث . ومن بين هذه الشواهد وغيرها يمكن أن نستنتج أن بيت الحياة كان عبارة عن هيئة مكونة من العلماء ورجال الدين وذوى الخبرة العباقرة ، وهم الذين يحافظون على التقاليد الدينية وهم الذين يحررون حوليات الملوك والمعابد وهم الذين يسجلون الاكتشافات العلمية وتقدم الفنون. وهم الذين اخترعوا الكتابات السحرية ذات الرموز الخاصة . ويبدو فى الحقيقة أن هذه الاكتشافات وهذا التقدم قد نشأ فى بيوت الحياة .

---

* مكان الحقيقة هى جبانة طيبه .

ويشير هذا كله إلى أن المعبد كان مركز الحياة المصرية ، وهو قبل كل شيء منزل المعبود وفيه تقام شعائر العبادات والشكر على ما أنعم به على البشر من خيرات وهو أيضاً مركز النشاط الاقتصادي والثقافي . وقد أنشأ به رجال الدين ، المصانع والمخازن والمدارس ومكتبة ، وفي المعبد ، وفي المعبد وحده كان يمكن أن يكون لنا الحظ الذي ناله أفلاطون بمقابلة العلماء والفلاسفة وفي المعبد أيضاً نشأت وتكونت التمثيليات التي استمدت موضوعاتها من القصص والأساطير والتقاليدالقديمة والتي كانت عند المصريين بمثابة الدراما والكوميديا (مآسي الحياة وملاهيها) .

الفصل الثانى عشر

الجنازات

١ — الشيخوخة

كتب لنا كل من بتاح حتب Ptah hotep الحكيم ، وسنوحى المغامر عن الشيخوخة فى صراحة فوصفاها بأنها سن القبح ، وسن الضعف الجسمانى والمعنوى. ويصبح الإنسان ضعيف البصر ، ثقيل السمع ، ضعيف الذاكرة: لا يستطيع أن يقوم بعمل إلا وهو يشعر بإعياء شديد ، ولا ينتفع بالطعام الذى يأكله . (١) ومع ذلك فقد كان المصريون جميعاً يتمنون أن يبلغوا هذه السن المرذولة ، مثلهم فى هذا مثل سائر البشر . والشيخ الذى احتفظ بمظاهر الشباب بفضل العناية الصحية وبقيت قواه المعنوية سليمة كان يثير إعجاب الجميع . فكبير الكهنة رومى روى Rome-Rov قد أقر بأنه بلغ الشيخوخة وهو فى خدمة آمون الذى غمره بعطفه ، حيث يقول : إن أعضاء جسمى تتمتع بصحة طيبة - بصرى قوى، والطعام الذى أتلقاه من معبده يبقى فى فمى. (٢) وقد تناول الحديث فى البلاط الملكى رجلا مسناً من الطبقة الوسطى قيل إنه بلغ من العمر ١١٠ سنة ويأكل بشهية حتى اليوم خمسمائة رغيف من الخبز، وكتف ثور ، ويشرب مائة جرة من الجعة . ولكن لم يذكر بوجه التحديد إذا كان يأكل كل هذا الطعام فى يوم أو خلال شهر أو فى فصل من فصول السنة أو فى سنة بأكملها . وكان هذا الرجل المسن ساحراً عالما ، وقديراً قوياً . فاعتزم فرعون استدعاءه ليقيم بجواره ، ووعد بأن يطعمه أطايب الطعام التى يمنحها الملك من المئون المخصصة لأفراد الحاشية ويتمتع

بكل ذلك حتى يلحق بآبائه فى الجبانة . وقد كلف ابن فرعون نفسه بالقيام بهذه الدعوة . . فقطع مسافة طويلة من الرحلة فى سفينة ، ثم قطع مسافة ثانية على كرسى محمول على محفة لأن العربات لم تكن قد عرفت بعد . فوجد من كان يبحث عنه ممدداً على حصيرة أمام باب بيته ، وكان أحد الخدم يروح له بالمروحة . وآخر يدلك له قدميه . . وعندما حياه الأمير ، أجابه فى بشاشة قائلا :

« سلام عليك ، سلام عليك يا ديديف حر Didifhor ، أيها النجل الملكى المحبوب من والده . ليمنحك أبوك خوفو ذو الصوت العادل ، الثناء العاطر ويعلى شأنك ، لتكون مثل من بلغ أشده من الرجال ولتتمكن روحك (الكا ka) من إحباط محاولات أعدائك . . ونفسك (البا ba) تعرف الطريق السرى الذى يوصلك إلى البوابة » فمد الأمير ذراعيه وعاونه على القيام وقاده ممسكا بيده حتى شاطئ النهر . فوصل الإثنان فى ثلاثة سفن إلى القصر الملكى حيث قابلهما الملك فوراً . وعبر الملك عن دهشته لأنه لم يسبق له أن تعرف بهذا المواطن الوقور أكبر رعاياه سناً ، فأجاب الضيف ببساطة نبيلة وكان تعبيره مثالا للملق ، قال : « مولاى وسيدى إن من يأتى هو الذى يستدعى - فقد دعيت وهأنذا قد حضرت . »(٢)

وما كانوا يسمونه ، فى العرف السائد ، بالشيخوخة السعيدة ، لم تكن الشيخوخة الخالية من الأمراض أو العاهات بل كان يجب أن يصحبها السخاء أيضاً أو على الأقل سعة العيش ، والذى يصل إلى مرتبة الشخص المحترم إمساخو Amakhou لم يكن يكفل له العيش فى أيام الشيخوخة فحسب ، بل كان يمكنه أن يعتمد على أن يكون له قبر جميل . فعندما عاد سنوحى من المنفى منح منزلا تملكه ، ويصلح لأحد رجال الحاشية . اشتغل كثير من

العمال فى بنائه وكانت أعمال النجارة فيه من الخشب الجديد ، وليس من مخلفات مبان قديمة ، كان يؤتى إلى بالطعام من القصر الملكى ثلاث مرات وأربعاً كل يوم ، علاوة على ما كان يمدنى به دائماً أنجال الملك . وبعد أن كان سنوحى يتسلم القرابين الجنائزية الملكية ، أصبح الآن يقوم بالإشراف على تشييد بيته الأبدى ، فزوده بالأثاث ونظم فى دقة كل ما يتعلق بصيانة مقبرته وبالمحافظة على المراسيم الجنائزية .(١) وكان هذا العمل مما يسر له كل شيخ طاعن فى السن ، وخاصة إذا كان هـــذا الشيخ صديقاً للملك ، وكان الملك أن يمنح أو أن يرفض ، وفقاً لرغبته ، هذا اللقب أماخو Amakbou المرغوب فيه بين الناس . وبما أن الملك كان بناء على وصف المداحين له ، طيب القلب وعادلا وقديراً وعليما بكل شيء . فقد كان الأهالى واثقين من أنه لن يضن بالإنعام بهذا اللقب على أحد ممن خدموه بإخلاص. (٥) وكان كبار الدولة يتخذون أعمال الملك نموذجاً يحتذونه .

لقد كان عدد الخدم والموظفين كبيراً لدى حكام المدن والولايات ورؤساء الدين وقواد الجيش ، وكل من بلغ من هؤلاء الخدم والموظفين سن الشيخوخة كان السيد الرحيم يلحقهم بوظيفة يسيرة تتناسب وقوامهم المضمحلة وبذلك يكفل لهم العيش والمأوى إلى أن تحين ساعتهم . لذلك كان فرعون ، بالرغم من أنه لم يغفر لسنوحى فراره عندما كان فى سن الشباب لا يرغب فى أن يحرمه من حقوقه الأساسية ، فسمح له بأن يعود إلى مصر عندما علم أنه أصبح على وشك الشيخوخة . ذلك أن مصر لم تكن تفرط فى شيوخها كما لم تكن تضحى بأبنائها . على أنى لا أريد أن أجزم بأنه لم يحدث فى هذه الأرض المباركة أن وارثاً متعجلا أنهى عمر أحد مورثيه الذى كان يعلن جهاراً وفى إصرار عن رغبته الملحة فى أن يعيش إلى سن

العاشرة بعد المائة . لقد حدث أن ملوكا خلعوا عن عروشهم ، ولكن يلاحظ أن أمنمحات الأول الذى حكم نحو عشرين سنة ، عهد بالحكم الفعلى إلى ابنه . وقد عاش بعد ذلك حياة مستقرة ما يقرب من عشر سنوات ، استطاع خلالها أن يدون وصاياه الصارمة . والملك أبريس Apries ، وقد هزم وخلع عن عرشه ، ربما استطاع أن يحتفظ بحياته ، لو أنه لم يستثر غضب المصريين بقسوة لا مبرر لها . وعلى الجملة فقد كانت مصر من البلاد التى تعنى بالمعمرين فى حياتهم .

٢ — وزن الأعمال

يخطىء كثيراً من يعتقد أن المصريين القدماء كانوا يرغبون فى الانتقال من أرض الأحياء ، فهم يعلمون أن الموت لا يستمع لأى شكوى إنه لا يلين لضراعة أو شفاعة . وعبثاً يتذرع الإنسان بأنه لا يزال شاباً « إذ أن الموت يختطف الطفل وهو رضيع من بين ثديى أمه ، كما يدرك الرجل عندما يصبح طاعناً فى السن » (٦) وعلى كل ، « فما قيمة تلك السنين التى يعيشها الإنسان على الأرض مهما طالت ؟ إن الغرب هو أرض الرقاد والظلام الحالك ، هو المكان الذى يقيم فيه من جاء إليه ، وهؤلاء الراقدون المكفنون فى لفائفهم لا يستيقظون إلا لرؤية أخوتهم ولكنهم لا يرون آباءهم ولا أمهاتهم وتنسى قلوبهم زوجاتهم وأولادهم ، والماء العذب الذى تمنحه الأرض لمن يعيش عليها هو بالنسبة لى ماء آسن ، يأتى الماء بالقرب ممن كان على الأرض ، أما الماء الذى يجاورنى فهو آسن . » (٧)

إن خير ما يعبر به رجل متدين عن العالم الآخر هو أن الإنسان يتخلص فيه من منافسيه ومن أعدائه ، وأنه يجد الراحة أخيراً ، كما يلاحظ أن

بعض المتشككين أخيرا . يذهبون إلى القول بأنه « لا يعود إلينا أحد من الموتى ليقول لنا كيف حال المتوفين وماذا ينقصهم حتى تطمئن قلوبنا إلى أن تأتى الساعة التى سنذهب فيها بدورنا إلى حيث ذهبوا » . ويقول هذا الحكيم أيضا « إن كافة المقابر تنهار ، وقد طمست أيضا معالم مقابر الحكماء القدامى ، كأن لم توجد من قبل » (٨) .

ومع ذلك لم يستنتج من قول هذا الحكيم أنه من العبث أن يعد المرء مقبرته فى مثل تلك العناية وأن يفكر فى امر الموت ، قبل أن يأتيه بمدة طويلة ، ولو أنه قال ذلك ، ما استطاع أن يقنع معاصريه . لأنهم كانوا وهم فى عهد رمسيس ، يماثلون أسلافهم من عهد بناة الأهرام ، يقومون بإعداد انتقالهم من هذا العالم إلى الآخرة ، فى عناية ودقة . لأن انتقال الموتى إلى العالم الآخر ، كان يعد اختباراً رهيباً : إنه وزن أعمالهم . فالملك الطاعن فى السن الذى حرر وصاياه لمرى كارع Merikarê ، كان يحذر ابنه من القضاة الذين يظلمون الناس . وقد قاده هذا الموضوع إلى الحديث عن نوع آخر من القضاة :

« يجب ألا تؤمن بأن كل شىء سينتهى إلى عالم النسيان فى يوم الحساب ، لا تعتمد على طول سنى الحياة ، فإن الحياة عند الآلهة ساعة واحدة مما تعدون ، ذلك أن حياة الإنسان تستمر بعد وفاته ، وأن أعماله تتكدس بجواره . ومن تقدم بين يدى قضاة الموتى دون ذنوب ، كان بمثابة إله . واستطاع أن يسير فى حرية مثله فى هذا مثل سادة الأبدية (٩) لقد واتت سقنا ابن رمسيس أوسر مارع ، فرصة لا مثيل لها ، إذ دخل الأمنتيت Amentit حيا ، حيث شاهد « الإله الكبير أوزيريس جالسا

على عرشه الذهبي الخالص ، متوجا بالتاج ذى الريشتين وعن يساره الإله الكبير أنوب ، وعن يمينه الإله الكبير تحوت كما كان عن يساره آلهة نصح البشر فى الأمنتيت ، وعن يمينه الميزان المقام فى الوسط أمامهم حيث كانوا يزنون السيئات مقابل الحسنات بينما كان الإله الكبير تحوت يقوم بدور الكاتب المسجل ، وأنوب يتحدث إليهم . كان المتهمون يقسمون إلى ثلاث فئات : فئة كانت سيئاتهم تفوق كثيرا حسناتهم ، وهؤلاء يسلمون إلى الكلبة المريعة أمايت Amait وفئة كانت فضائلهم تفوق رذائلهم ، وكان هؤلاء يقادون لينضموا إلى مجلس الآلهة . وفئة أولئك الذين كانت سيئاتهم تعادل حسناتهم كانت توكل لهم خدمة المعبود سوكر أوزيريس ـ وهم مثقلون بالتمائم . (١٠)

كان المصريون يعرفون تماما أن عددا قليلا جدا منهم سوف يمثل أمام القاضى الأعظم ، دون أن تكون لهذنوب ، فكان ينبغى لهم إذن الحصول من الآلهـــة على الصفح عن السيئات وأن يتطهروا من أدرانهم . وكان هذا الرجاء شائعاً جداً بين الناس وكثيراً ما ذكر فى الصلوات الجنائزية .

« لقد امحت خطاياى وطرحت ذنوبى جانباً وانهارت معاصى »(١١) أنك تلقى « بخطاياك لدى نن نسوت Nen—nisout (١٢) .

« تطهرك الساحرة الكبرى . . عليك أن تعترف بخطيئتك التى سوف تمحى ، لعمل أشياء مقابل كل ما تكون قد قلته(١٣) . تحية الك يا أوزيريس فى ديدو Dedou إنك تستمع لحديثه ، فنمحو ذنوبه ، وترفع صوته فوق صوت أعدائه وتثبت قواه فى محكمة هذه الأرض (١٤) إنك ثابت بينما يسقط أعداؤك ، وكل ما يقال عنك من شر ، لا وجود له . إنك تمثل بين يدى مجلس الآلهة الكبير وتخرج منه صادق القول . »(١٥)

وقد وضع الفصل الخامس والعشرون بعد المائة بأكمله من كتاب الموتى لتخليص المذنبين من أدرانهم وخطاياهم ، وكان المصريون ينسخون هـذا الفصل على ورق البردى ليوضع داخل التابوت بين ساقى المومياء . ويخيل القارىء هذا الفصل بأن ما جاء به ما هو إلا قرار سابق لمحاكمته ، لكنها محاكمة يدور كل شيء فيها على خير ما يرام ، ولسبب لا نعلمه ، سميت قاعة المحكمة ، قاعة الحقيقتين ، يجلس فيها أوزيريس على العرش داخل معبد صغير ، وتقف خلفه شقيقتاه ، أيزيس ونفتيس ، بينما يصطف فى الداخل أربعة عشر من النواب ، وقد نصب فى وسط القاعة ميزان كبير ، حلى مسنده (فى أعلاه) تارة برأس الحقيقة وتارة برأس أنوبيس أو رأس تحوت . ويتربص وحش بجوار الميزان لحراسته . ويلاحظ فى وسط القاعة كل من تحوت وأنوبيس وفى بعض الأحيان هورس والحقيقتان وهم جميعاً منهمكون فى العمـــل ويقوم أنوبيس بإدخال الميت مرتدياً ثوباً من الكتان فيحيى القاضى وكافة الآلهة الحاضرين ، قائلا : تحية لك أيها المعبود الكبير . سيد الحقيقتين ، لقد أتيت إليك ماثلا أمامك . وعندما أحضرونى إليك رأيت كمالك ، إنى أعرفك وأعرف اسمك وأعرف اسم الاثنين والأربعين معبوداً الذين بجوارك فى هذه القاعة : قاعة الحقيقتين ، إنهم أولئك الذين يعيشون حراساً يراقبون الأشرار ويرتوون من دمهم فى هذا اليوم الذى أعدل وزن الطباع والأخلاق أمام الكائن الطيب ، ثم يسرد تصريحاً مطولا عن براءته فى عبارات سلبية : « لم أرتكب إثماً ضد البشر لم أسىء معاملة أحد من رجالى لم أكلفهم القيام بعمل ما فوق طاقتهم لم أفتر على الآلهة ولم أعذب الفقير ، لم أجوع أحداً ولم أطفف فى الكيل ، لم أقلل فى القياس بالقصبة ، لم أغش فى مساحة الحقول ولم أقلل فى الوزن . لم أحذف شيئاً من ثقل الميزان ، لم أغش فى الوزن ، لم أنزع اللبن من فم الأطفال الصغار لم أعوق سير المياه فى موسم الفيضان ، لم أعطل سير الإله عند خروجه » .

وبعد أن يكون قد دافع عن نفسه ستا وثلاثين مرة بأنه لم يقم بعمل ما هو مكروه فى نظر الأتقياء ، ينتهى إلى القول بأنه كان طاهرا ، لأنه كان أنف معبود النسمات ، منبع حياة كل من عاش فى مصر . ثم يكرر ما قاله لإظهار براءته كأنه يخشى ألا يصدقوه ، فيعيد إقراره الدال على براءته ، متوجها نحو الاثنين وأربعين معبودا بالتوالى ، والذين كان قد حياهم عند دخوله القاعة . وهم يحملون ألقابا مفزعة مثل : واسع الخطوة ، مبتلع الظلام ، مهشم العظام ، آكل الدم ، الصائح ، معلن القتال ، وبعد أن يذكر كل اسم ينفى ذنبا من ذنوبه ، ويستطرد قائلا إنه لم يكن يخشى أن يقع تحت طائلة سلاح القضاة لا لأنه لم يسب الإله ولم يهن الملك فحسب ولكن لأنه قام أيضا بعمل ما قاله الناس وما وافق عليه الآلهة ، فإنه قد أرضى الإله بعمل ما يحبه ، أعطى الخبز للجائع والماء للعطشان ، وكسى العارى وأعار معديته لمن أراد عبور النهر . وهو ممن يقابلون بالترحاب حين يراهم الناس فقد قام بعمل الكثير من أعمال البر والتقوى تلك الأعمال التى تستحق المديح. ومن أمثلة ذالك أنه استمع إلى حوار القطة والحمار الذى نأسف جداً لعدم معرفتنا له . ولم يكن ليبقى الا أن نستخلص النتيجة العملية من هذه التجربة أو هذا الاختبار ، فعلى إحدى كفتى الميزان وضع قلب من تجرى محاسبته وعلى الكفة الأخرى تمثال صغير للحقيقة ، ولكن ماذا يحدث لو افترضنا أن القلب قد تكلم ، فكذب صاحبه : لتلافى هذا الخطر صيغ الابتهال ، موضوع الفصل الثلاثين من كتاب الموتى وهاك نصه :

يا قلبى ويا قلب أمى ويا مصدر تصرفاتى لا تشهد ضدى ، لا تعترضنى أمام القضاة ، لا تجعل وزنك يعلو فى غير مصلحتى أمام سيد الميزان فإنك الروح فى صدرى والخالق الذى يمنح السلامة لأعضاء جسمى ، لا تسمح

بأن تفوح من اسمى رائحة كريهة ، لاتقل أكاذيب ضدى أمام الآلهة .. وبعد أن يناشد القلب بهذا التوسل ، يستمع صامتا إلى هذين الاعترافين ، وكانت النتيجة محققة النجاح ، فإن أنوبيس يوقف ذبذبة الميزان ويعلن أن الكفتين متوازيتان ولم يبق على تحوت إلا أن يسجل نتيجة هذا الوزن مقررا أن الطالب قد انتصر وأنه ماع خرو صادق القول ، وبهذا ينضم إلى مملكة أوزيريس أحد الرعايا الجدد . أما القول الذى كان يأمل فى أن يلهم هذا القادم الجديد فانه يظل باقيا فى انتظاره . هل كان المصريون يعتقدون حقيقة أنه يكفى ان ينكر الانسان ذنوبه كتابة ليمحوها من ذاكرة الآلهة والناس . قد ورد فى بعض المؤلفات الحديثة عن العقيدة الدينية للمصريين القدماء أن الفصل الخامس والعشرين بعد المائة من كتاب الموتى هو نص سحرى ، وكلمة سحر ، تعنى أشياء كثيرة ، يجب على علماء الآثار المصرية ألا ينسوا أبدا أن الكتاب الذى يشمل البحث عن طريقة إعادة الرجل الطاعن فى السن إلى شاب يافع ، قد وصف بأنه نص سحرى ، وعندما تمت دراسة هذا المؤلف ، تبين أنه عبارة عن وصفات للتخلص من مظهر الشيخوخة البغيضة مثل التجعدات والحبوب واحمرار الجلد (١) ويبدو لى أن مصنف الوصايا لمرى كارع ، عندما قرر أنه لا يمكن لإنسان أن يخدع القاضى الأعظم ، لم يكن إلا معبرا عن الرأى السائد فى هذا الصدد ، ويمكن التأكيد أن المصرى عندما يكون قرر أنه طاهر ، أو زعم فى إصرار بأنه لم يكن قد اقترف ذنبا ، فربما يكون قد تخلص حقا ، خلال حياته من ذنوبه وثقل خطاياه . هذا هو الاعتقاد الجازم الذى كان يحرره من الخوف من الآخرة .

وكان الهدف الجوهرى أن يعلن أنه أصبح ماع خرو Maa—kherou

اعنى الصادق القول » ، ولم يكن أحد يستحق هذا اللقب إلا إذا دافع شفوياً عن نفسه أمام القضاة. وليس من الممكن إحصاء عدد المصريين الذين دونت أسماؤهم على اللوحات التذكارية أو الجنائزية أو التوابيت أو جدران المقابر وقد وصفوا بأنهم ماع خرو . وقد ظن البعض أن هذه العبارة هى مجرد أمنية دينية كان يستعملها الأحياء إما لأنفسهم أو لأقاربهم أو لأصدقائهم، وأن هذه الأمنية لا تستجاب إلا فى الآخرة . وكان هذا الاعتقاد سائداً إلى حد أن أصبحت عبارة ماع خرو تعتبر عملياً كأنها مرادفة لكلمة المرحوم.(١٧) وعلى كل ، فإننا نعلم أن أفراداً من المصريين كانوا قد حملوا هذه العبارة أثناء حياتهم كان هذا هو حال خوفو الذى اتهمه الإغريق بعدم التقوى ، فى حين أنه كان ماع خرو عندما كان يستمع لأولاده وهم يقصون عليه الواحد تلو الآخر ، قصص السحرة وكان هذا أيضاً حال بارمسيس وقت أن كلفه حرمحب بإدارة أعمال معبد أوبت الكبرى قبل أن يصبح الملك رمسيس الأول (١٨) كما كان حال كبير شعب ماشيشنق Ma Cheeshanq ولم يكن قد ولى بعد ، ملكا باسم شيشنق الأول(١٩) وباكن خونسو كبير كهنة آمون ، كان ذا صوت عادل عندما تفضل عليه رمسيس الثانى وسمح له بأن يقيم تماثيله فى المعبد حيث اختلطت بجماعة المرضى عنهم (٢٠) وكان عمر رمسيس الثانى حينذاك ٩١ سنة ، وقد عاش بعد ذلك بضع سنوات . وأحد خلفائه ، رمسيس ناخت كان أيضا قد لقب بذى القول الصادق (ماع خرو) كما ترى ذلك فى نقوش وادى الحمامات التى تسرد موضوع الحملة الكبرى التى أرسلها رمسيس الرابع إلى جبل بخن فى السنة الثالثة من حكمه .

ولكنه كان حيا أيضا فى السنة الرابعة فى عهد ملك يرجح أنه لم يكن إلا رمسيس الرابع أو رمسيس الخامس(٢١) ويخيل إلى أن هذه الأمثلة

تكفى لإثبات أن المصريين كانوا يصبحون ماع خرو فى حياتهم وهم لايزالون يسيرون على أقدامهم . ولكن كيف كان الحصول على هذا اللقب الجليل مستطاعا ؟ وقد كان أوزيريس أول من حمل لقب ماع خرو . وعندما كانت زوجته الوفية قد ردت إليه الصحة الكاملة والحياة ، كان هو قد رفع دعوى ضد قاتله ست أمام المحكمة المقدسة برياسة الإله رع وتمكن من استصدار حكم بادانته (٢٢).

ولم ترض إيزيس أن تظل معاركها وعلامات تفانيها وإخلاصها لزوجها مغمورة فى عالم النسيان ولذلك قامت بوضع أسرار جد مقدسة يتخذها البشر مثالا ووسيلة للتسلية . وفى هذه الأسرار كانت تمثل الآلام التى تحملها أوزيريس وكانت لاتزال تمثل حتى عصر هيرودوت . وفى الأزمان القديمة التى ترجع إلى عهود أقدم من ذلك بكثير ، كانت تمثل أيضا معركة أنصار أوزيريس لتخليص جسد سيدهم والعودة به منتصرا إلى معبد أبيدوس . كما مثلت أسرار المحاكمة وقد ورد فى الفصل الثامن عشر من كتاب الموتى بيان عن المدن المحظوظة التى جرى فيها تمثيل هذه الأسرار وهى : أون On وديدو Didou وإيميت Imit وخم Khem وبيه Pé ودب Dep ورختى Rekhti فى الدلتا وروسيتاو Ro-setaou وهو أحد أحياء مدينة منف ونارف Narof فى مدخل الفيوم وأبيدوس فى مصر العليا . وبدهى أن كل مصرى تقى كان يمكنه أن يضمن خلاصه فى الحياة الأخرى إذا هو اتبع ماقام به أوزيريس . فقد ورد فى نهاية الفصل الخامس والعشرين بعد المائة تحذيرا لايمكن توجيهه إلا إلى الأحياء : يتلى هذا الفصل حين يكون المرء نظيفا ونقيا ، مرتديا ملابس الحفلات ومنتعلا نعلا أبيض اللون مكحول

العينين بالكحل الأسود، مدهون الجسم بالزيوت والبخور من أجود الأنواع، وبعد تقديم قربان كامل من العجول والطيور والتربنتين والخبز والبيرة والخضر، وقد أضاف أيضا النص المقدس ما يأتى: «ومن قام بعمل ماذكر لنفسه فإنه يصبح فتيا * ويكون أولاده أشداء، وينال رضا الملك وكبار الدولة ولا ينقصه شيء إطلاقا، وينتهى أخيراً بأن يكون من حرس أوزيريس.» ويمكن الآن أن نتصور سر هذه المحاكمة التي كان يمكن أن يتخلص فيها المصريون من ذنوبهم. ومن كان منهم يعتبر أن أيامه معدودة وأنه على وشك الرحيل إلى الأبدية، إما لأنه أصبح شيخا أو لأنه مريض، وإما لأن إحدى التحذيرات السرية التي كان يبعث بها أوزيريس فى بعض الأحيان إلى من سيلحقون به قريبا فى مملكته قد مسته. (٢٣) فإن هؤلاء جميعا كانو يتجهون أفواجا إلى إحدى تلك المدن التي ذكرتها سابقا. وكانوا يتخذون لأنفسهم الاحتياطات المبينة فى الوصية التى سبق أن أشرت إليها: فكانوا يحرصون بنوع خاص بألا ينسوا أن ينفقوا مايلزم لتقديم القربان الكامل.

وتوحى تلاوة الفصل الخامس والعشرين بعد المائة بأن سر المحاكمة كان يشمل فصلين. فأوزيريس، هو الذى يقوم فى أول الأمر بإثبات براءته، فيخاطب المعبود رع ويثبت بست وثلاثين عبارة، السالفة الذكر، بأنه لم يرتكب إثما فى أى لحظة من السنة. فيردد المؤمنون بدورهم صدى هذا الإقرار المعبر عن البراءة ويشعرون بارتياح وقوة للحكم الذى صدر ببراءة المعبود. ولم يكن هذا مع ذلك كافيا. فيترك أوزيريس أريكة المتظلمين (المتوسلين) ليجلس على مقعد القاضى، فيقوم المؤمنون بتلاوة الاعتراف

---

* فى النص أخضر والمراد القوة وسلامة البدن.

الثانى السنى ويتقدمون كل بدوره نحو الميزان ، الواحد بعد الآخر وكل منهم يحمل شكل قلب من اللازورد نحت عليه اسمه ، ويوضع هذا القلب فى إحدى كفتى الميزان ويوضع فى الكفة الأخرى تمثال يمثل الحقيقة ، ويستطيع كل من الحاضرين أن يتحقق من أن الكفتين متعادلتان فيعلن رسميا بأن المدان ، طاهر الصوت ، ويسجل ذلك . وكان يمكنه أن يعود ، بعد ذلك إلى مقره وهو متأكد من أن أبواب الآخرة لن تغلق فى وجهه .

٣ — إعداد المقبرة :

الآن وقد أصبح كل مصرى مطمئن النفس فلم يعد له إلا أن يكرس كل جهوده لبيته الأبدى * .

أما الملوك فكانوا يبادرون دائما إلى عمل ذلك قبل أوانه بزمن طويل ، ذلك أن بناء هرم ولو كان متوسط الحجم لم يكن أمراً هينا فكانت توفد بعثات كبيرة حقيقية لنقل كتل الجرانيت والمرمر حتى هضبة الجزيرة أو سقارة . ومنذ بداية عهد الامبراطورية الحديثة نقلت الجبانة الملكية إلى وادى الملوك غربى طيبه . وخلفاء رمسيس الأول ، بالرغم من أنهم كانوا أصلا من الدلتا ، فقد قلدوا هؤلاء الذين خلفوهم ليتولوا العرش مكانهم واستمروا فى الحفر فى جبال طيبه لإنشاء هذه السراديب التى كان يبلغ طولها أحيانا نحو مئة متر ، وكانت تزخرف جدرانها بزخارف عجيبة تملأ كل جوانبها وغرفها .

وتمثل هذه النقوش رحلة رع الليلية فى المناطق الاثنى عشرة فى العالم السفلى ، ومكافحته ضد أعداء النور ، وليس شىء من كل هذا يذكر ماقام الملك بعمله خلال حياته . لم تكن هذه النقوش تتعلق بالزائرين

* بعد أن أصبح ماع خرو

إذ أن المقبرة الملكية لم تكن قد أعدت لاستقبال أى زائر ، فإنها كانت مكانا مغلقا وكان ينبغى أن يظل مدخله سريا . (٢٤)

ولكن مقابر الأفراد كانت على عكس ذلك تماما ، كانت المقبرة تحتوى عادة على جزئين مختلفين تماما ، القبر ويحفر داخل بئر ويكون فى عمقه، وأعد لدفن الميت . وعندما يرقد المتوفى فى تابوته بعد اتمام المراسيم الأخيرة ، يسد مدخل القبر بإقامة جدار عليه وتردم البئر وبعد ذلك كان يجب ألا يقلق أحد وحدته . وكان يقام فوق هذا القبر مبنى أعد لزيارة الأحياء . وواجهة هذا المبنى كانت تقام داخل فناء ، حيث تعرض لوحات تذكارية وجنائزية تتناول كل ما كان للمتوفى من فضائل وكل ما قام به من خدمات ، بقصد إثارة إعجاب الأجيال القادمة .

وفى داخل هذا الفناء ، وبجوار حوض المياه قد تغرس أشجار النخيل والجميز (٢٥) وكان هذا الفناء يؤدى إلى قاعة عرضها عادة أكبر من طولها أما زخرفتها فكانت أخاذة حقا . إذ أن سقف القاعة نفسه قد زخرف بزينات نباتية ورسوم هندسية ذات ألوان زاهية . والنقوش التى تكسو الجدار أو الأعمدة كانت تمثل حياة المتوفى فى أعظم مراحلها الخاصة . وبوصفه من كبار الملاك كان يراقب أعمال الحقل ويقتنص الغزلان فى الصحراء ويلق عصا الرماية على الطيور المائية والحربة على فرس النهر ويساهم كذلك فى صيد السمك . وكرئيس لورش آمون كان يشرف على أعمال النقاشين والنحاتين والصياغ والنجارين الذين يعملون فى خشب الأبنوس . وبوصفه أحد كبار الموظفين كان يجمع ايرادات المملكة . وكجندى ، كان يقوم بتدريب المجندين الجدد . وقد رسم وهو فى قاعة العرش ، يقدم للملك أفواجا عديدة من المندوبين الأجانب الذى وفدوا من بلاد لا تعرف مصر .

وظهورهم محدودبة تئن من ثقل الجزية التى يحملونها ملتمسين من الملك نسمة الحياة .

وبعد أن يقوم الزائر بتفقد هذه القاعة يجد نفسه فى ممر كبير ، يرى على جدرانه المتوفى وهو فى سفينة متجهة نحو أبيدوس ويرى على الجانب الآخر من الممر مراحل الدفن وقد تمت طبقا للمراسيم المعروفة . ويؤدى هذا الممر إلى قاعة أخيرة لا تعبر النقوش التى على جدرانها إلا عن مدى تقوى المتوفى ، فيرى وهو يعبد الآلهة وكان يصب المياه المقدسة تكريما لهم ، ويقدم لهم موقدا تتأجج فيه النيران، ويتلو الأناشيد وفى مقابل ذلك، كان يكافأ بالتهام الأطعمة التى تتجدد دائما والتى كان يستحقها نظراً لتقواه وفطنته . (٢٦)

وبديهى أن التابوت كان أهم قطعة فى الأثاث الجنائزى . وكان نفرحتب فى حياته قد تفقد أكثر من مرة المصنع الذى كان يصنع فيه تابوته فشاهد بهذا مثواه الأخير ، محمولا فوق مقعدين صغيرين والعمال حوله . بعضهم جالسون وبعضهم واقفون وكلهم عاكفون على تلميعه والحفر عليه وطلائه بالرسوم . كما شاهد أيضا الكاهن وهو يرش عليه المياه المقدسة . (٢٧)

ولم يكن الملك ولا الأغنياء يكتفون بتابوت واحد ـ فكانت مومياء بسوسنس Psousennês بالرغم من أن القناع الذهبي يحميها ، كانت موضوعة داخل تابوت فضى على شكل مومياء ، وهو موضوع فى تابوت آخر من الجرانيت الأسود يطابق التابوت السابق تماما فى شكله . وكان تابوت الجرانيت موضوعا بدوره داخل صفحة مستطيلة الشكل متسعة نوعا ومزخرفة من الداخل ومن الخارج برسوم تمثل الآلهة المكلفة بحراسة

المومياء . وقد رسم على طول الغطاء المقبب صورة المتوفى متسما بصفات أوزيريس ، بينما رسمت على غطاء التابوت من الداخل المعبودة نوت إلهة السماء تحوط بها القوارب ومجموعات . الكواكب وجسمها الدقيق الرشيق يمتد بضعة سنتمترات فوق تابوت الجرانيت الأسود . أما الملك فيتمتع بجمال المعبودة وهو يحدق فيها دائما بعينيه المصنوعتين من الحجر ، بينما تمنحه تلك المعبودة قبلة الأبدية .. وبهذا تتحقق أهم التمنيات التى كان يرجوها كل مصرى لحياته الأبدية، وهى أن يصبح من سكان السماء سابحاً بين النجوم التى تجهل الراحة والكواكب السيارة التى تجهل الهلاك . وقد نقشت عيون على جانب التابوت ، يستطيع أن يرى من خلالها إما رع أو أوزيريس وكذا الأبواب التى كان يعبرها كلما أراد الخروج من قصره أو العودة إليه . وبديهى أن الأثاث كان يختلف من ناحيتى النوع والفخامة طبقا لمقدرة المتوفى . فكان أثاث توت عنخ آمون يفوق كل خيال أو تصور : أسرة للزينة واسرة للراحة وأرائك وعربات ومراكب ودواليب وصناديق وخزائن ، ومقاعد ذات مساند ومقاعد عادية ومقاعد صغيرة ، وكافة أنواع الأسلحة وكافة أنواع العصى المعروفة فى عصره ، وأدوات للزينة ولعب وأطباق وأدوات للمائدة وأشياء خاصة بالعقيدة الدينية .

وبوصفه عضوا فى مملكة أوزيريس ، كان على الملك أن يكرر فروض التقوى التى كان قد قام بها فى حياته ، وكرب أسرة ومليك كان عليه أن يواصل استقبال أطفاله وأقاربه وأصدقائه ، ورعايا مملكته . وكان عليه أن يدعم بالطعام. وليتمكن من تحقيق هذه الفكرة ، كانت تعد له أطباق وأدوات بوفرة . وكانت توضع جانبا ، قطع عديدة من أوانى المائدة الملكية، بقصد نقلها إلى المقبرة ، كما كانت تطهى الطيور أيضا وقطع اللحوم والفاكهة والحبوب والمشروبات ، وعلى الجملة كل ما يؤكل ويشرب .

كان يستكمل التابوت بخزانة خشبية أو حجرية وبأربع أوان. تلك التى نسميها خطأ الأوانى الكانوبية . وكانت هذه الأوانى معدة لتوضع فيها أعضاء الجسم الداخلية التى تنزع منه أثناء عملية التحنيط ، وكانت الأوانى توضع تحت رعاية الآلهة الأربع والآلهات الأربع ، فامست Amset أحد هذه الآلهة كان له رأس آدمى ، وحابى Hapi له رأس قرد يشبه الكلب .

ودواموتف Douamoutef له رأس ابن آوى وقبحسنوف Qebehsenouf له رأس صقر . فغطاء الإناء الأول كان يمثل رأسا آدميا . بينما كانت الثلاثة الأخرى تمثل إما رأس قرد أو ابن آوى أو صقر . وكان بعض المرهفين يظنون أن هذا غير كاف ولذلك كانت تصنع لهم توابيت صغيرة من الذهب أو الفضة ذات أغطية وأوعية تشبه التوابيت الحقيقة . وكانت توضع فيها اللفائف الصغيرة المحنطة ثم توضع هذه التوابيت الأربعة الصغيرة فى أوان من المرمر .

إن حقول يالو Ialou التى كان أوزيريس مسيطرا عليها كانت بمثابة حديقة كانديد Candide ، تعد أجمل بقعة فى العالم ، ولكن كان يجب أن تمهد الزراعة كما تمهد أى أرض زراعية حقيقية ، فيجرى حرثها وبذرها ، واقتلاع حشائشها وحصدها . وصيانة قنوات الرى بها وإجراء أعمال أخرى لا ندرك بالضبط مدى فائدتها: إذ كان يجب مثلا نقل الرمل من شاطىء نهر إلى الشاطىء الآخر وهذه الأعمال التى يعتبرها مالك أرض أعمالا طبيعية وضرورية كانت بالعكس ، لا تطاق بالنسبة لأولئك الذين قضوا حياتهم فى البطالة أو كانوا يمارسون مهنة أخرى غير مهنة الفلاحة .

لم يعتقد أى شعب بقدر ما اعتقد المصريون بأن التماثيل سواء التى تمثل أشياء أو

أحياء كان لها إلى حد كبير قوة فعالة وخواص الشيء الذى تمثله ، وبذلك يكون قد وجد الدواء تماما . كان يكفى أن تصنع تماثيل ليكون فى إمكانها أن تقوم بعمل المتوفى نفسه . وكانت هذه التماثيل تصنع من الخزف المطلى ، وبعض الأحيان من البرونز ، وكانت على شكل مومياء . وفى بعض الأحيان كان الوجه يشبه وجه شخص بالذات . وإننا نعتقد بحق بأن المقصود فعلا كان تصوير شخص بالذات . وإذا لم يقصد من التمثال الشبه التام فإن الغرض من صنعه قد يصل إليه الإنسان على أى الحالات بالكتابة المنقوشة عليه أو فوق قاعدته على الأقل ، وذلك بذكر اسم ولقب الشخصية المقصودة والتى سيحل التمثال محلها ، اوزيريس كبير كهنة آمون رع سونتير حورنختى Amonrasonter Hornekhti ، وكثيرا ما كان النص الذى ينقش على قاعدة التمثال يبين تماما الأعمال التى ينبغى للتمثال أن يؤديها . فقد كتب على قاعدة تمثال أوزيريس ، أيها التمثال إذا كان اوزيريس قد نودى عليه واستدعى وكلف بالقيام بكل الأعمال التى يجب أن تعمل هنا ، فى الجبانة ، كما يقوم الإنسان بعمل ما يخصه لاستغلال حقوله ورى أراضيه ونقل الرمل من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق ، واقتلاع الحشائش الضارة كما يعمل الإنسان تماما فى أموره الخاصة ، فما عليك إلا أن تقول : هأنذا أفعل » .

وعندما اندفع المصريون نحو هذا الاتجاه ، ضاعفوا من صناعة هذه التماثيل ليتلافوا إلى الأبد القيام بأعمال السخرة الثقيلة الوطأة . وكانوا يقومون بنقش الآلات والأجولة بين أيدى التماثيل أو على ظهورها ويضمون إلى العمال الكتبة والملاحظين إذ كان لا مفر من أن يوجد الموظف الذى تستدعى الضرورة وجوده بجوار كل فرقة من فرق العمال الزراعيين . وأخيرا صاروا يصنعون بالجملة كل أنواع الآلات والأشياء فى صورة مصغرة ويضعونها تحت

تصرف التماثيل الصغيرة . فكانوا يصنعون مثلا « النير » للسقائين وحاملى الرمال وسلالا ومقاطف وفئوسا ومعاول إمامن البرونز وإمامن الخزف . وهذه الأدوات كان يكتب عليها اسم التماثيل التى كانت تخصها وذلك لتلافى سرقتها أو استخدامها فى أغراض غير التى قصدت منها أصلا . (٢٨)

وقد أوحت هذه الفكرة إلى صناعة تماثيل صغيرة ، تصور نساء عاريات لوضعها فى خدمة المتوفى . فكان للملوك والأمراء محظيات فى حياتهم ولم يرغبوا فى فقد هذه العادة التى ألفوها فى العالم الآخر ، فقد وجدنا من هذه التماثيل فى مخدع بسوسنس . كان البعض منها يحمل اسما ينتمى إلى أصل ملكى والبعض الآخر مجرد اسم امرأة . وإننا لنشفق على هذا الملك لو أنه كان يختار محظياته فى حياته كما لو كان يختار عرائس يلهو بها . (٢٩)

كانت المومياء مغرمة بالزينة وبالحلى تماما مثـــل الأحياء وعلى كل حال فقد كانت المومياء تزين غالبا بالجواهر التى كان يستعملها المتوفى أثناء حياته، وفى أغلب الأحيان كانت تصنع جواهر وحلى جديدة لهذه المناسبة.

وهاك قائمة بما كان يلزم لمومياء ملك أو احد كبار الشخصيات :(٣٠) القناع من ذهب إذا كان للملك أو للأمراء المقربين من أصل ملكى ومن الورق المقوى أو من المصيص المطلى إذا كان للأفراد. الجيد ويتكون من لوحتين رقيقتين صلبتين من الذهب مغلفتين على شكل نسر مبسوط الجناحين .

قلادة واحده أو أكثر من الذهب ، ومن الأحجار ومن الخرز المصنوع من الخزف مكون من عدة صفوف من الخرز أو قطع صغيرة ولها قفل واحد أو قفلان ، وتزود فى بعض الأحيان بدلاية من الذهب أو من الأحجار المتساوية الحجم من الخزف . وبحلية للصدر واحدة أو أكثر من حلية ذات سلاسل .والشكل الذى كان يستعمل عادة هى الجعاوين المجنحة حاملة فى أجنحتها ايزيس ونفتيس وكان ينقش على ظهر الجعران دعاء القلب

المشهور : « يا قلبى ، ويا قلب أمى ويا أيها القلب الذى لازمتنى فى جميع أطوار حياتى ، لا تقف لتشهد ضدى أمام القضاة ولا تجعل كفة الميزان تثقل فى غير مصلحتى أمام حارس الميزان اذ أنك الروح (الكا) التى فى جسدى والإله خنوم الذى يحرص على أن تكون أعضاء جسمى سليمة ، لا تجعل اسمى تفوح منه رائحة كريهة ولا تسىء إلى سمعتى ولا تفتر علىّ الكذب أمام الإله » .

جعارين أخرى بعضها ذات أجنحة والبعض الآخر ليس له أجنحة ، تحمل نقوشا ولكنها دون إطار . وقلوب من أحجار اللازورد ذات سلاسل نقش عليها اسم المتوفى .

أساور بعضها لين وبعضها صلب ، بعضها مفرغة وبعضها صب للمعاصم وللأذرع وللأفخاذ ولقصبة الأرجل . وحلية للأصابع — أصابع الأيدى وأصابع الأقدام . وخواتم لكل الأصابع .

ونعال :

وتمائم وتماثيل صغيرة للآلهة تعلق فى رقبة الميت أو تشبك على حلية الصدر :

ولكن أنوب Anoup وتحوت Thot من الآلهة التى يناط بها بنوع خاص مهمة حماية المتوفى ، وذلك للدور الذى يقومان به أثناء عملية وزن الأفعال وقد يختار غيرهما أحياناً . ولم يستخف بأمر الصقور أو النسور ذات الأجنحة المبسوطة ولا برؤوس الصلال ، إذ أن الصل هو الحارس للمزلاج الذى يحكم غلق أبواب مختلف أقسام العالم الآخر . كما لم يستخف بتمائم أوزيريس وإيزيس ولا بالعين السليمة (اوجا) .

وكان ينبغى أن يضاف أيضا إلى كل هذه الزينات نماذج التماثيل المصغرة من عدة أشياء مثل العصى ، والصولجانات والأسلحة والشعارات الملكية أو الإلهية التى كان يحسن دائما أن تكون فى متناول الأيدى .

ولم يكن أمراً هينا أن يقوم الانسان باختيار الأشياء وطلب صنع أشياء مختلفة ومعقدة إلى هذا الحد ، فإن ذلك يتطلب إنفاق أموال كثيرة وملاحظة تنفيذ صنع هذه الأشياء ومراقبة العمال للتأكد من حسن صنعها . إذ أن مستقبل الميت كان يتعلق إلى حد كبير بمدى العناية التى يبذلها لإعداد بيته الأبدى وأثاثه وحليه مهما ظن فى هذا الصدد بعض المفكرين المكتئبين ، إذ أن العالم الآخر ليس مكانا للراحة والهدوء فحسب بل انه ملىء بالمكائد التى لا يمكن التخلص منها إلا إذا اتخذت فى هذا الشأن الاحتياطات الكافية تماما .

٤ — واجبات كاهن القرين

كان المصرى الطاعن فى السن يعرف كيف يشيد بيت المستقبل ، بيت الأبدية . وكان يقوم بزخرفته وفقا لذوقه وامكانياته وعهد إلى النجارين وصانعى العربات بصنع مختلف أنواع الأثاث . ثم حصل من الصائغ على الحلى وعلى مجموعة وافرة من التعاويذ والتمائم . ويبدو أنه لم يعد ينقصه شىء من الضروريات التى يحتاج إليها فى العالم الآخر ، ومع ذلك فلم يكن راضى النفس ، إذ كان يعتقد أنه لم ينل كل ما يصبو إليه ، ويجب على ذريته أن يعنوا بأمره بأمانة وتقوى ولا يكفى أن يؤدوا واجباتهم الأخيرة نحوه بنقله فى احتفال لائق إلى مقر إقامته الجديدة فحسب بل يجب عليهم أن يعنوا بروحه مستقبلا من جيل إلى جيل .

قال أحد نبلاء المصريين : « لقد عهدت بوظائفى لابنى خلال حياتى ـ حررت له وصية بالإضافة إلى الوصية التى حررها لى والدى. وأقيم بيتى فوق أساساته وحقلى ظل فى مكانه وبيتى ثابت الأركان وكل ما أمتلك باق فى مكانه فابنى هو الذى سيجعل قلبى يحيا على هذه اللوحة التذكارية . سيعمل من أجلى . ويكون وريثا وابنا صالحا » وكانت العقيدة السائدة أن الابن يحيى اسم الآب والأجداد ، وكان ذلك يذكر دائما فى النصوص الجنائزية . فكان حابى جفاى Hapi—Djefai حاكم أسيوط قد عين نجله كاهنا لروحه « ويوازى هذا التعبير ، ما نعبر عنه بعبارة « منفذ الوصية » . فالأموال التى قد يتسلمها الابن بهذه الصفة هى أموال ممتازة يجب أن تقسم بين الأولاد الآخرين بل والابن نفسه لا ينبغى له أن يوزعها على أولاده ، فعليه أن يسلمها كاملة لواحد من أولاده يعينه ليتولى الإشراف على مقبرة الجد وملاحظة المراسيم الدينية التى تؤدى لإحياء ذكراه . كما يجب أن يشترك هو شخصيا فى أداء هذه المراسيم . (٣١)

كانت هذه الحفلات تقام بنوع خاص ، بمناسبة عيد رأس السنة وعيد أواجا الذى كان يحتفى به ثمانية عشر يوماً بعد عيد رأس السنة فى المقبرة وفى معبد أوب واوات سيد إقليم أسيوط وفى معبد أنوب سيد الجبانة أيضاً وكان كهنة أوب واوات يذهبون إلى معبد أنوب قبل رأس السنه بخمسة أيام ، ويضع كل منهم رغيفاً للتمثال الموجود بالمعبد ـ وفى اليوم السابق لعيد رأس السنة يعطى أحد موظفى معبد أوب واوات إلى كاهن القرين شمعة سبق أن استعملت فى المعبد ويقوم كبير كهنة معبد أنوب بعمل مماثل فيسلم شمعة سبق أن ساعدت فى إنارة معبد أنوب لشخص يسمى رئيس موظفى الجبانة الذى يذهب بها إلى المقبرة

بصاحبة حراس الجبل حيث يقابلون هناك كاهن القرين ، ويعطونه هذه الشمعة .

وفى يوم رأس السنة يقدم كل من كهنة أوب واوات رغيفاً من الخبز لتمثال حابى جفــاى عندما تنتهى إنارة المعبد . ثم يصطفون خلف كاهن القرين ويحتفلون بذكراه . ويقوم كذلك من جانبهم كل من رئيس الجبانة والحراس بإعطاء رغيف وبيرة وهم يحتفلون باحتفال مماثل ، وفى مساء يوم رأس السنة يقوم موظفو معبد أوب واوات الذين سبق أن أعطوا شمع عشية الأمس بتقديم شمعة ثانية . ويقوم كبير كهنة أنوب بدوره بمثل هذا العمل وتستخدم الشموع التى قد بوركت لأنها سبق أن استخدمت فى المعابد لأنارة تماثيل المتوفى ، كما كان الأمر فى الليلة السابقة .

وقد تتكرر إقامة هذه الحفلات بأكملها تقريباً بمناسبة عيد أواجا Ouaga. وفى معبد أوب واوات يعطى كل الكهنة رغيفاً أبيض للتمثال .ثم يكونون موكباً خلف كاهن القرين لتمجيد حابى جفاى .ثم تضاء شمعة ثالثة طول الليل أمام التمثال .. ثم يتجه موكب كهنة نحو أنوب الدرج التذكارى الضخم الذى يؤدى إلى مقبرته وهم يرتلون أناشيد لتمجيده . ويضع كل منهم رغيفاً أمام التمثال الموجود فى هذا المكان ، وتضاء له الشموع مرة أخرى .

أما الكاهن الذى يؤدى مراسيم الخدمة الدينية ، فعندما ينتهى منها يقدم خبزاً وجعة لنفس هذا التمثال . ويقوم شخص آخر وهو رئيس الجبل فيضع أرغفة وجرار الجعة بين أيدى كاهن القرين لتخصص للتمثال .

ويزعم حابى جفاى بأنه لم يترك فى عالم النسيان فى أعياد أوائل الفصول

التى وإن كانت أقل روعة من عيد رأس السنة إلا أنها لها شأنها وأهميتها . .
فى هذه المناسبات كان رئيس الجبانة يجتمع بحراس الجبل بجوار حديقته الجنائزية ثم يأخذون التمثال الموجود بها ويذهبون به إلى معبد أنوب . وإليك الآن قراره الأخير . فمنذ أن كان حابى جفاى رئيساً لكهنة أوب واوات كان يتسلم كل يوم من أيام الأعياد ، ونعلم أنها كانت عديدة ، كمية من اللحوم والجعة . فهو يأمر الآن بأن تجلب بعد وفاته هذه اللحوم والجعة إلى تمثاله ، وذلك تحت أشراف كاهن القرين ولم تكن هذه الخدمات تؤدى بالمجان فكان حابى جفاى يؤدى أجر هذه الخدمات بأن يتنازل عن المزايا المالية التى كان يتمتع بها إما لأنه محافظ الأقاليم وأما بصفة رئيس كهنه أوب واوات . بكأنه قد شغل أذن فى أنانية شديدة مستقبل هذه الوظائف وقلل من دخله إذ يجب على وارثه أن يدفع سنويا قيمة إيراد سبعة وعشرين يوما من دخل المعبد . ودخل يوم فى المعبد يتمثل فى قيمة جزء من ٣٦٥ جزء من الإيراد السنوى المعبد . ومعبد أووب ـ واوات لم يكن ، دون شك ، ألا محرابا أقليمياً ، وعلى ذلك فقد كان ايراده كبيرا وكان على الورثة أن يتنازلوا لصالح خدم المعبد بما يوازى تقريبا عن قيمة $\frac{1}{13}$ من ايرادات أوب واوات وبذلك يضطرون إلى خفض ماينفقون على أنفسهم وخاصة أن رأس المال ذاته يكون قد خفض بسبب هبة مساحة كبيرة من الأراضى . وعلى هذا الأساس تكاد تكون تكاليف صيانة المقبرة نفسها أكثر من تكاليف تشييدها ، وكانت مصر كلها تنوء تحت أثقال وضعتها هى نفسها فوق أكتافها . وكان حابى جفاى ثابتا فى رأيه ، لا يتزعزع ، وقد أبدى ملاحظة تتضمن أن الاتفاقات التى أبرمت بين أمير مثله وبين الكهنة المعاصرين له ليس من حق الأفراد اللاحقين بأن يجروا فيها أى تعديل . وفى الواقع كانت الأبنية الجنائزية مهما كانت قوية البنيان ومهما كانت حصانة المؤسسات يزول أثرها بعد جيل

أو جيلين مهما أحاطها مؤسسوها من ضمانات . أو بعبارة أدق كانت ارادات هذه المؤسسات تؤول لصالح الموتى الحديثين (٣٢) وقد رأينا ملوكا وبعض الخاصة يؤمنون أنهم يؤدون عملا صالحا عندما يقومون بترميم الأبنية الجنائزية ويزودون أطعمة موائد القرابين . ولكن الكثير من هذه المنشآت قد انهارت نهائيا خلال الحرب ضد الكفار . وقد أصبحت مصر فى أعقاب تلك الحرب وخلال الفوضى التى تبعتها فى حالة انهيار أو على الأقل فى حالة من الفقر فأصبحت عاجزة تماما عن الاهتمام بأمر الموتى القدماء .

٥ — التحنيط

لم يعد هناك شيء فى هذه الأرض يحبب للمصرى البقاء ، بعد أن أخطره أوزيريس — وقد كان لدى المصرى الوقت الكافى لإتمام بناء بيته الأبدى ، واتخاذ الترتيبات التى أوحت بها إليه عقيدته الدينية واحترامه للتقاليد المتبعة . وفى اليوم الذى يعبر فيه إلى الشاطىء الآخر وهو التعبير الذى كان يستعمله المصريون ، لأنهم كانوا لا يحبون استعمال كلمة الموت .

كان أقاربه يظلون فى حالة حداد مدة لا تقل عن سبعين يوما . فكانوا يرفضون كل عمل يتطلب مجهوداً ، ويلزمون البيوت ، ساكتين واجمين ، واذا اضطروا إلى أن يخرجوا فقد كانوا يلطخون وجوههم بالطمى كما فعل أنوپو Anoupou عندما اعتبر أنه فقد أخاه الصغير ، وكانوا يلطمون باستمرار فوق رؤوسهم بأيديهم (٣٣) . وانما كانت ثمة مهمة أخرى عاجلة تتطلب اهتمامهم وهى تسليم الجثة إلى المحنطين واختيار طريقة التحنيط . وكان التحنيط على ثلاثة أنواع كما ذكر هيرودوت وديودور . فالتحنيط من الدرجة الأولى كان يتطلب

مزيدا من العناية ووقتا طويلا . . كان ينزع المخ من الجمجمة كما كانت تنزع كافة الأعضاء الداخلية عدا القلب، وكانت تعالج على حدة بمواد خاصة وتوزع إلى أربع ربطات توضع كل منها فى أوانى كانوب الأربعة وكان يستعاض بكمية من مواد التحنيط عن هذه الأعضاء التى انتزعت من الجسم ، بعد تنظيف الجسم مرتين . ثم يملح الجسم بالنطرون وهو إحدى المواد التى تتوافر بوادى النطرون والملاحات الموجودة فى غرب الفيوم ، كما كان يوجد فى منطقة الكاب نخب Nekheb . وكان المصريون يستخدمونه فى مختلف الأعمال وخاصة فى تنظيف بيوتهم . وفى نهاية مدة السبعين يوما ، كانت تغسل الجثة ثم تلف بأربطة مقصوصة من نسيج الكتان ومشبعة بالصمغ وكان هذا العمل يتطلب لإتمامه إلى مواد مختلفة لا يقل عددها عن خمسة عشر مادة منها : شمع النحل لتغطية الأذان والعيون وفتحة الأنف ، والفم والقطع الذى أجراه الجراح لفتح البطن ، وخيار شنبر والدارصينى وزيت خشب الأرز وهو فى الحقيقة الزيت الناتج عن شجرة العرعر ، والصمغ والحنة وثمار العرعر والبصل ونبيذ النخيل (عرق البلح) . وعدة أنواع من المواد الراتنجية ونشارة الخشب والزفت والقطران . وبديهى أن النطرون كان هو المادة الأساسية . وكانت تجلب بعض هذه المواد من الخارج وبصفة خاصة الزيت والقطران إذ كانا يستخرجان من شجر الصنوبر فى لبنان ، لذلك عندما كانت تتعطل السياحة بحراً إلى جبيل ، ينتاب المحنطين وعملاءهم الأثرياء الكآبة والحزن لاضطرارهم إلى اللجوء إلى مواد أخرى للاستعاضة بها عما ينقصهم . (٣٤)

وعندما ينتهى هذا العمل، يصبح الجسد هيكلا عظميا مكسوا بجلد أصفر اللون ، ولكن الوجه يظل محتفظا بشكله الأصلى ، ويمكن التعرف عليه . بالرغم من الخدود الغائرة والشفاة الدقيقة فبعد مرور عدة قرون ، يمكننا

أن تتصور عندما نرى مومياء سيتى الأول Setoui I كيف كانت ملامح هذا الملك العظيم وتعبير وجهه مما لا يتاح لكثير من الأجسام المحنطة.

ولقد حان الوقت لكساء المومياء وتزيينها بالحلى. وكانت تعلق العقود والقلائد والتمائم وتوضع الأساور والكفوف والخواتم والصنادل. ومكان الجرح الذى قام به الجراح الذى استخرج منه الأعضاء الداخلية كانت توضع فوقه صفحة سميكة من الذهب على شكل ورقة قد نقشت عليها عين أوجا وأحيانا كانت تلك العين ترصع فوق الصفحة الذهبية لأن خاصيتها شفاء الجروح، كما توضع أربعة آلهة لحراسة الأوانى الكانوبية ثم توضع أيضا نسخة من كتاب الموتى بين ساقى الجسد، لأنه المرشد الذى لا غنى عنه فى الآخرة. وبعد ذلك يلف الجسد بأكله والأعضاء بلفائف من الكتان. ثم يوضع القناع على الوجه وكان ذلك القناع مصنوعا من القماش ومن خليط المرمر المسحوق والجير لعامة الناس. أما قناع الملوك وبعض الشخصيات الكبيرة فكان يصنع من الذهب وكان يربط بخيوط إلى ثياب من خرز. (٣٥) ثم تلف الجثة أخيرا بأكلها بكفن يثبت بوساطة شرائط متوازية. وبدلاً من هذا الكفن كانت مومياء شيشنق التى وجدت فى تانيس فى القاعة الداخلية لمقبرة بسوسنس ذات غطاء من الورق المقوى، رسمت عليه بطريقة ارتجالية استخدمت فيها وريقات ذهبية ولوحات دقيقة جدا من القيشانى الأزرق أشكال الزخارف المنقوشة أو التابوت الفضى. (٣٦) وكانت تمثلها إلى حد ما. ولو أتيح خلال اجراء هذه الأعمال السالفة، للنجارين وصانعى العربات والسلاح وغيرهم من الصناع المتخصصين الذين اشتركوا فى انجاز المهمة الخاصة بالأثاث الجنائزى بالفراغ من عملهم فى همة ونشاط كان من الممكن

الشروع فى وضع الجثة فى التابوت وإجراء مراسيم الدفن بعد وفاة الميت بشهرين ونصف الشهر .

٦ — الدفن وتكوين موكب الجنازة

كانت طريقة الدفن لدى المصريين مثيرة ومفجعة فى آن واحد(٣٧) .

فكان أهل الميت لا يخشون أن يتظاهروا أمام الجميع بالبكاء والإفراط فى أداء الحركات التى تعبر عن حزنهم العميق طيلة سير الموكب . وقد كان أهل الميت يخشون ألا يعبروا عن حزنهم تعبيرا كافيا فكانوا يستأجرون الندابين والنائحات ، الذين لا يكلون إطلاقا ولا يكفون عن الصراخ والعويل.وكانت النساء تلطم رؤوسهن بأيديهن، بينما كانت وجوههن ملطخة بالطين وصدورهن عارية وثيابهن ممزقة . أما الأفراد وأكثرهم رزانة أولئك الذين اشتركوا فى هذا الموكب فلا يؤدون حركات بمغالاة كهذه ولكنهم كانوا يذكرون أثناء سيرهم فضائل الميت . قائلين على سبيل المثال : « ما أجمل ما يأتيه.. لقد كان يملأ قلب خنسو إلى حد أنه تمكن من أن يصل إلى الغرب برفقة أجيال وأجيال من أتباعه وخدمه » .(٣٨) أما ما يلى هذا القطاع من الموكب فكان بمثابة موكب نقل أثاث تماما(٣٩). فكانت فرقة أولى من الخدم تحمل الفطائر وباقات الزهور وجرارا من الفخار وأوان من الحجر وصناديق معلقة على عاتقى نير وهى تحتوى على التماثيل الصغيرة «الشوابتى» وملحقاتها . وفرقة أخرى أكثر عددا من الأولى كانت تحمل الأثاث العادى وهو عبارة عن مقاعد وأسرة وخزائن وأصونة دون أن تهمل العربة ، أما الأمتعة الخاصة والصناديق التى تحوى الأوانى الكانوبية ، والعصى ، والصولجانات والتماثيل والشماسى ، فكانت تكلف فرقة ثالثة

بحملها. وأما الجواهر والقلائد والصقور والنسور ذات الأجنحة المبسوطة والطيور ذات الرأس الآدمى وأشياء أخرى قيمة فقد كانت تعرض على صوان وتحمل جهارا. كما لو كانوا لا يخشون بطش هؤلاء الدهماء العديدين الذين كانوا يشاهدون مرور الموكب. وكان التابوت يوضع داخل نعش مزين تجره بقرتان وبعض الرجال. ويتكون هذا النعش من ألواح من الخشب ذات إطارات غير مثبتة أو من هيكل خشبى تتدلى منه ستائر من قماش مطرز أو من الجلد، وكان يوضع فى قارب تحيط به تماثيل أيزيس ونفتيس أما القارب نفسه فكان يوضع بدوره فوق زحافة.

٧ — عبور النيل

كان الموكب يسير ببطء حتى يصل إلى شاطئ النيل. حيث كان فى انتظاره أسطول صغير من القوارب(٤٠) وأما القارب الرئيسى فكانت مقدمته ومؤخرته مقوستين فى رشاقة إلى الداخل، وتنتهيان فى شكل مجموعات من نبات البردى. وبه غرفة كبيرة مبطنة من الداخل بأقمشة مطرزة وسيور من الجلد. وفى هذه الغرفة كان يوضع النعش، ومعه تماثيل أيزيس ونفتيس، ويقوم كاهن بحرق البخور وهو يغطى كتفيه بجلد فهد، بينما تواصل النائحات اللطم على رؤوسهن. ويقتصر عدد نوتية هذا القارب على بحار واحد، يتحسس عمق الماء بمدرى طويل، إذ أن القارب الذى يحمل التابوت كان يجره مركب أخرى ذات عدد كبير من النوتية بقيادة قبطان يقف فى مقدمة المركب يعاونه نوتى يتحكم فى الدفة فى مؤخرة المركب. وهذه المركب القاطرة تحتوى على حجرة واسعة تجتمع النائحات فوق سطحها

متجهات نحو النعش وقد كشفن عن صدورهن ويواصلن الصراخ ويأتين بحركات تنم عن الحزن الشديد، وهاك بعض ما يقلنه فى ندبهن « لتذهب سريعا نحو الغرب . . إلى أرض الحقيقة . إن نساء القارب يبكين كثيرا وكثيرا جدا . . مع السلامة . . مع السلامة أيها الممدوح ياجميل الصفات . اذهب بالسلامة نحو الغرب . اذهب بالسلامة أيها الممدوح . وإذا شاء الإله فسنراكم أنتم الذين تسيرون نحو هذه الأرض التى يتساوى فيها الناس . . متى حان الموعد الذى يحل فيه يوم الأبدية .

ولكن ما شأن أهل جبيل كبنيت Kebenit هنا وهى مركب معدة للسفر فى أعالى البحار، بينما المركب الخاصة بالنعش لم تصنع إلا لتعبر النيل فقط ؟ على أنه يوجد بينهما تشابه كبير ، إذ عندما تمكنت أيزيس من أن تسترد الشجرة المقدسة التى كانت تحوى جسد زوجها أوزيرس حملتها فوق مركب كانت متأهبة للإقلاع متجهة نحو مصر وهناك احتضنتها وأخذت ترويها بدموعها وهكذا تفعل سيدات الأسر تعبيرا عن حزنهن فوق القارب أثناء عبور النيل .

وكانت تستعمل أربع سفن أخرى لنقل أولئك الذين كانوا يرغبون فى مصاحبة المتوفى حتى مثواه الأخير ، وتوضع فيها أيضا كافة الأثاث الجنائزى . أما من لم يكن يرغب فى الذهاب بعيدا فكانوا يبكون على الشاطىء ويوجهون إلى صديقهم ، تمنياتهم الأخيرة : « لعلك تبلغ بسلام غرب طيبه » أو كانوا يقولون أحيانا : « إلى الغرب . . إلى الغرب ، أرض الأبرار ، إن المكان الذى كنت تحبه يتفجع أسى وحسرة عليك ! » . . .

وقد أتت اللحظة التى ترفع فيها المرأة الثكلى صوتها الناحب :

« يا أخي .. يا زوجي .. ياحبيبي .. ابق .. استقر في مكانك ولا تبتعد عن المكان الذي تسكنه . واحسرتاه إنك تذهب لتعبر النيل ، أيها النوتية لا تتعجلوا . اتركوه .. إنكم ستعودون إلى بيوتكم بينما هو ذاهب إلى أقطار الأبدية .. »

٨ — الصعود إلى المقبرة

إن الاستعدادات على الشاطىء الآخر كلها معدة لمقابلة الموكب(٤١) فالناس قد تجمعوا وأقيمت حوانيت صغيرة تحوي مجموعة وافرة من الأدوات الخاصة بالمراسيم الجنائزية لأولئك الذين لم يكونوا قد أتوا معهم بما يكفي منها . وقد أمسك أحد الرجال بمقدمة المركب الأولى وسرعان ما ينزلون الركاب والنعش والأثاث جميعه إلى الشاطىء . ولا يلبث أن ينتظم الموكب مرة أخرى بنفس الترتيب السابق تقريباً ولكن بعدد أقل من المعزين حين غادروا مسكن المتوفى .

فيجر زوج من البقر الزحافة التي تحمل مركباً من طراز عتيق، وأخذت كل من أيزيس ونفتيس مكانهما ، وكان السائقون يحمل كل منهم سوطاً ، ويسير بجوارهم الرجل الذي يحمل لفافة البردي أما نساء الأسرة والأطفال والندابات فيسرن أينما وجدن مكاناً في الموكب . وأحياناً تحرك إحدى النساء الصاجات . أما زملاء الفقيد فيسيرون في تأثر عميق بانتظام ووقار شديد ، والعصي في أيديهم ، يتبعهم الحالون وهم يواصلون الحديث عن صديقهم الفقيد وميوله ويستعيدون ذكرياتهم معه ويبدون ملاحظاتهم عن الآجال وضربات القدر وعن عدم الاطمئنان إلى دوام الحياة وقصر مدتها وعندما يمر الموكب أمام منازل بنيت بأعواد ، ترى جماعة من الناس يقفون على مقربة منها وهم

يلوحون بأيديهم بمواقد . مشتعلة وبعد أن يجتاز الموكب منطقة الأراضى الزراعية يسير قليلا حتى يصل إلى سفح الجبل الليبى إذ تبدأ الأرض ترتفع رويداً رويداً ويبدو الطريق شاقاً وعرا فتحل البقرتان ويجر نفر من الرجال الزحافة وعليها النعش وعند الضرورة يرفعون النعش على أكتافهم ، يتقدمهم الكاهن وهو لا يكف عن رش المياه المقدسة من أبريقه بينما يبقى ذراعه ممدوداً ممسكا المبخرة المشتعلة الموجهة نحو النعش . وفى هذه اللحظة فإن حاتحور تخرج من الجبل على هيئة بقرة مخترقة طريقها بين آجام أوراق البردى الذى نما بمعجزة فوق الصخور الجرداء لتستقبل القادمين الجدد .

٩ — ووداعا أيتها المومياء

وفى مشقة كبيرة ، يصل الموكب إلى القبر (٤٢) وقد أقيمت هناك أيضا حوانيت صغيرة يعد فيها بعض الناس مواقد ذات مقابض ويملأون أزياراً كبيرة بالماء لتبريدها ، ومعبودة الغرب حاضرة بجوار اللوحة التذكارية ، وهى وإن كانت مختفية عن الأنظار إلا أنها ترى على هيئة صقر يقف فوق جثم ويرفع التابوت من النعش ثم يوضع ملاصقا للوحة التذكارية . وتجلس امرأة القرفصاء بجواره وهى تحتضنه بشدة ويضع أحد الرجال فوق رأس المومياء قمعاً معطراً يشبه ذلك الذى كان يوضع فوق رؤوس المدعوين فى حفلات الاستقبال والناحبات والأطفال وأفراد الأسرة يلطمون رؤوسهم فى عنف شديد يفوق ما كانوا يفعلونه عند بدء تشييع الجنازة . أما الكهنة فكان عليهم أن يؤدوا مهمة خطيرة كان من واجبهم أن يعدوا مائدة بما عليها من مواد غذائية من خبز وأباريق ملئت بالجعة .وكان عليهم أيضاً أن يضعوا أدوات غريبة مثل قادوم وسكين مقوس على هيئة ريشة نعام ونموذج لفخذ عجل ولوحة منتهية بطرفين مستديرين . وهذه الأدوات سوف يستخدمها الكاهن

لإبطال مفعول التحنيط حتى يستطيع المتوفى أن يسترد استعمال أطرافه وجميع أعضائه: إنه سيبصر من جديد. وسيفتح فمه ليتكلم ويأكل. وسوف يمكنه من تحريك ذراعيه وساقيه.

وقد حان وقت الفراق. وتتضاعف إمارات الحزن. فتقول الزوجة: «إنى زوجتك يامريت رع — لا تتركنى أيها العظيم، هل فى نيتك أن أبتعد عنك؟ إذا انصرفت عنك فستبقى وحيداً. هل سيرافقك أحد ويتبعك؟ لقد كنت تحب المزاح معى والآن أصبحت تسكت ولا تتكلم؟!» وعلى أثر هذا يأتى صدى أصوات النساء قائلات بالخراب.. وبالداهية! .. لا تكفوا.. لا تكفوا .. لا تكفوا عن النواح لقد رحل الراعى الطيب إلى الأبدية. وقد ابتعدت عنك حشود الناس فأنت الآن فى البلد الذى يحب العزلة. أنت الذى كنت تحب السير على قدميك تقيدك الآن اللفائف والأكفان. أنت الذى تمتلك أفضل وأثمن الثياب، أصبحت تنام الآن فى لفائف الأمس* !»

ولا يبقى بعد ذلك إلا إنزال التابوت والأثاث الجنائزى كله وترتيبه داخل القبر (١٣). لقد أصبح النعش فارغا. فيأخذه الكهنة، الذين كانوا قد استأجروه ليشيعوا به هذه الجنازة، ويعودون به إلى المدينة حيث كان فى انتظاره عملاء آخرون.

يوضع التابوت المصنوع على هيئة مومياء فى تابوت آخر من الحجر على هيئة حوض مستطيل الشكل أعد من قبل ونحت ونقشت عليه النصوص ووضع فى مكانه منذ مدة طويلة. ثم توضع حوله عدة أشياء مثل العصى والأسلحة والتمائم فى بعض الأحيان، ويغطى بعد ذلك بغطائه الحجرى

* تنام وعليك خرق بالية.

الثقيل وتوضع الأوانى الكانوبية بجانب التابوت ، داخل صندوق خاص وكذا الخزائن والصناديق وبقية الأثاث بأكمله . وحذار أن ينسى ما سيكون من أهم الأشياء فائدة للمتوفى وهى المواد الغذائية والتى تعبر عنها بعبارة «الأوزيريات النابتة» ، وهى عبارة عن إطارات من الخشب على شكل أوزيريس «محنطا» ، وبداخلها كيس من القماش الخشن . كان يملأ هذا الكيس بخليط من الشعير والرمل ، يسقى بانتظام لمدة عدة أيام فكان ينبت الشعير وينمو كثيفاً قوياً وعندما يصل طوله حوالى اثنى عشر أو خمسة عشر سنتيمترا كان يجفف ثم تلف الأعواد بما فيها فى قطعة من القماش .

وكانوا يأملون بهذا العمل حث المتوفى على العودة إلى الحياة إذ أن أوزيريس قد نما بهذه الطريقة وقت بعثه من بين الأموات . وفى العصور السابقة كانوا يحصلون على نفس هذه النتيجة بوضع جرار مكونة من قطعتين داخل المقبرة فالقطعة الأولى الداخلية تحتوى على كمية من الماء والقطعة الأخرى الخارجية كانت ذات ثقوب توضع بها بصلة من من نبات اللوتس فتنبت الجذور من النبات وتتخلل الثقوب وتصل إلى الماء وتنبت منه سيقان من عنق الجرة الوحيد أو الثلاث فتحات ويزدهر ، وكانت هذه العادة شائعة الانتشار فى عهد الدولة الوسطى ، ولكنها تركت ، منذ أن اتبعت طريقة « الأوزيريات النابتة » . فاللوتس هو نبات رع Ra وكان هذا انتصار جديد لعبادة أوزيريس على العبادة القديمة وهى عبادة الشمس .(٤٤)

١٠ — الوجبة الجنائزية

لقد تم إعداد القبر تماماً ولم يبق على الكاهن وأعوانه إلا أن يرحلوا . وكان البناء يسد الباب بجدار ، أما الأقارب والأصدقاء الذين رافقوا المتوفى حتى مقره الأبدى فإنهم لن يفترقوا ويعود كل منهم إلى منزله على الفور بل يبقوا ، إذ أن الانفعالات الشديدة قد جعلتهم يشتهون الطعام . فالحمالون الذين كلفوا بنقل أشياء عديدة لاستعمال المتوفى ، كانوا قد حرصوا على أن يتزودوا ببعض المؤن للأحياء . وعلى ذلك كانوا يجتمعون إما داخل المقبرة أو فى الفناء الذى يؤدى إليها . وإما فى أحد الأكشاك المبنية بالأعواد على بعد قليل من المقبرة(٤٥) وكان لاعب القيثارة يدير وجهه نحو المكان الذى ترقد فيه المومياء ويبدأ بتواشيح يصحبها بأغان تذكر بأنه بفضل ماقاموا بعمله لأجل المتوفى فإنه لابد من أن يكون فى حالة طيبة جداً : «أنك تناشد رع ، وخبر هو الذى يسمع، وتوم Toum هو الذى يجيبك، وسيد الكون الأعلى يحقق ماتشتهيه — ورياح الغرب تهب مباشرة نحوك حتى تلمس أنفك ، ورياح الجنوب تتحول من أجلك إلى رياح شمالية إنهم يوجهون فمك نحو ضرع البقرة حيسات Hesat . ستصبح طاهراً لتشاهد الشمس . وتغتسل فى الحوض المقدس . وكل أعضائك فى حالة جيدة. وتظهر براءتك أمام رع وتكون دائم الخلود أمام أوزيريس وتتسلم القرابين فى ظروف مواتية . وتأكل كما كنت تأكل على الأرض ويكون قلبك مطمئنا فى الجبانة . وتصل إلى الأبدية فى سلام . ويقول لك آلهة دوات Douat » تعال إلى روحك — كا Ka — فى اطمئنان كبير ، وكل البشر الموجودين فى العالم الآخر ، فإنهم رهن تصرفك . وأنت مدعو لتبليغ الشكاوى للكائن الأكبر . إنك تسن القانون يا أوزيريس جانفر Osiris Tja—nefer المبرور.(٤٦)

وإكراما للأب المقدس نفر حتب Neferhotep يقوم عازف آخر فيعزف على القيثارة ألحانا أشد حزناً وحسرة (٤٧). لن ينسى أن للبيت مكانة ممتازة حقاً . فكم من مقابر انهارت واندثرت قرابينها ، وتلوث خبزها بالتراب . ولكن ، جدران مقبرتك أنت محكمة البنيان فقد غرست الأشجار حول مستنقعك . وروحك البا Ba تبق فى ظلها ترتوى من مياهها » وقد تراءى له أن الفرصة سانحة تماماً ليتفلسف قليلا: «لقد تستسلم الأجساد وتذهب إليها منذ عهد الآلهة ويحل مكانها الجيل الجديد . وطالما أن رع يشرق كل صباح ويغرب توم Toum فى الغرب ، فإن الرجال يتكاثرون والنساء يلدن وكل الأنوف تستنشق الهواء . ولكن كل من يولد يأوى يوماً إلى مكانه ، ولذلك يجب التمتع بالحياة ، ومن العجب أن العازف يوجه هذه النصيحة إلى من كان راقداً فى تابوته ، بينما يتصور الحاضرون أنهم هم المقصودون بها وهم يلتهمون فى شهية الطعام والشراب ويعودون إلى مدينتهم وهم ينعمون بانتعاش كبير ، بل يكونون أكثر انشراحاً عما كانوا عليه قبل ذهابهم إلى المقبرة .

على هذا النحو كان يحتفل بتشييع جنازة مصرى ثرى ، ولا داعى للقول بأنه لم يكن يعمل مثل هذا الاحتفال للطبقات الصغيرة . فالقائم بعملية التحنيط لم يكن يعبأ بفتح البطن واستخراج الأحشاء منه بل كان يكتفى بحقنه فى مؤخرته بسائل دهنى مستخرج من ثمرة العرعر ، وإشباع الجسد بملح النطرون . أما من كانوا أشد فقراً فكان يستعاض بزيت العرعر بمطهر آخر أرخص منه ثمناً . وبعد إعداد المومياء بمثل هذه الطريقة ، كانت توضع فى تابوت وتحمل إلى مقبرة قديمة مهجورة ، وأصبحت تستعمل حالياً كمقبرة عامة . وكانت ترص فيها التوابيت فوق بعضها إلى أن تصل إلى السقف وعلى أية حال فلم تكن المومياء تجرد تماماً من كل ماهو لازم لها فى العالم

الآخر، إذ كان يوضع داخل التابوت بعض أدوات وصنادل من البردى المجدول وخواتم من البرونز أو من الخزف وأساور وتمائم وجعارين وتميمة أوجا Oudja (تميمة العين السليمة) وتماثيل صغيرة للمعبودات من الخزف المطلى أيضاً. وكان ثمة أناس أشد فقراً فلم يكن لهؤلاء إلا أن يوضعوا فى إحدى المقابر العامة وكان يوجد فى طيبه جبانة خاصة بالفقراء فى وسط جبانة الأثرياء فى العساسيف. ويلقى فيها بالموميات وهى ملفوفة فى قماش خشن من الكتان، ثم تغطى بقليل من الرمال، وسرعان ما تلقى فوقها مومياء أخرى(٤٨). وما أسعد من كان من بين هؤلاء الفقراء يذكر اسمه أو ينقش منظره فى مقبرة وزير أو أحد أبناء حكام بلاد النوبه لأنه كان يواصل القيام بخدمة سيده فى العالم الآخر كما كان يفعل فى حياته فى الدنيا.

ولما كان كل عمل يستحق أجراً فسوف يعيش من ثمرة جهده وسوف ينتفع إلى حد ما من المزايا والخيرات التى وعد بها المحظوظون الأغنياء، لأنهم كانوا عادلين.

١١ — العلاقة بين الأحياء والأموات

إن الذين يصفون الأمنتيت Amentit بأنه مكان للراحة والسلام فأنهم كانوا يكونون عنه فكرة ساذجة جداً وجميلة جداً. ولقد كان الميت كثير الشكوك والظنون عديم الثقة. ميالا إلى الانتقام كان يخشى اللصوص الذين يجذبهم الذهب والفضة المودعان فى القبر، كما كان يخشى اعتداء المارين العديدين، بل كان يخشى أيضاً عدم اكتراثهم به وهم الذين كانوا يغامرون بالانتقال بين أرجاء جبانة المدينة الواسعة فى الغرب، كما كان يرتاب فى الموظفين المنوط بهم صيانة الجبانة. ولذلك فمن كان لا يقوم منهم بأداء واجبه فى جد وإخلاص كان الميت يهددهم بأشد العقوبات: «سوف يسلمهم إلى نار الملك

فى يوم غضبه . . وسوف يغرقون فى البحار التى ستبتلع أجسادهم . ولن ينالهم شرف التكريم الذى يمنح لأفاضل الناس . ولن يستطيعوا ازدراد القرابين المعدة للموتى . ولن يسكب أحد عليهم المياه المقدسة من النهر الممتلىء بالماء . ولن يتقلد أولادهم وظائفهم . وتنتهك حرمات نسائهم على مرأى منهم ولن يسمعوا أقوال الملك فى يوم سعده ، حيث يكون مبتهجاً . أما إذا كانوا يحسنون القيام على المنشأة الجنائزية ، فسيقدم لهم كل ماهو خير . . وسيمن عليهم آمون رع سونتير Amonrasonter بحياة طويلة مستقرة . وسوف يكافئكم الملك الذى يحكم فى عصركم على طريقته .

وسوف تمنحون وظائف عديدة فضلا عن وظائفكم . وتتسلمونها من ولد إلى ولد ومن وارث إلى وارث ، وسوف يدفنون فى الجبانة بعد أن تتجاوز أعمارهم مائة وعشر سنوات . وستضاعف لهم القرابين .(٤٩)

ومن جانب آخر فقد كان يوجد أيضاً موتى أشرار ، فبعضهم كان السبب فيه إلى حد كبير أبناءهم الذين أهملوا شأنهم ولكن الكثيرين منهم كانوا يميلون بطبعهم إلى عمل الشر دون أدنى سبب أو مبرر سوى أنهم كانوا يميلون إلى الشر وكان ينبغى للآلهة أن يمنعوهم عن الأذى ولكنهم كانوا يضللون المراقبة والحراسة عليهم وكانوا يتركون مقابرهم ويزعجون الأحياء(٥٠) وأغلب الأمراض التى كان يعانيها الأحياء كانت تعزى إلى حزن الأموات الأشرار ذكوراً أو إناثاً . وكانت الأم تخشى بأسهم على طفلها ، وتقول : إذا كنت جئت لتعانق هذا الطفل فإنى لا أسمح لك بأن تعانقه ، أما إذا كنت قد جئت لتهدئه هذا الطفل فإنى لا أسمح لك بأن تهدئه ، وإذا كنت جئت لكى تمضى به فإنى لا أسمح لك بأن تأخذه منى .(٥١)

وكان المصريون يترددون كثيراً على المساكن الأبدية وذلك إما بدافع

الرهبة أو بدافع التقوى . فكان أهل الميت أبواه والأطفال والأرامل يصعدون إلى التل ويحضرون معهم بعض الأطعمة وقليلا من الماء ليضعوها فوق مائدة القرابين بجوار اللوحة التذكارية ، أو بين شجر النخيل الذى يظلل فناء المدخل ثم يرتلون الصلوات تلبية لرغبة المتوفين فيقولون : « ألوف من أرغفة الخبز وجرار من الجعة وثيران وطيور وشحوم ودهون وبخور وأقمشة وحبال وكل ما يجلبه النيل من خيرات وما تنتجه الأرض ومايعيش منه الإله تقدمه لروح فلان . . المبرور المرحوم . .

وكان هم شديد ، يعترى أحياناً من يبتهل على قبر شخص عزيز عليه ، وقد سبق أن ذكرنا اعتراف الزوج الذى لا لوم عليه،والأرمل الوفى الأمين وإذا كنا نعرف فضائله ومزاياه العديدة فذلك لأن هذا المسكين قد أفزعته المحن العنيفة والتجارب ، فمنذ أن فقد زوجته لم يوفق فى أى عمل ، فأقدم على تحرير رسالة طويلة لها ، وقد وصلنا نصها ، وبعد أن أوضح فيها كل ما كان قد فعله من عمل طيب خلال حياة الفقيدة وبعد وفاتها ، وقد عبر عن آلامه من أن يعامل بمثل هذه القسوة . « أى شر فعلته حتى أصل إلى مثل هذه الحال التى أعانيها الآن ؟ . وماذا جنيت حتى ترفعى يدك على بينما لم أتسبب لك فى أى ضرر ؟ إنى استشهد بآلهة الغرب بما ينطق به فمى وبحكم بينك وبين كتابى هذا . (٥٢)

وصاحب هذه الرسالة الذى عاش فى العصر الأول للرعامسه خضع لعادة قديمة مثبوته لنا بصفة خاصة معروفة بأمثلة أقدم عهدا منها وكان هو الدليل أو البرهان على أن الناس كانوا يعتقدون دائماً بفائدتها ونتائجها الناجعة . وفى عهد الدولة الوسطى كان الناس يؤثرون أن يكتبوا للميت على الأوانى

التى كانت تحوى الطعام المعد له ، وذلك ليكونوا أكثر اطمئنانا إلى أن الرسالة سوف لا تمردون أن يطلع عليها . ومن أمثلة هذه الرسائل تبليغ أحد الأجداد بأن هناك مكيدة الغرض منها حرمان حفيده من حقه فى الميراث ، ويهم الميت أن يعترض على هذه المكايد، وعليه إذن أن يستدعى أعضاء أسرته وأصدقاءه لمساندة من يراد سلب حقه إذ أن الابن عندما يؤسس منزله ، فإنه يؤسس بيت آبائه ويحيى اسمهم . فإذا فقد أمواله فإنه يجلب الشقاء والتعاسة لأسلافه كما يجلبها أيضا لذريته .

ومهما بلغت درجة تقوى المصريين نحو أمواتهم ، فإنها لم تكن تكفى لإرضاء جحافل من كانوا يرقدون فى الجبانات وما كان يفعله إنسان لوالديه او لجدوده لا يستلزم منه أن يؤديه لأسلافه ، لأنه لا توجد تهديدات ولا لعنات يمكن أن تلزمه بذلك وقد أتى اليوم الذى تنبأ به عازف القيثار ، وقد تنبأ به من قبل أحد حكماء العهد القديم حين تحدث قائلا : « إن أولئك الذين شيدوا هنا أبنية بحجر الجرانيت وأقاموا قاعة داخل الهرم .. تصبح موائد قرابينهم خالية من كل شىء ، مثلها مثل موائد البائسين الذين يموتون على شاطىء النهر دون أن يتركوا ذرية . (٤٣)

وعلى ذلك نكاد أن تصبح الجبانة موضع تجمع الفضوليين الذين كانوا يمرون بالمقابر ويقرأون دونما اكتراث، النقوش التى عليها . وقد شعر بعض هؤلاء بنفس الميل الذى يعترى السياح المعاصرين حين يتركون أثراً لمرورهم بالمكان ولكنهم كانوا يضيفون عبارات تبين حسن نياتهم وتقواهم. فكثيراً ما كتب مثلا بأن الكاتب فلانا أو الكاتب فلانا قد حضر هنا لزيارة هذه المقبرة . مقبرة أنتى فوكر Antefoker وأنهم قد صلوا كثيرا وكثيرا جداً

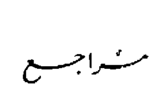
وقد كتب آخرون يقولون بأنه قد أسعدهم أن يتحققوا من أن هذه المقبرة في حالة جيدة - قالوا : «لقد وجدوها مثل السماء من الداخل» وقد قال أحد الذين يحملون اسم أمنمحات بغاية التواضع أن الكاتب ذا الأصابع الماهرة ، الكاتب الذى لا مثيل له فى مدينة منف بأجمعها قد زار المبنى الجنائزى للملك العجوز زوسر وقد أدهشه بأن يرى عليها عبارات ركيكة مليئة بالأخطاء وأن كاتبها لابد أن تكون امرأة لا عقل لها وليس كاتبا قد ألهمه تحوت موهبة الكتابة . ويجب علينا أن نبادر لنحدد فى دقة بأنه لم ينقد الكتابات الرائعة التى نقشت أصلا بمعرفة الفنيين الذين كانوا أيضا من العلماء ، وإنما اعترض فقط على هذا الزائر الجاهل المتسرع الذى سجل بعض كتابات سخيفة بالقلم العادى فى زمنه دون أى فن . وفى عهد رمسيس الثانى اعتزم كاتب الخزينة حاد ناختى Hadnakhti بأن يقوم برحلة بقصد التسلية فى غرب منف بصحبة أخيه بانختى Panekhti كاتب الوزير : يا آلهة غرب منف أجمعين ويا جميع الآلهة التى تحكم الأرض المقدسة ويا أوزيريس وإيزيس ، ويا أيتها الأرواح العظيمة الموجودة فى غرب عنخ تاوى Onkhtaoui . امنحونى وقتا طيبا طويلاً أحياه لأخدم أرواحكم لكى أحصل على حدث عظيم تعقب شيخوخة طيبة حتى أستطيع أن أتمتع بمشاهدة غرب منف ككاتب مكرم جداً ومثلكم بالذات » ، « إن بطل إحدى الروايات التى كتبت فى العصر المتأخر — ولكن المفروض أنه عاش فى عهد رمسيس وهو يدعى تنوفر كانتاح كان يبدو أنه لم يخلق على هذه الأرض إلا ليتجول ويتنزه فى جبانة منف ، مرددا النصوص التى كتبت على مقابر الفراعنة وعلى اللوحات التذكارية لكتاب بيت الحياة وكذلك الكتابات الأخرى المسجلة فى المنطقة . إذ كان يهتم

بالكتابة اهتماما بالغا (٥٤) وكان لنوفر كابتاح Neuoferkaptah منافس كان عالما مثله ومهتما أيضاً بالآثار اسمه ساتنـاخاموآس أوزير مارع Setna–khamouas ousirmaré (ابن رمسيس الثـانى) وكان قد اكتشف فى منف تحت رأس إحدى المومياءات تعويذة سحرية وهى المدونة على البردية رقم ٣٢٤٨ بإحدى مقتنيات متحف اللوفر (٥٥) إلا أنه قد اكتشفت أخيرا نقوش على واجهة هرم أوناس الجنوبية فى سقارة تفيد أن رمسيس الثـانى كان قد عهد إلى ولى عهده خامواسيت Khamouasit كبير كهنة أون أن يعنى باستعادة اسم أوناس ملك الجنوب والشمال الذى كان قد محى من على هرمه وذلك لأن ولى عهده ،خامواسيت كان ميالا جداً لترميم المبانى الأثرية لملوك الجنوب والشمال التى كانت صلابتها مهددة بالانهيار (٥٦) وهل كان قد خطر ببال هذا الحكيم الذى تقدم على ماريت وعلى خبراء مصلحة الآثار المصرية أنه بعد قرون عديدة مرت فى النسيان سيقوم رواد من بين أبناء البرابره (وهكذا كانوا يعبرون عمن كانوا لايعرفون مصر) ، بدورهم بالكشف عن الجبانات فى الجنوب وفى الشمال ، وانهم سيعيدون إلى الحياة أسماء أسلافه وأجداده ومعاصريه ويكتبون عنهم ما يمكن من مزيد التعرف عليهم .

ونأمل أن يكون أولئك الذين وهبوا من الجلد والصبر على قراءة كتابنا هذا حتى نهايته ، قد كونوا فكرة صحيحة عن طريقة حياة هؤلاء القوم ، وهى حياة دون شك تذكر كلها بكل فخر وإعجاب . ولم يكن الشعب المصرى كما كان يعتقد رينان قطيعا من العبيد يقوده فرعون مجردا من كل رحمة وعاطفة . ويتحكم فيه الكهنة النهمين المتعصبون ، حقيقة أن عدد

المحرومين كان دون شك فى عصر الرعامسة كبيرا جدا إذ كان يغالى فى استعمال العصى ولكن مع ذلك يظهر لنا أن فرعون وموظفيه كثيراً ما كانوا يشبهون الرؤساء الآدميين الذين تملأ الرحمة قلوبهم ـ وكان الدين هو الوازع على المواساة والسلوى .

على أنى أرى فى حياة هذا الشعب الصغير أن أوقات السعادة كانت تفوق كثيراً أوقات التعاسة .


مراجع

مراجع عامة

المراجع القديمة : تراجع مؤلفات الكتاب الأقدمين وبصفة خاصة هيرودوت :
الكتاب الثانى وديودور : الكتاب الأول .
واسترابون : الكتاب السابع عشر .
وبلوتارك :ايزيس واوزيريس (الترجمة الفرنسية لماريو مونييه Mario Meunier باريس ١٩٣٤ وجوفينال Juvenal) المجلد رقم ١٥ .

المراجع الحديثة : ومن المؤلفين الحديثين :

ولكنسون :أخلاق وعادات قدماء المصريين ، طبع عام ١٨٧٨ فى ثلاثة أجزاء .
ماسبيرو : التاريخ القديم لشعوب الشرق القديمة ، طبع فى باريس ١٨٩٥ -١٨٩٧ . الفصول الأربعة الأولى من الجزء الأول ،والفصل الخامس من الجزء الثانى . القصص الشعبية فى مصر القديمة ـ الطبعة الرابعة باريس ١٩١٥ـ فى عهد رمسيس وآشور بانيبال . باريس
ف . لوريه : مصر فى عهد الفراعنة طبع باريس عام ١٨٨٩
أ . أرمان : مصر والحياة المصرية فى العهد القديم ـ أعاد كتابته هرمان رانكى طبع توبنجن عام ١٩٢٣
ـ ديانة المصريين ـ الترجمة الفرنسية باريس ١٩٣٧
فلندرز بترى : الفنون والحرف فى مصر القديمة (الترجمة الفرنسية) طبع روكسل عام ١٩٢٥
مونتيه : مناظر من الحياة الخاصة فى المقابر المصرية فى عهد الدولة القديمة ـ طبع باريس وستراسبورج عام ١٩٢٥
أ . لوكاس : المواد والصناعات المصرية القديمة . الطبعة الثانية فى لندن عام ١٩٣٤

مقدمات كتب تيطس Tylus التذكارية وسلسلة الكتب عن مقابر طيبه للمؤلف ديفز . مقبرة قن آمون فى طيبه Ken-Amen ومقبرة نفرحتب Neferhotep فى طيبه . الملاحظات المدونه على اللوحات التى تكون جزئ أطلس فرسنسكى Wreszinski

التلخيصات الرئيسية

Ann. S. A. E, : Annales du Service des Antiquites de L'Egypte, 39 vol., Le Caire, 1900—1939.

حوليات مصلحة الآثار : ٣٩ مجلداً ١٩٠٠ — ١٩٣٩ القاهرة .

Az : Zeitschrift für ægyptiasche Sprache und Altertumskunde' 80 vol, Leipzig, 1863 –1940.

مجلة اللغة المصرية والتاريخ القديم ٨٠ مجلداً ليبزج ١٨٦٣ — ١٩٤٠ .

Bibl. æg. : Bibliotheca ægyptiaca. Bruxelles, depuis 1931' contient en particulier :

I. A lan H. Gardiner, Late-egyptian stories.

V. V. W. Erichsen, Papyrus Harris I.

VII. Alan H. Gardiner, Late—egyptian miscellanies.

المكتبة المصرية . بروكسل منذ عام ١٩٣١ تحتوى على الأخص الأول — جاردنر (ألن) : قصص العهد المتأخر .

الخامس : اريكسون — بردية هاريس الأولى .

السابع : ألان . هـ . جاردنر : متنوعات من العهد المتأخر .

Caire. Cat. gen. : Catalogue general des antiquites egyptiennes du musée du Caire,

الدليل العام للمتحف المصرى :

J. E. A. Journal of egyptian archaeology, London (Exploration society) , depuis 1914.

مجلة علوم الآثار المصرية . لندن (جمعية الحفائر) منذ عام ١٩١٤ .

Kemi. : Revue de philologie et d' archeologie egyptiennes et coptes, 9 vol., Paris. 1928 –1942.

كيمى : مجلة فقـــه اللغة والآثار المصرية والقبطية ٩ مجلدات باريس ١٩٢٨ — ١٩٤٢ .

Mem, Tyt, : Robb de Peyster Tytus Memorial Series (New York, depuis 1917) contient :

I. N. de Garis—Davies. The tomb of Nakht at Thebes, 1917.

II. III. of the Same, The tomb of Puyemre at Thebes. 2 vol. 1922—1923.

IV. of the Same, The Tomb of Two sculptors at Thebes. 1927.

V. of the Same, Two Ramesside Tombs at Thebes 1927

سلسلة تيطس التذكارية : سلسلة روب دى بايستر تيطس التذكارية ـ نيويورك منذ ١٩١٧ تحتوى على :

الأول : نورمان دى جاريس ديفز — مقبرة ناخت فى طيبه ١٩١٧

الثانى والثالث — نفس المؤلف : مقبرة يوى أم رع فى طيبه مجلدان ١٩٢٢ — ١٩٢٣

الرابع — نفس المؤلف — مقبرة نقاشين فى طيبه ١٩٢٧

الخامس — نفس المؤلف — مقبرتان من عهد الرعامسه فى طيبه ١٩٢٧

Med. Hapu : Oriental Institute of Chicago, Medinet Habu

I. Earliar Historical records of Ramses III by the epigraphic Survey.

II. Later Historical records of Ramses III by the epigraphic Survey.

III. The caleader, the Slaughterbouse and minor records of Ramses III, by the epigrafhic Survey.

Oriental Institute Publications J. H Breasted ed.

مدينة حابو — المعهد الشرقى بشيكاغو :

الأول : النصوص التاريخية الأولى لرمسيس الثالث ـ دراسات فى الكتابة ـ

الثانى : النصوص التاريخية المتأخرة لرمسيس الثالث — دراسات فى الكتابة ـ

الثالث : التقويم — المجزر والنصوص الصغرى لرمسيس الثالث . دراسات فى الكتابة .

مطبوعات المعهد الشرقى ـ المحرر ج . هـ . برستد .

Miss fr. : Mémoires publiés par les membres de la mission archéologique française au Caire, 18 vol., 1884—1896. en particulier, tome V (divers tombeaux thébains dont Rekhmara, par Bénédite. Maspero, Scheil) et XVIII, Boûssac, Le tombeau d' Anna.

مذكرات الحملة الفرنسية : مذكرات طبعها أعضاء بعثة الآثار الفرنسية فى القاهرة ١٨ مجلداً ١٨٨٤ - ١٨٩٦ .

وبالأخص الجزء الخامس (مقابر مختلفة فى طيبه منها مقبرة رخما رع لبنيديت وماسبيرووشيل) والثامن عشر بوساك : مقبرة أنا .

Topographical bibliography : Topographical bibliography of ancient Egyptian hiereglyphic texts, reliefs and paintings, by Bertha Porter and Rosalind Moss, 5 Vols. Oxford 1927—1937.

الفهرس الطبوغرافى : الفهرس الطبوغرافى للنصوص الهيروغليفية والنقوش والرسوم المصرية القديمة . تأليف برتابورتر وروزالند موس : ٥ مجلدات اكسفورد ١٩٢٧ — ١٩٣٧ .

Th. T. S. : The Theban tomb series, edited by N. de Garis-Davies and Alan H. Gardiner, 5 vol, 1915—1932, contient :

I. The tomb of Amenembet (No 82).
II. The tomb of Antefoker, vizier, of Sesostris I, and of his wife senet.
III. The tombs of two officials of Thutmosis the fourth (nos 75 and 90).
IV. The tomb of Huy, viceroy of Nubia in the reign of Tutankhamun (no 40).
V. The tomb of Menkheperrasonb & Amenemose and another (nrs 86. 112., 42 and 226).

سلسلة مقابر طيبه ـ تحرير نورمان دى جاريس دافيزوالن جاردنر : ٥ أجزاء ١٩١٥ - ١٩٣٢ . وتحتوى على :

الأول : مقبرة أمنمحات (رقم ٨٢) .
الثانى : مقبرة انتف أوكر وزير سيزوستريس الأول وزوجته سنت .
الثالث : مقبرة موظفين من عهد تحتمس الرابع (أرقام ٧٥ ، ٩٠) .
الرابع : مقبرة هوى حاكم النوبة فى عهد توت عنخ آمون (رقم ٤٠) .
الخامس : مقبرة من خبر رع سنب وأمن موزى وآخر (أرقام ٨٦ ، ١١٢ ، ٤٢ ، ٢٢٦) .

Urk : Urkunden des aegyptischen Altertums, in Verbindung mit K. Sethe und H. Schafer Herausgegeben von G. Steindorff :

I. Urkunden des alten Reiches (4 fasc.) (Leipzig, depuis 1902).
II. Hieroglyphische Urkunden der griechisch-romischen Zeit (3 fasc.).
III. Urkunden des alteren Aethiopenkonge (2 fasc.)
IV. Urkunden der 18. Dynastie (16 fqsc.).

مستندات التاريخ المصرى القديم اشترك فى التأليف كورت سيتا وشافر وقام بالتحرير شيندورف .

الأول : مستندات الدولة القديمة (أربعة أجزاء - ليبزج سنة ١٩٠٢

الثانى : المستندات الهيروغليفية فى العهد اليونانى - الرومانى ٣ أجزاء .

الثالث : مستندات ملوك أثيوبيا الأقدمين (جزءان) .

الرابع : مستندات الأسرة الثامنة عشر (١٦ جزء .

Wr. Atl, : wteszinski Atlas zur Altaegeptische Kulturgeschichte. 2 Teile, Leipzig depuis 1913.

أطلس فرسنسكى - أطلس عن تاريخ حضارة مصر القديمة - جزءان - ليبزج ١٩١٣ .

بيانات

مقدمة

(١) على سبيل المثال جوفنال ـ الهجاء رقم ١٥ وهيرودوت الكتاب الثانى ٣٥ .
(٢) مونتيه : مناظر الحياة الخاصة فى المقابر المصرية فى عهد الدولة القديمة استراسبورج ١٩٢٥ :
(٣) نيوبرى : بنى حسن جزء الأول (لندن ١٨٩٣) اللوحات ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٨) .
(٤) جريفت ونيوبرى : البرشه : الجزء الأول (لندن ١٨٩٤) اللوحتان ١٣ ، ١٧ .
(٥) كارتر — مقبرة توت‌عنخ آمون : ٣ أجزاء لندن ١٩٢٣ ـ ١٩٣٣ ـ مونتيه تانيس . باريس ١٩٤٢ الفصل السابع .
(٦) ولدراسة هذه الفترة ـ راجع مونتيه : قصة أواريس . باريس ١٩٤١ الفصلان الثالث والرابع .

الفصل الأول

المساكن

(١) رسم اللوحة فى پيترى : اللاهون ، كاهون وغراب لوحة ١٤ .
(٢) الوصف العام للمدينة ولأهم مبانيها فى پندلبرى . وفاريل العمارنة باريس ١٩٣٦ — لوحة مختصرة صحيفة ٦٣ .
(٣) رسم عام للكرنك — الفهرست الطبوغرافى . الجزء الثانى ، مجلد ٢و٩٨ .
(٤) أطلس فرسنسكى — الجزء الثانى ٣٠ ، ٣١ .
(٥) الفهرس الطبوغرافى — الجزء الثانى ١١٢ .
روبيشون وفاريل: فى مصر : الغلاف .
(٦) المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو — رسائل رقم ١٥ ، ١ ، ٢٨ ورقم ١٨ — صورة غلاف الكتاب .
(٧) أنظر على سبيل المثال ، الرسوم المدونة على معابد مدينة حابو وأبيدوس ، (مدينة حابو — أطلس فرسنسكى الجزء الثانى ١٨٤ — ١٩٠)
(٨) مونتيه : قصة أواريس . باريس ١٩٤١ ، الفصلان الثانى والرابع .
(٩) مونتيه : تانيس . باريس ١٩٤٢ : ٩ ، ٢٣ ، ١٠٧ ، ١٢٨
(١٠) بردية هاريس — الجزء الأول ٧٨ ، ٨
(١١) نفس المصدر ٦
(١٢) نفس المصدر ٢٧ — ٢٩
(١٣) شاسيناه : دندره الجزء الأول ، اللوحة ١٥
روبيشون وفاريل : معبد الكاتب الملكى امنحتب بن حابو القاهرة ١٩٣٦ ، ٣٥
(١٤) پندلبرى : نفس المرجع ١١٤ ، ١٤٠
(١٥) فوج روس — الآبار الكبيرة فى تانيس — راجع كيمى الخامس من ٧١ — ١٠٣
(١٦) پوزنر : الحكم الفارسى الأول لمصر . القاهرة ١٩٣٦ ، ١٥ — ١٦

(١٧) حوليات مصلحة الآثار المصرية : المجلد ١٨ (١٩١٨) ص ١٤٥
(١٨) كيمى ٨
(١٩) حوليات مصلحة الآثار المصرية : المجلد ٣٠ ص ٤٠ ، ٤١
(٢٠) المكتبة المصرية : المجلد السابع ص ١٢
قارن قصة أوزوريس صفحة ١٣٥ ، ١٣٦
(٢١) المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو — رسائل رقم ٧ من ١ — ٢٣
(٢٢) حوليات مصلحة الآثار المصرية : المجلد الحادى عشر (١٩١٠) من ٤٩ - ٦٣
(٢٣) بردية هاريس الاولى ٢٩ ، ٨
مونتيه : تانيس الجزء الثانى
(٢٤) بيترى : تل العمارنة ٢ — ٤
ديفز : صورة الجدران فى مدينة اخناتون . مجلة الآثار المصرية . المجلد السابع . اللوحة الأولى والثانية
(٢٥) سلسلة تيطس التذكارية : الخامس ٢٨ — ٢٩
ولمنزل تيوتى Thouboui ماسبرو : القصص الشعبية الطبعة الرابعة ١٤٧
(٢٦) ديفز : نفرحتب ١٤
(٢٧) بندلبرى : الكتاب السابق ذكره ١٢٧ — ١٤٩
(٢٨) نفس المرجع ١٥٢ ، ١٥٣
(٢٩) أطلس فرسنسكى الأول ٦٠
مذكرات الحملة الفرنسية المجلد ١٨ الجزء الأول .
مستندات التاريخ القديم : المجلد الرابع ١٠٤٦ — ١٠٤٧
(٣٠) أطلس فرسنسكى الأول ٢٧٨ حديقة مين نخت Min—nekht
(٣١) حديقة رخ مارع : أطلس فرسنسكى الأول ٣
وسبك حتب — نفس المرجع الأول ٢٢٢
امنمحاب — نفس المرجع الأول ٦٦
وقن آمون — ديفز ، قن آمون ٢٧
احدى صور الجدار رقم ٣٧٩٨٣ من مقتنيات المتحف البريطانى ، مرسومة

فى أطلس فرسنسكى المجلد الأول ٩٢

(٣٢) ديفز : منزل المدينة فى مصر القديمة ـ سلسلة مطبوعات متحف متروبوليتان الأول مايو ١٩٢٩ ص ٢٣٣ — ٢٥٥

(٣٣) حدى هذه القطع موجودة فى متحف القاهرة والثانية فى متحف اللوفر . أنظر كيمى . الثامن .

(٣٤) ديفز نفس المرجع ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧

(٣٥) بردية ايبرس . أوصاف رقم ٨٤٠ ، ٨٥٢ ، لوحة ٩٧ ، ٩٨

(٣٦) مجموعة من أكداس عثر عليها محفوظة فى حالة جيدة فى مقبرة يويا وتويو Youia &Touiou وفى مقبرة توت عنخ آمون .

وتوجد أشكال جميلة مرسومة على جدران المعابد والمقابر ، وعلى سبيل المثال سلسلة تيطس التذكارية الخامس ٥ ، ٩ ، ٢٥

والرابع ٧ — سلسلة مقابر طيبه الأول ١٥ — ١٦

والخامس ٤١ ، ٤٣

(٣٧) صور جدران قصر اخناتون فى بندلرى — نفس الكتاب صفحة ١٤ مجلة الآثار المصرية : السابع .

(٣٨) وجدت مجموعة رائعة من هذه الأوانى فى الممرات السفلى فى الهرم المدرج ويمكن مشاهدتها فى سقارة . وعن الأوانى التى مصدرها أبو رواش ـ راجع كيمى : السابع .

(٣٩) مونتيه الأوانى المقدسة والدنيوية فى مقبرة پسوسنس

پيوت : الآثار ٣٨ ١٩٤١ ١٧ — ٣٩

ماسبيرو : بحث فى الفن المصرى باريس ١٩١٢ من ١٨٩ — ٢١٦

ادجار : كنز تل بسطة — المتحف المصرى الثانى ٩٣ ، ١٠٨

فرنييه : كتالوج المتحف المصرى — الحلى والجوهرات ١٠٤ ، ١٠٦

(٤٠) مدينة حابو ٣٨ ، ٥٥

(٤١) ديفز : فن آمون ١٢ ، ٣٠

(٤٢) مونتيه : الحياة الخاصة — لوحة ١٤ وص ١٤٥

الفصل الثانى

الزمن

(١) ماسبرو . أنشودة للنيل ٢ ، ٨ ، ١٢ ! .

(٢) بردية هاريس الأولى ٣٧ م ١ ، ١ ، ٤ م ٦ ، ٥٤ أ ٢ ، ٥٦ ، ١٢ أ .

(٣) موريه Moret قتل المعبود فى مصر باريس ١٩٢٧ ص ١٠ ، ١٣ .

(٤) منشور كانوب : المستندات ج ٢ ، و ص ١٣٨ .

(٥) مدينة حابو : الثالث ص ١٥٢

(٦) بردية شستر بيتى الأولى — انظر ج ١

(٧) بردية أنستاس الرابعة ١٠ ، ؛ ، ٣

(٨) أنشودة لسيزوستريس الثالث

سيته ، ليستوكا ٦٧

(٩) نقوش المهندس حرورروع Horeurre — كيمى الثانى ص ١١١-١١٢

(١٠) بردية ايبرز ١٨ ، ٢ ، ٦١ ، ٤-٥ ، ٦١ ، ٦٥

بردية براين الطبية ١١ ، ١٢ ، بردية هيرست ٢ ، ١٧ ! ، ١٠ ، ١١

(١١) استرابون . السابع عشر ٤٦

(١٢) أسيوط الأول ٢٧٨ (عقل حاى جفاى الثانى) .

(١٣) ديفز : قن — آمون ٣٨ - ٣٩

(١٤) حوليات مصلحة الآثار المصرية التاسع والثلاثون ٢١٩ ، ٢٩٩

(١٥) بردية ساليه الرابعة ، التى درسها شاباس ، تقويم أيام السعد وأيام النحس فى السنة المصرية . باريس وشالون ١٨٧٠ ، ومكتبة الدراسات المصرية الثانى عشر ١٢٧

بدج صورة طبق الأصل الكتابة الهيراطيقية فى المتحف البريطانى الثانى — لوحة ٨٨ جريفث ، بردية بيترى ، ص ٦٢ ولوحة ٢٥

(١٦) فيما يتعلق بالمعبود ست Seth (Area) فى بابريميس — راجع هيرودت الثانى ٥٩ ، ٦٣

(١٧) ساعات النهار ، شاسناه : ادفو الثالث ٢١٤، ٢٢٩ ساعات الليل : بوشر : نصوص مقابر تحتمس الثالث وامنوفيس الثانى ٨ – ٧٧
(١٨) المستندات الأولى ١٠٦ (أوفى ٣٦)
(١٩) المستندات الأولى ١٣٠
(٢٠) أرمان — رانكى ، مصر والحياة المصرية فى العهد القديم ٣٩٩ ، ٤٠٢ سلوبى : الوسائل البدائية فى تقدير الوقت (مجلة الآثار المصرية السابع عشر (١٩٣١) ١٦٦ - ١٧٨
(٢١) مجلة الآثار المصرية - السابع عشر - اللوحات ١٩ ، ٢٢ كيمى ، الثامن .
(٢٢) مجلة الآثار المصرية . السابع عشر ١٧٠ - ١٧٤
(٢٣) ماسبيرو دراسات مصرية الأول ١٨٥ - ٦
(٢٤) المستندات الرابع ٦٥٥
(٢٥) سنوحى ب ١٠ ، ١٢ ، ٢٠ مكتبة الدراسات المصرية السابع ٣٠ يوميات قادش ٥
(٢٦) ديودور الأول ٧٠
(٢٧) بردية هاريس ..٥ الرابعة ١ ، ٢
(٢٨) ڤانديه وأبادى : شقف الدير البحرى المنقوش أرقام ٢٢٢٧ ، ٢٢٣٩ ، ٢٣٤٢ ، ٢٢٤٤ ، ٢٣٤٧
(٢٩) ماسبيرو : تاريخ الثانى ٢٩٤ ، ٢٩٥
(٣٠) ماسبرو : التاريخ الثانى ٤٣٣ ، ٤٤٤
(٣١) المستندات - الثالث ٦١ ، ٦٢
(٣٢) جاردنر — أوراق البردى المدونة بالهيراطيقية فى المتحف البريطانى . السلسلة الثالثة لندن ١٩٣٥ الجزء الثانى لوحات ٥ ، ٨
(٣٣) نفس المرجع — الجزء الأول ٢٠ ، ٢١
(٣٤) هيرودوت الثانى ٨٣ — سورديل : هيرودوت والديانة فى مصر باريس ١٩١٠ الفصل السادس .

الفصل الثالث

الأسرة

(١) بتاح ـ حتب (طبعة ديفو) الموعظة رقم ٢١
(٢) المستندات . الرابع ٢ ـ ٣ .
(٣) المستندات . الرابع ٣٠ ، ٣١
(٤) الوفر . ج ١٠٠ ، ماسبيرو : الدراسات المصرية الأول ٢٥٧ ، ٨
(٥) بردية هاريس ٥٠٠ أغانى الحب الثانى ٩ ، ١١ ، موللر الشعر الغرامى فى مصر القديمة .
(٦) جاردنر بردية شستر بيتى رقم ١ لوحات ٢٥ ، ٦ ـ ٢٦
(٧) نفس المرجع ٢٢ ، ٨
(٨) نفس المرجع ٢٢ ، ٨ ، ٢٣ ، ١
(٩) نفس المرجع ٢٣ ، ٢ ـ ٤
(١٠) نفس المرجع ٢٤ ـ ٤ ـ ٧
(١١) نفس المرجع ٢٤ ، ١٠ ـ ٢٥ ، ٦
(١٢) بردية هاريس ٥٠٠ ، الأغانى الغرامية الرابع ٢ والخامس ٣
(١٣) ماسبيرو : القصص الشعبية : الطبعة الرابعة ١٢٨
(١٤) نفس المرجع ١٩٧ ، ٢٠٣
(١٥) ديفز : نفر حتب ١ ، ٢١ ، ٢٧ فى سلسلة تيطس الرابع ص ٥ لخامس ٥ ـ ٧ ويجب ألا ننسى أن الألفاظ التى تعنى القرابة لها معان متسعة بجانب معناه المحدد فكلمة Iot تعنى والد وتعنى بعض الأحيان الجد وسن Sn وسنت Snt التى تعنيان أخ وأخت قد تعنيان فى بعض الأحيان أعضاء جماعة وفعل سنسن Ssn يعنى « اتحد » .
(١٦) ماسبيرو : القصص الشعبية ـ الطبعة الرابعة ص ١٢٩ ـ ملاحظة رقم ١ موريه : النيل والحضارة المصرية ١١٠ ، ٣١٨ ـ ٣١٩
(١٧) هيرودوت الثالث : ٣١

(١٨) سلسلة مقابر طيبه الأول صفحة ٤ ، أ ٢ الثامن والأربعون ٥٠
(١٩) ماسبيرو القصص الشعبية الطبعة الرابعة ١٣٠
(٢٠) شرنى : دستور الزواج فى مصر فى مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٣٧ ، ٤١ وما يليها .
(٢١) ليناج فى مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة الثامن والثلاثون ٢٣٣ ، ٥٩٩
(٢٢) مثل من كثير من الأمثلة ـ انظر تيطس التذكارية الرابع ١
(٢٣) بتاح ـ حتب ـ طبعة ديفو ٣٠٩ ، ٣١٠
(٢٤) ماسبيرو القصص الشعبية الطبعة الرابعة ٢٩ ، ٣١
(٢٥) نفس المرجع الطبعة الرابعة ٣ ، ٢١
(٢٦) نفس المرجع ٣٨ ، ٤٠
(٢٧) نفس المرجع ٤٣
(٢٨) نفس المرجع ١٤٨ ، ١٦٩
(٢٩) بردية شستر بيتى رقم ١١ الوجه ٤ — ٥
(٣٠) المتحف البريطانى رقم ١٠٢٧ ـ ماسبيرو ودراسات مصرية .
(٣١) بردية ليدن ٣٨ ـ سيتا وجاردنر خطابات مصرية إلى (الموتى) .
(٣٢) بردية أوربنى Orbiney الثامن ٧ ، ٨
(٣٣) نفس المرجع التاسع ٨ — ٩
(٣٤) بردية وستكار Westcar ماسبيرو : القصص الشعبية الطبعة الرابعة ٢٨
(٣٥) بردية بولاق الأخلاقية الثانى ١٣ ، ١٧
ماسبيرو — التاريخ الثانى ٥٠٢
نفس الإنذار فى نصائح بتاح حتب طبع ديفو ٢٨٧ — ٨
« إنها لحظة قصيرة لحلم من الأحلام ، إن الإنسان يموت لرغبته فى معرفة تلك اللحظة » .
(٣٦) نصوص الأكفان : فصل ١٤٦ المجلد الثانى ١٨٠ وما يليه .
(٣٧) المتحف البريطانى ١٠٠٥٢ ، الخامس عشر ، ٤ ، نص آخر من نصوص

المقابر كان أيضاً متعدد الزوجات (پيت: بردية ميير Peet : Meyer Papyri)
١٣ ، ٦
انظر أرمان — رانكى : مصر ١٧٧
(٣٨) مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٣٧ ، ٤١ ، ٥٩٩
(٣٩) البحار الفريق ١٦٨ ، ١٦٩
(٤٠) مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، الحادى والأربعون ، ٣١
(٤١) استرابون : السابع عشر ، ٢ ، ٥
(٤٢) ديودور الأول ، ٨
(٤٣) أنظر على سبيل المثال وصايا حاپى چفاى لولده فى أول نصوص العقود (أسيوط ١ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢) .
(٤٤) بردية أوربنى التاسع ٨ - ٩
(٤٥) بردية هاريس ٥٠٠ - الخامس ظهر البردية - الرابع ٣ ، ٤
(٤٦) هيرودوت : الثانى ، ٨٢
(٤٧) بردية سالييه الرابعة مكتبة الآثار المصرية - المجلد الثانى عشر ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦١
(٤٨) بردية إيبرس ٩٧ ، ١٣ ، ١٤ الأوصاف ٨٣٨ ، ٨٣٩
(٤٩) ماسبيرو القصص الشعبية - الطبعة الرابعة ١٥٦ ، ١٥٧
(٥٠) جاردنر بيت الحياة . مجلة الآثار المصرية - الرابع والعشرين (١٩٣٨) ١٧٥
ماسبيرو القصص الشعبية — الطبعة الرابعة ١٣٠ . ملاحظة ١
(٥١) نقوش برلين رقم ١٤٥٠٦ أطلس ڤرسنسكى الأول ٣٨٧
(٥٢) بردية بولاق الأخلاقية السادس ١٧ وما يليه — أنظر ماسبيرو : التاريخ الثانى ٥٠٢ ، ٥٠٣
(٥٣) ديفز قن - آمون اللوحة ٥١ و ص ٩
(٥٤) باحيرى ٤
(٥٥) المستندات — الرابع ٣٤
(٥٦) ديفز : قن — آمون ٣٥ — جماعة من الخدم خلف مقعد سيدهم

(٥٧) المكتبة المصرية ــ السابع ٣
(٥٨) نفس المرجع : السابع ٦٦ ، ٦٧
(٥٩) ديفز : نفرحتب ٤٣
(٦٠) المستندات : الرابع ١١
(٦١) جاردنر : أربع برديات من الأسرة الثامنة عشرة من كاهون ـ اللاهون ـ مجلة اللغة المصرية والتاريخ القديم : المجلد الثالث والأربعون ٢٧٨٦٩
(٦٢) أوراق البردى فى المتحف البريطانى ١٠٠٥٢ ، الحادى عشر ٤ ، ٩ . قالت متهمة أخرى أنها قد اقتنت عبيدها من منتجات أملاكها . (نفس المرجع العاشر ١١ ومايليها)
(٦٣) جاردنر قضيـة ــ تجمت عن شراء عبيد ـ مجلة الآثار المصرية الحادى والعشرون (١٩٣٥) ١٤٠ ــ ١٤٦
(٦٤) المستندات ــ الأول ٧٥
(٦٥) ديفز ــ خمس مقابر طيبيه الثانى ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩
(٦٦) تيطس التذكارية ـ الخامس ٣٤
(٦٧) ديفز خمس مقابر طيبيه ٤
(٦٨) مذكرات الحلة الفرنسية الخامس ٥٤٧
(٦٩) ج . ڤانديه وأبادى : كتالوج شقف دير المدينة المرسوم ٢٠٣٥، ٢٠٣٧، ٢٠٣٨ ، ٢٠٤٠
(٧٠) نفس المرجع : ٢٠٠٣ ، ٢٠٠٤
(٧١) أطلس فرسنسكى الأول ١٢٣
(٧٢) نيوبرى بنى حسن الرابع ٥
(٧٣) المتحف البريطانى ٣٧٩٧٧ فى أطلس فرسنسكى الأول ٤٢٣
(٧٤) تيطس التذكارية الخامس ٢٥
(٧٥) مذكرات الحلة الفرنسية الخامس ٥٥٢ على قطعة الشقف رقم ٢١٤٤٣ فى متحف برلين (إرمان ديانة المصريين اللوحة ١١) . قطة تداعب قرداً

(٧٦) محفوظات متحف التاريخ الطبيعى فى ليون الرابع عشر ٢٠ المقبرة رقم ٢١٧ فى طيبه

(٧٧) قطعة الشقف رقم ٢٢٠١ من الدير البحرى

(٧٨) تيطس التذكارية الأول ١٠

(٧٩) تيطس التذكارية الخامس ٣٠

(٨٠) كوينتس : أوزة النيل . محفوظات متحف التاريخ الطبيعى فى ليون الرابع عشر ١ — ٦٤

(٨١) المكتبة المصرية السابع ١٠٢ (بردية لانسنج ٣ ، ٥ ، ٨)

الفصل الرابع

الخدمات المنزلية

(١) هيرودوت الثانى ٣٧ ـ ترد بعض الأحيان صور الغسالين ، أطلس فرسنسكى الأول ٥٧ ـ فارينا الصورة المصرية ١٦٥ .

(٢) سنوحى ب ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٣) نفس المرجع ٢٩٣ - ٢٩٥ . مونتيه : جبيل ومصر ٦١٠

(٤) جيكييه . نقوش الأشياء (Jequier : les frises d'objet)

(٥) على سبيل المثال الوزير بتاح موزى Ptah - Mose واللوحة ٨٨ فى ليون ، طبعها فارى (Varille) ومنوعات لوريه Loret Mélange

(مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٣٠ - ٤٩٧

(٦) كويبل : مقبرة حسى لوحة ٢١

(٧) جيكييه : نفس المرجع ، لوكاس : المواد المصرية القديمة ـ بردية ايبرس ٦٥ ، ١٠ - ١١ ٤٥٣-٤٦٣ أوصاف ٦٦، ٧-٩ ـ الصناعات الطبعة الثانية ٧٩ - ٨٤ . ٤٦٤ - ٤٦٥ أوصاف ، ٦٦ ، ١٥ - ٤٦٨ أوصاف

(٨) بردية هيرست ١٠ ، ٤ - ١١ - ١٤٤ - ١٤٨ أوصاف ـ بردية ايبرس ٨٦ ، ٤ ، ٧٠٥ أوصاف ٨٧ ، ١٦٠٣ ٧١٤ - ٧٢٠ أوصاف بردية ايبرس ٦٧ ، ٣

بردية هيرست ١٠ ، ١٥ ، ١٥ ، ١ ١٥٧ - ١٥٨ أوصاف

(٩) لوريه : لتحويل الرجل الطاعن فى السن إلى شاب .

منوعات ماسبيرو : الأول ٨٥٣ - ٨٧٧

(١٠) أطلس فرسنسكى الأول ٤٤

(١١) المتحف المصرى ـ الكتالوج العام .

بنيديت (Benedite) . أدوات الزينة

ارمان ـ رانكى . مصر . . لوحة ١٧ ومثلها .

فاريتا : الصورة المصرية ١٧ .

(١٢) بردية أوربى ٢ ، ٩ ، ٣ ، ٢

(١٣) ديفز : خمس مقابر طيبيه ٤ ، ٢٦
سلسلة مقابر طيبه الخامس ٩ ، ١٠ والرابع ١٧ وتيطس التذكارية ١ ، ١٢ ، ١٨ - الرابع ٧ ، ٨ ، ١١ والخامس ٣٠

(١٤) المستندات — الأول ١٠٢

(١٥) زوجان من النعال من الذهب وجدت فى مقبرة بسوسنس
مونتيه : تانيس ١٥٦

(١٦) بردية ايبرس ٧٨ ، ٤ وما يليه .
أوصاف ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦٢٠ — ٨١ ، ٢ وما يليه ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، بردية هيرست ١٢ ، ٨ أوصاف ١٧٣ - ٢٠٥

(١٧) ديفز : العمارنة الرابع ٢٦ مدينة حابو ٧٥ ، ١١٢

(١٨) ديفيز : نفر حتب ٣٦ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٥٠ - مسلسلة مقابر طيبه - الرابع ٦
تيطس التذكارية الرابع ١ ، ٥ والخامس ١ ، ٩ ، ٢٥

(١٩) ديفز : نفرحتب ١٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٥٠ ، ٥٢
تيطس التذكارية الرابع ١ ، ٥ والخامس ١ ، ٧ ، ٩ ، ٢٥

(٢٠) بردية فى المتحف البريطانى رقم ١٠٠٥٢ ، الحادى عشر ٧ - ٨
أنظر فانديه : المجاعة فى مصر القديمة القاهرة ١٩٣١

(٢١) سنوحى ب ٨٦ - ٨٨

(٢٢) البحار الغريق ٤٧ - ٥٢

(٢٣) أطلس فرسنسكى الثانى ١٨٥ - ١٨٨ مدينة حابو ١٧٣

(٢٤) بردية هاريس الأول ١٣ ، ٧ - ٨ ، ٢٠ أ - ٣ - ١١ ، ٣٥ب من ٨ - ٤ ، ٥١ أ ١٣

(٢٥) بردية هاريس الأول ٢٠ أ ١٣ - ١٥ ، ٧١ ب ٩ - ١٠

(٢٦) مونتيه : الحياة الخاصة . الفصل الخامس ، والامبراطورية الحديثة أطلس فرسنسكى ١٨٨ مدينة حابو ١٧٣

(٢٧) مدينة حابو ١٤٨ ، ١٦٠ ، ١٥٢ بردية هاريس الأول ٢٠ ب ٥٣ ب
(٢٨) المستندات ـ الثالث ٥٤ (بيمانخى ١٥٠ - ١٥٣)
(٢٩) بردية هاريس الأول ٢٠ ب ١٢ - ٢١ أ
الأول ٦٥ - ٧ - ٨
(٣٠) لوريه : الثوم عند قدماء المصريين مجلة أبو الهول (سفنكس) ١٩٠٥ ، ص ١٣٥ - ١٤٧
(٣١) سفر العدد ـ الأصحاح الحادى عشر : ٥
(٣٢) هيرودوت الثانى ٣٨ ـ ديودور الأول ٢ و ٣٣
(٣٣) ف لوريه النباتات الفرعونية رقم ١٥٢ ، ١٢٨ - ١٢٩ ، ١٥٧
(٣٤) بردية شستربيتى الأول والثانى ١٠ - ١٢
وكيمر نباتات الحدائق فى مصر القديمة ١ - ٦
(٣٥) ديودور : الأول ، ٣٤
(٣٦) ـ ف لوريه : النباتات الفرعونية رقم ١٤٦
جمع الوزير رخارع فى نفس الوقت بذور الخرنوب (الخروب) والعسل
(مستندات التاريخ المصرى القديم ج ٤ ، ١٠٤٠ - ١٠٤١)
مدينة حابو ١٤٦ ، ١ ، ٢٨١ ، ٢٨٦
بردية هاريس الأول ٢٨ ، ٤٦ ، ٤٨
(٣٧) شتيندورف ، وولف : جبانة طيبه ليبزج ١٩٣٢ - ١٨
(٣٨) ديفز : قن آمون ٥٨ - ٩
أطلس فرسنسكى الأول ٢٥٥ ، ٢٨٦ ، ٣٢٥ - ٦ ، ٣٥٦
(٣٩) بردية أيبرس ٦ - ١٤ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٣ ، ٢٠ ، ٢٠
بردية هيرست ٢ ، ١٢ ، ٣ ، ١٢ ، ٣٤
(٤٠) هيرودوت : الثانى ، ٧٧
(٤١) أطلس فرسنسكى الأول ٨٤
تيطس التذكارية الأول ٢٢ ، ١١
مجلة المجمع المصرى الحادى والعشرون ٢١٥

(٤٢) بردية هاريس الأول ١٦ ، ٢٠ ب ، ٣٦ أ ، ٦٥ —.
تيطس التذكارية الأول ٢٩
أطلس فرسنسكى الأول ١٦ ، ٢٢

(٤٣) أطلس فرسنسكى الأول ١٨٠ ، ٣٥٦
مونتيه : الحياة الخاصة ٢٣١ - ٢٣٦
ديفز : خمس مقابر طيبيه ٢٨

(٤٤) سلسلة مقابر طيبه الثانى ١١

(٤٥) بندابرى - حفائر تل العمارنة - ١٣٩

(٤٦) مونتيه : الحياة الخاصة ٢٤٢ - ٢٥٤
ديفز قن - آمون ٥٨
سلسلة مقابر طيبه الثانى ٨ - ١٠
ديفز خمس مقابر طيبيه ٣٩

(٤٧) المكتبة المصرية ، السابع ، ٤١ - ٤٢

(٤٨) المجلة المصرية - الثامن والخمسون ، ٢٥

(٤٩) نيوبرى : بنى حسن - الجزء الثانى ٦
مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية - التاسع ٨ ، ٩

(٥٠) فارينا : الصورة المصرية ١٧٠

(٥١) ديفز العمارنه - الثالث ٤ - ٦

(٥٢) سلسلة مقابر طيبه الثالث ٦
نقوش بارزة من مقبرة حرمحب ٢٠٣٦٥

(٥٣) ارمان - رانكى - مصر ٢١٨

(٥٤) كيمى ، الثامن .

(٥٥) أسيوط الأول - العقود الخامس والسابع والتاسع .

(٥٦) ديفز : مسرجة من عهد الامبراطورية الحديثة غير مألوفة الشكل .
مجلة الآثار المصرية العاشر ٩ - ١٤ .

مستندات الرابع ١١٧ « هل تسمح بأن تضىء لك المصباح أثناء الليل إلى أن تشرق الشمس ! »

(٥٧) ماسبيرو ـ تعليمات امنمحات الأول لابنه سنوسرت الأول ص ١٠

(٥٨) المكتبة المصرية ـ السابع ٣٧ - ٣٨ .

(٥٩) المكتبة المصرية ـ السابع ٥ - ٦ حوليات مصلحة الآثار الاربعون ٦٠٥

(٦٠) المكتبة المصرية ، السابع ، ٧ .

(٦١) صور المآدب وردت كثيراً على جدران مقابر طيبه مثل : باحيرى ٦ - ٧ وديفز : نفرحتب ١٨ وسلسلة مقابر طيبه ١ ، ٦ ، ١٥ والثالث ٤ - ٦ والثالث ٢١ .

تيطس التذكارية الأول ١٥ الرابع ٥ .

أطلس فرسنكى الأول ٧ ، ١ ، ١٠ ، ٨ ، ٩ ، ٩١ .

(٦٢) بتاح حتب ، طبع ديفو : ١٨ العظة ٢٧٧ ، ٢٨٨ .

(٦٣) يضاف إلى الملاحظة رقم ٦١ :

، أطلس فرسنكى ، الأول ، ١٤٥

ديفز : العمارنة الخامس ، ٥ .

ف . لوريه : ملاحظة عن الآلات الموسيقية فى مصر القديمة فى دائرة معارف الموسيقى ، لوفيناك باريس ١٩١٣ ، ١ - ٣٤ .

ث. جيرولد : تاريخ الموسيق منذ بدايتها حتى نهاية القرن الرابع عشر ، باريس ١٩٣٦ . الفصل الأول . صورة بهلوان : أطلس فرسنكى الاول ، ١٧٩ ، وأخرى : ماسبيرو تاريخ ، الثانى ، ٥٢٩

(٦٤) المتحف البريطانى ٣٧٩٨٤ ـ بنيديت مقبرة نفر حتبو المجمع الفرنسى : الخامس ، لوحة ٤ ص ٥٢٩ - ٥٣١ . وماسبيرو دراسات مصرية ، الأول ، ١٧٢ - ١٧٧

(٦٥) ماسبيرو : دراسات مصرية ، الأول ، ١٧٨ وما يليها (ليدن K . G)

(٦٦) هيرودوت ، الثانى ، ٧٨ بلوتارك : ايزيس وأوزيريس ، ١٧ .

لوسيان : الحداد ٢١

بترون : المجلد ، ٣٤

(٦٧) باحيرى ، ٧

(٦٨) ديفز : نفرحتب ١٨

أطلس فرسنسكى الأول ٣٩٢ (بروكسل ٢٨٧٧) .

أطلس فرسنسكى الأول ١٧٩ .

(٦٩) أطلس فرسنسكى الأول ٤٩ ، ٤١٨

مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة السابع والعشرون لوحة ٧

(مقبرة ٢١٩ فى دير المدينة) .

ليففر بت أوزيريس ٥٠

بيعنخى ١٣٣ .

(٧٠) مونتيه . الحياة الخاصة ، ٣٧٢ - ٣٧٦

يونكر : الجيزة ، الرابع ، ٣٧ .

(٧١) ماسبيرو : قصص شعبية . الطبعة الرابعة ١٤٢ (ستناخامواس والمومياءات

شرحه ٢ (تأثير الدروع) .

(٧٢) مونتيه : الحياة الخاصة ٣٦٨ ، ٣٧٢ .

ايتون : متحف بوسطن للفنون الجميلة ٣٥ (عام ١٩٣٧) صفحة ٥٤ .

وثمة تفسير آخر لهذه اللعبة أورده زكى سعد . رسم عن ذكريات طفولته

انظر خاصا لويزا فى حوليات مصلحة الآثار عدد ٣٥ عام١٩٣٧ صفحة .

(٧٣) ديفز . العمارنة ، السابع ١٨ .

الفصل الخامس

الحياة فى الريف

(١) المكتبة المصرية السابع ١٠٤ (لانسنج ، الخامس ٧ ، السابع٧) .
السابع ٨٣ (سالى الأول والخامس والسادس ٩) .
(٢) هيرودوت ، الثانى ، ١٤ ، ديودور ، الأول ، ٣٦
(٣) مونتيه : الحياة الخاصة ٢٥٨ ـ ٢٦٠
(٤) وردت رسومها فى ديفز . نفر حتب لوحة ٤٦ ـ ٤٧ .
تيطس التذكارية لوحة ٢٨ ـ ٢٩ ، ودراسة فى ديفز حتب ص ٧٠
(٥) توجد معظم هذه الأسماء فى اشبيجلبرج .

"Bemerkungen zuden hieratischen Amphorinschriften des Ram-sseums" in A.Z. LVIII 25.

انظر مونتيه ـ مأساة أوازيس طبعة باريس سنه ١٩٤١ . الصفحات ١٥٣-٤
وفى تيطس التذكارية ـ لوحه١٩ ـ وفى طرق هورس فى شرق الدلتا كانت توجد كروم أيضاً
(٦) بردية هاريس الاول ٧ ، ١٠ ، ١٢
(٧) وردت الرسوم فى باحيرى لوحه ٤
أطلس فرنسكى ، الأول ، ٢٣٨ ، ٣٥٥ ، ٢٨٢ ، ٢٦٥
سلسلة مقابر طيبه الثالث ٣٠
ديفز نفرحتب لوحة ٤٨ .
تيطس التذكارية الأول ٢٢ .
الخامس ٣٠ ، ٦٨ ، ٣٤٥ ، ١٢ ، ٢٣٠ .
ليففر : بت أوزيريس ـ لوحة ١٢ .
(٨) مونتيه : الحياة الخاصة ٢٦٧ .
(٩) رسم هذا المنظر واضحا فى مقبرة بوى رع تيطس التذكاريه الثانى لوحه ١٢

والتقطير الخ بصفة عامة أنظر الصفحات من ٢٨٢ ، ٢٨٥ .

(١٠) بت أوزيريس ـ النصوص ٤٣ ، ٤٤ .

(١١) تصوير زراعة الحبوب : تيطس التذكارية ـ الأول ١٨ (ناخت) .

تيطس التذكارية الخامس ٣٠ (أبوى Apouy) سلسلة مقابر طيبه الثالث ٩ أطلس فرسنكى ٤٢٤ (المتحف البريطانى ٣٧٩٨٢) أطلس فرسنكى ٢٣١ ، ٢٣٤ (منا Meana) أطلس فرسنكى الأول ٩ ، ٥١ ، ١٩٣ - ٥ (خامحات Khemhat) ، أطلس فرسنكى الأول ٨٣ ، ٣٨٥ ، ٤٢٢ ، ٢٦١ ، ٥٨ ، ٢٧٩ ، ٣٦٦ ، ٢٠ ، ١١ ، ١٤ ، ١٤٢ ، ٦١ ، ١١٢ ، ١٩٠ ، باحيرى ٣ .

(١٢) اوربى الثانى ، ٣ .

(١٣) كان هذا يمارس منذ عهد الدولة القديمة .

مونتيه : الحياة الخاصة ١٨٣ وما يليها .

(١٤) اطلس فرسنكى الأول ١١٢ (بانحسى) .

(١٥) باحيرى ٣ .

(١٦) بت أوزيريس ١٣ .

(١٧) المكتبة المصرية السابع ١٠٤ (بردية لا نسنج) .

(١٨) باحيرى ٣ .

(١٩) هيرودوت الثانى ١٤ ، أطلس فرسنكى الأول ٥٧ ب .

باحيرى : لوحات ٣ - ٤ .

كيمر . مجلة المجمع المصرى ١٩ (١٩٣٧) ص ١٤٧ - ١٥٦ .

(٢٠) ايزيس وأوزيريس ٧٠ (De Iside et Osiride 70) .

(٢١) مونتيه : الحياة الخاصة ١٩١ .

موريه : قتل المعبود فى مصر وباريس ١٩١٧ ص ٣٣ - ٣٥ .

(٢٢) ديوتيرنوم (Deuteronome) ١١ ، ١٠ - ١١ .

(٢٣) مناظر مسح الأرض : سلسلة مقابر طيبه الثالث ١٠ .

اطلس فرسنسكى الأول ١١ ، ١٩١ ، ٢٣٢ ، أنظر سوزان برجر بعض مناظر مسح الأرض .

مجلة الآثار المصرية العشرون ٥٤ اللوحة العاشرة .

(٢٤) المكتبة المصرية الرابع رقم ٤ ومجلة الآثار المصرية الثامن ١٩٣ وما يليه.

(٢٥) أطلس فرسنسكى الأول ١٤ - ١٠ .

(٢٦) بت أوزيريس النص ٥٢ .

(٢٧) مونتيه ـ الحياة الخاصة ٢٠٢ .

(٢٨) بت أوزيريس ـ النصان ٥١ ، ٥٢.

(٢٩) نقوش ليدن البارزة : ٢ كتالوج رقم ٥٠ (أطلس فرسنسكى العشرون ١ و ٤٢٢) وتبين نقوش منف البارزة التى تنتمى إلى الدولة القديمة أن المحصول موضوع دائما على ظهر حمار (مونتيه الحياة الخاصة ٢٠٦) .

(٣٠) أطلس فرسنسكى الأول ٦١ (با نحسى) .

(٣١) باحيرى ٣ . رسوم متماثلة ، أطلس فرسنسكى الأول .

(٣٢) أطلس فرسنسكى الأول ١٩٣ ، ٣٤٦ ، ٢٣١ .

(٣٣) تيطس التذكارية الأول . ١٢٠ وما أشير إليه فى الملاحظة رقم ٣٢ .

(٣٤) مزمور ١٢٦ ، ٥ .

(٣٥) تيطس التذكارية الأول صفحة ٦٤ . ومس ونيفريد من . بلاكمان .

بعض مظاهر عروسة القمح ، مجلة الآثار المصرية ـ الثامن ٢٣٥ :

(٣٦) جوتيه . أعياد الإله مين . Min ٢٢٥ .

(٣٧) تيطس التذكارية الخامس . ٣ ـ أطلس فرسنسكى الأول ١٩ ، ٤٢٢ ـ (ليدن ـ كتالوج رقم ٥٠) ، ١٩٣ ، ٣٤٦ قلع الكتان ممثل أيضا على مقابر الدولة المتوسطة فى بنى حسن والبرشه ومير ، أنظر بت أوزيريس لوحة ١٣ .

(٣٨) ما سبيرو . القصص الشعبية (الطبعة الرابعة) ٤٣ .

(٣٩) جاليارد : عن عصفورين مرسومين فى مقابر بنى حسن . كيمى الثانى ١٩ - ٤٠ .

(٤٠) مونتيه . الحياة الخاصة ٢٦٠ - ٢٦٥ .

(٤١) أطلس فرسنسكى الأول ٢٣ (براين رقم ١٨٥٤٠) .

(٤٢) بردية هاريس الأول ٢٠ - ٨ .

(٤٣) جاليارد . وشم المصريين فى الدولة القديمة بحثا عن استئناس حيوانات . مجلة علم الاجناس وعلم الاجتماع ١٩١٢ .

(٤٤) بردية لا نسنج - لوحات ٣ ، ٨ ، ١٠ .

(٤٥) سجل أمير الكاب رنى Renny ١٢٢ بقرة ، ١٠٠ خروف ، ١٢٠٠ ماعز ، ١٥٠٠ خنزير . المستندات - الرابع ٧٥ .

(٤٦) جاهد رمسيس الثالث فى سبيل زيادة الثروة الحيوانية فى مصر ، « لقد أعددت لك (آمون) قطعان الماشية فى الجنوب وفى الشمال والثيران والدجاج والماشية الصغيرة ، فبلغت مئات الألوف عدا ، مع ملاحظين للثيران وكتاب وملاحظين للحيوانات ذات القرون وخفراء وعدد وفير من الرعاة للاشراف عليها » . (بردية هاريس الأول ٧ - ٩) .

والماعز البرى قربان مقبول دائما لدى الآلهة .

وقد أرسل رمسيس الثالث الصيادين لاصطيادها فى الصحراء (بردية هاريس . الأول ٢٨) .

(٤٧) سلسلة مقابر طيبه . الرابع ٨

(٤٨) قطعة من الشقاف من دير المدينة ٢١٥٩ .

ماسبيرو — التاريخ الجزء الثانى ٢١٩ (فارس من مقبرة حرمحب فى متحف بولونيا) .

(٤٩) ماسبيرو : مصر فى سلسلة Ars Una

(٥٠) مونتيه : الحياة الخاصة . الفصل الثالث .

(٥١) نيوبرى : البرشه . الأول ١٨ .

(٥٢) ليففر : بت أوزيريس . النصوص ٢٦ ، ٤٨ .

(٥٣) تيطس التذكارية الثانى ١٢ (بو ايم وع) أطلس فرسنكى الأول ٢٦٤ (أنا) .

(٥٤) سلسلة مقابر طيبه الثالث ٣١ .

أطلس فرسنكى الأول ١٨٣ (أوسرحات) .

(٥٥) تيطس التذكارية الخامس ٣٠ ، ٣٤ .

(٥٦) أطلس فرسنكى الأول ٢٩٥ .

(٥٧) مونتيه : الحياة الخاصة ، كل الفصل الأول .

أطلس فرسنكى الأول ٤٣٣ (المتحف البريطانى ٣٧٩٧٧) .

أطلس فرسنكى الأول ١١٧ (باكى) .

أطلس فرسنكى الأول ٢ (منا) .

(٥٨) مونتيه : الحياة الخاصة ٧٣ .

تيطس التذكارية الثانى ١٥ ، ١٨ ، ١٩ . هجاء الحرف ١٩ ، ٢٠ .

(٥٩) أطلس فرسنكى الأول ٢٥٠ .

(٦٠) أطلس فرسنكى الأول ٢٥٠ (حرمحب) .

تيطس التذكارية الخامس ٣٠ ، ٣٥ (أبوى)

تيطس التذكارية الثانى ٦٥ (بوايم وع) .

مونتيه . الحياة الخاصة ٢٢ — ٤١ .

(٦١) أطلس فرسنكى الأول ٣٥٤ ، ١١٧ ، ٤٠ ، ٣٤٣ ، ٧٠ ، ٢٩٤ ، ٢ ، ١٨٣ ، ٧٧ .

تيطس التذكارية الأول ٢٤ .

ديفز . تن آمون ٥١ .

(٦٢) سلسلة مقابر طيبه اللوحة ١ وص ٢٨ (امنمحات) .

أطلس فرسنكى الأول ٢٧١ (امنمحات) .

(٦٣) تيطس التذكارية الخامس ٣٠ .
تيطس التذكارية الأول ٢٤ .
أطلس فرسنكى الأول ٢ ، ٣٤٣ ، ٤٢٣ .
(٦٤) مونتيه : الحياة الخاصة ٤٢ .
تيطس التذكارية الخامس ٣٠ .
أطلس فرسنكى الأول ١٨٤ ، ٢٤ ، ٣٤٤ .
تيطس التذكارية الأول ٢٢ — ٢٣ .
تيطس التذكارية الثانى ١٥ .
أطلس فرسنكى الأول ٢٤٩ .
(٦٥) مونتيه . الحياة الخاصة ٦ - ٨ ، ٦٦ .
فى معبد ادفو تقول المعبودة سخت (سيشات) الملك :
« انى أهبك جميع العصافير فى مستنقعاتها » (أدفو الثانى ١٦٤) .
(٦٦) سلسلة مقابر طيبه الخامس ٩ .
(٦٧) بردية هاريس الأول ٢٨ ، ٣ — ٤ .
(٦٨) سلسلة مقابر طيبه الثانى ٦ - ٧ .
سلسلة مقابر طيبه الأول ٩ .
أطلس فرسنكى الأول ٥٣ .
تيطس التذكارية الثانى ٧ .
ديفز خمس مقابر طيبيه ١٢ ، ٢٢ ، ٤٠ .
(٦٩) ديفز فن آمون ٤٨ .
(٧٠) ديفز خمس مقابر طيبيه ١٢ .
(٧١) ديفز خمس مقابر طيبيه ٢٣ - ٢٤ . أطلس فرسنكى الأول ٥٣ ، ٣٢ .
(٧٢) أطلس فرسنكى الأول ٢٦ .

الفصل السادس

الفنون والحرف

(١) لوحة العام الثامن ، عثر عليها فى أون . (حوليات مصلحة الآثار المصرية ٢١٩) .

(٢) انجلباك : محاجر صحراء النوبة الغربية والطريق القديم إلى توسخا Tuskha (حوليات مصلحة الآثار المصرية ١٩٣٨ ، ٣٦٩ — أنظر سيته : المبانى والتماثيل الحجرية فى مصر القديمة وأستاذوها برلين ١٩٣٣ ص ٤٩) .

(٣) كويات ومونتيه : النقوش الهيروغليفية والهيراطيقية فى وادى الحمامات . القاهرة ١٩١٢ .

(٤) نفس المرجع : النقوش ٢٣١ — ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٢٣ ، ١٢ ، ٢٢٢ ، ٢١٩ ، ٨٧ ، ١ ، ١٠ .

(٥) نفس المصدر . النقش (النص) ١٩ ، أنظر صفحة ٢٤ .

(٦) نفس المصدر . النقش ١١٠ .

(٧) نفس المصدر . النقش ١٩١ .

(٨) نفس المصدر . النقش ١٩٢ .

(٩) لوكاس مواد وصناعات مصر القديمة — الطبعة الثانية لندن ١٩٣٤ص ٦٣

(١٠) سلسلة مقابر طيبه الرابع ٤ نص أمنى Ameni فى بنى حسن (نيوبرى : بنى حسن الأول ٨) .

بردية هاريس الأول ١٠ إلى ٧ . خريطة مناجم الذهب فى متحف تورين

(١١) نصوص معبد الرديسيه : جولنشف . مجموعة أعمال الثالث عشر ٧٥ وما يليه المكتبة المصرية الرابع رقم ٤ .

(١٢) لوحة رمسيس الثانى التى وجدت فى كوبان على بعد ١٠٨ كيلومترا جنوب أسوان والآن فى متحف جرينوبل . تريسون لوحة كوبان القاهرة ١٩٢٢ .

(١٣) ديودور الثالث ١١ — ١٣ .

(١٤) التماثيل الصغيرة التى وجدت فى تابوت حرناخت فى تانيس (كيمى التاسع أرقام ٩٤ — ١٠٣) كانت مصنوعة بكل وضوح من ذهب غير نقى .

(١٥) لوكاس : مواد وصناعات مصر القديمة ٣٥٢ .
لوريه : الفيروز عند قدماء المصريين كيمى الأول ٩٩ — ١١٤ .

(١٦) لوكاس : نفس المرجع ٣٤٨ .
نيوبرى : دراسات مقدمة إلى جريفث ٣٢٠ .

(١٧) لوريه . نفس المرجع . فى كيمى الأول ١١١ — ١١٣ .

(١٨) ليسيوس : التماثيل ، الثالث ٢٦ ، ١ .
أطلس فرسنسكى الأول ٦٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ .

(١٩) أطلس فرسنسكى الأول ٥ .

(٢٠) نيوبرى : البرشه الأول ١٦ — ١٦

(٢١) ديفز : قن ـ آمون ٣٨ — ٤٠ .

(٢٢) تيطس التذكارية . الثانى ، ٢٣ .

(٢٣) سلسلة مقابر طيبه الخامس ، ١٤ ، الثالث ٨ .

(٢٤) فرنييه : الحلى والجوهرات المصرية . القاهرة ١٩٠٧ الجزء الثانى .

(٢٥) أطلس فرسنسكى الأول ٣١٦ — ٣١٧ نيوبرى : رخ ما رع ١٨ أنظر بقية العمليات فى مصانع الحلى فى سلسلة مقابر طيبه الثالث ٨ — والخامس ١١ — ١٢ وتيطس التذكارية الثانى ٢٣ والرابع ١١ . أطلس فرسنكى الأول ٢٦٣ ، ٥٩ ، ٥٠ ، ٢٢٩

(٢٦) مونتيه . الحياة الخاصة ٢٩٨ — ٣١١ أطلس فرسنسكى الأول ٣١٤ — ٣١٥ ، ٤٢٠ ، تيطس التذكارية الرابع ١١
(٢٧) تيطس التذكارية الخامس ٣٧ .
(٢٨) سلسلةمقابرطيبه الخامس ١١ - ١٢ الثالث ١٠ تيطس التذكارية الثانى ٣٣ أطلس فرسنسكى الأول ٣٠٧ ، ٢٢٧ .
(٢٩) سلسلة مقابر طيبه الخامس ١٢ .
(٣٠) مونتيه : الحياة الخاصة ٣١١ — ٣١٤ .
(٣١) دائرة المعارف الفوتوغرافية للفن ـ الآثار المصرية فى متحف اللوفر ٧٤ - ٧٧ .
(٣٢) مونتيه : الحياة الخاصة ٣١٥ - ٣١٨ . أطلس فرسنسكى ٣١٢ - ٣١٣ نيوبرى . رخ ما رع ١٧ - ١٨ .
(٣٣) ديفز : فن آمون ١٣ - ٢٤ .
(٣٤) أطلس فرسنسكى الثانى ٢٥ ، المستندات الرابع ٦٢٦ - ٦٤٢
(٣٥) تيطس التذكارية الثانى ٣٧ - ٣٨ .
(٣٦) المستندات الرابع ١١٥٤
(٣٧) لوحة العام الثامن لرمسيس الثانى فى حوليات مصلحة الآثار المصرية ١٩٣٩ هجاء الحرف ١١١ فى البردى
(٣٨) ساليه ، الثانى ٣ ، ٩ . بردية انستاسى السابع ١ ، ١
(٣٩) اللوفر ٢ ـ ١٤ ـ أنظر ، سوتاس فى مجموعة أعمال السادس والثلاثين ١٥٣
(٤٠) سلسلة مقابر طيبة الأول ٨
(٤١) المستندات الأول ٢٣
(٤٢) مجموعة أعمال الرابع والعشرون ١٨٥
(٤٣) المقبرة ٣٥٩ فى طيبة أنظر ، مجلة فقه اللغة والتاريخ المصرى القديم ، الثانى والأربعون ١٢٨ - ١٣١

(٤٤) شقف رقم ٢١٤٤٧ فى برلين - راجع مجلة AZ الرابع والخمسون ٧٨ .
أنظر روبيشون وفارى : معبد الكاتب الملكى امنحتب ابن حابو - القاهرة ١٩٣٦ ص ٩ .
وقد اختلفت فى أن ألقاب الأمير وألقاب الكاتب تنتمى إلى رسام محترف .
(٤٥) أطلس فرسنسكى الأول ٣١٩ - ٣٢١ .
سفر الخروج الأول ١١ - ١٦ .
أنظر ماللون : العبرانيون فى مصر روما ١٩٢١ ١٣٤ - ١٣٨ .
(٤٦) هجاء الحرف الثامن . الخامس ٧٥ والثانى ٣٨٥ .
(٤٧) ديفز : قن آمون ٥٩ .
(٤٨) سلسلة مقابر طيبه الثالث ١ .
(٤٩) أطلس فرسنسكى الأول ٤٤ .
(٥٠) مونتيه فى كيمى الرابع ١٧٨ - ١٨٩ ، هجاء الحرف .
(٥١) ليففر : تاريخ كبار كهنة آمون فى الكرنك ١٦١ - ١٦٢ .
(٥٢) المصدر نفسه ١٢٨ .
(٥٣) اعترافات بالنفى : كتاب الموتى ١٢٥ أ .
العبارة ٦ يقرر الميت : إنى لم أجبر فى أى يوم الناس على عمل فوق طاقتهم .
(٥٤) ماسبيرو : التاريخ الثانى ٥٤٠ - ٥٤١ بردية تورين ٤٢ ، ٢ - ٣ ، ٤٦ - ١٧ .
(٥٥) أطلس فرسنسكى الأول ٢٠٠ .
(٥٦) دارسى : عائمة فينيقية عن رسم مصرى .
المجلة الأركيولوجية ١٨٩٥ ٢٨٦ - ٢٩٢ .
واللوحة ١٤ - ١٥ مونتيه : تراث الفن السورى ١٢ .
(٥٧) المستندات الأول ١٥٧ .
سوتاس : دراسة نقدية عن عقد بيع منقولات فى عهد الأهرام باريس ١٩١٣ .
(٥٨) جاردنر : أربع برديات من الأسرة الثامنة عشرة من كاهون (اللاهون - فيوم) مجلة فقه اللغة والتاريخ المصرى AZ القديم ١٩٠٦ ٢٧ - ٤٨ .

(٥٩) جاردنر : بردية شستربيتى الأولى لندن صفحات ٤٣ - ٤٤ .

(٦٠) بردية رقم ١٠٠٥٢ فى المتحف البريطانى لوحات ١١ ، ١٤ - ٣٠ .
بردية وقم ١٠٠٥٣ لوحة ١١١ ، ٦ - ١٦ ف

(٦١) بردية شستربيتى الأول - الظهر . د ، ص ٤٣ .

(٦٢) جاردنر . قضية نتيجة شراء عبدين .
مجلة الآثار المصرية ١٩٣٥ ١٤٢ .

(٦٣) ونامون الثانى ٤٠ - ٤٢ (المكتبة المصرية - الأول)

الفصل السابع

الرحلات

(١) نصوص الأكفان الأول ١٠ .

(٢) أوربى — الثامن ١ .

(٣) أوف ١٩ — ٢٠ .

(٤) أسيوط الثالث ١٠ — ١١ .

(٥) ماسبيرو — التاريخ الثانى ١٢٣ .

(٦) استرابون . السابع عشر ٤٤ وورد رسم سباحين على جدران مقبرة مرووركا وعلى حمالة قائد يوسفس أوندى باوندد

(٧) بردية ١٠٠٥٢ فى المتحف البريطانى — الثالثة عشرة ١ — ١٥ .

(٨) بردية شستربيتى — الأول ، الخامس ٣ — ٦ (هورس — ست) .

(٩) مونتيه . الحياة الخاصة ٣٧٩ — ٣٨٠ .

(١٠) المكتبة المصرية السابع ٣٧ .

(١١) سلسلة مقابر طيبه — الثالث — اللوحة السادسة .

(١٢) سلسلة مقابر طيبه الأول — اللوحة الثانية عشر .

بعثة الحملة الفرنسية الخامس — ٥٨٢ ، ٥١٧ .

أطلس فرسنسكى — الأول — ٣٠٨ .

(١٣) سلسلة مقابر طيبه الرابع اللوحات الحادية عشرة والثانية عشرة .

(١٤) سلسلة مقابر طيبه الرابع اللوحات الثانية والثلاثون .

أطلس فرسنسكى الأول ١٩٩ ، ٣٢٣ .

(١٥) أطلس فرسنسكى الأول ١٢٩ .

(١٦) باحيرى — ١ اللوحة الثالثة .

(١٧) حمامات ١٩٢ .

(١٨) أطلس فرسنكى ١٢١ .

بعثة الحملة الفرنسية الخامس ص ٢٧٧ واللوحة الثالثة .

(١٩) نيوبرى : بنى حسن الأول اللوحة الثلاثون ، الثانى اللوحة الرابعة .

(٢٠) أطلس فرسنكى الثانى — اللوحة السادسة .

(٢١) حوليات مصلحة الآثار التاسع والثلاثون ص ٥٧ :

(٢٢) حمامات ١٩٩ .

(٢٣) حمامات ـ الأول .

(٢٤) مستخرج بالمكتبة المصرية ، العاشر ص ١٨٣ — ٢٣٠ .أنظر جاردنر: مجلة القاهرة العلمية ، الثامن ص ٤١ .

(٢٥) بردية هاريس الأول ـ لوحات ٧٧ ـ ٧ ـ ٨

(٢٦) البحار الفرية ـ ١٤٩ ـ ١٥١

(٢٧) بردية هاريس الأولى ـ لوحات ٢٨ ، ٣ ـ ٤

لوحات ٤٨ ، ٢

(٢٨) مونتيبيه قصة أوازيس ١٩ ـ ٢٨ ، ٣٥ ـ ٤٣

(٢٩) مونتيبيه جبيل ومصر ٢٣٦ ـ ٢٣٧

٢٩٥ ـ ٣٠٥

دوناد Dunad : Bvblia Grammata

ـ بيروت ١٩٤٥

(٣٠) ونامون الثانى ٥١ ـ ٥٢ ترجمت

لماسبيرو الطبعة الرابعة ٢١٧ ـ ٢٣٠

(٣١) بردية هاريس الأول ـ اللوحة الثامنة ٨

(٣٢) مونتيه قصة أوازيس ٢٦ ـ ٢٨

(٣٣) يوجد أهم مستند عن رحلات المصريين إلى بلاد بونت فى معبد حاتشبسوت

فى الدير البحرى (نافيل : الدير البحرى الثالث ٦٩ - ٨٦ والمستندات الرابع ٣١٥ - ٣٥٥)

أما عن هذه الرحلات فى عهد تحتمس الثالث فانظر المستندات الرابع ١٠٩٧ ، أطلس فرسنسكى الأول ٣٣٤

وفى عهد امنوفيس الثانى انظر أطلس فرسنسكى الأول ٣٤٧ — ٣٤٨ . وفى عهد حرنمحب Horonemheb ، أطلس فرسنسكى الثانى ٦٠ - وفى عهد رمسيس الثانى وفى عهد رمسيس الثالث برديه هاريس الأول ٧٧ — ٧٨ .

(٣٤) مونتيه : قصة أواريس ١٣١ — ١٣٣

(٣٥) المصدر نفسه ٢١ .

(٣٦) حامات ١١٤ .

(٣٧) استرابون السادس عشر ٢٢

(٣٨) لايوجد هذا التعبير الا فى بردية هاريس الأولى وعلى لوحة لتحتمس الأول (جوتييه : القاموس الجغرافى الثالث ٣٣) وتترجم موقدى Mouqedi المياه المقلوبة ، ذلك أن المصريين لاحظوا أن مجرى مياه نهر الفرات ، على عكس مجرى مياه نهر النيل ، من الشمال إلى الجنوب ، وقد كتب المصريون ، الذين عرف عنهم حب الفكاهة ، أسم أقليم قديه Qede كما لوكان مشتقا من فعل قدى Qdy (مقلوب)

(٣٩) نصوص تحتمس الثالث فى جبل بركل ، المجلة المصرية ، التاسع والستون. ٢٤ — ٣٩

(٤٠) لوكاس المواد والصناعات المصرية القديمة الطبعة الثانية ص ٣:٧

(٤١) لازوورد تقرر ورد ذكره منذ عهد الدولة الوسطى ضمن نقوش رحالة يسمى خيتى Khety مجلة الآثار المصرية الرابع اللوحة التاسعة ، وضمن قائمة بالأحجار الكريمة (شاسيناه — بالانك ، حفائر أسيوط ص ١٠٨ ، ٢١٢) ، وكذلك فى نصوص رمسيس الثانى (بييل — النصوص الهيراطيقية الأول ١٤٥ Piehl Inscr . hier) وقد وجدت

فى مقبرة بسوسنس عقدا من الذهب مطعما بالفيروز وقد نقش على أحد أجزائه كتابة بالخط المسمارى ، وقد حل المسيو (دورم M. Dhorme) رموز إسم إحدى البلاد المجاورة لايلام (عيلام Elam) وأسم ملكه وأميرة أكاديميا النقوش ، عام ١٩٤٥

(٤٢) لوحة الأمير بختان ترجمت فى القصص الشعبية لماسبيرو ونشر الأب تريسون فى مجلة الكتاب المقدس ترجمة حديثة جدا مع صورة فتوغرافية للوحة عام ١٩٢٣

(٤٣) تل أوجاحرو سنة طبيب من سايس ، استدعاء قبيز ايعوده بوزنر : أحتلال الفرس الأول لمصر ١ — ٢)

(٤٤) أريان الهند الخامس ٥ ، ديودور الأول ٥٥ ، استرابون السادس عشر ٤ ، ٤

الفصل الثامن

فرعون

(١) بردية هاريس - الأول ٥٧ ، ٣ وما يليها .
(٢) كورينفس : لوحتان لا منوفيس الثانى ١٢ .
(٣) جوتييه : النصوص الكبرى الافتتاحية لمعبد ابيدوس .
المجلة المصرية AZ ، الأربعون ، الثامن ، ٥٢ - ٦٦ .
(٤) النصوص الرابع ٧٦٥ .
(د) موريه (Moret) . بعض الطبائع الدينية فى العهد الفرعونى .
باريس ١٩٠٣ .
(٦) بيعنخى ٢٥ - ٢٦ : المستندات الثالث ١٤ .
(٧) بيعنخى ٨٥ - ٨٦ : المستندات الثالث ٢٧ - ٢٨ .
(٨) بيعنخى ١٠٣ - ١٠٥ المستندات الثالث ٣٨ - ٤٠ .
(٩) مونتيه : قصة أواريس ١٠٨ - ١١٠ .
(١٠) ليففر . تاريخ كبار كهنة آمون فى الكرنك ١١٧ وما يليه .
(١١) لوحة رقم ٨٨ فى ليون ، نبذ لوريه ٥٠٥ .
(١٢) توجد رسوم للملك فى زيه الكامل فى الكرنك والأقصر وابيدوس وفى كل المعابد وانظر بصفة خاصة مدينة حابو ١٢٣ - ١٢٤ .
(١٣) وجدت فى مومياءات شيشنق وبسوسنس فى تانيس مجموعة كبيرة من أدوات الزينة الملكية : مونتيه : تانيس ١٤٦ - ١٥٧ .
(١٤) ديودور - الأول ٧٠
(١٥) كيمى - الثامن .

(١٦) النصوص أ A فى معبد الرديسية : المكتبة المصرية الرابع .

(١٧) حمامات ٢٤٠ و ١٢ بينما يقدر الن جاردنر أنه يحتمل قليلا جداً أن يتوجه الملك بذاته إلى وادى الحمامات (مجلة الآثار المصرية الرابع والعشرون ١٦٢)

(١٨) هذه هى لوحة كوبان الموجودة الآن فى متحف جرينوبل وطبعها تريسون القاهرة ١٩٢٢)

(١٩) أمدنا نبوان نف Nebounnef نفسه بهذه الاستفهامات فى نصوص مقبرته فى طيبه (المجلة المصرية AZ) الرابع والأربعون ٣٠ - ٣٥ وليغفر نفس المرجع ١١٧ وما يليه .

(٢٠) ما سبرو : القصص الشعبية الطبعة الرابعة ٧٩ - ١٠٣ .

(٢١) البعثة الفرنسية - الخامس ٤٩٦

(٢٢) ديفز العمارنة - السادس ٢٩ - ٣٠

(٢٣) حفلات توزيع المكافآت وردت رسومها بكثرة فى مقابر الامبراطورية الحديثة ، ديفز ، العمارنة الأول ٦ ، ٣٠ الثالث ١٦ - ١٧ والرابـــع ٦ والسادس ٤ - ٦ ، ١٧ - ٢ د ، وديفز نفر حتب ٩ - ١٣ ، اللوفر حـ ٢١٣ ، البعثة الفرنسية الخامس ٤٩٦ ، المقبرة ١٠٦ فى طيبة (بورتر وموس الأول ١٣٤) ،

(٢٤) ديفز نفر حتب ١٤ - ١٨

(٢٥) أنظر النصوص البارزة لمقبرة حر محب (ليدن)

(Beschreibung der aegyptischen sammlung IV 21—24)

(٢٦) ليغفر تاريخ كبار كهنة آمون فى الكرنك ١٩٤ - ٥ ، نصوص تتعلق بكبار كهنة آمون رومى - روى Rome — Roy وامنحتب لوحة ١١

(٢٧) درست هذه الرسوم باسهاب فى مونتيه . أطلال الفن السورى فى مصر فى عهد الامبراطورية الحديثة باريس ١٩٣٧ الفصل الأول .

(٢٨) ديودور الأول ٥٣ .

(٢٩) لوحة عثر عليها فى معبد مونتو فى أرمنت Ex oriente lux ١٩٣٩ ، ٩

(٣٠) لوحة كبرى عثر عليها فى الجيزة ـ طبعة قارى فى مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ـ الحادى والأربعون ٣١ وما يليه

(٣١) كوينتس ، لوحتان لأمنوفيس الثانى ٦ ـ ٧

بعض نصوص تشيد بقوة أمنحتب الثانى البدنية ، المستندات الرابع ٩٧٦ ـ ٧ ، حوليات مصلحة الآثار المصرية الثامن والعشرون ١٢٦ مدامود ١٩٢٦ - ١٩٢٧ مجلة متحف مترو بوليتان للفنون ١٩٣٥ الثانى ٤٩ - ٥٣

(٣٢) بيمنخى ٦٤ - ٦٩ ، المستندات الثالث ٢١ - ٢٢

(٣٣) مدينة حابو ١٠٩ - ١١٠

(٣٤) لوحة تحتمس الرابع التى وجدت بين مخلبي أبو الهول بالجيزة نشرها أرمان

Sitzungberichten pr. A. K. ١٩٠٤ ، ٤٢٨ - ٤٤٤

(٣٥) لوحة نباتا نشرها ريزنر ، الآثار المنقوشة فى جبل بركل

(Reissrer Inscribed Monuments from Gebel Barkal A. Z.)

المجلة المصرية التاسع والستون ٢٤ - ٣٩ ونقوش امنحات ، المستندات الرابع ٨٩٠

(٣٦) مدينة حابو ٣٥ ، ١١٦ ، ١١٧

(٣٧) قصيدة قادش نشرها كوينتس ٨٣٨ - ٣٣٩ .

(٣٨) ديفز العمارنة الثالث ٣٠ - ٣٤ ، ٤ ، ٦ ، ١٨ ، ١٣ الرابع ١٥ .

(٣٩) الكتالوج العام للمتحف المصرى ٣٦٠٠٢ .

(٤٠) مونتيه : قصة أوزاريس ١١٦ - ١٢٩

(٤١) لوحة زواج رمسيس الثانى ـ حوليات مصلحة الآثار الخامس والعشرون ـ المكتبة المصرية السابع ١٢

أنظر مونتيه : قصة أوزاريس ١٣٤ - ١٣٥

(٤٢) ديفيريا : بردية تورين القضائية وبرديتا « لى ورولان »

(Deveria : Le papyrus judiciaire de Turin et les papyrus Lee et Rollin, Paris 1868).

المكتبة المصرية الخامس

(٤٣) بردية تورين القضائية العمود الرابع ٢ - ٦

(٤٤) بردية لى رقم ١ وبردية رولان

(٤٥) بردية تورين القضائية العمود الثانى

(٤٦) نفس المرجع العمود الثالث

(٤٧) نفس المراجع العمود السادس

(٤٨) ماسبيرو المومياء الملكية ٧٨٢

التاريخ الثانى ٤٨٠

(٤٩) شارف :

Derhistorische Abschnitt der lehre fur Konig Meri Kare Munchen.1936.

ماسبيرو . نصائح امنمحات الأول لابنه سنوسرت الأول ـ القاهرة ١٩١٤

A. de Buck in Melanges Maspero I Cairo 1935 - 8, pp. 847--52, B. Gunn in (J.E.A. XXVII (1941) pp, 2 - 6,

A. Volten, Zwei altagyptische politische Schriften,

Copenhagen 1945.

(٥٠) هذه هى بردية هاريس الأولى ، ويوجد منذ عهد قريب نسخة سهلة فى المكتبة المصرية ، الخامس . ويعد تريسون فهرسا لهذا المستند الهام .

(٥١) بردية هاريس الأولى ٧٩ ، ١ - ٥ .

(٥٢) نفس المرجع ٢٢ ، ٢ - ٢٣ ، ٤ .

الفصل التاسع

الجيش والحرب

(١) المكتبة المصرية ـ السابع ٢٦ .

(٢) المكتبة المصرية ـ السابع ٢٧ .

(٣) المستندات الرابع ٩٩٩ . الكأس فى كتاب فرنييه : الحلى والجوهرات المصرية لوحة ٢٠ .

(٤) شمبليون . ملاحظات وصفية ، ٥٢٧/٨ .
المستندات . الرابع ٩٩٥ .

(٥) المستندات . الرابع ٩٩٧ .

(٦) عرفنا أنباء عاجر ومكافاءات نب آمون Nebamon من نصوص ورسم مقبرته فى طيبه (رقم ٩٠) .
سلسلة مقابر طيبة الثالث أنظر بصفة خاصة اللوحات من ٢٤ – ٢٩ .

(٧) المستندات الرابع ٩١١ ـ أطلس فرسنسكى الأول ١٨٦ ، ٢٨٠ .

(٨) سلسلة مقابر طيبه الثالث ٢١ ، ٣١ – ٣٣ .

(٩) قصيدة قادش ، نشرها كوينتس ١٧٢ – ١٨٥ .

(١٠) بردية هاريس الأولى ٧٨ ،

(١١) هيرودوت الثانى ١٦٤ – ٨ ،
ديودور الأول ٦٤ – ٧٣ ،

(١٢) أطلس فرسنسكى الأول ٢٣٦ ،

(١٣) ديفز : العمارنه الثالث ٣١ ، ٣٩ ،
اطلس فرسنسكى الثانى ١٣ ،

(١٤) النقوش البارزة لمعبد رمسيس الثانى فى العرابة المدفونة ،
كوينتس : معركة قادش لوحة ٢٢ أطلس فرسنسكى الثانى

(١٥) بردية هاريس الأول ٧٦ .

(١٦) ماورد فى مدينة حابو ١١٢ .

(١٧) كافاينك : سيلوليوما وعهده
باريس ١٩٣٢ ٧٠ - ٧٢ (حوليات سبليل صفحة ٢٧)
(١٨) لوحة كارنارفون في مجلة الآثار المصرية .J.E.A الثالث ٩٥ - ١١٠
مونتيه : قصة أواريس ٩٤ ،
(١٩) لوحة سيتي الأول ، التي وجدت في بيسان
نبذ لوديه ، مجلة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية الثلاثون
(٢٠)ماورد في مدينة حابو ، ٢٩
(٢١) مونتيه : بقايا الفن السوري ٣٢ - ٣٣ كيمي الرابع ٢٠٠ - ٢١٠
(٢٢) المصدر نفسه : ٢٤ - ٣٦
(٢٣) أطلس فرسنسكي الثاني ١
(٢٤) مونتيه : نفس المرجع ٢٧ - ٣٨ .
(٢٥) مدينة حابو ١٦ ، ٣١ ، ٦٢ : مدينة حابو ٢٥ بشأن أغطية منقوشة
للعيون خاصة بتمثال سوتخ : أطلس فرسنسكي الثاني ١٨
(٢٦) مدينة حابو ١٧ - ٣١
(٢٧) أطلس فرسنسكي الثاني ٣٤ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤
(٢٨) المستندات الثالث ٨ (بيعنخي ٩ - ١٢)
(٢٩) مجلة الآثار المصرية (.J. E. A) الحادي والعشرون ٢١٩ - ٢٢٣
(٣٠) موضوعات طبعة فيرمان ديدو Fir nin - Didot الأول ص ٢٠
إني أدين بهذا المرجع إلى المسيو جان يويوت (Jean Yoyotte) وتوجد
أمثلة أخرى متشابهة في مونتيه : مأساة أواريس ٢٩ ، ٢١٥
(٣١) كتاب الموتى ١٢٥ ب - عبارة ٢٥ « أيها المنذر بالمعركة (سر خرو)
يا من تمت إلى أونس ، وأونس إحدى بلادست
(٣٢) المستندات الرابع ٦٤٩ وما يليها
(٣٣) بردية ١١١٦ ا متحف الإرميتاج .Musee de l' Ermitage
٩١ - ٩٨ : مونتيه قصة أواريس ٢٩

(٣٤) بناء على ماورد في قصيدة قادش ، وبصفة خاصة بمجموعة قرارات قادش ، أنظر كوينتس ، موقعة قادش القاهرة ١٩٢٨ أطلس فرسنسكي الثاني
(٣٥) إستنادا إلى نص بارز من مقبرة حر محب في سقارة ، وهو موزع بين متحفي بولونيا وبرلين ـ أطلس فرسنسكي الأول ٣٨٦ ومجلة الآثار المصرية (A . J.) السابع ٣٣
(٣٦) المستندات الثالث ١٤ - ١٧ ،
(٣٧) قصيدة قادش ٢٩٥ - ٣٢٠
(٣٨) قصيدة قادش ٣٢٣ - ٣٣٠
(٣٩) مدينة حابو ١٨ - ٢٠
(٤٠) مدينة حابو ٧٢
(٤١) مدينة حابو ٣٢ ، ٣٧
(٤٢) مدينة حابو ٤٢
(٤٣) مونتيه بقايا الفن السوري ٥-١٠
(٤٤) مدينة حابو ٩٥
(٤٥) مدينة حابو ٩٤
(٤٦) مونتيه ، البقايا ١٠ - ١١
(٤٧) أطلس فرسنسكي الثاني ٣٤ - ٣٥
(٤٨) مدينة حابو ٩ أطلس فرسنسكي الثاني ١٦٥ - ١٦٦
(٤٩) مدينه حابو ١٠ - ١١ ، ٢٤
(٥٠) أطلس فرسنسكي الثاني ٣٩
(٥١) كوينتس ، لوحتان لا منوفيس الثاني ١٩ - ٢٠
(٥٢) مدينه حابو ٨٥ - ٦ (قصيدة عن الحرب الثانية في ليبيا الأسطر من ٢٦- ٣٤) المنظر ، المرجع نفسه ٧٥
(٥٣) بردية هاريس الأولى ٧٧
(٥٤) مونتيه ، البقايا ٢٢ - ٣٦

الفصل العاشر

الكتبة والقضاة

(١) ماسبرو : دراسات مصرية الثانى ١ - ٦٦ انظر كتاب جاردنر طبع أكسفورد ١٩٥٢

(٢) ليففر : تاريخ كبار كهنة آمون فى الكرنك الفصل الثانى .

(٣) جوتيه : حاشية المعبود مين .Min القاهرة ١٩٣١ .

(٤) أنظر لوحة العام الاربعمائة فى كيمى الرابع ٢١٠ - ٢١٢ .

(٥) المستندات الرابع ١٠٢٠ - ١٠٢١ .

(٦) منشور نورى Nouri - المكتبة المصرية الرابع .

(٧) ليففر : نفس المرجع ١٢٧ - ٨ .

(٨) بردية بولاق الأخلاقية - السابع (ماسبرو : التاريخ ، الثانى ٥٠٣)

(٩) الصدق والكذب - بردية شستربيتى الثانى .

(١٠) ماسبيرو انشودة للنيل الصحيفة الثالثة عشرة ص ١٩

(١١) بردية انستاسى الأول ١٣ ، ٥ وما يليه فى جاردنر النصوص المصرية الهيراطيقية - ليبزج ١٩١١ : ١٦-٣٤

(١٢) المكتبة المصرية السابع ، ٢٣ - ٢٤ - نصوص مماثلة فى المكتبة المصرية السابع ٣٥

(١٣) المكتبة المصرية - السابع ٤٧

(١٤) المكتبة المصرية - السابع ٤٧ (تابع ما سبق)

بليت وروسى : أوراق البردى الهيراطيقى فى تورين

(Pleyte et Rossi : Les papyrus hiératiques de Turin).

بردية بولاق الأخلاقية ٣ - ٦ ، ١١ .

(١٥) بردية بولاق الأخلاقية
(١٦) نبذ لوريه مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهـــرة الثلاثون ، ٤٩٧
(١٧) المستندات الرابع ١٠٤٤ – ١٠٤٦
(١٨) ليففر نفس المرجع ١٢٧ وما يليه
(١٩) حوليات مصلحة الآثار – الأربعون ٦٠٥
(٢٠) ما سبيرو التاريخ الثانى ٢٤٧
(٢١) المكتبة المصرية – الرابع
(٢٢) المكتبة المصرية السابع ٥ تاريخ ثلاثة تلاميذ مبعوثين إلى الجيش
(٢٣) المستندات الأول ٢٣
(٢٤) أسيوط الأول ٢٢٣ – ٢٢٩
مقبرة بوام رع فى طيبه تحتوى على نفس التحذيرات (كيمى الثالث ٤٦ - ٤٨)
(٢٥) نقوش معبد الرديسيه ، المكتبة المصرية الرابع
(٢٦) ليففر نفس المرجع ٢١٣
(٢٧) اللوحة ١٣٨ فى المتحف البريطانى فى روبشون وفارى معبد الكاتب الملكى أمنحتب أبن حابو ٣ – ٤ .
(٢٨) عرفت هذه الأحداث بوساطة بردية أبوت :
مو للى : المستندات الهيراطيقية الثالث ١٦ وما يليها .
وبردية أمهرست وليوبولد . طبعها كابار وجاردنر بروكسل ١٩٣٩ .
(٢٩) بردية المتحف البريطانى رقم ١٠٠٥٤ . وجه البردية ١ ، ٧ .
(٣٠) بردية المتحف البريطانى رقم ١٠٠٥٤ وجه البردية الثالث ٧ – ٩ .
(٣١) بردية المتحف البريطانى رقم ١٠٠٥٤ ، ظهر البردية الثالث ٦ – ١٦ .

(٣٢) بردية المتحف البريطانى رقم ١٠٤٠٣ الأول ٦ وما يليه — اريك بيت ، برديات ماير أ ، ب .
(٣٣) بردية المتحف البريطانى ١٠٠٥٢ الثانى ١٤ - ٢٠ الحادى عشر ٤ - ٩ .
(٣٤) المرجع نفسه الثالث ١٦ - ١٧ .
(٣٥) المرجع نفسه الأول ٦ ، الثانى ١٦ .
(٣٦) إلى مقبرة مروروكا أ ٤ جنوبا .
(٣٧) بردية المتحف البريطانى ١٠٠٠٢ الرابع ٦ - ١٤ .
(٣٨) للرجوع إلى مواكب رؤساء البعثات السياسية من بلاد الشمال أنظر كتابى : بقايا الفن السورى فى مصر فى عهد الامبراطورية الحديثة باريس ١٩٢٧ .
(٣٩) سلسلة مقابر طيبه الرابع ٢٣ - ٣٠ - راجع أطلس فرسنسكى الأول ٣٥ ، ٥٦ ، ٢٢٤ (أميسيباه (Amiseba) ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ (حرمحب) ٢٦٥ ، (أنا) ، ٢٧٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ (امنموزى) ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ (رخارع) ، ما سبيرو التاريخ الثانى ٢٦٩ (معبد قايت أوبلى) مدينة حابو ١١ .

الفصل الثانى عشر

النشاط فى المعابد

(١) هيرودوت الثانى ٣٧

(٢) جوزيف : ضد ابيون الأول ٢٢٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٣) كيمى التاسع ٤٠ .

(٤) وكذلك الكاهن الذى اقترح على ننوفر كابتاح Nonoferkeptah أنه يريه كتابا مكتوبا بخط يد تحوت فى قصة ساتنا (Setna) (ماسبرو : القصص الشعبية الطبعة الرابعة ١٣١)

(٥) المكتبة المصرية السابع ١٦ ، ١٧ .

(٦) المكتبة المصرية السابع ٦٠

(٧) كوينتس : بعض آثار من طقوس عبادة سبك لوحة ١١ . مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية . الثامن والعشرون ١١٣ - ١٧٢ .

(٨) هيرودوت الثالث ٢٨ - ٢٩ . استرابون السابع عشر ١ ، ٣١ . بلوتارك ايزيس وأوزيريس ٤٣ أميان مارسيلان الثانى والعشرون ١٤ .

(٩) هيرودوت الثانى ٦٧ اكتشفت جبانة ايبس حديثا فى الصحراء أمام الاشمونين قريبا من مقبرة بت أوزيريس (Petoatris) .

(١٠) مونتيه . مأساة أواريس ١٤٠ - ١٤١ ولوحة ٦ .

(١١) ألن جاردنر . بردية عشتروت فى دراسات مقدمة إلى جريفث ٨٣

(١٢) مونتيه . مأساة أواريس ١٣٤

(١٣) المرجع نفسه ١٤٢ - ١٤٣ .

(١٤) المكتبة المصرية السابع ٨٨ - ٩١ .

(١٥) بيت ورومى : أوراق البردى الهيراطيقى فى تورين .

(١٦) يخاطب حابى جفاى (Hapi — Djefai) من أسيوط أعضاء مجلس المعبد قائلا : « إنى ابن كاهن مثل أى واحد منكم » (أسيوط الأول ٢٨٨) .

(١٧) المكتبة المصرية السابع ٥ .

(١٨) مين موزيه الذى عاش فى عهد رمسيس الثانى كان رئيس أسرار السماء والأرض وأقاليم العالم السفلى (اللوفر — ٢١٨) .

(١٩) أرمان : ديانة المصريين ٢٢٣ .

(٢٠) عرفت الطقوس بفضل ثلاث برديات من متحف برلين والنصوص البارزة بمعبد أبيدوس .

موريه : طقوس العبادة اليومية المقدسة فى مصر .

باريس ١٩٠٢ .

(٢١) بلوك : ملاحظات على بعض لوحات يطلق عليها « للآذان » كيمى الثانى ١٢٣ — ١٣٥ :

(٢٢) لاكو : التماثيل « الشافية » فى مصر القديمة .

آثار بيوت الخامس والعشرون ١٩٢٢ .

أرمان : ديانة المصريين ٣٥٥ .

ليففر : التمثال الشافى فى متحف اللوفر . نبذ لوريه ٨٩ وما يليه .

(٢٣) لوحة ٥٨٩ بالمتحف البريطانى واللوحة ١٠٢ بمتحف تورين فى أرمان .

(٢٤) لوحة ٢٣٠٧٧ بمتحف برلين .

أرمان نفس المراجع ١٠٨٨ — ١٠٩٧ .

(٢٥) شيرنى : عبادة امنرفيس الأول لدى عمال جبانة طيبه .

مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية السابع والعشرون ١٥٩ ومايليها .

(٢٦) نافيل النقوش التاريخية لبيدوجم الثالث (Pidodjem) .

(٢٧) المستندات الثالث ٩٤ — ٩٥ (لوحة اعتلاء كرسى الكهنوت الاول ١٨ — ١٩) .

(٢٨) بوريه : دليل الآثار المصرية فى متحف اللوفر ٥٣٤ — ٥٣٥ .

لوكيانوف : التمثال المتكلم أو وحى المعبود رع حرما خيس .

حوليات مصلحة الآثار المصرية . السادس والثلاثون ، ١٨٧ .

(٢٩) شيرنى : أسئلة موجهة إلى الوحى .

حوليات مصلحة الآثار المصرية — الخامس والثلاثون ٤١ ، أنظر مجلة الآثار المصرية (J. E. A.) الحادى عشر ٢٤٩ — ٢٥٥ ، الثانى عشر ١٧٦ — ١٨٥ .

(٣٠) هيرودوت الثانى ٥٩ — ٦٠ .

(٣١) استناداً إلى النقوش البارزة فى مدينة حابو والكرنك . أنظر جوتييه : أعياد المعبود مين القاهرة ١٩٣١ .

(٣٢) جوتييه نفس المرجع ٢٢٠ — ٢٣١ ، ٢٣٩ — ٢٤٠ صفحة ٢٤٤ .

ويفترض ليفبير Lefebure وموريه Moret وجوتييه ، أنه كان يضحى بالثور ، ولكن لم ترد مطلقاً رسوم تمثل هذه الظاهرة . أما الدور الحقيق للثور فقد عرفه ياكوبسون فى كتابه : —

Jacobsohn : Die Dogmatische Stellung des Koenigs in der Theologie der alten Aeg. Gluckstadt 1939.

(٣٣) نقوش طبعها دارسي : مجموعة أعمال ، الثامن عشر وما يليه .

(٣٤) مثل توت عنخ آمون ، فى نقوش بارزة على جدران معبد الأقصر ، أهم حوادث المعبد ، أطلس فرسنسكى الثانى ١٨٩ — ٢٠٢ (اللوحات الفردية صور فوتوغرافية . أما اللوحات الزوجية فهى رسوم يدوية على التو)
وقد ورد نفس الموضوع على معبد رمسيس الثالث فى الكرنك (رمسيس الثالث ، المعابد ٨٦ — ٩٢) .

(٣٥) فوكار : عيد الوادى الجميل — مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٢٤

(٣٦) المرجع نفسه ، لوحة ١٤ أطلس فرسنسكى الأول ١١٨ — ١١٩ .

(٣٧) لوحة ١٢٠٤ بمتحف براين — شافر : أسرار أوزيريس فى أبيدوس ١١٩٠٤ .

مناظر مقبرة خرو اف . Kheruouef فى طيبه فى موريه ، الأسرار المصرية باريس ١٩١٢ صفحة ١١ . لوحات رمسيس الرابع ، ماريت — أبيدوس الثانى ٥٤ — ٥٥ .

(٣٨) هيرودوث الثانى ٦٣ .

(٣٩) جوفينال الخامس عشر .

(٤٠) يوجد بالقرب من دندره ، مكان مذبحة ست أمام هذه المعبودة ، بروجش القاموس الجغرافى ٣٨ :

وجوتييه . قاموس الأسماء الجغرافى الخامس ٨٤ — ٨٥ .

(٤١) الفرعون من خبر وع سيامون فى قصة ساتنا الحقيقية (ماسبرو : القصص الشعبية الطبعة الرابعة ١٦٨ — ١٧١) .

(٤٢) النزاع بين ست وحورس كما وردت فى بردية شستر بيتى الأولى .

(٤٣) جويون . أعمال شو وحن جب كيمى السادس ١ — ٤٢ .

(٤٤) لوحة ادفو لم تطبع بعد ولكن أشار إليها دريوتون « ما نعرفه عن المسرح المصرى » . (Revue du Caire 1938)
ويعتقد أنه عثر على المقاعد التى كان يجلس عليها المتفرجون .

(٤٥) لوحة العام الثانى لنفر حتب (ماريت أبيدوس الثانى ٢٨ — ٣٠) .

(٤٦) جاردنر : بيت الحياة (مجلة الآثار المصرية J. E. A.) الرابع والعشرون ١٩٣٨ ١٥٧ — ١٧٩

جمع نحو ستين نصاً تتعلق ببيت الحياة

الفصل الثانى عشر

الجنازات

(١) نصائح بتاح حتب . المقدمة .

سنوحى ب ١٦٨ — ١٧٠ .

(٢) ليففر : كبار كهنة آمون ١٤٨ .

(٣) ماسبرو : القصص الشعبية ، الطبعة الثالثة ، ٣٠ — ٣٤ .

(٤) سنوحى ب ٢٩٥ — ٣١٠ .

(٥) كوينتس : ترجمتان لتقريظ ملكى. دراسات مقدمة لجريفيث ٣٩ — ١١٠ .

(٦) بردية بولاق الأخلاقية — الثالث ١٦ .

(٧) اللوحة ١٠٢٧ بالمتحف البريطانى (ماسبرو : دراسات مصرية ١٨٧ - ١٨٨)

(٨) أرمان : ديانة المصريين ٢٧٧ .

(٩) البردية الهيراطيقية ١١١٦ أ بمتحف الأرمتاج الأول ٥٢-٥٧ .

(١٠) ماسبرو : القصص الشعبية الطبعة الثالثة ١٣٣ - ١٣٨

(١١) المجلة المصرية (A Z) السابع والأربعون ١٦٥

(١٢) ده بوك : نصوص الاكفان المصرية ١ ، ١٣

(١٣) نصوص الاكفان الأول ١٤٦ الفصل ٣٧

(١٤) نصوص الاكفان الأول ١٥١ الفصل ٣٧

(١٥) المكتبة المصرية السابع ٣٨

(١٦) لوريه : لأجل إعادة العجوز إلى الشباب فى نبذ ماسبرو ٨٥٣ وما يليه

(١٧) إرمان : الديانة المصرية ٢٦٢

(١٨) أنظر تمثالى بارامسيس اللذين عثر عليهما ليجران فى الكرنك - حوليات مصلحة الآثار الرابع عشر ٢٩ — ٤٠

(١٩) جوتييه كتاب الملوك الثالث ٣١٨

(٢٠) ليففر كبار كهنة آمون ١٣٣ - ١٣٤

(٢١) حامات ١٢ ، ليففر نفس المرجع ٢٦٤

(٢٢) إرمان الديانه المصريه ١٠١

(٢٣) أنظر خطـــاب أوزيريس إلى رع فى بردية شستر بيق الأول اللوحة الخامسه عشرة

(٢٤) يذكر أنا Anna الذى عاش فى عهد الملوك الثلاثة الأول الذين يحملون أسم تحتمس أنه أشرف على تشييد المقبرة الملكيه سراً ، دون أن يرى أو يسمع عنه ،

المستند الرابع صفحه ٥٧

(٢٥) أنظر الصورة المطبوعةفى كتاب ماسبرو : التاريخ الثانى ٥١٦ استنادا إلى لوحة من عهد الامبراطورية الحديثة بمتحف القاهرة .

(٢٦) للرجوع لتفاصيل أكثر — أنظر سلسلة مقابر طيبه — الجزء الأول .

(٢٧) ديفز : نفرحتب ٢٧ ، أطلس فرسنسكى الأول ١٢٤ .

(٢٨) سبيليرس : التماثيل الجنائزية الصغيرة . بروكسل ١٩٢٣ ، كيمى التاسع ٨٢ — ٨٣ .

(٢٩) كيمى التاسع ٧٨ — ٧٩ .

(٣٠) استنادا إلى ما تحققته فى مقبرة بسوسنس ،

مونتيه : تانيس ١٤٦ — ١٥٧ .

(٣١) استناد إلى نصوص عقود أسيوط . كيمى الثالث ٥٢ — ٦٩ .

(٣٢) أنظر تاريخ معبد جنا ئزى فى رو بيشون وفارى: معبد الكتاب الملكى امنحتب ابن حابو . القاهرة ١٩٣٦ .

(٣٣) بردية أوربنى الثامن ٦ — ٧ وتعقيب لوريه فى كيمى التاسع ١٠٥-١٠٦ . أنظر ديودور الأول ٧٢ .

(٣٤) هيرودوت الثانى ٨٦ ، ديودور الأول ٩١ لوكاس : المواد المصرية القديمة والحرف — الطبعة الثانية الفصل الثامن ،

(٣٥) قناع شيشنق الثانى الذهب قطعة فنية رائعة كيمى الحادى عشر لوحات ١٤ — ١٥ .

(٣٦) كيمى التاسع — صفحات ٦٢ — ٦٤ . واللوحة الثالثة عشرة

(٣٧) ماسبرو : دراسات عن بعض الرسوم وعن بعض النصوص التى تتعلق بالجنازات . دراسات مصريه الأول ٨١ — ١٩٤ .

(٣٨) نفس المرجع ١٣٤

(٣٩) ماسبرو التاريخ الثانى ٥١٢ — ٣١٣ .
أطلس فرنسنكى الأول ٣٨٨ — ٤٢١ .

(٤٠) ديفز نفرحتب ٢٢ — ٢٣ .
تيطس التذكارية الرابع ١٩ ، ٢٤ ، ٢٥ .

(٤١) ديفز نفرحتب ٢٠ — ٢١.
تيطس التذكارية الرابع ٢٢ .

(٤٢) ديفز نفرحتب ٢٤ .
تيطس التذكارية الرابع ١٩ — ٢١ .
أطلس فرسنكى الأول ١٣١ ، ١٦٦ ، ٢١٧ .

(٤٣) ديفز نفرحتب ٢٥ — ٢٦ .

(٤٤) فريزر آتيس واوزيريس ١١٢ — ١١٣ .

باريس ١٩٥٦ .

كيمى الرابع ١٦١ — ١٦٨ .

(٤٥) ماسبرو التاريخ الثانى ٥٢٣ إن مناظر المآدب عديدة فى مقابر طيبه ولكن يجب تمييز المآدب التى تقام بعد الدفن عن تلك المناظر الخاصة بالحفلات العائلية . أنظر جاردنر فى سلسلة مقابر طيبه الأول ٣٦ - ٤١

(٤٦) فارى : ثلاث أغنيات جديدة لعازف القيثار ، مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة . الخامس والثلاثون ١٥٥ - ١٥٧

(٤٧) ماسبرو : دراسات مصرية الأول ١٧٢ - ١٧٧

(٤٨) هيرودوت الثانى ٨٧ - ٨٨

إرمان ديانة المصريين ٢١٦ - ٣١٧

ماسبرو التاريخ الثانى ٥٢٥ - ٥٢٦

(٤٩) روبيشون وفارى ، امنحتب ابن حابو ٤ - ٧

(٥٠) قديما منذ عهد الأهرام يندد الملك بغضب الموتى (نصوص الأهرام ٦٣)، وقد استمر هذا الاعتقاد حتى الامبراطورية الحديثة . بردية تورين الهيراطيق ١٢٤ ، ١٣ - كتاب الموتى - الفصل ٩٢

(٥١) أرمان

Zauberspruche fur Mutter und Kind 1. 9, 2, 9.

ويوجد أنموذج مماثل فى ، 11. 7, 12, 3

(٥٢) بردية ٣٧١ بمتحف ليون فى جاردنر وزيتا : خطابات مصرية للموتى - طبع لندن ١٩٢٨

(٥٣) إرمان

Gespräch eines Lebensmuden mit seiner Seele p 60 ff .

فولكنر ، الرجل الذى أتعبته الحياة مجلة علوم الآثار المصرية - العدد ٤٢ (عام ١٩٥٦) صفحة ٢١ .

٥٤) ألن جاردنر : بيت الحياة (J.E.A) الرابع والعشرون ١٧٥ .

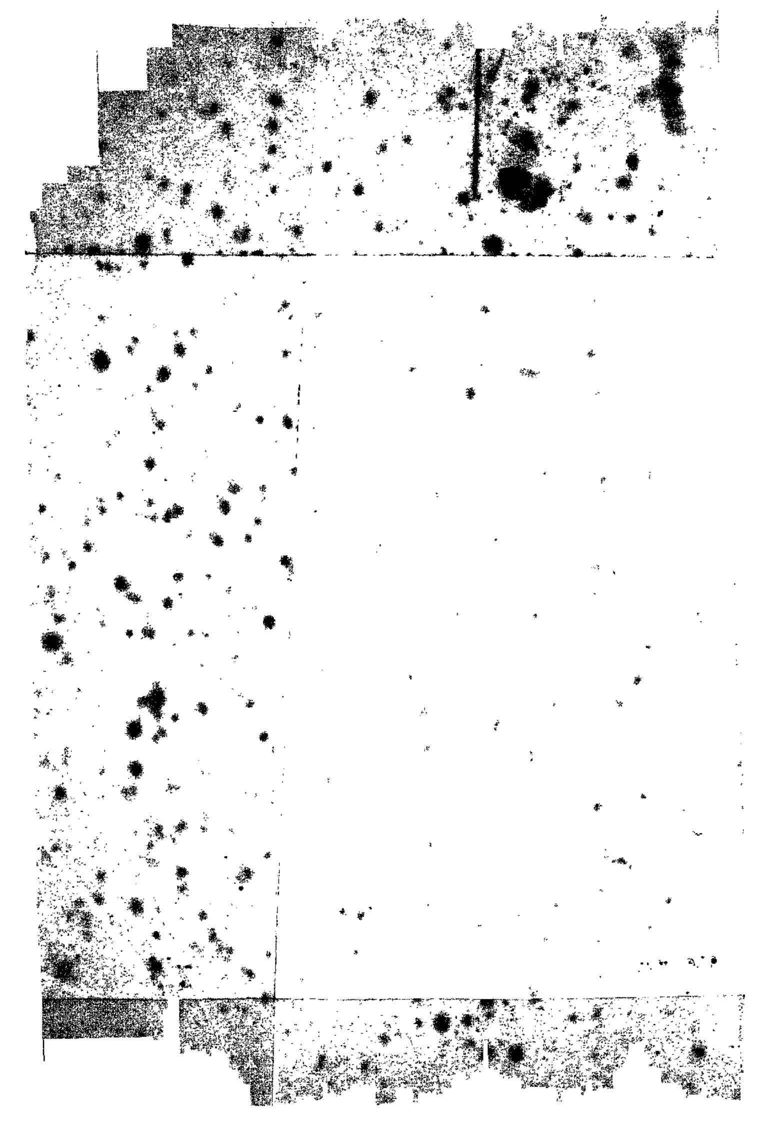
٥٥) ماسبرو : القصص الشعبية . الطبعة الثالثة ١٠٢ ملاحظة رقم ٢ .

٥٦) دريوتون ولاور : إحدى نقوش خامواس على الوجه الجنوبى لهرم أوناس فى سقاره .

حوليات مصلحة الآثار المصرية ـــ السابع والثلاثون ٢٠١ ومايليه .



مطبعة المعرفة ـ عمارة التأمين ميدان لاظوغلى



مطبعة المعرفة

